كتاب

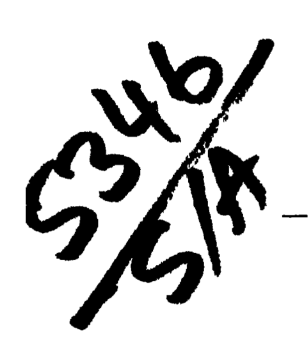
خطط الشام

الجزء الاول

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي



طبع في المطبعة الحديثة بدمشق ١٣٤٣ﻫ و ١٩٢٥ م



الجزء الاول

تأليف



رئيس المجمع العلمي العربي

طبع في المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٣٤٣ هـ و١٩٢٥ م



احمد تيمور باشا

صديقي الابر العلامة العامل احمد تيمور باشا حفظه الله :

رأيتك بعد عالمي مصر والشام ، ومفخر العرب وحجة الاسلام ، اسنادينا المعظمين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري رحمهما الله ، فرداً في المعاصرين من بني قومي ، باخلاقك الطهر ، وعلومك الغر ، وحرصك على نشر آثار السلف ، و فانيك في تثقيف عقول الخلف .

ولقد أوليت كتاب « خطط الشام » من معارفك وعوارفك وهو لم يبرح علم الله غرساً ضئيلا ، فلما ان اورق عوده ، واطعمت شجرته ، كانت خزانة علم الاعلام في عاصمة النيل ، أحق ان تهدى اليها ثمرة طالب التوفر على تعهدها في جنات دمشق .

لم تفتأ تبعث همتي على العمل ، وتأخذ بيد عجزي لاقوى على اخراج هذا السفر للناس ، فالآن وقد تحققت الاماني تفضل وزد في الاحسان ، وأقتطع من وقتك الثمين ساعات ترشدني بها الى مواطن الضعف منه ، فتقلدني من مننك اللاحقة ، قلادة فوق قلائدك السابقة .

واني لمعترف بقصوري عن وفاء حق مروءتك ووفائك ، في زمن قلّ فيه أهل المروآت الاوفياء ، ممن لا تبطرهم المظاهر الغرارة ، ولا تسكرهم النعم الدارة ، ولا تغيرهم اهواء البيئات والاجواء .

اعزّ الله بحياتك دولة العلم والادب ، وعلم العاملين من اخلاصك ما يستعيدون به عزّة العرب ، وأقال هذه الأمة المحبوبة عثرات الليالي ونزوات الايام ، وقيض لها من ينعشها بالعلم من تشتت الكلمة والتواء الاعلام ، ليعلو في المجتمع الانساني سعدها ، و يرتفع في أمم الحضارة الحديثة مجدها ، بحوله وطوله .



محمد كرد علي

صدر الخطط



عونك اللهم يالطيف

نشرت عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) في مجلة المقتطف تسعة فصول في « عمران دمشق » صادفت استحسان بعض من قرأوها من خاصة الباحثين ، وجمهور المطالعين ، فوقع في النفس يومئذ ان اتوسع في هذا البحث ، وادرس عمران الشام كله ، لان صورة العاصمة وحدها لا تكفي للدلالة على حالة القطر ، ومن الإشراف على الاطراف ، قد تعرف صحة الجسم عامة والقلب خاصة ، ومن اهتم بالجزء كان حرياً ان يضاعف العناية بالكل .

فشرعت من ثم اتصفح كل ما ظفرت به من المخطوطات والمطبوعات باللغات العربية والتركية والافرنسية ، وقصدت دور الكتب الخاصة والعامة في الشام ومصر والمدينة المنورة والاستانة ورومية و باريز ولندرا واكسفورد و كمبرديج وليدن و برلين ومونيخ ومجريط والاسكوريال . وكنت كلما استكثرت من المطالعة ، تتجلى امامي صعوبة العمل ، هذا مع ما قام في سبيل نشر هذا المجموع من العقبات ، منذ وطدت العزم على وضعه ، وما نالني من الكوارث في العهد الماضي . ولكن الشقاء قد يأتي بسعادة ، ورب ضرّ اعقب خيراً . فان التضييق عليّ نشأ منه اضطراري الى الارتحال غير مرة ، فأخذت استقري المعالم والمجاهل في هذا القطر ، ونزلت على امم كثيرة في بلاد الغرب ، فاستفدت من تنقلي بعض ما عندهم من اسفارنا وآثارنا ، وقابلت عن أمم بين عمراننا وعمرانهم ، وجمودنا اليوم وحركتهم .

رحلت الى اور با ثلاث رحلات ، ابحث في دور كتبها عن المخطوطات التي يرجى ان يكون اصحابها قد تعرضوا لحوادث هذا القطر ، وزرت اصقاع الشام لاقابل بين حاضره وغابره ، ولما نسجت بآخرة ما جمعت ، قدمت له مقدمة في بيان ما تشترك فيه بلاد الشام عامة من المظاهر والاوضاع ، ثم تكلمت على كل مدينة و بليدة وقرية ومزرعة وجبل وواد ونهر و بحيرة وخليج وجون ، ورتبت ذلك على حروف المعجم ليسهل الرجوع اليه ، و يكون دليلاً للقريب والبعيد ، وسميته « خطط الشام » واعني بالشام البلاد التي تتناول ما اصطلح العرب على تسميته بهذا الاسم ، وهو القطر الممتد من عريش مصر الى الفرات ، ومن سفوح طوروس الى اقصى البادية ، اي سورية وفلسطين في عرف المتأخرين . و يراد بالخطط كل ما يتناول العمران ، والبحث في تخطيط بلد بحث في تاريخه [1] وحضارته .

اول من صنف في الخطط واستقصى فيها على ما علمنا الحسن بن زولاق المصري (المتوفى سنة ٣٨٧) وقال المقريزي (المتوفى في سنة ٨٤٣) ان اول من صنف فيها ابو عمر بن يوسف الكندي ، ثم القاضي ابوعبدالله محمد بن سلامة القضاعي (٤٥٤) والذي انتهى الينا كتاب خطط مصر للمقريزي المنوه به ، وهو اجمل مثال في باب الاجادة في التأليف . ولم نعلم ان احداً من المتقدمين كتب على الشام وخططه ، وكتب بعض المتأخرين في موضوع خاص و بلد معين . وما خطط الشام في الحقيقة الا زبدة الوقائع والكوائن ، واخبار الصعود والتدلي ، والمظاهر الغريبة التي ظهرت بها هذه الديار ، في غابر الاعصار ، مقتبساً ذلك مما ابقته الايام مكتوبا او مطبوعا على ورق ، او مزبوراً على حجر وآجر و بردي ورق .

(١) قال العلامة البيروني : التاريخ هي مدة معلومة من لدن اول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات و برهان ، او قيام ملك مسلط عظيم الشان ، او هلاك امة بطوفان عام مخرب ، او زلزلة او خسف مبيد ، او وباء مهلك ، او قحط مستأصل ، او انتقال دولة ، او تبدل ملة ، او حادثة عظيمة من الآيات السماوية ، و العلامات المشهورة الارضية ، التي لاتحدث الا في دهور متطاولة ، و ازمنة متراخية ، تعرف بها الاوقات المحددة ، فلا غنى عنه في جميع الاحوال الدنيوية والدينية .

لاجرم ان موضوع الخطط موضوع جليل ، لتعين الاحاطة به على كل من يجب ان يعرف بلاده ليخدمها ، و يستفيد منها ، واحق الناس بمعرفة بلد اهله وجيرانه ، ومن لم يرزق حظًا من الاطلاع على ما حوى موطنه من الخيرات ، وما اتاه اجداده من الاعمال ، لا ينهض بما يجب عليه ليؤثر الاثر النافع في الحال والمآل ، ومن اجدر من الابناء والاحفاد ، بالرجوع الى سجلات الآباء والاجداد ، وكيف يحب المرء بلداً لا يعرفه ، و يحرص على سعادته ليسعد هو فيه ، وهو لا علم عنده بما تعاقب عليه حتى صار الى ما صار اليه ، وهل ينهم الحاضر بغير الغابر وهل تنشأ في الامة روح وطنية اذا لم تدرس تاريخها حق الدراسة .

***

كتب الغربيون في آثار هذا القطر وعمرانه وتاريخه واقتصادياته وعادياته احمالاً من الكتب بلغاتهم ، وقلما نشرت كتب جامعة لاحد ابنائنا بلغتنا وعلى نهجنا . واستنفض الغربيون كل بقعة من بقاعنا ، ومدينة من مدننا ، و بادية من بوادينا ، واجادوا وافادوا في وصف مادتها وطبيعتها ومصانعها ، مما يسجل و ياللأسف علمهم بنا، وجهلنا حتى بأرضنا ، و يكفي ان يقال ان علماء الغرب وسياحهم صنفوا بين سنتي ١٨٠٥—١٩٠٣ م خمسة وتسعين كتابا فقط في آثار البتراء (وادي موسى) على حين قل جداً في الشاميين انفسهم من زاروا هذه الخرائب المهمة ، ومنهم من لم يسمع باسمها .

اخذت مما ظفرت به من الكتب الافرنجية ، وعُنيت اشد العناية بالرجوع الى ما كتبه الاسلاف في هذا الشأن ، على تفرقه في تضاعيف السطور ، واعتمدت على مؤلفي العرب خاصة لان كل أمة اعرف على الغالب بحاجاتها ، فان بحث علماء الافرنج في تاريخ هذا القطر قبل الاسلام ، ونبشوا عادياته ومصانعه ، وحلوا لغاته ولهجاته ، فتاريخه بعد هذا العهد اقرب الى ان يكون علماؤنا مرجعاً فيه فقد قيل « قتل ارضاً عالمها » .

جاء الكلام ناقصاً في بعض الادوار المتأخرة وعمي عليّ بعض مواضع مهمة ذات صلة بمدنية الشام والسبب فيه ان المتأخرين زهدوا في التاريخ حتى كادوا

لايفرقون بينه وبين اقاصيص العجائز ، وموضوعات المخرفين والمتخرقين، من القصاصين والوضاعين مما دعا الى العناية بتجريد هذا الكتاب ما امكن من المبالغات والخرافات ، ونخل لباب الوقائع المهمة الثابتة وحذف مافيه شية شبهة، اوشائبة غلو ، وان كان منها مايروق بعضهم و يتفكهون بسماعه ، و يطربون لترداده . فخاطبت ما استطعت العقل اكثر من العاطفة ، وعُنيت في قسم التاريخ السياسي ان ابين علل الحوادث ، و تسلسل الكوائن ، ودواعي الاحوال القريبة او البعيدة ، واستخراج النتائج واستنباط القواعد . والتاريخ ربيب الحرية لا يتصرف على هوى من يكتبه و يقرأوه ولا على اذواق المعاصرين وميولهم . وما دام موضوعه الاعتبار بالخالي لمعرفة الحالي والآتي فهو جدير بان يتحرى فيه الحق ولا يدون سواه ولا يتناغى بغير الواقع . قال احد العلماء عندما نريد ان نصل الى الحقائق التاريخية ، يجب ان تصح همتنا على ازالة الاوهام ، ونزع الزوان من الاساطير التي تعلق بالوقائع الثابتة القليلة التي وصلت الينا .

***

كان المؤرخون بعد القرون الوسطى بين عاملين قويين ، اما ان يكذبوا فيغضبوا الحق ، او يصدقوا فيغضبوا الخلق ، والعمال والاعيان منهم خاصة . فقد الف مثلا ابن زوجة ابي عذيبة المقدسي المتوفى سنة ٨٥٦ تاريخين مطولا ومختصرا ، ولما توفي اطلع بعضهم على الكبير منه ، فوجد فيه اشياء توهمها في ثلب اعراض الناس فاعدمه ، وصنف عبد الله البصروي من اهل القرن الثاني عشر تاريخا لهذه البلاد ، فبلغ اعيان دمشق خبره ، ولما هلك دخلوا داره وآلوا ان لا يأذنوا بدفنه او يأخذوا التاريخ الذي وضعه ، فضبطوه واحرقوه على اعين القوم ، مخافة ان تنكشف سيئات بعضهم . والذي ضاع من مدونات المتقدمين والمتأخرين يعد بالعشرات ، لكثرة الجوائح الارضية والسماوية التي اصابتها . واذا كتب البقاء لشيء مما كتبه المتأخرون فيكون في الغالب الى الركة لا تسقط فيه على حقيقة ، وكثيرا ما كان العقلاء يعلقون على حواشي بعض الكتب تعاليق حوادث جرت ، وامور اهتم لها الناس وشغلت مجتمعهم ، ومن مثل تلك الاوراق ضم هذا السفر جانبا ضمه لبعض العهود والصكوك .

بحثت جد البحث عما دُوّن في التاريخ العام او الخاص بتاريخ بلد من بلاد الشام، فرأيت يد الضياع قد غالتهـا الا قليلا ، وقد أهمني منها الاطلاع على تاريخ صفد للعثماني وتاريخ البرزالي وتاريخ حلب الكبير لابن العديم وتاريخها لابن ابي طي وتاريخ حمص لابن عيسى ولعبد الصمد بن سعيد واخبار قضاة دمشق للذهبي وتاريخ ابن ابي الدم الحموي وتاريخ قنسرين وتاريخ انطاكية وتاريخ المعرة لابن المهذب والدارس في اخبار المدارس لاحمد بن حجي الحسباني من اهل المئة التاسعة وتواريخ كثيرة في سير مشاهير الفـاتحين كتبها أمثالـ ياقوت الحموي وابن شداد وابن واصل وابن حبيب وابن الداية وابن عبدالظاهر وابن تيمية والجبرتي والعسقلاني ، فلم اظفر بسوى ورقات من بعضهـا ، او مختصرات ومنقولات لا تبل غلة ، حرّفت بالنقل فتشوهت محاسنها .

***

ولقد وددت لما تيسر وضع خطط الشـام على هذه الصورة لو ساغ لي ان اصبر عليه زمنًا آخر حتى يتم التحقيق فيه على ما يجب عملا بالحكمة التي تمثل بهـا الثعالبي في اليتيمة قال : « وكلما اعرته على الايام بصري ، واعدت فيه نظري ، تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب ، ان اول ما يبدو من ضعف ابن آدم ، انه لا يكتب كتابا فيبيت عنده ليلة ، الا احب في غدها ان يزيد فيه او ينقص منه ، هذا في ليلة فكيف في سنين عديدة » ولكن رأيت بعد طول التأمل ان من الحزم الاكتفاء بما تهيأ في هذه السنين ، والتمحيص بحر لا ساحل له ، ولطالما ذكرت وانا اغوص في الكتب المختلفة التي طالعتهـا لتأليف الخطط قولـ المؤرخ (فوستيل دي كولانج — Fustel de Coulanges) : ليس التـاريخ من العلوم السهلة فلاجل يوم واحد يصرف في التركيب ينبغي قضاء اعوام طويلة في التحليل . على اني لما راجعت مسودات ما صنفت ورأيتني قد تذوقتها فهضمتها ، ايقنت انه لا يثقل على القراء في الجملة ، فأبرزته خائفًا حوادث الايام ، ونزول داعي الحمام ، وانا موقن بانـ فوق ما طالعت و بحثت غايات ، لم يمكني الزمان والمكان من بلوغها ، وعسى ان يقوم غيري

بعدي فيتم هذه الخطوط التي رسمتها من بنيان كتاب الخطط ، ويصلح بما يتوفر له من المواد ما ربما وقعت فيه من الغلط والشطط ، واذا حصلت الفائدة من عمل استغرق جلب مادته خمساً وعشرين سنة ، وكلّف تعباً ونشباً ، فهو غاية ما اتطاول اليه ، والا فهو جهد المقلّ ، والكمال لله وحده . وكتب في دمشق في اليوم الرابع من شعبان من شهور سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة والف بعد الهجرة بموافقة شباط من شهور سنة خمس وعشرين وتسعمائة والف للميلاد .



مصادر الخطط

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ)

(٢) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع للسخاوي (٩٠٢) .

(٣) الكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة للنجم الغزي (١٠٦١) .

(٤) ذيله المسمى لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر للمؤلف نفسه .

(٥) شذرات الذهب في اخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد (١٠٨٧) .

(٦) ثمار المقاصد في ذكر المساجد يوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) .

(٧) كتاب الاعانات في معرفة الخانات له .

(٨) عدة الملمات في تعداد الحمامات له .

(٩) فهرست الكتب الموقوفة له .

(١٠) نشق الازهار في عجائب الامصار لابن اياس (٩٣٠) .

(١١) عقد الجمان المنسوب للمسعودي وهو للشاطبي (٨٧٢) .

(١٢) اجزاء من عيون التواريخ للصلاح الكتبي (٧٦٤) .

(١٣) المشتبه وضعاً والمختلف صقعاً لياقوت الحموي (٦٢٦) .

(١٤) طبقات النحاة واللغويين لابن شهبة الاسدي .

(١٥) طبقات الحنابلة لابن رجب (٧٩٥)

(١٦) انباء الغمر في ابناء العمر لابن حجر العسقلاني ٨٥٢ وهي مسودة المؤلف .

(١٧) الاحكام السلطانية للقاضي ابي يعلى .

(١٨) الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري لابن العديم (٦٦٠) فيه نقص في آخره .

(١٩) كتاب المدبجات المسمى بمنادح المادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر لعبد المنعم الجلياني المتوفى

اوائل المئة السابعة ·

(٢٠) مما نقل من كتاب الاعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة لابن شداد الحلبي (٦٨٤) ·

(٢١) اتحاف المحبين بجواز ما يفعل في الخماسين للشيخ ابراهيم الخضيري الحنفي ·

(٢٢) جزء من تاريخ بدأ من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وانتهى باخبار سنة ست وخمسين وثمانمائة مخروم اوله ولا يعلم مؤلفه كتب سنة ثمان عشرة وتسعمائة بقلم محمد بن المرحوم السيفي قرقماس العلاي اميراخور والده ·

(٢٣) رحلة الشام ومصر والحجاز لعبد الغني النابلسي (١١٤٣) ·

(٢٤) ديوان خالد الكاتب (توفي في حدود السبعين والمائتين) ·

(٢٥) خلاصة تحقيق الظنون في الشروح والمتون لكمال الدين محمد الصديقي اتمه سنة ١١٨٠ ·

(٢٦) نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية لاحد افاضل (وصاب) من بلاد اليمن ·

(٢٧) ست وخمسون رسالة في عقائد الدروز وهي في ثلاثة مجلدات · (وهذه السبعة والعشرون مخطوطاً موجودة في دار الكتب العربية بدمشق المعروفة قديماً بالظاهرية) ·

(٢٨) اجزاء من تذكرة ابن العديم (٦٦٦) ·

(٢٩) اجزاء من مسالك الامصار لابن فضل الله العمري (٧٤٩) ·

(٣٠) جنى الازهار من الروض المعطار للمقريزي (٨٤٥) ·

(٣١) البرق المتألق في محاسن جلق للراعي الشهير بابن خدا و يردي (١١٩٥)

(٣٢) نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر بن عبدالله الشيرازي ·

(٣٣) تحفة الادباء وسلوة الغرباء للخياري (١٠٨٣) وهي رحلته من المدينة الى الشام والروم ومصر ·

(٣٤) حماسة الخالديين لابي بكر محمد وابي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين من اهل القرن الرابع ·

(٣٥) زيادات الحقها بعضهم في كتاب اخبار الدول وآثار الأول للقرماني فيها اخبار الولاة والقضاة بدمشق في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر · (وهذه الكتب الثانية محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة) ·

(٣٦) نزهة الناظرين واخبار الماضين

في تاريخ من ولي مصر في سالف العصر من الخلفاء والسلاطين لمرعي الحنبلي الكرمي (١٠٣٣) .

(٣٧) دمية القصر وعصرة اهل العصر لابي الحسن الباخرزي (٤٦٧) (وهذان المخطوطان في المكتبة الخالدية بالقدس) .

(٣٨) تاريخ الاسلام الكبير للحافظ الذهبي (٧٤٨) (في المكتبة الاحمدية بحلب)

(٣٩) النجوم الزواهر في معرفة الاواخر للبودي الدمشقي من اهل القرن التاسع .

(٤٠) الزبد والضرب في تاريخ حلب لرضي الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي (٩٧١) .

(٤١) غربال الزمان المفتتح بسيد ولد عدنان اختصار يحيى بن ابي بكر العامري من تاريخ الامام اسعد اليافي مرتب على السنين فيه التراجم والوقائع الى سنة ٧٧٠

(٤٢) أيمان العرب لابي اسحق النجيرمي (من اهل القرن الرابع) .

(٤٣) مخدرات القصور لابن قطري البحيري (٨٩٨) (وهذه المخطوطات الخمسة محفوظة في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت في المدينة المنورة) .

(٤٤) قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون للربيع الزبيدي .

(٤٥) طبقات فقهاء جبال اليمن لعمر ابن علي بن سمرة بن الحسن بن الهيثم .

(٤٦) اخبار ملوك اليمن لقاسم بن حسن الجرموزي .

(٤٧) تاريخ مفيد .

(٤٨) الاحسان في دخول مملكة اليمن آل عثمان لعبد الصمد بن اسماعيل .

(٤٩) جماهير الانساب لابي محمد علي بن غالب الاندلسي .

(٥٠) غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ليحيى بن حسين .

(٥١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني .

(٥٢) ذوب الذهب لمحسن بن حسن المنصور .

(٥٣) مقاتل الطالبيين لعلي بن حسين الاصفهاني وفي آخره نور العيون في سيرة المأمون .

(٥٤) نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر ليوسف بن يحيى .

(٥٥) طرف الاخبار من نتائج الاسفار لشرف الدين حسين بن احمد الحيمي .

(٥٦) تاريخ دولة الاتراك لحسن ابن عمر بن حبيب الحلبي .

(٥٧) نفحات العنبر في القرن الثاني عشر لابراهيم الحوسي (وهذه الاربعة عشر مخطوطاً

في خزانة علي اميري افندي في الاستانة ·

(٥٨) حوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ — ١١٧٦ لابن بدير الحلاق ·

(٥٩) نوادر المخطوطات في دور الكتب بمصر والشام والاستانة من كناش الشيخ طاهر الجزائري (١٣٣٨)

(٦٠) بعض تعليقات من كناشه الكبير ايضاً (وهذه من كتب الشيخ طاهر الجزائري بدمشق) ·

(٦١) كنوز الذهب لابي ذر احمد الشهير بسبط ابن العجمي (٨٨٤) وهو ذيل على الدر المنتخب لشيخه الجبريني (٨٤٣) (وهذا ذيل على تاريخ حلب لابن العديم)·

(٦٢) قطعة من كتاب الجامع المختصر لابن الساعي (٦٧٤) ·

(٦٣) نصاب الاحتساب لعمر بن محمد ابن عوض الشامي (النسامي اوالسنامي؟) تم في سنة احدى وسبعين ومائة والف

(٦٤) اجزاء من الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي ·

(٦٥) الذيل على الروضتين لابي شامة

(٦٦) ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون (٩٥٣) ·

(٦٧) كناش الشيخ اسمعيل المحاسني الدمشقي وفيه حوادث وقعت في اواخر القرن الحادي عشر واوائل القرن الثاني عشر

(٦٨) التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار لمحمد الاسدي من اهل القرن التاسع ·

(٦٩) زلازل دمشق بدون ذكر اسم المؤلف وصف زلزال سنة ١١٧٣

(٧٠) تحفة ذوي الالباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (٧٦٤) ·

(٧١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة باعلى الصعيد لجعفر بن ثعلب الادفوي (٧٤٨) ·

(٧٢) الجزء الثامن والثلاثون من تذكرة الصلاح الصفدي ·

(٧٣) ذيل الدرر الكامنة لابن حجر·

(٧٤) رحلة الامير يشبك الدوادار من مصر الى الشام في سنة ٨٧٥ للشمس بن اجا الحلبي (٨٨١) ·

(٧٥) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ لشمس الدين السخاوي (٩٠٢) ·

(٧٦) بلوغ المنا في تراجم اهل الغنا لمحمد بن احمد الكنجي العصروني (١١٥٠)

(٧٧) طبقات المهندسين في الاسلام لاحمد تيمور باشا ·

(٧٨) التصوير عند العرب له ايضاً

(٧٩) سانحات دُمى القصر في مطارحات بني العصر لدرويش محمد الطالوي المتوفى سنة (١٠١٤) ٠

(٨٠) اعلام الورى بمن ولي من الاتراك بدمشق الكبرى لمحدث دمشق ومؤرخها شمس الدين بن طولون الحنفي الصالحي نقلها صاحب الخزانة التيمورية بالتصوير الشمسي عن مجموعة كبيرة لابن طولون وبخطه من خزانة كتب آل الجوهري في نابلس ٠

(٨١) تحفة الانام في فضائل الشام لجلال الدين البصروي الخطيب في جامع بني أمية كتبت سنة (١١٥٩) هـ (وهذه الاحد والعشرون مخطوطاً في الخزانة التيمورية الموقوفة حديثاً في القاهرة لواقفها احمد تيمور باشا) ٠

(٨٢) كتاب الحسبة لمحمد بن محمد المعروف بابن الاخوة القرشي كتب سنة ١٣٠٦

(٨٣) قطعة من تاريخ الامويين من اول خلافة الوليد بن عبد الملك الى انقراض الدولة العباسية ٠

(٨٤) الشعور بالعور وهو معجم المشاهير الذين أصيبوا بفقد احدى باصرتيهم ٠ (وهذه المخطوطات الثلاثة محفوظة في الخزانة الزكية خزانة احمد زكي باشا الموقوفة في القاهرة) ٠

(٨٥) تاريخ في ١٤٠ صفحة منصفة القطع ناقص كراساً من الاول أرخ فيه مؤلفه من ابتداء العالم الى زمن قايتباي سنة ٨٧٢ وعليه حواش لمحمد الاكمل بن مفلح (١٠١١) ٠

(٨٦) تنبيه الطالب وارشاد الدارس لاحوال مواضع الفوائد بدمشق كدور القرآن والحديث والمدارس الخ وهو المعروف بالدارس للنعيمي (٩٢٧) ٠

(٨٧) المعزة فيما قيل في المزة للشمس محمد بن طولون ٠

(٨٨) الشمعة المضية في اخبار القلعة الدمشقية له ايضاً ٠

(٨٩) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار (وهذه المخطوطات الخمسة من خزانة الشيخ عبد الرزاق البيطار بدمشق) ٠

(٩٠) المنهج الاحمد في تراجم الحنابلة لعبد الرحمن العليمي من اهل القرن العاشر (من مكتبة السيد محمد المبارك بدمشق) ٠

(٩١) المروج السندسية بتاريخ الصالحية لمحمد بن كنان (١١٥٣) ٠

(٩٢) الممالك الاسلامية في الممالك الشامية له (من مكتبة جامع دومة الشام) ٠

(٩٣) محاسن الشام للبدري (من كتب

الامير عبد الله باشا الحسني بدمشق) .

(٩٤) مختصر الدارس للعلموي (٩٨١) .

(٩٥) التحفة الظريفة المسماة بمجموعة الحكيم للسيد حسن بن السيد عثمان الحكيم جمعها سنة ١١٨٨ (من كتب عبد القادر بك المؤيد) (١٣٣٩) بدمشق .

(٩٦) ديوان النصائح الكافية لمحمد الحافظ النجار من اهل القرن الثاني عشر (من كتب غالب بك الزالق بدمشق) .

(٩٧) تاريخ دول الاعيان شرح قصيدة نظم الجمان في ذكر من سلف من اهل الزمان لشهاب الدين احمد المقدمي المشهور بابن زوجة ابي عذيبة (٨٥٦) (من كتب ابي السعود افندي الحسيبي بدمشق) .

(٩٨) الاشارات الى اماكن الزيارات للشيخ احمد الصباغ وذيله بتراجم بعض المشاهير من كتاب الزيارات لشيخ الاسلام محمود العدوي .

(٩٩) المنتقى من تاريخ الاسلام للحافظ ابي عبد الله الذهبي مع ما أضيف اليه من تاريخي عماد الدين بن كثير وصلاح الدين الكتبي وغيرهما انتقاه لنفسه ابو بكر ابن قاضي شهبة الاسدي المتوفى سنة ٨٥١ وهو من سنة احدى وثلاثمائة الى سنة خمسين واربعمائة والغالب انه جزء من تاريخه

(١٠٠) طبقات ائمة القراء للحافظ ابن الجزري انتهى من تبييضه سنة خمس وتسعين وسبعمائة (من كتب السيد ابي الخير عابدين بدمشق) .

(١٠١) رسالة الجوامع والمدارس الاول مختصر من كتاب اماكن الزيارات .

(١٠٢) مختصر تاريخ الاسلام للذهبي (٧٤٨) (كلاهما من كتب السيد محمد هاشم الكتبي بدمشق) .

(١٠٣) رسائل القاضي الفاضل (٥٩٦)

(١٠٤) بهجة الصيانة في عجائب مصر والكنانة لاحمد بن محمد القزويني (كلاهما في خزانة كتب الجامعة الاميركية في بيروت) .

(١٠٥) ذيل التمتع بالاقران لابن طولون (٩٥٣) .

(١٠٦) رحلة البطريرك مكاريوس ابن الزعيم الحلبي .

(١٠٧) تاريخ ميخائيل مشاقة (١٣٠٦) وفيه حوادث أسرته وما جرى في لبنان وبلاد الشام في عهده وبعضها مما حذف من النسخة المطبوعة المحرفة المبدلة (وهذه الثلاثة المخطوطات من كتب البطريرك السيد غريغوريوس حداد بدمشق) .

(١٠٨) نبذة في ذكر من تولى القضاء

بدمشق الشام نقلت من كتاب نزهة الخاطر وبهجة النــاظر لشرف الدين موسى بن جمال يوسف بن ايوب الانطاكي الدمشقي (في خزانة كتب الآباء اليسوعيين في بيروت) .

(١٠٩) التذكرة الكمالية لكمال الدين الغزي (من كتب احفاد المؤلف بدمشق) .

(١١٠) ذيل الكواكب السائرة للنجم الغزي « من مكتبة اسماعيل افندي الغزي بدمشق » .

(١١١) اجزاء من عيون التواريخ لصلاح الكتبي « من مكتبة وجيه افندي الكيلاني بدمشق » .

(١١٢) الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني(٨٥٢) للشيخ اسماعيل الميداني بدمشق »

(١١٣) كتاب حوادث يومية من سنة ٩٨٥ الى سنة ١٠٠٦ نقل سنة ١١٠١ من خط محمد بن داود المقدسي الدمشقي « من كتب نسيب افندي حمزة بدمشق»

(١١٤) صور الاقاليم لابي زيد احمد ابن سهل البلخي(٣٢٣) « من خزانة كتب السيد كاظم الدجيلي في بغداد » .

(١١٥) المنهج الاحمد في تراجم اصحاب الامام احمد لعبد الرحمن العليمي من اهل القرن العاشر « من خزانة كتب السيد محمد المبارك بدمشق » .

(١١٦) المدهش لابي الفرج بن الجوزي (٥٩٧) « من كتب السيد عبد الباقي الحسني (١٣٣٥) بدمشق .

(١١٧) كتاب في التراجم و يظن انه جزء من طبقات الحنابلة « من كتب الشيخ سعيد الكرمي في عمان » .

(١١٨) قطعة من تاريخ ابن خلدون الكبير غير المطبوع نقلها تلميذه محمد بن احمد الزملكاني وفيها رحلة فيلسوف المغرب من الديار المصرية الى دمشق لما غزاها تيمورلنك سنة ٨٠٣ « من كتب محمد علي افندي مسلم بدمشق » .

(١١٩) مجموع كتب سنة ١١٠٥ لابراهيم ابن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الحنفي الجنيني الاصل الدمشقي الدار «من كتب رشدي بك الشمعة بدمشق » .

(١٢٠) نفحة الريحانة لمحمد امين المحبي (١١١١) « من خزانة كتب السيد تاج الدين الحسني بدمشق » .

(١٢١) حل الرموز في عقائد الدروز « تأليف سليم افندي البخاري بدمشق» .

(١٢٢) در الحبب في تاريخ اعيان

حلب لابن الحنبلي الربعي التادفي ·

(١٢٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم (٦٦٠) ·

(١٢٤) جزء من الدر المنتخب بتكملة تاريخ حلب للجبريني المعروف بخطيب الناصرية ·

(١٢٥) تشريف الانام والعصور بسيرة الملك المنصور ·

(١٢٦) انباء الغمر في ابناء العمر لاحمد بن حجر العسقلاني كتبت سنة ٨١٢ اعتمدنا عليها اكثر من مسودة المؤلف لسلامتها من سقم الخط وخلوها من الغلط

(١٢٧) نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان «مجهول مؤلفها» (وهذه المخطوطات الستة في دار كتب الامة بباريز) ·

(١٢٨) كتاب الباشات والقضاة بدمشق زمن السلطان سليم خان وبعده لمحمد بن جمعة المقار (١١٥٦) اوله الباب الرابع والخمسون وهو قطعة من كتاب ·

(١٢٩) ايضاح الظلم وبيان العدوان في تاريخ النابلسي الخارج الخوان لحسن ابن احمد بن عربشاه ·

(١٣٠) تراجم الاعيان من ابناء الزمان للحسن البوريني (١٠٢٤) ·

(١٣١) الدر النضيد في مناقب الملك الظاهر ابي سعيد كتبت سنة ٧٨٥

(١٣٢) الكواكب الدرية في السيرة النورية بخط محمد المرادي سنة ١١٦٠

(١٣٣) كتاب واقعة بين خارجي الديار المصرية ووزير الشام عثمان باشا ·

(١٣٤) فتوح الشام لابي اسماعيل الازدي ·

(١٣٥) تاريخ الخوري ميخائيل بريك من سنة ١٧٢٠ م الموافقة ١١٣٢ هـ وفيه الاخبار الاخيرة الى سنة ١٢٥٧ هـ ·

(١٣٦) تاريخ الملك الناصر محمد ابن قلاوون الصالحي واولاده من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة الى سنة خمس واربعين وسبعمائة لشمس الدين بن السباعي وهو جزء من اجزاء ·

(١٣٧) رسالة فيمن تولى وقضى وافتى في مدينة الشام من حين انقضاء دولة الجراكسة الى سنة الف ومائتين واربعين «وهذه المخطوطات محفوظة في دار كتب الامة ببرلين والاخير في خزانة جامعتها»

(١٣٨) النصف الثاني المنتخب من تاريخ علم الدين البرزالي (٧٣٨) ·

(١٣٩) غرر السير للحسين بن محمد المزغني ·

(١٤٠) البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤)

(١٤١) اجزاء من الوافي بالوفيات للصفدي .

(١٤٢) تواريخ الحكماء للزوزني .

(١٤٣) المؤتلف والمختلف ومشتبه الشبه لابن نقطة « وهذه المخطوطات الستة من خزانة كتب الامير ليوني كايتاني في رومية» .

(١٤٤) تاريخ حكماء الاسلام لظهير الدين البيهقي (٥٧٠) .

(١٤٥) كتاب نقش فصوص خواتم الحكماء واجتماعات الفلاسفة في الاعياد وتفاوض الحكمة بينهم .

(١٤٦) تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر لعبد الرحمن بن محمد بن حمزة واسمه الجوهر والدرر في تراجم اعيان القرن الحادي عشر .

(١٤٧) تاريخ الامير فخر الدين بن معن تأليف احمد بن محمد الخالدي الصفدي من اهل القرن الحادي عشر «وهذه المخطوطات الاربعة من مخطوطات جامعة ليدن» .

(١٤٨) رسالة لابن شداد كتبت في القرن الثاني عشر للهجرة .

(١٤٩) كراستان نقلتا من خط الشيخ حسن البوريني فيها حوادث جرت في دمشق من سنة ١٠٢٣ الى ١٠٢٦ .

(١٥٠) ذيل مختصر على تاريخ ابن العديم في تاريخ حلب .

(١٥١) ضرب الحوطة على جميع الغوطة لابن طولون (وهذه المخطوطات الاربعة من خزانة كتب جامعة ليدن) .

(١٥٢) سيرة احمد باشا الجزار انتهت سنة ١٢٢٥ هـ وفيها ما حدث بعد مماته لمؤلف مسيحي سوري .

(١٥٣) الجزء الثالث من تاريخ الامم للغزالي (كلاهما في المتحف البريطاني في لندرا) .

(١٥٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة استنسختها من حلب سنة ١٣٢٢

(١٥٥) عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام لخليل المرادي .

(١٥٦) مجموعة رسائل واوراق عليها تعليقات يظن انها لابن آق بيق كتبت اوائل القرن الثالث عشر (كلاهما من خزانة كتب خليل بك مردم بك بدمشق)

(١٥٧) الاعلام في فضائل الشام للشيخ احمد العدوي العثماني الشهير بالمنيني (من كتب الشيخ توفيق المنيني بدمشق) .

(١٥٨) كناشة السيد علي الكيلاني

الحموي (في خزانة كتب الشيخ عبد القادر المغربي بدمشق) ·

(١٥٩) حوادث جرت في دمشق بعد سنة ١٢٠١ ه دونها من لم يذكر اسمه (من كتب السيد مراد الزين بدمشق)

(١٦٠) النصف الاول من كتاب نزهة الابصار في ذكر الاقاليم وملوك الامصار لحسن بن احمد بن علي مطر الشهير بحاكم البقاع انتهى سنة ١٢٤٢ (من كتب السيد عبد النبي القلعي في دمشق) ·

(١٦١) قاموس الصناعات الشامية المسمى بدائع الغرف في الصناعات والحرف للشيخ محمد سعيد القاسمي ·

(١٦٢) تعطير المشام في مآثر دمشق الشام للشيخ جمال الدين القاسمي · (كلاهما من خزانة كتب الشيخ جمال الدين القاسمي بدمشق) ·

(١٦٣) تاريخ الاسر الشرقية للسيد عيسى اسكندر المعلوف ·

(١٦٤) تاريخ سورية المجوفة من تأليفه ايضاً ·

(١٦٥) مجموعة تاريخية فيها سيرة الشيخ ظاهر العمر الزيداني مجهول مؤلفها ونبذة في سيرته ايضاً لفراج المقدسي ·

(١٦٦) تاريخ سليمان باشا والي عكا من سنة ١١٩٠—١٢٢٦ ه لابراهيم العورا اتم كتابته في ٢٧ ذي الحجة ١٢٦٩ ه (١٨٥٣ م) (وهذه المخطوطات الاربعة من خزانة كتب السيد عيسى اسكندر المعلوف بدمشق) ·

(١٦٧) روضة الافكار والافهام لحسين بن غنام الاحسائي (من كتب الشيخ فوزان السابق)

(١٦٨) تاريخ المعرة للسيد سليم الجندي في دمشق مازال بالمسودة ·

(١٦٩) تاريخ حمص للسيد عمر الاتاسي في حمص لم يبرح في مسودته ·

(١٧٠) فضائل الشام وجامعها وما دفن بها من الصحابة والاولياء الكرام يظن انها لعلي بن محمد بن شجاع الربعي كتبت سنة خمس بعد الالف واكملت الورقتان الاوليان بخط سليمان المحاسني ·

(١٧١) نبهة ذوي الاحتشام في فضائل الشام لمحمد بن محمد بن احمد العيثاوي (وكلاهما من كتب الشيخ حمدي السفرجلاني بدمشق)

(١٧٢) حدائق الانعام في فضائل ومحاسن الشام لعبد الرحمن بن عبد الرزاق من اهل القرن الثاني عشر ·

(١٧٣) الاشارات في معرفة الزيارات

تأليف علي بن ابي بكر الهروي القاري (كلاهما للسيد اديب تقي الدين في دمشق)

(١٧٤) الجزء الاول من كنوز الذهب في تاريخ حلب وهو مسودة المؤلف .

(١٧٥) مسودة تاريخ ابي المواهب ابن ميرو الحلبي المتوفى قبيل تمام المائتين بعد الالف .

(١٧٦) قطعة من معادن الذهب في الاعيان المشرفة بهم حلب لابي الوفا بن محمد العرضي من اهل القرن الحادي عشر (وهذه الثلاثة اسفار من كتب الشيخ كامل الغزي في حلب) .

* * *

« المطبوعات العربية »

(١٧٧) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (٣١٠) (طبع ليدن)

(١٧٨) صلة تاريخ الطبري لعريب ابن سعد القرطبي (ليدن)

(١٧٩) تاريخ اليعقوبي (٢٧٨) (ليدن)

(١٨٠) مروج الذهب للمسعودي (٣٤٦) «باريز» .

(١٨١) البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي من اهل القرن الرابع (باريز)

(١٨٢) تاريخ سني ملوك الارض والانبياء لحمزة الاصفهاني (نحو سنة ٣٥٠) (ليبسيك) .

(١٨٣) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (توفي في عشر التسعين واربعمائة) و يتلوه نخب من تواريخ الازرقي الفارقي وسبط ابن الجوزي (بيروت)

(١٨٤) تجارب الامم وتعاقب الهمم لابن مسكويه (٤٢١) وتليه قطعة من تاريخ هلال الصابي (٤٤٨) (ليدن والقاهرة) .

(١٨٥) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (ليدن) .

(١٨٦) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (٧٠١) (غريفزوالد) .

(١٨٧) تاريخ الكامل لابن الاثير (٦٣٠) (القاهرة) .

(١٨٨) المختصر في تاريخ البشر لابي الفدا (٧٣٠) (القاهرة)

(١٨٩) تاريخ ابن الوردي (٧٥٠) (القاهرة)

(١٩٠) تاريخ ابن خلدون (٨٠٨) (القاهرة)

(١٩١) تاريخ الخلفاء للسيوطي (كلكوتا)

(١٩٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ليدن)

(١٩٣) تولي سعد الدولة ٣٨١ على حلب (بون)

(١٩٤) تاريخ الاتابكيين في الشام لعز الدين ابن الاثير (هايدلبرغ)

(١٩٥) السفر الرابع من المغرب في حلي المغرب لابن سعيد (٦٧٣) (ليدن)

(١٩٦) معجم البلدان لياقوت الحموي ٦٢٦ (ليبسيك)

(١٩٧) جغرافية ابى الفدا (باريز)

(١٩٨) المسالك والممالك لابن حوقل اواسط القرن الرابع (ليدن)

(١٩٩) مسالك الممالك للاصطخري اواسط القرن الرابع (ليدن)

(٢٠٠) المسالك والممالك لابن خرداذبة في حدود سنة ٣٠٠ (ليدن)

(٢٠١) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي البشاري بعد سنة ٣٧٥ (ليدن)

(٢٠٢) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (ليدن)

(٢٠٣) التنبيه والاشراف للمسعودي (ليدن)

(٢٠٤) الاعلاق النفيسة لابن رسته (ليدن)

(٢٠٥) صفة جزيرة العرب للهمداني (٣٣٤) (ليدن)

(٢٠٦) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربوة شمس الدين الدمشقي (٧٢٨) (بطرسبرج)

(٢٠٧) زبدة كشف الممالك للظاهري من اهل القرن التاسع (باريز)

(٢٠٨) آثار البلاد للقزويني (٦١٢) (غوتنغن)

(٢٠٩) عجائب المخلوقات له (غوتنغن)

(٢١٠) نزهة المشتاق للادريسي (٥٤٨) (رومية)

(٢١١) كتاب الامكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها لابي الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري (٥٦١) (ليدن)

(٢١٢) فتوح البلدان للبلاذري (٢٧٩) (ليدن)

(٢١٣) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب لابي عبيد البكري (٤٨٧)(ليدن)

(٢١٤) كتاب الهواء اي مناخ الاقاليم للاصطخري (غوتا)

(٢١٥) معجم ما استعجم للبكري (غوتنغن)

(٢١٦) مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع لعبد المؤمن بن عبد الحق (٧٣٩) (ليدن) .

(٢١٧) الاخبار الطوال لابي حنيفة الدينوري (٢٨٢) (ليدن) ٠

(٢١٨) مرآة الزمان ليوسف سبط ابن الجوزي (٦٥٤) (شيكاغو) ٠

(٢١٩) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣١) (مصر)

(٢٢٠) طبقات ابن سعد الكبير (٢٣٠) (ليدن)

(٢٢١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦٣٠) (القاهرة)

(٢٢٢) الاصابة في تمييز اسماء الصحابة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) (كلكته)

(٢٢٣) طبقات المفسرين للسيوطي (٩١١) (ليدن)

(٢٢٤) طبقات الحفاظ للذهبي (٧٤٨) (غوتنغن)

(٢٢٥) طبقات الشافعية للتاج السبكي (٧٧١) (القاهرة)

(٢٢٦) طبقات الحنفية (تاج التراجم) لقاسم بن قطلوبغا (٨٧٩) (ليبسيك) ٠

(٢٢٧) طبقات الحنفية للكنوي (١٢٩٣) (الهند) ٠

(٢٢٨) طبقات الادباء لابن الانباري (٥٧٧) ٠

(٢٢٩) يتيمة الدهر للثعالبي (٤٢٩) (دمشق)

(٢٣٠) طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (٢٣١) (ليدن) ٠

(٢٣١) طبقات الامم لابن صاعد الاندلسي (٤٦٢) (بيروت) ٠

(٢٣٢) ريحانة الالبا للخفاجي (١٠٦٩) (القاهرة) ٠

(٢٣٣) كتاب الولاة الذين ولوا قضاء مصر للكندي مع ذيله لابي الحسن احمد بن عبد الرحمن بن برد واوصله مؤلف مجهول الى سنة ٤٢٦ (رومية)

(٢٣٤) كتاب الولاة والقضاة لابي عمر الكندي (٢٤٦) بيروت ٠

(٢٣٥) الانساب للسمعاني (٥٦٢) (لندرا)

(٢٣٦) معجم الادباء لياقوت (القاهرة)

(٢٣٧) روضة المناظر لابن الشحنة ٨١٥ (القاهرة) ٠

(٢٣٨) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب المنسوب لابن الشحنة (بيروت)

(٢٣٩) تاريخ محبوب بن قسطنطين المنبجي (من اهل القرن العاشر للمسيح) (باريز) ٠

(٢٤٠) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (اواسط القرن التاسع) (بيروت)

(٢٤١) تاريخ مصر لابن اياس (٩٣٠) (القاهرة) ٠

(٢٤٢) تاريخ الجبرتي (١٢٤٠) « القاهرة »
(٢٤٣) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلي (٩٢٧) (القاهرة)
(٢٤٤) بغية الوعاة للسيوطي (القاهرة)
(٢٤٥) حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة للسيوطي (القاهرة)
(٢٤٦) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٦٨٥ (بيروت) .
(٢٤٧) اخبار الدول للقرماني (١٠١٩) (القاهرة) .
(٢٤٨) (خلافة عمر وهشام) (ليدن)
(٢٤٩) الشروط والعقود السياسية بين ملوك ايطاليا والمسلمين (ايطاليا) .
(٢٥٠) تلقيح فهوم اهل الآثار في مختصر السير والاخبار لابن الجوزي (٥٩٧) (برسلاو) .
(٢٥١) السلوك في دول الملوك للمقريزي (غوتنغن)
(٢٥٢) الجزء الحادي عشر من تاريخ مصنف مجهول ولعله كتاب انساب الاشراف واخبارهم للبلاذري (٢٧٩) (غريفزولد)
(٢٥٣) وصف فلسطين والشام للادريسي (بون)
(٢٥٤) رحلة في بلاد الاسلام لمحمد ابن عبد الله الحسني الموسوي الملقب بكبريت (القاهرة)
(٢٥٥) خلاصة الكلام لزيني دحلان (القاهرة)
(٢٥٦) مفردات ابن البيطار (القاهرة)
(٢٥٧) الآثار الباقية في القرون الخالية لابي الريحان البيروني (٤٤٠) (ليبسيك)
(٢٥٨) المشتبه في اسماء الرجال للحافظ الذهبي (٧٤٨) (ليدن)
(٢٥٩) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي (القاهرة)
(٢٦٠) التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم للمقريزي (ليدن)
(٢٦١) مختصر اخبار الخلفاء لابن الساعي (٦٧٤) (القاهرة)
(٢٦٢) تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب و بيت المقدس وامرائها لابراهيم مغلطاي (ليدن) .
(٢٦٣) مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ليبسيك) .
(٢٦٤) تاج العروس للزبيدي (١٢٠٥) (القاهرة) .
(٢٦٥) اخبار مصر لابن ميسر (القاهرة)

(٢٦٦) الافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي ٦٢٩ (القاهرة)
(٢٦٧) الاعتبار لابن منقذ (ليدن)
(٢٦٨) تاريخ الوزراء لابي هلال الصابي ٤٤٨ ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له (بيروت) .
(٢٦٩) عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة (٦٦٨) (القاهرة)
(٢٧٠) اخبار العلماء باخبار الحكماء لجمال الدين القفطي (٦٤٦) (لبسيك)
(٢٧١) وفيات الاعيان لابن خلكان (٦٨١) (القاهرة) .
(٢٧٢) فوات الوفيات للصلاح الكتبي (القاهرة) .
(٢٧٣) طبقات النحويين واللغويين لابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (رومية)
(٢٧٤) خلاصة الاثر في تراجم اهل القرن الحادي عشر للمحبي (١١١١) (القاهرة)
(٢٧٥) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمرادي (١٢٣٢) (القاهرة)
(٢٧٦) تاريخ اعيان دمشق لابن شاشو (دمشق) .
(٢٧٧) سلافة العصر لابن معصوم (١١٠٤) (القاهرة) .
(٢٧٨) زبدة النصرة للعماد الاصفهاني (٥٩٧) (القاهرة) .
(٢٧٩) الفتح القدسي للعماد ايضاً (ليدن)
(٢٨٠) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة (٦٦٥) (القاهرة)
(٢٨١) سيرة صلاح الدين لابن شداد (ليدن) .
(٢٨٢) نبذة من كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب (ليدن) .
(٢٨٣) كتاب التاريخ مما تقدم عن الآباء لابي الفتح بن ابي الحسن السامري (غوتا) .
(٢٨٤) تاريخ البطريرك افتيشيوس المكنى بسعيد بن البطريق (٣٢٨) (بيروت)
(٢٨٥) تاريخ ابي شاكر بطرس ابن ابي الكرم بن المهذب المعروف بابن الراهب (بيروت) .
(٢٨٦) النخب لابن منقذ (باريز)
(٢٨٧) نبذ من كتاب الخراج لقدامة ابن جعفر (٣١٠) (ليدن) .
(٢٨٨) كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف (١٨٢) (القاهرة) .
(٢٨٩) كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي (ليدن) .
(٢٩٠) كتاب الانساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط والضبط لمحمد بن

ظاهر بن علي المقدسي (ليدن) .

(٢٩١) النكت العصرية في اخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني (٥٦٩) (باريز)

(٢٩٢) تكملة ديوان شعر عمارة اليمني وترسلاته ومنتخبات من سيرته واخبار معاصريه (باريز)

(٢٩٣) كتاب التاج في اخلاق الملوك للجاحظ (٢٥٥) (القاهرة)

(٢٩٤) كتاب الاصنام لابن الكلبي (٢٠٦) (القاهرة) .

(٢٩٥) جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة لابي علي المحسن التنوخي (٣٨٤) (القاهرة)

(٢٩٦) المعارف لابن قتيبة (غوتنغن)

(٢٩٧) عيون الاخبار لابن قتيبة (ستراسبورغ)

(٢٩٨) المحاسن والمساوي للبيهقي (جيسين)

(٢٩٩) مفاتيح العلوم للخوارزمي (ليدن)

(٣٠٠) تهذيب الاسماء للنووي (٦٧٦) (غوتنغن)

(٣٠١) النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (٨٧٤) « ليدن »

(٣٠٢) اتعاظ الحنفا للمقريزي (٨٤٥) « القدس »

(٣٠٣) الشماريخ في علم التاريخ للسيوطي (٩١١) « ليدن »

(٣٠٤) مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة لجمال الدين بن تغري بردي « كمبردج »

(٣٠٥) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (٦٥٦) « القاهرة »

(٣٠٦) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد لمفضل بن ابي الفضائل « باريز »

(٣٠٧) عجائب المقدور في اخبار تيمور لابن عربشاه « ليدن »

(٣٠٨) نهاية الارب في معرفة انساب العرب للقلقشندي (٨٢١) « بغداد »

(٣٠٩) صبح الاعشى في صناعة الانشا للقلقشندي ايضاً « القاهرة »

(٣١٠) ادب الكتاب للصولي (٣٣٥) (القاهرة) .

(٣١١) الفهرست لابن النديم (٣٨٥) (لبسيك) .

(٣١٢) ارشاد القاصد لابن ساعد الانصاري (٧٤٩) « بيروت »

(٣١٣) ابجد العلوم لصديق القنوجي (١٣٠٧) « الهند » .

(٣١٤) كشف الظنون لكاتب جلبي « القاهرة »
(٣١٥) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي « الهند والاستانة » .
(٣١٦) معالم الكتابة ومغانم الاصابة لعبد الرحيم بن شيت من اهل القرن السادس « بيروت » .
(٣١٧) حاشية على الدر المختار للسيد محمد عابدين « القاهرة »
(٣١٨) الاسعاف في احكام الاوقاف لبرهان الدين الطرابلسي « القاهرة » .
(٣١٩) احكام الوقوف والصدقات للخصاف « القاهرة »
(٣٢٠) اعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية . « القاهرة »
(٣٢١) حجة الله البالغة للدهلوي « القاهرة » .
(٣٢٢) رسالة الرد على الباطنية للغزالي (٥٠٥) « ايدن »
(٣٢٣) غاية الاختصار في اخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار لتاج الدين بن محمد الحسيني « القاهرة »
(٣٢٤) لب الالباب في تحرير الانساب للسيوطي « ايدن » .
(٣٢٥) تاريخ المدينة المعروف بوفاء الوفا للسمهودي « القاهرة »
(٣٢٦) اخبار مكة للازرقي (٢٢٣) « لبيسيك »
(٣٢٧) المنتقى في اخبار ام القرى وهي منتخبات من الفاكهي والفاسي وابن ظهيرة .
(٣٢٨) الاعلام باعلام بيت الله الحرام لقطب الدين النهروالي «٩٩٠» «لبيسيك»
(٣٢٩) محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر لعلاء الدين علي دده السكتواري البسنوي « القاهرة » .
(٣٣٠) نهاية الارب في فنون الادب للنويري « ٧٣٣ » « القاهرة » .
(٣٣١) رحلة ابن جبير «٦١٤» « ليدن »
(٣٣٢) رحلة ابن بطوطة « ٧٧٧ » « باريز » .
(٣٣٣) خطط المقريزي « ٨٤٥ » « القاهرة » .
(٣٣٤) الحسبة في الاسلام لابن تيمية «٧٤٨» « القاهرة » .
(٣٣٥) الاشارة الي محاسن التجارة لابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي « القاهرة »
(٣٣٦) الامامة والسياسة لابن قتيبة «٢٧٠» « القاهرة » .

(٣٣٧) الاحكام السلطانية للماوردي «٤٥٠» «القاهرة» •

(٣٣٨) فتوح الشام للواقدي «٢٠٧» «القاهرة» •

(٣٣٩) الاغاني لابي الفرج الاصبهاني «٣٥٦» «القاهرة» •

(٣٤٠) الاستبصار في عجائب الامصار وهو مما ألف في سنة ٥٨٧ «فينا»

(٣٤١) الفرق بين الفِرَق لابي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي «٤٢٩» «القاهرة»

(٣٤٢) الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم الظاهري (٤٥٦) و بهامشه الملل والنحل لابي الفتح الشهرستاني (٥٤٨) «القاهرة»

(٣٤٣) رسالة الغفران لابي العلاء المعري «القاهرة» •

(٣٤٤) رسائل ابي العلاء المعري «اكسفورد» •

(٣٤٥) رسائل ابي العلاء المعري «بيروت» •

(٣٤٦) كتاب بغداد لابي الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور «ليبسيك»

(٣٤٧) المعرب للجواليقي (٥٤٢) «ليبسيك»

(٣٤٨) القول المستظرف في سفر مولانا الملك الاشرف (تورينو)

(٣٤٩) تاريخ المسلمين من صاحب الشريعة الاسلامية ابي القاسم محمد الى الدولة الاتابكية للشيخ المكين جرجس بن العميد (٦٧٢) ليدن •

(٣٥٠) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية لطاشكبري ٩٦٨ «القاهرة»

(٣٥١) مساحة بعض البلاد الجارية في ملك الملك العادل نور الدين ابي القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر في سنة اربع وستين وخمسمائة «باريز» •

(٣٥٢) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية لعلي بن الحسن الخزرجي «القاهرة» •

(٣٥٣) الكامل للمبرد ٢٨٥ «ليبسيك»

(٣٥٤) الامالي لابي علي القالي ٣٥٦ وذيله «القاهرة» •

(٣٥٥) امالي السيد المرتضى (٤٣٦) «القاهرة» •

(٣٥٦) امالي الزجاجي ٣٣٨ «القاهرة»

(٣٥٧) المثل السائر لضياء الدين بن الأثير «القاهرة» •

(٣٥٨) كتاب الحيوان للجاحظ (٢٥٥) «القاهرة»

(٣٥٩) البيان والتبيين له «القاهرة»
(٣٦٠) البخلاء له ايضاً «ليدن»
(٣٦١) المحاسن والاضداد له «ليدن»
(٢٦٢) مناقب الترك وفخر السودان على البيضان .
(٣٦٣) التربيع والتدوير «ليدن»
(٣٦٤) ومن رسائل الجاحظ ايضاً تفضيل النطق على الصمت .
(٣٦٥) ومدح التجار وذم عمل السلطان
(٣٦٦) العشق والنساء .
(٣٦٧) الوكلاء .
(٣٦٨) استنجاز الوعد .
(٣٦٩) مذاهب الشيعة وطبقات المغنين له « القاهرة »
(٣٧٠) نفح الطيب للمقري (١٠٤١) « القاهرة »
(٣٧١) العقد الفريد لابن عبد ربه «٣٢٨» « القاهرة » .
(٣٧٢) العقد الفريد للملك السعيد لابي سالم محمد بن طلحة الوزير (٦٥٢) « القاهرة » .
(٣٧٣) الموشى لابي الطيب الوشاء (٣٢٥) « ليدن »
(٣٧٤) الاشتقاق لابن دريد « غوتنغن » .
(٣٧٥) تحفة ذوي الارب ومشكل النسب لابن خطيب الدهشة الحموي (٣٨٤) « ليدن » .
(٣٧٦) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري (٧٤٩) « القاهرة »
(٣٧٧) اخبار الدول المنقطعة لجمال الدين الازدي الحلبي « اوربا » .
(٣٧٨) ذكر المعتزلة من كتاب المنية والامل لاحمد بن يحيى المرتضى (حيدر آباد الدكن)
(٣٧٩) تاريخ الاسلام للذهبي (حيدر آباد الدكن) .
(٣٨٠) تذكرة الحفاظ الذهبي (حيدر آباد الدكن)
(٣٨١) معيد النعم ومبيد النقم للتاج السبكي (ليدن)
(٣٨٢) تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين لعبد الله الشرقاوي (١٢٢٧) (القاهرة) .
(٣٨٣) ترتيب الدول للحسن بن عبد الله (القاهرة) .
(٣٨٤) سير الملوك لعبد الرحمن الاربلي (بيروت)
(٣٨٥) الف باء ليوسف البلوي (القاهرة) .

(٣٨٦) لطائف اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول للاسحاقي (١٠٣٢) (القاهرة)

(٣٨٧) حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة للسيوطي (القاهرة)

(٣٨٨) المنهج المسلوك في سياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبد الله من علماء القرن السادس .

(٣٨٩) البحر الزاخر في علم الاوائل والاواخر لابن تغري بردي (القاهرة)

(٣٩٠) قوانين الدواوين لابن مماتي (٦٠٦) (القاهرة)

(٣٩١) مطالع البدور في منازل السرور لعلاء الدين الغزولي (٨١٥) (القاهرة)

(٣٩٢) النقود الاسلامية للمقريزي (الاستانة)

(٣٩٣) تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي (١٢٥١) (القاهرة)

(٣٩٤) ذكر تملك جمهور الفرنساوية للاقطار المصرية والبلاد الشامية لنقولا الترك (١٢٤٤) (باريز)

(٣٩٥) تاريخ الطائفة المارونية للدويهي (١١١٦) (بيروت)

(٣٩٦) اخبار الاعيان في جبل لبنان لطنوس الشدياق (١٢٧٦) « بيروت »

(٣٩٧) تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصري (١٢٥٠) « القاهرة »

(٣٩٨) ديوان الاخطل (٩٠) « بيروت »

(٣٩٩) ديوان سقط الزند للمعري « بيروت »

(٤٠٠) اللزوميات للمعري « القاهرة »

(٤٠١) ديوان المتنبي وشرح العكبري « القاهرة »

(٤٠٢) ديوان ابي تمام « بيروت »

(٤٠٣) ديوان البحتري « الاستانة »

(٤٠٤) ديوان ابن الوردي « الاستانة »

(٤٠٥) المرآة الوضية لفانديك (١٨٩٦ م) « بيروت »

(٤٠٦) تاريخ حوادث الشام ولبنان لميخائيل الدمشقي وذلك من سنة ١١٩٧ الى ١٢٥٧ هـ « بيروت »

(٤٠٧) تحفة الانام لعبد الباسط الفاخوري « بيروت »

(٤٠٨) دائرة المعارف للسادة بطرس وسليم ونجيب وسليمان البستاني « بيروت والقاهرة »

(٤٠٩) محيط المحيط لبطرس البستاني « بيروت »

(٤١٠) آثار الادهار لسليم الخوري وسليم شحاده (١٩٠٧م) « بيروت »

(٤١١) التاريخ القديم لبورتر «بيروت»
(٤١٢) تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس (١٣٢٥) «بيروت»
(٤١٣) قاموس الكتاب المقدس لبوست (١٩٠٩) «بيروت»
(٤١٤) نباتات سورية وفلسطين له (بيروت)
(٤١٥) مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان لميخائيل مشاقة (القاهرة)
(٤١٦) كتاب لبنان ألفه زمرة من الباحثين سنة ١٣٣٤ (بيروت)
(٤١٧) حسر اللثام في نكبات الشام لمؤلف مجهول (القاهرة)
(٤١٨) تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر تأليف الامير محمد باشا الجزائري (القاهرة)
(٤١٩) اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك لخير الدين باشا التونسي (١٣٠٨) (تونس)
(٤٢٠) صفوة الاعتبار للشيخ محمد بيرم الخامس التونسي (القاهرة)
(٤٢١) تاريخ كلدو وآثور لادي شير (بيروت)
(٤٢٢) تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيته للسيد نعوم شقير (القاهرة)
(٤٢٣) قاموس الجغرافية القديمة لاحمد زكي باشا (القاهرة)
(٤٢٤) الحضارة الاسلامية له (القاهرة)
(٤٢٥) تاريخ عمرو بن العاص للسيد حسن ابراهيم حسن (القاهرة)
(٤٢٦) تاريخ المشرق لمسبرو تعريب احمد زكي باشا (القاهرة)
(٤٢٧) اشهر مشاهير الاسلام لرفيق بك العظم (القاهرة)
(٤٢٨) تاريخ الامم الاسلامية للشيخ محمد الخضري (القاهرة)
(٤٢٩) تاريخ الدولة العثمانية لمحمد بك فريد (القاهرة)
(٤٣٠) البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية لمحمد فريد بك ايضاً (القاهرة)
(٤٣١) التبر المسبوك في ذيل السلوك لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢) (القاهرة)
(٤٣٢) تاريخ العرب لسيديليو (١٨٧٥) (القاهرة)
(٤٣٣) تاريخ لبنان لرتين تعريب السيد رشيد الشرتوني (بيروت)
(٤٣٤) تحفة الانباء في تاريخ حلب الشهباء لبيشوف (بيروت)

(٤٣٥) تاريخ المقاطعة الكسروانية للحتوني (بيروت)

(٤٣٦) تاريخ سورية للسيد جرجي يني « بيروت »

(٤٣٧) الروضة الغناء لنعمان القساطلي (بيروت)

(٤٣٨) تاريخ اورشليم اي القدس الشريف لخليل سركيس (بيروت)

(٤٣٩) تسريح الابصار فيما حوى لبنان من الآثار للاب لامنس (بيروت)

(٤٤٠) المذاكرات الجغرافية في الاقطار السورية له (بيروت)

(٤٤١) زينب (الزباء) ملكة تدمر للاب رنزفال (بيروت)

(٤٤٢) دليل لبنان لابراهيم بك الاسود (لبنان)

(٤٤٣) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان تعريب الشيخين فيليب وفريد الخازن « لبنان » .

(٤٤٤) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ١٣٣٢ (القاهرة)

(٤٤٥) العرب قبل الاسلام له (القاهرة)

(٤٤٦) تاريخ الآداب العربية له (القاهرة) .

(٤٤٧) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للاب لويس شيخو (بيروت)

(٤٤٨) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية له (بيروت) .

(٤٤٩) لائحة في اصلاح القطر السوري للشيخ محمد عبده (١٣٢٣)(بيروت)

(٤٥٠) تاريخ حماة للشيخ احمد الصابوني (حماة)

(٤٥١) تاريخ صيدا للشيخ احمد عارف الزين (صيدا) .

(٤٥٢) تاريخ بعلبك للسيد ميخائيل موسى الوف (بيروت) .

(٤٥٣) تاريخ حيفا الجميل البحري (حيفا)

(٤٥٤) تاريخ مدينة زحلة للسيد عيسى اسكندر المعلوف (بيروت)

(٤٥٥) دواني القطوف له (بيروت)

(٤٥٦) جغرافية الكتاب المقدس للسيد اسعد منصور (بيروت) .

(٤٥٧) تاريخ الناصرة له (القاهرة)

(٤٥٨) قطف الزهور ليوحنا ابكاريوس (١٣٠٥) (بيروت)

(٤٥٩) محاضرات ادبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب للسنيور جويدي (القاهرة)

(٤٦٠) المكتبة العربية الصقلية

لآماري ١٨٨٩ (لبسيك) .

(٤٦١) تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر اختصره الشيخ عبد القادر بدران « دمشق »

(٤٦٢) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع للسيد ادورد فانديك « القاهرة »

(٤٦٣) عقود الجوهر في ترجمة من لهم خمسون تصنيفاً فمائة فاكثر لجميل بك العظم « بيروت »

(٤٦٤) كتاب سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان « بيروت »

(٤٦٥) تاريخ الصحافة العربية للسيد فيليب طرازي « بيروت »

(٤٦٦) البدر الطالع للشوكاني (١٢٥٥) « القاهرة »

(٤٦٧) نديم الاديب لاحمد بسعيد البغدادي « القاهرة » .

(٤٦٨) ملوك العرب للسيد امين الريحاني « بيروت »

(٤٦٩) نظام القضاء والادارة لاحمد بك نجمة « القاهرة »

(٤٧٠) حضارة الاسلام في دار السلام لجميل مدور « القاهرة »

(٤٧١) التاريخ القديم له «بيروت»

(٤٧٢) منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان نشره محمد امين الخانجي « القاهرة »

(٤٧٣) اسباب الانقلاب العثماني لمحمد روحي الخالدي (١٩١٣) ومصححه حسين وصفي رضا « القاهرة »

(٤٧٤) منتخبات الجوائب (الاستانة)

(٤٧٥) كتاب القصارى في حل ثلاث مسائل تاريخية تتعلق ببلاد الشام وما يجاورها للمطران يوسف داود (١٣١٠) « بيروت »

(٤٧٦) تركيا الجديدة لجميل معلوف «سان باولو »

(٤٧٧) تاريخ فلسطين للسيدين عمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح « القدس »

(٤٧٨) جغرافية فلسطين للسيدين خليل طوطح وحبيب خوري « القدس »

(٤٧٩) جغرافية سورية العمومية المفصلة للسيد سعيد الصباغ « صيدا »

(٤٨٠) سورية ولبنان للسيد اديب فرحات « بيروت »

(٤٨١) كتاب الانتداب الفرنساوي والتقاليد الفرنساوية في سورية ولبنان لعبد الله صفير باشا « القاهرة »

(٤٨٢) تاريخ حرب البلقان للسيد يوسف البستاني (القاهرة) .

(٤٨٣) خلع السلطان عبد الحميد لخليل بك الخوري (دمشق)
(٤٨٤) النصائح الكافية لمن يتولى معاوية للسيد محمد بن عقيل (القاهرة)
(٤٨٥) درس التاريخ الاسلامي للشيخ محيي الدين الخياط (بيروت)
(٤٨٦) الدولة الاسلامية او ماضي الشرق وحاضره للشيخ احمد الصابوني (حماة)
(٤٨٧) بلوغ الارب للسيد محمود شكري الالوسي (بغداد)
(٤٨٨) نهر الذهب في تاريخ حلب للشيخ كامل الغزي (حلب)
(٤٨٩) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للشيخ راغب الطباخ (حلب)
(٤٩٠) اليـاذة هوميروس تعريب السيد سليمان البستاني (القاهرة)
(٤٩١) الحقوق الادارية لشاكر بك الحنبلي (دمشق)
(٤٩٢) الحقوق الدولية العامة لفوزي بك الغزي (دمشق)
(٤٩٣) سير التاريخ الاسلامي للسيد اديب التقي (دمشق)
(٤٩٤) التاريخ العام له (دمشق)
(٤٩٥) عزة اليوم وذلة امس لمحمد رحيم تعريب محمد الكاظمي (بغداد)
(٤٩٦) الشيعة وفنون الاسلام للسيد حسن الصدر (صيدا)
(٤٩٧) مذكرات سفير اميركا (القاهرة)
(٤٩٨) مذكرات جمال باشا (القاهرة)
(٤٩٩) الرحلة الحجازية للبتنوني (القاهرة)
(٥٠٠) سكردان السلطان لابن ابي حجلة التلمساني (القاهرة)
(٥٠١) المعرب للجواليقي (ليبسيك)
(٥٠٢) الالفاظ الفارسية المعربة لادي شير (بيروت)
(٥٠٣) رقم الحلل في نظم الدول للسان الدين ابن الخطيب (تونس)
(٥٠٤) تجارة العراق قديمًا وحديثًا للسيد يوسف رزق الله غنيمة (بغداد)
(٥٠٥) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية (القاهرة)
(٥٠٦) ولاية بيروت القسم الجنوبي والقسم الشمالي لرفيق التميمي ومحمد بهجت (بيروت)
(٥٠٧) دليل لبنان وسورية لبولس سعد (القاهرة)
(٥٠٨) مختصر تاريخ لبنان لحد صعب خاطر (بيروت)
(٥٠٩) ابو سمرا غانم او البطل اللبناني

لخليل همام فائز (بيروت)

(٥١٠) علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى للسيد نالينو (رومية)

(٥١١) بهجة الرائح والغادي في احاسن محاسن الوادي للسيد محمد المبارك ١٣٣٠ (بيروت)

(٥١٢) تاريخ المسيح لرنان تعريب فرح انطون ١٣٤١ (القاهرة)

(٥١٣) مختصر تاريخ الحنابلة للشيخ محمد جميل الشطي (دمشق)

(٥١٤) العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية لإلياس ديب مطر (بيروت)

(٥١٥) المناقب الابراهيمية لاسكندر ابكاريوس ومحمد مكاوي (القاهرة)

(٥١٦) الكنائس الشرقية في فلسطين لالفونس دالونصو (القدس)

(٥١٧) السير السليم في يافا والرملة واورشليم (القدس)

(٥١٨) مدنية العرب في الجاهلية والاسلام لمحمد رشدي (القاهرة)

(٥١٩) جهاد لبنان لاميل يوسف حبشي (بيروت)

(٥٢٠) لبنان في خمس سنين لكاتب مجهول (بيروت)

(٥٢١) سورية مالقي الامم لهنري ماميسه تعريب السيد ذيب شهاب (دمشق)

(٥٢٢) نبذة من وقائع الحرب الكونية للطف الله نصر البكاسيني (بيروت)

(٥٢٣) معضلة الشرق للسيد خيرالله خيرالله عرّبه السيد عارف النكدي (بيروت)

(٥٢٤) القول الحق لمؤلفه ج٠د٠ي٠ف لودر ومعرّبه السيد نزيه المؤيد (دمشق)

(٥٢٥) سورية للسوريين بقلم مسلم (بيروت)

(٥٢٦) البقاع للبنانيين (بيروت)

(٥٢٧) بنو معروف في جبل حوران للسيد عبد الله النجار (دمشق)

(٥٢٨) افادات زراعية في دولة حلب للسيد شارل بافي تعريب السيدين اميل بطق وليون مراد (حلب)

(٥٢٩) اللائحة المفصلة بمطالب الامة (دمشق)

(٥٣٠) العصر الدموي للسيد نايف ابي زيد (دمشق)

(٥٣١) المهاجر السوري لجميل بطرس حلوة (نيو يورك)

(٥٣٢) تلخيص التاريخ العثماني المصور للسيد شاكر الحنبلي (دمشق)

(٥٣٣) تنوير البصائر بسيرة الشيخ

طاهر للشيخ سعيد الباني (دمشق)
(٥٣٤) ما رأيت وما سمعت للسيد خير الدين الزركلي (القاهرة)
(٥٣٥) محاضرات المجمع العلمي العربي (دمشق)
(٥٣٦) الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن اليوسف صدرسورية للشيخ عبد القادر بدران (دمشق)
(٥٣٧) تقويم البشير السنوي (بيروت)
(٥٣٨) غرائب الغرب لمحمد كردعلي صاحب هذه الخطط (القاهرة)
(٥٣٩) رسائل البلغاء له (القاهرة)
(٥٤٠) تاريخ الحضارة لسنيوبوس تعريبه ايضاً (القاهرة ودمشق)
(٥٤١) القديم والحديث تأليفه (القاهرة)
(٥٤٢) كنوز الاجداد من تآليفه ايضاً (القاهرة)
(٥٤٣) مجلة المقتطف (بيروت والقاهرة)
(٥٤٤) مجلة المشرق (بيروت)
(٥٤٥) مجلة المنار (القاهرة)
(٥٤٦) مجلة الهلال (القاهرة)
(٥٤٧) مجلة المقتبس (القاهرة ودمشق)
(٥٤٨) مجلة البيان (القاهرة)
(٥٤٩) مجلة الضياء (القاهرة)
(٥٥٠) مجلة الآثار (زحلة)
(٥٥١) مجلة النعمة (دمشق)
(٥٥٢) مجلة الكلية (بيروت)
(٥٥٣) مجلة العرفان (صيدا)
(٥٥٤) مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)
(٥٥٥) مجلة الشعلة (حلب)
(٥٥٦) مجلة المباحث (طرابلس)
(٥٥٧) مجلة الزهرة (حيفا)
(٥٥٨) النصوص والاعمال سلسلة مقالات تاريخية لسير القضية العربية ، جريدة المفيد ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م (دمشق)
(٥٥٩) مجموعة جريدة المقتبس ست عشرة سنة (دمشق)

* * *

الكتب التركية

(٥٦٠) جهان نما لكاتب جلبي
(٥٦١) قاموس الاعلام لشمس الدين سامي
(٥٦٢) تاريخ ابو الفاروق لمراد بك الداغستاني
(٥٦٣) تاريخ سیاسي لكامل باشا
(٥٦٤) تاريخ جودت
(٥٦٥) تاريخ نعيما
(٥٦٦) التاريخ العثماني لعبد الرحمن شرف
(٥٦٧) خاطرات مدحت باشا
(٥٦٨) خاطرات سعيد باشا
(٥٦٩) خاطرات كامل باشا
(٥٧٠) تاريخ سامي وشاكر وصبحي
(٥٧١) سليمانامه
(٥٧٢) تاريخ بجوي
(٥٧٣) تاريخ شاني زاده
(٥٧٤) تاريخ راشد
(٥٧٥) تاريخ صولاق زاده
(٥٧٦) تاج التواريخ
(٥٧٧) تاريخ عكا
(٥٧٨) « سلانيكلي مصطفى
(٥٧٩) « لطفي

(٥٨٠) تاريخ احمد راسم
(٥٨١) مجموعة لجنة التاريخ العثماني
(٥٨٢) نتائج الوقوعات لمصطفى باشا
(٥٨٣) اوراق پريشان لنامق كمال
(٥٨٤) حيات عثماني — ضيا باشا
(٥٨٥) منشآت فريدون
(٥٨٦) تركيا وتنظيمات
(٥٨٧) تاريخ تدينات عثمانيه لجلال نوري
(٥٨٨) عبد الحميد ودور سلطنتى لعثمان نوري
(٥٨٩) تورك تاريخى لرضا نور
(٥٩٠) آصف نامه للطفي باشا
(٥٩١) تقويم (سالنامه) ولاية سورية عدة سنين
(٥٩٢) تقويم ولاية بيروت عدة سنين
(٥٩٣) تقويم ولايه حلب عدة سنين
(٥٩٤) سجل رسمي بالتركيــة فيه قيود معاملات الشام اوائل القرن الحادي عشر للهجرة (من خزانة المجمع العلمي العربي)

* * *

المطبوعات الافرنسية
BIBLIOGRAPHIE FRANÇAISE

(٥٩٥) كتاب مؤرخي الحروب الصليبية ومنه ثلاث مجلدات في المؤرخين الشرقيين ·

Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux

(٥٩٦) تاريخ الشعوب العام لماكسيم بتي ·

Maxime Petit : Histoire générale des peuples

(٥٩٧) معجم جديد في علم التربية لبويسون ·

Buisson : Nouveau dictionnaire de pédagogie

(٥٩٨) معجم جديد في علم الاقتصاد السياسي لليون ساي وشالي مع الملحق ·

Léon Say et Chailly : Nouveau dictionnaire d'économie politique, avec le supplément

(٥٩٩) مختصر القاموس السياسي والاجتماعي لباوك ·

Block : Petit dictionnaire politique et social

(٦٠٠) معجم العاديات اليونانية والرومانية لساغليو ودرمبرج ·

Saglio et Daremberg : Dictionnaire des antiquités grecques et romaines

(٦٠١) تاريخ الرومان لمومسين

Momsen : Histoire Romaine

(٦٠٢) تاريخ المملكة العثمانية لديلاجونكير ·

De la Jonquière : Histoire de l'Empire Ottoman :

(٦٠٣) سورية وفلسطين وجبل اتوس لدي فوكويه ·

De Vogué : Syrie, Palestine, Mont Athos

(٦٠٤) الصنائع العربية لكاييه ·

Gayet : L'art Arabe

(٦٠٥) مختصر في علم الآثار الشرقية لبابلون ·

Babelon : Manuel d'Archéologie orientale

(٦٠٦) تاريخ اوربا الحاضرة السياسي لسنيوبوس ·

Seignobos : Histoire Politique de l'Europe contemporaine

(٦٠٧) سورية ولبنـــان وفلسطين لكوينه .	*Cuinet* : Syrie, Liban et Palestine
(٦٠٨) بعثة اثرية في بلاد العرب لجوسن وسافنياك .	*Jaussen et Savignac* : Mission archéologique en Arabie
(٦٠٩) المعلمة الافرنسية الكبرى .	La Grande Encyclopédie Française
(٦١٠) الجغرافية العامة الجـديدة لاليزه ركلو .	*Elisée Reclus* : Nouvelle géographie Universelle
(٦١١) المعلمة الاسلامية .	Encyclopédie de l'Islam
(٦١٢) قاموس التاريخ والجغرافية لبوليه .	*Bouillet* : Dictionnaire d'Histoire et de Géographie
(٦١٣) تاريخ العرب لهوار .	*Cl. Huart*: Histoire des Arabes
(٦١٤) تاريخ النصيرية ودياناتهم لدوسو .	*Dussaud*: Histoire et religion des Nossaïris
(٦١٥) بعثة في بادية سورية الوسطى لدوسو وماكلر .	*Dussaud et Macler* : Mission dans les régions désertiques de la Syrie Moyenne
(٦١٦) العرب في سورية قبل الاسلام لدوسو .	*Dussaud*: Les arabes en Syrie avant l'Islam
(٦١٧) عادات العرب في بلاد موآب للاب انطون جوسين .	*A. Jaussen* : Coutumes des Arabes en pays de Moab
(٦١٨) ترجمة تاريخ سلاطين المماليك للمقريزي نقله الى الافرنسية كاترمير .	*Quatremère* : Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, écrite en Arabe par Takieddine Ahmed Makrizi
(٦١٩) التاريخ العام للافيس ورامبو	*Lavisse et Rambaud*: Histoire Générale
(٦٢٠) فلسطين المجهولة لكارمون كانو	*Clermont-Ganneau*: La Palestine inconnue

(٦٢١) مصـانع جديدة للصليبيين تأليف كارمون كانو ٠	*Clermont - Ganneau* : Nouveaux monuments des croisés
(٦٢٢) حاضر الاسلام ومستقبله لمونتيه ٠	*E. Montet* : De l'Etat présent et de l'Avenir de l'Islam
(٦٢٣) المجلة الاثرية ٠	La Revue archéologique
(٦٢٤) مجموعة المجلة الآسياوية ٠	Journal Asiatique (collection complète)
(٦٢٥) مجموعة مجلة العالم الاسلامي	Revue du Monde Musulman (collection complète)
(٦٢٦) مجلةالمجمع العلمي الافرنسي للعاديات الشرقية في القاهرة	Bulletin de l'Institut Français d'archéologie orientale du Caire
(٦٢٧) مفكرات المجمع العلمي المصري	Mémoires de l'Institut d'Egypte
(٦٢٨) ناموس التوراة لفيكورو	*F. Vigouroux* : Dictionnaire de la Bible
(٦٢٩) معجم لاروس المصور الجديد مع الذيول ٠	Nouveau Larousse illustré avec les suppléments
(٦٣٠) الدول الاجنبية في الشرق في سورية وفلسطين لفرني ودامبمان ٠	*N. Vernev et G. Dambmann*: Les Puissances étrangères dans le Levant, en Syrie et Palestine
(٦٣١) ملاحظات في اسباب عظمة الرومان وانحطاطهم لمونتسكيو ٠	*Montesquieu* : Considérations sur les causes de la Grandeur des Romains et de leur décadence
(٦٣٢) روح الشرائع لمونتسكيو	*Montesquieu* : De l'esprit des Lois
(٦٣٣) المسألة الشرقية لدريول	*Driault* : La question d'Orient
(٦٣٤) اوربا والمملكة العثمانية لبنون	*R. Pinon*: l'Europe et l'Empire Ottoman
(٦٣٥) مدنية العرب لكستاف لوبون	*Gustave Lebon* : La Civilisation des Arabes
(٦٣٦) تاريخ الحضارة لشارل سنيوبوس	*Ch. Seignobos* : Histoire de la Civilisation

Ferdinand Perrier : La Syrie sous le gouvernement de Mehemed-Ali	(٦٣٧) سورية على عهد حكومة محمد علي لفرديناند بريه .
Volney : Voyage en Syrie et en Egypte	(٦٣٨) رحلة فولني في سورية ومصر
W. Heyd : Histoire du Commerce du Levant au moyen âge	(٦٣٩) تاريخ التجارة بالشرق في القرون الوسطى لهيد .
Arthur Guy : Situation économique de la région de Caiffa et de St. Jean d' Acre	(٦٤٠) الحالة الاقتصادية في اصقاع حيفا وعكا لارتور كي .
Géneral de Torey : Etudes géographiques et historiques sur la Syrie (Revue de la géographie)	(٦٤١) ابحاث جغرافية وتاريخية عن سورية للجنرال دي توري (عن المجلة الجغرافية) .
K. l. Khaïrallab : La Syrie	(٦٤٢) سورية لخيرالله خيرالله .
Khaïrallah: Autour dela question sociale et scolaire en Syrie	(٦٤٣) المسألة الاجتماعية والمدرسية في سورية لخير الله خير الله .
Varjabed : Histoire de Bey-routh	(٦٤٤) تاريخ بيروت لوارجابد .
François Lenormant : Histoire des massacres de Syrie en 1860	(٦٤٥) تاريخ المذابح في الشام سنة ١٨٦٠ لفرانسوا لنورمان .
Alala : La Syrie, Les aspects actuels de la queston syrienne	(٦٤٦) سورية والحالة الحاضرة في المسألة السورية ليوسف عطا الله .
E. Pech : Manuel des sociétés anonymes fonctionnant en Turquie	(٦٤٧) كتاب الشركات المغفلة في المملكة العثمانية لبيش .
P. Barnabe Meistermann : Nouveau guide de Terre Sainte 1907	(٦٤٨) دليل الارض المقدسة لبرنابه مسترمان عن سنة ١٩٠٧
Baedeker : Palestine et Syrie	(٦٤٩) دليل فلسطين وسورية لبيدكر
De Goeje : Mémoire sur la conquête de la Syrie	(٦٥٠) مفكرات على فتح سورية لدخويه

(٦٥١) وصف جغرافي اثري لبلاد فلسطين (الخليل والسامرة واليهودية) لكيرين .	*V. Guérin* : Description géographique, historique et archéologique de la Palestine (Galilée, Samarie, Judée)
(٦٥٢) سورية اليوم للورتيه .	*Lortet*: La Syrie d'aujourd'hui
(٦٥٣) التاريخ القديم للأمم في الشرق القديم لماسبرو .	*G. Maspero*: Histoire ancienne des peuples de l'Orient Classique
(٦٥٤) تاريخ الصليبيين لميشو .	*Michaud*: Histoire des Croisades.
(٦٥٥) سياحة في سورية لبرشم وفاتيو	*Berchem et Fatio* : Voyage en Syrie (Collection
(٦٥٦) سورية الشمالية وسورية الجنوبية لبرشم .	*Berchem*: Syrie du Nord, Syrie du Sud.
(٦٥٧) مفكرات على الحروب الصليبية لبرشم .	*Berchem*: Notes sur les Croisades
(٦٥٨) تحقيقات اثرية في سورية لبرشم .	*Berchem*: Recherches Archéologiques en Syrie
(٦٥٩) قلعة بانياس وكتاباتها لبرشم	*Berchem* : Le Château de Bâni'âs et ses inscriptions
(٣٦٠) فرنسا في الشرق في القرن الرابع عشر لدلافيل لرو .	*Delaville le Roulx*: La France en Orient au XIV[e] siècle
(٦٦١) العقيدة والشرع الاسلامي لغولدصهير (ترجمة فليكس ارين)	*Goldziher*: Le dogme et la loi de l'Islam (Traduction de Félix Arin)
(٦٦٢) بيان في التآليف العربية او الخاصة بالعرب المنشورة في اوربا المسيحية من سنة ١٨١٠ الى سنة ١٨٨٥ لشوفين .	*Chauvin*: Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes, publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885
(٦٦٣) التقاليد الفرنساوية في لبنان لريستلهوبر .	*Ristelhuber*: Traditions Françaises au Liban

(٦٦٤) سورية ليعقوب ثابت .	*Jacques J. Tabet*: La Syrie
(٦٦٥) مكتبة الحروب الصليبية لميتسو	*Michaud*: Bibliothèque des croisades
(٦٦٦) سورية وفلسطين اشوفيه وايزانبر .	*Chauvet et Isambert*: Syrie et Palestine
(٦٦٧) البعثة الفينيقية ارنان	*Renan*: Mission de Phénicie
(٦٦٨) تاريخ العرب العام اسيديليو	*Sédillot*: Histoire générale des Arabes
(٦٦٩) باكورة في تاريخ العرب قبل الاسلام لكوسين دي برسفال	*Caussin de Perceval*: Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islam
(٦٧٠) رحلة في بلاد العرب لبوركهار	*Burckhardt*: Voyage en Arabie
(٦٧١) وصف بلاد العرب لنيبور	*Niebuhr*: Description de l'Arabie
(٦٧٢) عام في السياحة في اواسط بلاد العرب لبالكراف .	*Palgrave*: Une année de voyage dans l'Arabie Centrale
(٦٧٣) مذكرات سياحة في بلاد العرب لهوبر .	*Huber*: Journal d'un voyage en Arabie
(٦٧٤) رحلة اثرية الى بلاد الصفا وجبل الدروز لدوسو وماكلر .	*Dussaud et Macler*: Voyage archéologique au Safa et dans le Djebel-ed-Druze
(٦٧٥) مختصر في الصنائع الاسلامية لسلادين وميجون .	*Saladin et Migeon*: Manuel d'art Musulman.
(٦٧٦) تاريخ الالسن السامية لرنان	*Renan*: Histoire des langues sémitiques
(٦٧٧) موجز التاريخ السياسي والديني في الشام من الفتح الروماني الى عهدنا (بيروت)	Résumé de l'Histoire politique et religieuse de la Syrie depuis la conquête Romaine jusqu'à nos jours (Beyrouth)
(٦٧٨) الاسلام لادوارد مونتيه	*E. Montet*: L'Islam.
(٦٧٩) الحالة الدولية في الشام لاحسان الشريف .	*Ihsan Charif*: La condition internationale de la Syrie

(٦٨٠) القضـاء على الامتيازات الاجنبية في تركيا والاصقاع العربية لحبيب ابي شهلا ·

Habib Abi Chabla : L'extinction des capitulations en Turquie et dans les régions arabes

(٦٨١) بلاد العرب قبل الاسلام لجويدي ·

I. Guidi : L'Arabie antéislamique

(٦٨٢) كتاب السياسة لبونشلي ·

Bluntschli: La politique

(٦٨٣) تعليقات اثرية لدرانبور

Derembourg; Notes épigraphiques

(٦٨٤) الكنى والالقاب في الآداب العربية لباربيه دي مينار ·

Barbier de Meynard: Surnoms et sobriquets dans la littérature arabe

(٦٨٥) معجم مفصل في اسماء الثياب عند العرب لدوزي ·

Dozy: Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes

(٦٨٦) ملحق للمعاجم العربية لدوزي

Dozy: Supplément aux dictionnaires arabes

(٦٨٧) سياحة في حوران وعلى ضفاف بحيرة لوط لري ·

Rey: voyage dans le Haouran et aux abords de la mer Morte

(٦٨٨) في سينا والبتراء (وادي موسى) لليون كار ·

Léon Cart: Au Sinaï et dans l'Arabie Pétrée

(٦٨٩) المفكرون في الاسلام لكارادي فو ·

Carra de Vaux : Les penseurs de l'Islam

(٦٩٠) سورية ولبنان في عام (١٩٢١)

La Syrie et le Liban en 1921

(٦٩١) مختصر في تاريخ سورية للاب هنري لامنس ·

H. Lammens : La Syrie. Précis historique

(٦٩٢) بحث في عهد الخليفتين معاوية الاول و يزيد الاول للامنس ·

H. Lammens. Etudes sur les règnes des Califs Omaiyades Moawia 1er et Yazid 1er

(٦٩٣) كيف استقرت فرنسا في (سورية سنة ١٩١٨—١٩١٩) لدي كونتوبيرون

R. de Gontaut-Biron: Comment la France s'est installée en Syrie « 1918-1919 »

(٦٩٤) رحلة ناصر خسرو في القرن الخامس من سنة٤٣٧—٤٤٤هـ١٠٣٥ — ١٠٤٢ م المعروفة بسفرنامه في سورية وفلسطين ومصر وبلادالعرب وبلادالفرس نقلها للافرنسية وعلق عليها شيفر ٠

Sefer Nameh: **Relation du voyage de Nassri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse. Publié, traduit et annoté par Charles Schefer**

(٦٩٥) من انقره الى لوزان لدي كونتو بيرون ولريفيران ٠

R. De Gontaut-Biron et Le Révérend: **D'Angora à Lausanne**



تقويم الشام

تعريف الشام للاقدمين

الشأم والشأْم والشام والشآم هو اسم هذا القطر العزيز على ما عرفته العرب وهو يتناول عامة البلاد الداخلة اليوم في فلسطين وسورية بحسب الاصطلاح الحديث · وسورية اسم غلب اطلاقه على القطر الشامي منذ عهد الفراعنة مقتضباً مع تخفيفه من اسم اشورية لغلبة الاشوريين عليه والسين والشين تتعاوران في اللغات السامية · قال البكري : "سورية « بضم اوله وكسر الراء المهملة وتخفيف الياء اخت الواو وفتحها » اسم للشام · وقيل ان سبب تسميته بسورية نسبة لصور ثغر الشام القديم ومخرج الصاد والسين واحد · وقال آخرون ان اليونان لما فتحوا الشام رأوا الاشوريين يتولون امره فسموه اشورية · قال المسعودي : سورية هي الشام والجزيرة وكان الروم يسمون البلاد التي سكانها المسلمون في عهده (٣٤٥ ه) من الشام والعراق سوريا ، والفرس كانوا يسمون العراق والجزيرة والشام سورستان اضافة الى السريانيين الذين هم الكلدانيون وتسميهم العرب النَّبَط ·

ويقال ان فلسطين [1] سميت بفلسطين بن سام او بفلسطين بن كلثوم ، او بفليستين بن كسلوخيم من بني يافث بن نوح ثم عربت فليشين · وجوزوا في اسم

---

(١) قد ننقل عبارة المؤلفين برمتها او نحذف منها جملاً او الفاظاً بحسب ما يقتضيه تأليف الكلام وبسطه او اقتضابه ولا نعزو عبارات المؤرخين التي نقلها غير واحد منهم على الاغلب ويكون العزو لما تفرد به مؤرخ او كان له ابتكاراً دون غيره من معاصريه وسابقيه ·

الشام التذكير والتأنيث والمشهور التذكير . وللغويين والجغرافيين في سبب تسميته شاماً آراء مختلفة فقيل سمي لتشاؤم بني كنعان اليه وقيل بل سمي بسام بن نوح لانه نزل به واسمه بالسريانية شام بشين معجمة . وقال بعضهم ان سام بن نوح لم يدخل الشام قط وقيل لان ارضه اي ارض الشام مختلفة الالوان بالحمرة والسواد والبياض فسمي شاماً لذلك ، كما يسمى الخال في بدن الانسان شامة ، وقيل سمي شاماً لانه عن شمال الكعبة . والشام لغة في الشمال ، وقيل سميت الشام شاماً لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات . وجوزوا فيه وجهين احدهما ان يكون من اليد الشؤمى وهي اليسرى والثاني ان يكوم فعلاً من الشؤم .

* * *

معنى الشام وجمعه — واختصرت العرب من شامين الشام وغلب على الصقع كله (ياقوت) وهذا مثل فلسطين وقنسرين ونصيبين وحُوّارين وهو كثير في نواحي الشام . وذكروا ان معنى الشام الطيب ، ويقال للشام المدّاعة (مشددة) ، واللماعة بالركبان تلمع بهم اي تدعوهم اليها وتطبيهم ، وقد تجمع الشام على شامات وتسمى بلاد الشام بذلك ، ومن الناس من لا يجعله الا شاماً واحداً ، ومنهم من يجعله شامات فيجعل بلاد فلسطين والارض المقدسة الى حد الأردن شاماً ، و يقولون الشام الاعلى و يجعل دمشق وبلادها من الأردن الى الجبال المعروفة بالطوال شاماً ويجعل سورية وهي حمص وبلادها الى رحبة مالك شاماً ، ويجعلون حماة وشيزر من مضافاتها و يجعل قنسرين من بلادها وحلب مما يدخل في هذا الحد الى جبال الروم وبلاد العواصم والثغور . فاما عكا وطرابلس وكل ما هو على ساحل البحر وكل ماقابل شيئاً منه شيئاً من الشامات فيحسب منه .

واطلاق الشام على دمشق من باب اطلاق العام على الخاص والعرب (نالينو) كثيراً ما يسمون المدن القواعد باسماء أقاليمها فكانوا يقولون بلا فرق دمشق او الشام — الفسطاط اوالقاهرة او مصر — شبام او حضرموت — صحار او عُمَان — الاندلس بدلاً من قرطبة — صقليّة عبارة عن بلرم .

* * *

حدُّ الشام / هذا غاية ما قالوه في تعليل اسم الشام وسورية وفلسطين . اما حد قديمًا : (الشام فمن الغرب البحر المتوسط او بحر الروم اي بحر الملح او بحر الشام ومن الشرق البادية من أيلة الى الفرات . وأيلة مدينة قديمة على البحر الاحمر او القُلزم وهي على مقربة من العقبة اليوم . ثم يذهب الحد من الفرات الى حد الروم او آسيا الصغرى وشمالاً الى الروم وجنوبًا حد مصر وتيه بني اسرائيل . واوصلوا الحد من الغرب الى طرسوس قرب أذنة الى رفح في اول الجفار بين مصر والشام . واوسع من هذا التعريف انه يحيط بالشام من جهة الجنوب حد يمتد من رفح الى تيه بني اسرائيل الى مابين الشوبك وأيلة الى البلقاء ويحيط به من جهة الشرق حد يمتد من البلقاء الى مشاريق صرخد آخذاً على اطراف الغوطة الى سَلَمية الى مشاريق حلب الى بالس . ويحيط به من جهة الشمال حد يمتد من بالس مع الفرات الى قلعة نجم الى البيرة الى قلعة الروم الى سميساط الى حصن منصور الى بهسنى الى مرعش الى بلاد سيس الى طرسوس . وهذا الحد للعرب قال به كاتب جلبي في القرن الحادي عشر .

***

حقيقة حد / وبموجب الاتفاق الافرنسي التركي الاخير جعلت الحدود في قرية قطمة الشام : / على طريق السكة البغدادية على اربعين كيلومتراً من حلب . ودخلت كليس في حدود الروم . وليس هذا هو الحد الجغرافي الطبيعي للشام من الشمال . بل حد الشام ينتهي بسفوح جبال طوروس المعروفة بالدروب عند العرب آخذاً الى ماوراء خليج الاسكندرونة لجهة بلاد الروم وكان جبل السياح (بفتح السين وتشديد الياء) حداً بين الشام والروم ولا نعرف هذا الجبل بهذا الاسم اليوم . ويقول الادريسي : ومن السويدية الى جبل رأس الخنزير عشرون ميلاً وعلى هذا الجبل دير كبير وهو اول بلاد الارمن وآخر بلاد الشام . فما كان من جهة الشام على ضفة الفرات فهو شام وما كان على الضفة الاخرى من الشرق فهو عراق . فصفين مثلاً في الشام وقلعة جعبر في بر الجزيرة الفراتية وبينهما مقدار فرسخ او اقل وتدخل بالس اي مسكنة بالشام لانها من غرب الفرات وتدخل البيرة (بيره جك) في الجزيرة لانها على الشق الآخر من الفرات . وما كان من دير الزور على الفرات الى جهة الشام فهو من الشام

وما كان على الشاطئ الآخر الى الشرق فهو من العراق وتدخل دومة الجندل المعروفة اليوم بالجوف في الجنوب في جملة هذا القطر · كما ان أيلة هي آخر الحجاز واول الشام · فالعريش او رفح او الزعقة ورفح هي حد الشام الجنوبي الغربي ومعان نصفها للشام ونصفها للحجاز فيقال معان الشامية ومعان الحجازية ·

***

حدوده مع مصر : وقد اتفقت الحكومتان العثمانية والمصرية سنة (١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م) على تعيين الحد بين مصر والشام من رأس طابا على الساحل الغربي لخليج العقبة ممتداً الى قمة جبل فورت ماراً على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا ، ثم من قمة جبل فورت يتجه الى الخط الفاصل الى نقطة المنرق على قمة جبل فتحي باشا حيث ملتقى طريق غزة الى العقبة بطريق نخل الى العقبة · ومن هذه النقطة الى التل الذي الى الشرق من مكان ماء يعرف بثميلة الردادي والمطلة على الثميلة ، بحيث تبقى الثميلة غربي الخط · ومن هناك الى قمة رأس الردادي ثم الى رأس جبل الصفرة ، ومنه الى رأس القمة الشرقية بجبل قم قف ثم الى سويلة شمالي الثميلة ، ومنها الى غرب الشمال الغربي من سماوة ومنها الى قمة التل الواقع الى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة في الفرع الشمالي من وادي مايين ، ومنها الى غربي جبل المقراة فالى رأس العين ثم الى نقطة على جبل لم حواويط الى منتصف المسافة بين عمودين قائمين في الجنوب الغربي من بئر رفح ، ومنها الى نقطة على التلال الرملية في اتجاه ، ٢٨ درجة اي ٨٠ درجة الى الغرب وعلى مسافة ٤٢٠ متراً في خط مستقيم من العمودين المذكورين ثم يمتد الخط مستقيماً من هذه النقطة باتجاه ٣٣٤ درجة من الشمال المغنطيسي أعني ٢٦ درجة الى الغرب الى شاطئ البحر الابيض المتوسط ماراً بتل خرائب على ساحل البحر الاحمر · هذا هو الحد الذي اتفقوا عليه بين مصر والشام ·

وفي اول ايلول ١٩٢٠ تقرر ان تكون حدود حلب شمالاً التخوم الشمالية للواء الاسكندرونة والتخوم الشمالية للمنطقة الغربية القديمة آخر نقطة منها تلتقي بالخط الحديدي شرقي محطة هملن ثم خط الحديد وهو داخل التخوم حتى تل ابيض ثم خط يجمع بين تل ابيض والخابور شرقاً ونهر الخابور حتى مصبه في الفرات

ثم نهر الفرات حتى البوكمال جنوباً وهو الخط المعروف بخط البوكمال الى تدمر ثم الى الحدود الغربية الشمالية · وهذا الحد مصنع كل التصنيع · ولعل هذا القطر لن يعدم حده الطبيعي من الشمال فان الصخور التي تفصل الشام من الشمال عن آسيا الصغرى ليس لها مثيل في التخوم الطبيعية كما قال نابوليون · وجعل اليزهركاو حد الشام من جبال امانوس (اللكام) الى طورسينا وقال : ان طورسينا وان ضم سياسياً الى مصر فهو جزء من اجزاء الشام · وقال بوليه : ان حد سورية شمالاً آسيا الصغرى · وقال بورتر : ان سورية اي سورية الرومانيين يحدها شمالاً آسيا الصغرى · وقال بيدكر : ان حد الشام من طوروس الى مصر · وبذلك رأينا ان الشام يحيط به من الجنوب رمال من الجفار وتيه بني اسرائيل وجزء من البحر الاحمر فالبادية · ومن الشمال جبال شامخة صعبة المسالك وهي جبل امانوس احد سلاسل جبال طوروس · ومن الشرق الفرات ومن الغرب البحر · اي رمال وجبال ونهر وبحر ·

***

مساحة الشام وصورته : وقدر القدماء طول الشام من العريش الى الفرات بمسيرة نحو شهر وعرضه من جبلي طي اجاء وسلمى من القبلة الى بحر الروم نحو عشرين يوماً وجبلا اجاء وسلمى جنوب الشراة وراء البتراء المعروفة عند الرومان باسم (بروفنسيا ارابيا او ارابيا بترا — Provincia Arabia Arabia Petraea) · وقال شيخ الربوة : حد الشام طولاً من ملطية الى العريش ومسافته سبعة وعشرون يوماً ، وعرضه الأعرض من منبج الى طرسوس · وعدّ ياقوت من الشام الثغور وهي المصيصة وطرسوس وأذنة وجميع العواصم من مرعش والحدث وغير ذلك ·

وقال علماء الافرنج : ان معدل طول الشام نحو الف كيلو متر وعرضه نحو مائة وخمسين كيلو متراً ومساحته ١٨٣ الف كيلو متر مربع وقال بعضهم : ان مساحته السطحية نحو ٢٨٠ الف كيلو متر وابلغه غيره الى ثلثمائة الف وانزله آخر الى مائة وتسعة وخمسين الف كيلومتر بل بالغ في تصغيره بعضهم فقال ان مساحته مائة الف كيلومتر مربع فقط ومنهم من قال مئة وخمسة عشر · وقال غيره : ان طوله ينيف

على اربعمائة ميل وعرضه يختلف كثيراً ومعدله نحو مئة وعشرين ميلاً . ومساحة الشام خمسون الف ميل مربع . وذكر آخر : ان طول الشام المتوسط من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر وعرضه من الغرب الى الشرق نحو اربعمائة وخمسين كيلومتراً . واكد بعضهم ان طوله من طوروس الى طور سينا لا يقل عن الف ومئة كيلومتر وقال غير واحد : انه لا يقل عن ٨٠٠ الى ٩٠٠ هذا اذا تركت منه البادية ولم يحسب غير الاراضي القابلة للزرع . وقدرت الارض القابلة للزراعة في الشام بمئة وخمسين الف كيلو متر مربع . والاختلاف في حد الشام ومساحته بين علماء الجغرافية المحدثين اكثر مما بين علماء تقويم البلدان من العرب الاقدمين . وقد شبه بعضهم الشام في هيئته الطبيعية بشكل مستطيل طوله ثمانية اضعاف عرضه . وشبهه آخر بانه شكل مربع الاضلاع مستطيل كثيراً .

***

مدخل الفاتحين الى الشام :) وقد جاء الفاتحون الشام بحراً وبراً بل جاؤوها من جهاتها الاربع (فجاءها الفراعنة من البحر والبر ، والبابليون والفرس من الشرق والشمال ، والاسكندر والصليبيون والعثمانيون من الشمال ، وغازان وهولاكو وتيمورلنك من الشرق ، والعرب الفاتحون من الشرق والجنوب ، ونابوليون من الجنوب ومن الغرب بحراً ، وابراهيم باشا المصري براً وبحراً اي من الغرب والجنوب الغربي ، وجيوش الحلفاء من الانكليز والفرنسيس والعرب من الجنوب والغرب . وكانت على اعتزالها وراء حدودها الطبيعية مطمح الطامحين ، وطعمة الطامعين ، لم تدفع عنها حصونها التي فصلتها عن الحجاز بصحار مقفرة ، وحرار معطشة ، وعن العراق بنفور عظيم ، وعن آسيا الصغرى بجبال عالية ، وعن مصر بل عن قارة افريقية برمال محرقة . وداست تربتها الجميلة سنابك خيل الفاتحين ، وعبثت بجميل محياها سهام النوائب ، واوردتها موارد العذاب الهون ، ولم تأمن عادية العادين ، على ما فيها من الجبال الشم ، ومضايق تضل فيها العُصم .

***

مدن الشام وقراه : في الشام مدن كثيرة منها ما دثر وانحط بعد ان كان له شأن مهم في الازمان الغابرة ، مثل قيسارية والمعرة وانطاكية وقنسرين وافامية وجرش والبتراء وبصرى وصيدا وصور وتدمر وبعلبك وجبيل وسبسطية . ومنها ما ثبت على صدمات الايام والليالي وكان له من موقعه وملاءمة الطبيعة له ما ابقى عليه، كأن يكون وسط ريف خصيب ، وماء دافق ، كدمشق وحمص وحماة وطرابلس . ودمشق اهم مدن الشام وعاصمته في الاسلام وعلى عهد السريان ، وكانت انطاكية عاصمته على عهد الروم والرومان . وتجيء بالعظم بعد دمشق مدينة حلب ثم بيروت ثم القدس . وسكان دمشق نحو مائتين وخمسين الفاً ، وسكان حلب نحو مائتين ، و بيروت نحو مئة وخمسين، والقدس اقل من ذلك . وفي الشام عدة مدن تزيد على خمسين الف نسمة ، مثل يافا وحماة وحمص ، وفيها عدة مدن تختلف بين العشرين والثلاثين الف نسمة ، مثل غزة . صفد . زحلة . صيدا . المعرة . الاسكندرونة . وعشرات من القرى هي اشبه بمدن او مدن اشبه بقرى تقلّ نفوسها عن عشرة آلاف او تزيد عنها قليلاً مثل صيدا والخليل والرملة ولدّ والناصرة وطبرية والدامور و بعلبك وحاصبيا والصلت وعربيل ودومة ودارايا وجوبر و يبرود وديرعطيــة وحارم وادلب وسَلَمية وغيرها . ولا تقلّ قرى الشام عن ثمانية آلاف قرية ومزرعة و بليدة ومدينة وسكانها نحو ثلاثة ملايين ونصف يدخل فيهم العرب الرحالة .

* * *

طبيعة الشام : قطر تأخذ فيه الفصول الاربعة حكمها ، وتتم في قيعانه وجباله اسباب النعيم، معتدل الاهوية ، متهاطل الامطار والثلوج ، ممرع التربة ، فيه الغابات والمعادن ، والحمامات المعدنية والانهار الجارية ، والبحيرات النافعة ، والاجواء البهجة ، والرباع المنبسطة ، والمناظر المدهشة فيه من الجبال امثال الشراة والخليل وعامل وسنير وحرمون ولبنان وحوران وجرش وعجلون وعكا واللكام والاقرع والكابية والاكراد وجبال القدموس و باير والمنيطرة وصنين والكنيسة والباروك ونيحا والريحان وطابور والجرمق والكرمل وبلودان والنبك والصلت ومؤاب وانطاكية والقصير وريحا . ومن البحيرات العمق والغاب وافامية والمطخ واليمونه والعتيبة والهيجانة وطبرية والحولة ولوط .

ومن السهول سهل حوران والجولان والجيدور والغوطة والمرج والبقاع والبقيعة وحمص والاسكندرونة وانطاكية واللاذقية وطرابلس والشويفات وصيدا وصور والطنطورة وبيسان واريحا · ومن المروج مرج ابن عامر وصارونه والبلقاء · ومن الانهار النهر الكبير والاردن واليرموك والعاصي والفرات وقويق والساجور وعفرين والاسود و بردى والبارد وابراهيم وقاديشا والليطاني والحاصباني والزرقا والعوجا والاعوج والاولي والزهراني والكلب والموجب والدامور والذهب وقنديل وصنوبر وقرشيش و برغل والمضيق والسن او الابتر وحر يصوف او مرقية والجوز والكابرة ونعمين والمقطع والازرق والاخضر وابي زابورة · ومن المناظر البديعة صنين وظهر القضيب والمدن والبياضة واصطبل عنتر والصبر والنبي يوشع وقاسيون والطور والهرمل والكرمل ·

* * *

خيرات الشام: وفيه تنبت الحبوب والبقول والاشجار على اختلاف انواعها · ففي جنوبيه وشرقيه النخيل · وفي سواحله الموز والبرتقال · وفي اواسطه السرو والارز · و يجود فيه القطن والقنب والكتان والحرير والنيلة والدخان وقصب السكر والعسل والارز والفوة والسماق والسوس · وتصلح مراعيه لتربية ضروب الماشية · وفي ارضه ومياهه انواع الطيور والاسماك وتعيش فيه الجمال كما تعيش البغال وتسمن فيه الجواميس كما ينمو الغنم والماعز فيه زهاء مئة وثلاثين منجماً لم يستثمر منها الا الاسفلت والفوسفات والحمر على ان فيه الذهب والفضة والنكل والحديد والفحم الحجري والرصاص والمغرة والنحاس والكروم والزئبق والكبريت والسنباذج والجبس والبترول والانتيمون والزاج والمرمر · ومن الحمامات المعدنية حمام طبرية وحمة سمخ وحمة ابي رباح وحمة ضمير وحمة معلولا وحمة انطاكية والمرقب وزرقاء معين وعجلون ولها كلها من الخواص الصحية ما اشتهر امره ·

* * *

هواء الشام وماؤه: صقع حوى غرائب الطبيعة تشهد فيه برداً قارساً بل شتاء مستوفى في قنن جباله وسفوحه وفي الوقت نفسه تشهد في اغواره كغور بيسان وغور الصافي وطبرية واريحا ربيعاً تاماً بل صيفاً معتدلاً ، وبينا تذيب شمس الصفاة واللجاة

رأس قاصدها ، اذا به في ريح بليل عليل اذا قصد الجبال وما اليهـا • فهو مصطاف ومرتبع ومشتى في آن واحد • وفيه ما لا يكاد يوجد له مثيل في الارض : بحيرة طبرية تحت سطح البحر على ١٣١٦ قدماً وفيها اسماك كثيرة اما بحيرة لوط فلا يعيش فيها حيوان فكأن نهر الأردن الذي يجري من بحيرة طبرية و ينتهي ببحيرة لوط هو في اوله حياة وفي آخره موت ، وهذا لا نظير له في العالم •

ومن عجائب طبيعة الشـام ان تنبجس في بعض اصقاعه عيون طيبة ثرة في بقعة ضيقة • ففي الجديدة على مقربة من الحولة عشرات من العيون على هضبة سميت بهـا البلدة « مرج عيون » وفي جبل ريحا من عمل حلب عيون لطيفة دارّة في الاعالي تكاد تخلو منها السهول المنخفضة المجاورة ومياه الشام على الجملة طيبة لذيذة •

* * *

خصائص الشام : قطر هذه مواهبه قامت فيه في الازمان الغابرة النصرانية واليهودية • وانبعث من ارجائه مجد من الاسلام ، فكان مباءة اول دولة عربية اسلامية ، والنصيرية ثم آوى اليه الشيع الغريبة من النحل والمذاهب التي لامثيل لها في غيره ، كالدرزية والاسماعيلية والموارنة والسامرة بل معظم المذاهب الاسلامية والمسيحية والاسرائيلية وتبلغ سبعة عشر مذهباً وجملة من العناصر القوية ذات المدنية التي استحالت عرباً •

رأى الشام طلعة موسى وعيسى واحمد من النبيين ، وامثال الاسكندر وابن الخطاب ونور الدين وصلاح الدين وسليم ونابوليون وابراهيم من الفاتحين • وعمر بن عبد العزيز والمأمون وابن تيمية وابا الفدا من المجددين • و بختنصر وهولاكو وجنكيز وغازان وتيمورلنك من المخربين ، وقلّ في الممالك كما قال كورتيوس مااندمج فيه كثير من التواريخ في بقعة ضيقة كهذه •

الشام مهوى افئدة الشعوب المسيحية ، ومجاز حجاج المسلمين الى الاماكن الطاهرة الحجازية ، بل نقطة الاتصال القريبة بين آسيا وافريقية ، وآسيا واوربا ، بل بين القارات الثلاث القديمة آسيا واوربا وافريقية ، واجمل مصيف ومشتى للاقطار الحارة المجاورة كالحجاز والعراق ومصر • والشـام في اواسط البلاد التي يتكلم اهلها بالعربية

هو بلد الخيال والشعر ، بل الهمم العلياء واستقلال الفكر ، وارضه ابداً باسمة طربة كسمائه :

مصحة ابدان ونزهة اعين ولهو نفوس دائم وسرورها
مقدسة جاد الربيع بلادها ففي كل ارض روضة وغديرها



سكان الشام

العمو واللودانو: من الصعب الحكم على اصول السكان في بلاد الشام قبل ان يُعرف التاريخ ، وتعيين اول من نزلها من القبائل قبل ان تبنى المدن والحواضر وتعرف المزارع والدساكر واقدم ما عرف منها قبائل كانت تعرف بالعمو وردذكرها في الآثار المصرية ومعناها الشعب باللغة السامية اختلطت على مايظهرا بذرية لود اخي آرام، او بغيرها من القبائل التي كانت تسكن بعض شمالي الشام ، وسمي هذا القبيل باللوتانو او لودانو ويقسمون الى روتان المغرب و يراد بهم سكان دمشق و بلاد كنعان ، والى روتان المشرق او الاعلى وهؤلاء كانوا ينزلون في شمالي الشام وجزء من غربي ما بين النهرين ولعل ذلك كان قبل الطوفان ، طوفان نوح او بعــده بقليل . وقد حدث الطوفان قبل المسيح بنحو الفين وخمسمائة سنة ، ولم يعم الكرة الارضية ولا قارة من قاراتها المعروفة ، بل انحصر في بقعة صغيرة من آسيا على الارجح اي انه كان في الجزيرة على ما ذكره اهل الادراك من المفسرين .

وظهرت بعد الطوفان امم كثيرة سكنت الشام ، بعضها من اصل سامي وبعضها لم يعرف عنه شيء ، ومنها ماعرف انه اتى من البلاد المجاورة ومنها من لم يثبت اصله . فقد ظهر بعد الطوفان الاراميون في دمشق والجيدور والجولان والبقاع وحمص ولبنان وآرام هو الاسم الذي اطلقته التوراة على الشام وبين النهرين وكان يسكنها ابنــاء آرام الابن الخامس لسام . واقام العموريون في البلاد الواقعة بين البحر والأردن ، والعمونيون في ارض جلعاد اي في شرقي الأردن ، والموآبيون في الجنوب الشرقي من

بحيرة لوط ، والاسماعيليون من نسل اسماعيل جد العرب في سلع اوالبتراء وماجاورها. وانتشر الادوميون من وادي العربة الى حدود العقبة عقبة ايلة والفينيقيون في صور وصيدا وجبيل ، وتفرعت من هذه القبائل فروع كثيرة في قرون مختلفة . ولا تعرف اصول اكثر هذه القبائل. وقد قال رولنسون ان اصل الفينيقيين من سكان البحرين في الخليج الفارسي ظعنوا من هناك الى ساحل الشام منذ نحو خمسة آلاف سنة وانهم عرب باصولهم وان هناك مدناً فينيقية اسماؤها اسماء فينيقية مثل صور وجبيل. وذكر مكالستر انه سكنت فلسطين شعوب من غير الساميين وربما عني بهم الحثيين والعمور يين .

ومن اقدم شعوب الشام شعب كان ينزل منذ الزمن الاطول في الحوض الاعلى من نهري الفرات وقزل ايرمق و يعتصم في مضايق جبال طوروس عرف عند اليونان باسم خيطايوس وعند العبران بخطي خطيم وعند الاشوريين بخاطي وعند المصريين بخايطي خاطي وعرفه المتأخرون بالحثيين وهو شعب غير سامي مجهول اللسان . واصل العبرانيين او اليهود سبط من الساميين الذين نزلوا من جبال ارمينية الى سهول الفرات على عهد مملكة الكلدان الاولى وضربوا نحو الغرب فجازوا الفرات فالقفر فالشام حتى انتهوا الى ماوراء بلاد الأردن وراء فينيقية. وتعرف هذه الاسباط بالعبرانيين يعني اهل ماوراء النهر. قال هشام الكلبي : ما اخذ على غربي الفرات الى برية العرب يسمى العبر واليه ينسب العبريون من اليهود لانهم لم يكونوا عبروا الفرات حينئذ . والعبرانيون كمعظم الساميين شعب من الرعاة الرحالة لم يحرثوا الارض ، ولا سكنوا الدور والمنازل ، وقد دعيت بلادهم ارض الميعـاد او ارض كنعان او فلسطين . ودعاها اليهود بلاد اسرائيل ثم دعيت بعدُ بلاد اليهودية ودعاها اهل النصرانيـة الارض المقدسة وكان عدد الاسرائيليين ايام عزهم ٦٠١٧٠٠ رجل يحمل السلاح منقسمين الى اثني عشر سبطاً .

***

الاراميون والعناصر الأخرى : { و بعد انقراض دولة الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد عمّ اسم آرام هذه الديار فاصبح القسم الاكبر من سورية يسمى آراماً وسكانها الآراميين وقد ورد اسم آرام في التوراة مضافاً عدة مرات مثل آرام

رحوب وآرام معكة وآرام صوبا . وقيل ان إرم الواردة في القرآن مضافة ايضاً « ارم ذات العماد » هي دمشق بعينها . وللمفسرين في ذلك اقوال كثيرة ليس هذا محل ايرادها . وفي الشام عناصر منوعة من نسل حام بن نوح وسام بن نوح و يافث بن نوح . اي ان فيها الدم الآري والقافقاسي والعربي والتركي وبعبارة اصرح فيها بقايا من الشعب الاشوري والبابلي والكلداني والكنعاني والفينيقي والعبراني والحثي والنارمي والروماني واليوناني والتتري والعربي . وكانت منذ عهد بني اسرائيل موطن العصبيات وفيها على رأي ابن خلدون قبائل فلسطين وكنعان و بني عيصو و بني مدين و بني لوط والروم واليونان والعمالقة واكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في العصبية» . لذلك يتعذر رد كل جنس الى جنسه اليوم بعد هذا التمازج الذي دام اكثر من ستين قرناً في هذه البوتقة الجميلة مضافة الى الاصول التي كانت فيها من قبل ونعني بهذه البوتقة بلاد الشام .

* * *

العناصر القديمة والعرب : كل أمة عظيمة عرفت في الشام طال عمرها بضعة قرون ثم فنيت في غيرها وأُدغم الضعيف في القوي وتمثل المغلوب في الغالب مع توالي الايام والليالي . هكذا يقال في السريان والعبران واليونان والرومان . ويمكن ان يقال في الجملة انه كان في الشام منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد شعوب كثيرة اهمهم الكنعانيون النازلون في الجنوب والوسط والشمال يقطنها الآراميون وما وراء ذلك من الشمال يسكنه الحثيون . ولم تطل حياة عنصر في صحة ببلاد الشام كما طالت حياة العرب فانهم فيها على اصح الاقوال منذ زهاء الفين وخمسمائة سنة واوصله بعضهم الى نحو اربعة آلاف سنة ، وهم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لساناً ومنزعاً . ولذلك كان من المعقول ان يدل الشامي بعربيته اكثر من ادلاله بفينيقيته وروميته وسريانيته وعبرانيته . في تاريخ فلسطين ان العرب دخلوا فلسطين قبل الاسلام بقرون . والدليل ان نرام سين بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق . م وصادف في سينا حكومة عربية ثم حارب قبيلة معان العربية واسر اميرها وقد ظهر من آثار بابل ما يثبت ذلك . ومنها ان سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين

اعتدوا على بلاد السامرة واخضع قبائلهم ومنها ثمود ومدين ومساكنهم شرقي الأردن وحارب عباديد واخذ منهم طائفة واسكنها في بلاد السامرة. ولما جاء الاسكندر الى غزة وحاصرها كانت حاميتها عربًا فقاومته اشد المقاومة ومنها ان احد تلامذة المسيح بشر بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد في اعمال الرسل ومنها ان الحرث حاكم دمشق كان عربيًا لما دخلها بولس الرسول كما ورد في رسالته الى اهل مدينة كورنثوس ومنها ان تيطس لما جاء لفتح القدس كان معه الحرث ملك العرب يقود فرقة عربية ومنها ان هركانوس المكابي التجأ الى الحرث ملك العرب فانجده وساعده على اخيه ارستوبولس ومنها ان فيلبس الروماني الذي صار امبراطورًا في رومية سنة ٢٤٤ ب.م كان عربيًا من بصرى حوران .

والغالب ان في العرب خاصية التمثيل اذا جاوروا شعبًا قربوه من مناحيهم وادخلوا عليه لغتهم وهم المادة العظمى التي ما زالت تفيض على الشام واهل الوبر والمدر والبادية والحضر منهم من اصبر الامم على الحروب والاسفار الطويلة والاكتفاء بميسور العيش لكنهم لا يصبرون على الضيم والاذى ولطالما غزوا من جزيرتهم العراق وفارس والجزيرة والشام ولم يسمع ان حكمتهم امة وقد تمكنوا كما قال جويدي من غزو الاعداء ولهم المفازة التي بينهم و بين العراق والشام اي صحراء الشام والنفود ومن هجم عليهم في بلادهم لم تدم سلطنته عليهم كملوك الاثور بين او رجع بالخيبة والافتضاح كغالوس .

* * *

دول العرب الاقدمين : كانت العرب تختلف الى الشام قبل الاسلام بقرون طويلة، قامت لهم فيها وفي جوارها دول عظيمة خلفت من آثارها ما دل على عظمتها فمنها دولة النبط و يغلب في اسماء ملوك النبطيين اسم الحرث وعبادة ومالك وهم عرب من بقايا العمالقة والعمالقة قوم من عاد وهم القوم الجبارون في الشام . ولم تخلف البتراء غير تدمر واصل ملوكها من سلالة عربية ايضًا . وقد ابقت هاتان الدولتان من اصولها وحاميتها جندًا كثيرًا اصبحوا بعدُ من جملة سكان الشام والمادة الاولى للعربية فيه . قال نالينو : النبط اوالنبيط في اصطلاح العرب في القرون الاولى للهجرة اسم اهل الحضر المتكلمين باللغات الارامية الساكنين في الشام وخصوصًا في بلاد

ما بين النهرين وليسوا النبط او الانباط الذين اتسعت مملكتهم في ارض الحجاز الشمالية الى حدود فلسطين ونواحي دمشق ٠

* * *

سليح وغسان والضجاعم : { وقد ذكر المؤرخون ان نزول العرب في ديار الشام اقدم من ذلك بقرون فان تغلث فلازر الثاني احد ملوك اشور غزا الشام مراراً من سنة ٧٤٣ الى ٧٣٢ ق ٠م واخضع في خلال ذلك السامرة ودمشق وصور وحماة وعرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت عليهم يومئذ ملكة اسمها حبيبة ٠ وقيل ان اول من دخل الشام من العرب سليح وهو من غسان — وغسان ماء نزل عليه قوم من الازد بين رمع وزبيد في اليمن فنسبوا اليه — و يقال من قضاعة فدانت بالنصرانية وملّك عليها ملك الروم رجلاً منهم يقال له النعمان بن عمرو بن مالك فلما خرج عمرو بن عامر مزيقيا من اليمن في ولده وقرابته ومن تبعه من الازد اتوا بلاد عك في اليمن ثم ارض الحجاز وصار منهم قوم الى الشام منهم آل جفنة ملوك الشام فكتب سليح الى قيصر يستأذنه في انزالهم فاذن لهم على شروط شرطها لهم ٠ وبنو غسان في الحقيقة حي من الازد على رواية المسعودي من القحطانية قال ابو عبيد وهم بنو جفنة والحارث وهو ثعلبة والعنقاء وحارثة ومالك وكعب وخارجة وعوف بن عمرو بن مزيقيا وذكر الهمداني ان في البلقاء طائفة منهم و باليرموك الجم الغفير و بحمص منهم جماعة ٠ وحكم ملوك غسان حوران والبلقاء والغوطة وحمص ودمشق ٠ قال المسعودي: وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما بين غوطة دمشق واعمالها ومنهم من نزل الاردن وقد اخرجت غسان من الشام سليحاً وصاروا ملوكها واول من ملك جفنة بن عمرو فقتل ملوك قضاعة من سليح الذين كانوا يدعون الضجاعمة او الضجاعم ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وجميع ملوك جفنة من آل غسان اثنان وثلثون ملكاً لبثوا في ملكهم ستمائة وست عشرة سنة وقيل اربعمائة سنة ٠ وقد جمع اخبارهم كوسين دي برسفال في تاريخ العرب ٠

* * *

التنوخيون { هذا في الجنوب اما في الشمال فقد نزل التنوخيون قبل الاسلام بقرون وسموا تنوخيين لانهم حلفوا على المقام بالشام ، والتنخ والتنوخ المقام ،

كانوا قبائل تناخم منازلها بلاد الروم فلما غزا ملك الفرس الروم ، وأذرع فيهم القتل والسبي وخرب العماير ، انفذ ملك الروم الى تنوخ يستنجدهم على ملك الفرس فأنجدوه ، وقاتلوا معه قتالاً شديداً ، ثم سألوا ملك الروم ان يتولوا حرب الفرس منفرد بن عن جند الروم لتظهر له طاعتهم وغناؤهم فاجابهم الى ذلك فقاتلوا الفرس وظفروا بهم ، فاعجب بهم ملك الروم وفرق فيهم الدنانير والثياب وقربهم وادناهم واقطعهم سورية وماجاورها من البلاد الى الجزيرة . وسورية مدينة بقرب الاحص على جانب البرية . قال ابن العديم هذا منتهى امرهم في الجاهلية .

ولم يعرف الزمن الذي كان فيه التنوخيون ، وبعضهم يقول انهم كانوا في اواخر القرن الثالث للمسيح ويقول المسعودي : ان قضاعة بن مالك بن حمير اول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم فملكوهم ، بعد ان دخلوا في دين النصرانية ، على من حوى الشام من العرب ، فكان اول ملوك تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك ، ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو ، ثم ملك بعده الحواري بن النعمان ولم يملك من تنوخ غيرهم . ثم وردت سليح الشام فتغلبت على تنوخ وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام . قال : وغلبت غسان على من بالشام من العرب فملكها الروم على العرب وقال : ان من ملكته الروم من اليمن بالشام تنوخ والضجاعم من سليح بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة وغسان استكفاء بهم من يليهم من بادية العرب .

***

المهاجرات والايطوريون } والغالب ان معظم مهاجرات العرب الى الشام كانت تقع عقيب حوادث طبيعية في ارضهم من جفاف وطوفان وجدب وموتان ، فيستهويهم بخصبه ، وينتجعون هناء العيش في ارجائه . وفي الاغاني لما ارسل الله سيل العرم على اهل مأرب قام رائدهم فقال : من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والأمر والتأمير ، والديباج والحرير ، فليلحق ببصرى والحفير ، وهي من ارض الشام فكان الذين سكنوه غسان .

ومن الدول العربية التي اشتهرت زمن دخول الرومان الى سورية دولة الايطوريين ومعنى الايطوريين بالعربية الجبليون وهم شعب عربي جاءوا من ايتورة اي الجيدور شمالي

حوران واشتهروا ابو مي النشاب فاستولوا بمضائهم الحربي على جبل الشيخ (حرمون) والبقاع الى فينيقية وبعض اسماء الجنود الجيدور بين التي جاءت في الكتابات اللاتينية باللغة الارامية وبعضها باللغة العربية . قال دوسو: لم تكن هجرة العرب الى سورية مما ينسب لادارة الرومان كما يظن بعضهم بل ان الاحوال قد سهلت طرقها في ذاك العصر وضمنت لهم رسوخ قدمها في ظل السلام . فقد كانت مدينة حمص في يد حكومة عربية قبل وصول القائد بومبي الى سورية وان الاقيال الذين تولوا امر تلك البلاد لتطلق عليهم القاب عربية صرفة . كما يفهم من آثار الصفا . ولما جاء الاسكندر الى الشام كان العرب يحتلون لبنان .

***

سليح وعاملة وقضاعة } وممن يجب عدهم في المهاجرة الأُول من العرب الى بر الشام سليح الذي اشرنا اليهم آنفاً فقد قال البكري: سارت سليح بن عمرو بن الحاف ابن قضاعة يقودها الحدْرجان بن سلمة حتى نزلوا ناحية فلسطين على بني أُذينة بن السَّمَيْذَع من عاملة وانتشر سائر قبائل قضاعة في البلاد ، يطلبون المتسع في المعاش ويؤُمون الارياف والعمران ، فوجدوا بلاداً واسعة خالية في اطراف الشام قد خرب اكثرها ، واندفنت آبارها ، وغارت مياهها ، لاخراب بخت نصر لها ، فافترقت قضاعة فرقاً اربعاً ينضم الى الفرقة طوائف من غيرها يتبع الرجلَ اصهارهُ واخواله فسار ضجعم ابن حماطة ولبيد بن الحدْرجان السليحي في جماعة من سليح وقبائل من قضاعة الى اطراف الشام ومشارفها وملك العرب يومئذ ظرب بن حسان بن أُذينة بن السَّمَيْذَع بن هنبر العمليقي فانضموا اليه وصاروا معه فانزلهم مناظر الشام بين البلقاء الى حوارين الى الزيتون (جبال فلسطين) فلم يزالوا ملوك العماليق يغزون معهم المغازي ويصيبون معهم المغانم حتى صاروا مع الزباء بنت عمرو بن عدي بن نصر اللخمي واستولوا على الملك بعدها فلم يزالوا ملوكاً حتى غلبتهم غسان على الملك قال بعض آل سعد بن ملكيكرب يذكر منازل من خرج من اليمن وقد ذكر غسان وقضاعة وكلباً :

وغسان حيٌّ عزهم في سيوفهم كرام المساعي قد حووا ارض قيصر
وقد نزلت منا قضاعة منزلاً بعيداً فامست في بلاد الصنَّوْبر
وكلب لها ما بين رملة عالج الى الحَرَّة الرجلاء من ارض تدمر

وعالج رمال معروفة في البادية والحرة والرّجلاء في ديار بني القين في اطراف الشام بين حوران وتيماء والشاعر يقول انها من ارض تدمر. وفي تاريخ الامم الاسلامية: « ان الضجاعمة ملوك اصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكاً ومن اشهر ملوكهم زياد بن المهبولة » .

* * *

لخم ، جذام ، عاملة ، ذبيان ، كلب : { ذكر الهمداني مساكن من تشاءم من العرب اي دخل الشام فقـال اما مساكن لخم فهي متفرقة واكثرها بين الرملة ومصر في الجفار ومنها في الجولان ومنها في حوران والبَثْنيّة ، ومدينة نَوَى ، وبها خلف بن جبلة القصيري وابن عزيز اللخمي مسكنه طرف جبال الشراة واما جذام فهي بين مَدْيَن الى تبوك فالى أذْرُح ومنها بخذ مما يلي طبرية من ارض الأردن الى اللجون واليـامون الى ناحية عكا واما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية الى نحو البحر واما ذبيان فهي من حد البباض بباض قرقرة — والقرقرة الارض الملساء — وهو غائط — والغائط كالغوطة المطمئن من الارض — بين تيماء وحوران لا يخالطهم الا طيّء وحاضرهم السواد ومرو الحيانيات — والحيانية كورة بالسواد من ارض دمشق وهي كورة جبل جرش قرب الغَوْر — واما كلب فساكنها السماوة — والسماوة الارض المستوية لا حجر بهـا وهي البادية بين الكوفة والشام — ولا يخالط بطونها في السماوة احد . ومن كلب بارض الغوطة عامر بن الحصين بن عليم .وابن رباب المعْقِلي ومن بني الحرث بن كعب بيت يسكنون بالفَلَجة من ارض دمشق — والفلجات في شعر حسان بالشام كالمشارف والمزالف بالعراق والمشارف جمع مُشْرِف قرى قرب حوران منها بصرى من الشام —

* * *

جهينة ، القين ، بهراء ، تنوخ : { ثم للخم ومن يخالطها من كنانة ماحول الرملة الى نابلس ولهم ايضاً ماجاز تبوك الى زُغَر — قرية بمشارف الشام — ثم البحيرة الميتة . وللخم ايضاً الجولان وما يليها من البلاد نوى والبَثْنيّة وشقص من ارض حوران

و يخالطهم في هذه المواضع جهينة وذبيان ومن القين وعن ايسر جبال الشراة مدائن قوم لوط قال : وفي الحيانيات وما يليها ديار القين حيث كانت بقية من جديس اخوة طسم فاذا جزت جبل عاملة تريد قصد دمشق وحمص وما يليها فهي ديار غسان من آل جفنة وغيرهم فان تياسرت من حمص عن البحر الكبير وهو بحر الروم وقعت في ارض بهراء ثم من ايسرهم مما يصل البحر تنوخ وهي ديار القُضَيْض سادة تنوخ ومعكودهم (المقيم الملازم) ومنها اللاذقية على شاطئ البحر ثم تقع في نصارى وغير ذلك الى حد الفرات وما وقع في ديار كلب من القرى تدمر وسلمية والعاصمية وحمص وهي حميرية وخلفها مما يلي العراق حماة وشيزر وكفر طاب لكنانة من كلب .

* * *

اياد وطيئ وكندة وحمير وعذرة ويؤخذ مما قاله اليعقوبي ان اهل حماة قوم وزبيد وهمدان ويحصب وقيس : (من يمن والاغلب عليهم بهراء وتنوخ وصوران — كورة بحمص — وبها قوم من اياد واهل حمص جميعاً يمن من طيئ وكندة وحمير وكلب وهمدان وغيرهم من البطون واهل التمة من اقاليم حمص كلب واهل سلمية من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي ومواليهم واهل تدمر كلب وتلمنس مساكن اياد (وتل منّس حصن قرب المعرة) ومعرة النعمان اهلها تنوخ واهل البارة بهراء وفامية عذرة وبهراء واهل مدينة شيزر قوم من كندة ومدينة كفر طاب والأطميم وهي مدينــة قديمة واهلها قوم من يمن من سائر البطون واكثرهم كندة واهل اللاذقية قوم من يمن من سليح وزُبيد وهمْدان ويَحصُب وغيرهم واهل مدينة جَبلة همْدان وبها قوم من قيس ومن اياد ومدينة بلنياس واهلها اخلاط واهل مدينة انطرطوس قوم من كندة .

قال وكانت دمشق منازل ملوك غسان والاغلب على اهلها اهل اليمن وبها قوم من قيس واهل الغوطة غسان وبطون من قيس وبها جماعة من قريش وجبال ومدينتها عمّ تدل —قريةمن ارض الشّراة— واهلها قوم من غسان ومن بلقين وغيرهم ومآب وزُغر واهلها اخلاط من الناس والشراة ومدينتها أذْرُح واهلها موالي بني هاشم وبها الحميمة منازل علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب وولده . والجولان ومدينتها بانياس واهلها قوم

من قيس اكثرهم بنو مرة وبها نفر من اهل اليمن وجبل سنير — اي لبنان الشرقي ويدخل فيه جبل قلمون ووادي التيم — واهلها بنو ضبّة وبها قوم من كلب ٠

***

الفرس والزط وعهداهل الذمة: } وبعلبك واهلها قوم من الفرس وفي اطرافها قوم من اليمن وجبل الجليل واهلها قوم من عاملة ولبنان وصيدا وبها قوم من قريش ومن اليمن وكورة عرقة — شرقي طرابلس — ولها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة وبها قوم من ربيعة من بني حنيفة ومدينة طرابلس واهلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن ابي سفيان كما نقل منهم الى جبيل وصيدا وبيروت ٠ وقد نقل معاوية قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الاردن وصور وعكا سنة ٤٢ ونقل من اساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية جماعة ٠ والغالب ان الفرس عند دخول العرب المسلمين الى الشام كانوا اصحاب مكانة حتى جرى ذكرهم بالتنصيص في العهد الذي اعطاه ابوعبيدة الى اهل بعلبك « رومها وفرسها وعربها » ٠

وقال البلاذري : نقل معاوية في سنة ٤٩ او سنة خمسين الى السواحل قوماً من زُط البصرة والسيابجة وانزل بعضهم انطاكية وكان الوليد بن عبد الملك نقل الى انطاكية قوماً من الزط السند وخرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك ٠ فوجه صالح بن علي بن عبد الله بن العباس من قتل مقاتلتهم واقرّ من بقي منهم على دينهم وردهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان ٠ قال البلاذري : فحدثني القسم بن سلاّم ان محمداً بن كثير حدثه ان الاوزاعي كتب الى صالح رسالة طويلة حفظ منها : وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ماقد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم وحكم الله تعالى ان «لا تزر وازرة وزر أُخرى» وهو احق ما وُقف عنده واقتدي به واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قال : « من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه » ثم ذكر كلاماً ٠

الاخلاط والسامرة وجذام (واهل مدينة طبرية قوم من الاشعر يين هم الغالبون
وعذرة ونهد وجرم والازد: (عليها واهل صور وعكا وقدس وبيسان وفحل وجرش
والسواد اخلاط من العرب والعجم واهل الرملة اخلاط من النـاس من العرب والعجم
وذمتها سامرة واهل مدينة نابلس اخلاط من العرب والعجم والسامرة واهل كورة
جبرين قوم من جذام واهل جند فلسطين اخلاط من العرب من لخم وجذام وعاملة
وكندة وقيس وكنانة . وذكر القلقشندي : ان بني كلب كانوا ينزلون في الجاهلية دومة
الجندل (الجوف) كما نزلوا تبوك وشيزر وحلب و بلادها وفي تدمر والمناظر اقوام
منهم ومن بني عذرة اقوام بالشام وكذلك من بني نهـد وفي بلاد غزة جرم طيء
وللازد بقايا في زُرَع وبصرى ولغسان بقايا ببلاد البلقاء واليرموك وحمص وهذا في
القرن الثامن للهجرة وكان غسان وجذام وكلب ولخم وغيرهم من القبـائل يعدون من
المستعربة كما قال ابن البطريق استجلبهم هرقل لما سمع ان المسلمين فتحوا فلسطين
والاردن وصاروا الى البثنية . ولما وصل ابو عبيدة بن الجراح فاتح الشام الى حاضر
حلب وهو قريب منهـا جمع اصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم وكانوا ارسلوا الى
خالد بن الوليد انهم عرب وانهم انما حشروا مع الروم ولم يكن من رأيهم حربه
فقبل منهم وتركهم .

* * *

قيس ويمن (وهكذا رأينا مما تقدم من النقول ان كل اقليم بل كل بلد
واحصاء السكان: (ناله حظ من نزول العرب في ارجائه وذلك قبل الاسلام وبعده :

بها غرر القبائل من مَعَدّ وقحطان ومن سَرَوات فهر

ومجموع اصولهم يرجع الى قيس ويمن وهم الذين كان يطلق عليهم اسم العشران
وكثيراً ما كانت تقع بينهم حروب اهلية تسيل فيها الدماء وينادى فيهـا ياالثارات
انتشروا من الجنوب الى الشمال ودام ذلك الى العهد الاخير وكانت بقايا هذه النغمة
في لبنان الى القرن الماضي فدثرت وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التي وقعت
في قرية خربتة بفلسطين والحرب التي نشبت في قرية عين دارة في جبل لبنان سنة ١٧١٠م.
و يتعذر الآن الحكم على اجيال العرب التي نزلت الشام لما طرأ على البلاد من ضروب البلاء

كالوباء والجدب والزلزال والظلم والجلاء وقدذكرلامنس ان العرب المسلمين لماانتهوا من امرالجابية وعمواس ودابق اي لمافتحوا الشام برمته انشأوا ينزلون المدن والقرى وقددخل منهم قبائل برمتها قدرها من مئة الى مائتي الف ونظن هذا التقدير اقل من الحقيقة لان المسجلين بديوان العطاء في دمشق فقط كانوا في الصدر الاول خمسة واربعين الفاً فما بالك بسائر من كان يجري عليه العطاء في البلدان الاخرى وغيرهم من التجار واصحاب الزرع والضرع قال فلو فرضنا ان نصفهم قتلوا في الحروب فيبقى النصف الآخر امام سكان البلاد وكانوا من اربعة الى خمسة ملايين وكان في الشام على عهد الرومان نحو سبعة ملايين . وقال بعض الباحثين من الافرنج : ان الشام على عهد الاسكندر اي قبل المسيح بثلاثة قرون كان يسكنها عشرون مليوناً من البشر ولما جاءت العرب في القرن السابع كان سكانها قدنقصوا حتى بلغوا عشرة ملايين وفي عهدنا نزل عددهم الى اربعة ملايين . وفي هذا الاحصاء ضرب من ضروب المبالغة .

* * *

(المردة والجراجمة والارمن) وقداخذيوستنيانوس ملك الروم اثني عشر الف مقاتل من المردة اوالجراجمة على رواية الدويهي وكانوا اشداء وذلك والروم والموازنة : (ارضاء للخليفة عبد الملك الاموي . واسكن ابو جعفر المنصور بعض العشائر في البلاد الخالية المجاورة بلاد المردة في لبنان فجلا الامير فند بن مالك واخوه الامير ارسلان بجماعة من عشيرتهما من بلاد المعرة سنة ١٤١ هـ . فنزلوا في وادي التيم في الحصن المعروف بحصن ابي الجيش ثم تفرقوا في جبل لبنان وعمروا الخالي من ارضه وفي اوائل حكم العباسيين اخرج صالح بن علي قوماً من الارمن واللان ممن كانت الروم تسيرهم من ارمينية مع كوشان جاثليقهم واسكنهم سورية ومن هذا اليوم امتنع ملوك الروم ان يسكنوا في سلطانهم احداً من الارمن ولا سيما في المواضع القريبة من الثغور اي ثغور الشام او بلاد قيليقية . وفي سنة ١٨٩ ارسل هرون الرشيد منشوراً الى الامير ثابت بن نصر الخزاعي امير الثغور الشامية ومناشير أخرى الى باقي عمال الشام ان يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل الى لبنان لتشتد قوة امرائه . ومثل ذلك وقع منذ خمسة قرون على ما في دواني القطوف فهاجرت مئات من الأسر المسيحية في القرن

الرابع عشر وبعده من حوران وما اليها الى لبنان واعتصمت في معاقله ولا سيما بعد الفتح العثماني وذلك تفادياً من قوة الشيعة في تلك البلاد كما ان الموارنة انتقلوا من جهات حمص وظلوا ينتشرون في شمالي لبنان حتى وصلوا الى كسروان والمتن والشوف واقصى بلاد لبنان في جزين كما انتقل الدروز في الاعصر الثلاثة الاخيرة من الشوف ووادي التيم وغيرها الى جبل حوران الذي كان يسمى جبل الريان وجبل بني هلال او امالدانوس واصبحوا فيه الاكثرية المطلقة • وكما هاجر النصارى الشرقيون الى القدس من ارض البلقاء وعمان وعرفوا بالمشرقيين ومحاتهم بالمشارقة • وبهذا رأينا ان الهجرة من صقع الى صقع من اصقاع هذا القطر والهجرة من القاصية والهجرة الى القاصية لم تنقطع في الاسلام كما انها كانت كذلك منذ جلاء بني اسرائيل الى بابل بل قبلها مما لم تبلغنا بالتفصيل اخباره •

***

التركمان والاتراك والاكراد والشركس وغيرهم : { نزل التركمان على عهد دولة بني مرداس العربية في شمالي حلب وسير الاتابك زنكي طائفة من التركمان الايوانية مع الامير البارُق الى الشام واسكنهم في ولاية حلب وامرهم بجهاد الافرنج وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد للافرنج وجعله ملكاً لهم • ولم يزل جميع ما فتحوه في ايديهم الى نحو سنة ستمائة • واسكن صلاح الدين كثيراً من التركمان والاكراد في لبنان وساحله • والتركمان والاكراد كثروا جداً في الشام على عهد الدولتين النورية والصلاحية وكان قسم عظيم من جند المسلمين اذ ذاك منهم فتديروا البلاد واستعربوا الا قليلاً • ولم تجيء دولة المماليك حتى كثر الشراكسة في البلاد واستعربوا وحكومتهم مع الزمن • وفي عهد العثمانيين نزل قبائل من التركمان في بغراس (بيلان) وما اليها من البلاد وعادت هذه فتعربت بمن كان نزلها من الاسماعيلية العرب الذين اخضعوا لسلطانهم تلك الجبال جبال اللكام وما اليها •

جاء القرن الحادي عشر وفي الشام كما قال كاتب جلبي انواع الالسنة من العربية والتركية والكردية والفارسية والهندية والافغانية والسليمانية وهذا كله في دمشق قال وهناك مغاربة وسريان وعرب وفي الاسكندرونة وطرابلس وصيدا والقدس

اليونان واللاتين والطليان والفرنسيس والاسبان والانكليز والنمساويون والبولونيون والروس والموسكوف والقبط والحبش والارمن وجميع طوائف النصارى اه ٠

ومن اعظم شعوب اوربا عراقة في هذه الديار البنادقة والبيزان والجنويون والطوسقانيون من أمم ايطاليا وكانت تجارة البحر المتوسط في ايديهم الا قليلاً من القرن الخامس الى القرن التاسع للهجرة ومنهم من توالد في البلاد وملك الدور والتجارات الواسعة ٠

***

المهاجرون المحدثون اليهود والارمن : وفي اواخر القرن الماضي جاء الشام قبائل كثيرة وجاليات مهمة من الطاغستان والبشناق والششن والشركس والمغاربة فنزلوا بعض القرى في فلسطين مثل قيسارية وبعض بلاد الجنوب مثل عمان وعين صويلح وناعور ووادي السير وبعض القري في اقليم الجولان ومنها القنيطرة وما اليها من القرى وبعض قرى حمص وحلب فلم يأت عليهم بطن حتى استعربوا الا قليلاً كما استعرب من قبل التراكمة والاكراد ٠ وهناك بقايا من موظفي الترك سكنوا بعض مدن الشام على عهد العثمانيين وامتزجوا باهلها وتعربوا ٠

ومن اهم المهاجرين المتأخرين مهاجرة الصهيونيين من الاسرائيليين الى فلسطين واكثرهم ممن اضطهدوا في روسيا وبولونيا ورومانيا ومنهم من اهل العنصر الجرماني وهؤلاء يتعاصون على التعرب وقد جعلوا من لغاتهم الاصلية واللغة العبرية السنهم المدنية والدينية ويقدرون الاسرائيليين عامة بحسب احصاء الحكومة الاخير في فلسطين بثلاثة وثمانين الفاً وسبعمائة واربع وسبعين نفساً من اصل سكان بلغوا ٧٥٧٦١٨٢ نفساً من العرب ٠ وما ندري هل يعلم ابناء اسرائيل العرب لسانهم ام يخضع العبرانيون بحكم الطبيعة الى التعرب بعد جيلين او ثلاثة كما جرى في كل مكان وطئتها اقدام العرب ٠ وكذلك يقال في مهاجرة الارمن والروم في سورية فقد قذفت الحوادث الاخيرة في قيليقية وازمير نيفاً ومائة وثمانين الف نسمة اكثرهم من الارمن نزلوا حلب ودمشق وبيروت وغيرها من البلدان الصغرى وما يدرينا ايضاً اذا كانوا يستعربون كما تترك اجدادهم في آسيا الصغرى ٠ واصبح الارمني والرومي

لا يعرف غير التركية يتكلم بها في داره و يفهم بهاصلواته ام يؤلفون كتلة جديدة في وسط هذا المجموع العربي الكبير ·

***

عوامل النمو: ولولا ان مضى على الشام الى قبيل الحرب العامة خمسون سنة وهو يرسل من ابنائه كل سنة الى اليمن زهاء عشرة آلاف مجند يهلك اكثرهم كما اكد لي الثقة لقلنا وما زالت جزيرة العرب الى اليوم ترسل الى الشام من ابنائها اناساً يسكنونها ويمتزجون باهلها كأن بلاد هذه الجزيرة العظيمة بعض ولايات الشام تعطيها اكثر مما تأخذ منها كما تعطي المدن الصغيرة للعواصم وقلما تعطي هذه لغيرها من اعمالها · ولولا اعتدال المناخ والرضا بالدون من العيش وتعدد الزوجات في الطبقة النازلة من الشعب والاعتقاد بالقدر وترك الابوين المجال للتوالد لظهر عجز كبير في عدد السكان خصوصاً بعد ان منيت الشام بالهجرة على مقياس واسع ولم يحتفل بالاسباب الصحية احتفال الغربيين بها في بلادهم والامم يكثر سوادها على قول سكريتان باربعة عوامل وهي الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات و بنقيضها تقفر البلاد و يقل عدد ساكنيها · وقد كان ابناء الشام منذ عهد الدولة الرومانية في كل مكان كما تراهم الآن وكان منهم في جيش جرمانيكوس القائد الروماني عدة كتائب عند ما حمل حملته على الرين · والبشر في فطرتهم التنقل وللسلطان الارضي والسلطان الطبيعي آثار في ذلك مسطورة مشهورة ·

***

العرب في الشام والاختلاط: وما زالت الى اليوم سَحَنات بعض سكان الاصقاع الشامية كحوران والبلقاء تنم عن اصول عربية صرفة على ما نرى ذلك ماثلاً في الطوائف التي احتفظت بانسابها العربية ولم يدخلها دم جديد كسكان الشوف ووادي التيم وجبل حوران وجبال الكلبية · وماطول القامات واتساع الصدور ومتانة العضلات والجملة العصبية والادمغة في الجماعات كما في الافراد الا ادلة ناصعة على ماورثه ابناء البلاد من الدم العربي · وفي الشام جميع الامزجة يكثر الدمويون مثلاً في بلاد الداخلية كالقدس ونابلس وصفد ودمشق وحمص وحماة وحلب وانطاكية كما

يكثر الصفراويون المعصبيون في يافا وحيفا وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرونة من مدن الساحل وان ما في تركيب ادمغة السوريين من اشكال الرؤوس كالشكل البيضوي المستطيل المعروف عند الافرنج (بدوليكوسفال — Dolichocéphale) والشكل المدور المنبسط المعروف (ببراكيسفال — Brachycéphale)ليدل كل الدلالة على مبلغ الشاميين من الذكاء والمضاء فقد قال فوليه : ان اتساع الجبهة يشعر باستعداد الحواس العقلية وامتداد القذال ينم عن استعداد للشهوات الجسمية . وفي وجوه السوريين نقرأ بعض اصولهم القديمة وما امتزجت به من الدم الحديث فسود الشعور والعيون والبشرة اجمالاً هم من اصل عربي وشقر الشعور وزرق العيون وبيض البشرة فيهم الدم القافقاسي . وفي تراكيبهم دم العبيد والزنوج كما فيهم دم العرق الابيض . قال جلابرت : (المشرق ٨) اذا فحصت الصور المكتشفة في صيدا تحققت انه كان يدخل في خدمة السلوقيين رجال من كل فج وصوب منهم يونان كأهل لقديمونة واقريطش ومنهم اسيويون كأهل قارية وبيسيدية وليقيسة وليدية فيحار العقل باختلاط كل هذه الجنسيات في جيوش السلوقيين .

وبعد فان سكان الحولة واريحا والغور لا يشبهون بالطبع سكان اللبنانين الغربي والشرقي وجبال اللكام لمكان الهواء واختلاف البصد والقرب عن سطح البحر . وابن ضفاف العاصي وبردى ليس في طبيعته كالنازل على ضفاف الأردن والفرات . والاختلاف « ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون وبين من نزل النجود وبين من نزل الاغوار »معروف مشهود في كل أمة ومع هذا تساوى سكان هذا القطر من حيث الجملة كما قال الجاحظ في العرب : « في التربة وفي اللغة والشمائل، وفي الأنفة والحمية ، وفي الاخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً، وافرغوا افراغاً واحداً ، وكان القالب واحداً ، تشابهت الاجزاء وتناسبت الاخلاط حتى صار ذلك اشد تشابهاً في باب الاعم والاخص وفي باب الوفاق والمباينة من بعض الارحام . » وقصارى القول : إن من نراهم من ابناء الشام على اختلاف ارجائه وهوائه هم سلالة اولئك الجدود ظهروا على الزمن بمظهر آخر فكانوا كأبدع الفسيفساء في الرقعة الجميلة .

لغات الشام

اللغة الآرامية والسريانية والعبرانية والفينيقية والعربية } اللغات التي انتشرت في الشام قبل الاسلام كثيرة اهمها اللغات السامية اخوات اللغة العربية وهي السريانية والعبرانيـة والفينيقية ٠ وقد قسم جويدي [1] اهل اللغات السامية الى قسمين اكبرين شرقي وهم اهل اثور اي اهل بابل واشور وغربي وهو اما شمالي واما جنوبي فاما الشمالي منهما فينقسم قسمين كبيرين احدهما الكنعاني و يشمل العبراني والفينيقي وغيرهما والآخر آرامي ٠ واما الجنوبي فهو نوعان النوع الاول العربية المعهودة اي لغة القبائل التي سكنت النواحي الشمالية من جزيرة العرب والنوع الثاني عربية القبائل الجنوبية كسباء وحمير و يشبه هذا النوع لغة الحبش القديمة وقد يسمى النوع الاول لسان العرب المستعربة وقد يسمى النوع الثاني لسان العرب العاربة فالعبرانية من لغات كنعان ومن اللغات الكنعانية لغة موآب ومن لغات الكنعانيين لغة الفينيقيين وقال : ان اللسان الآرامي هو النوع الثاني من القسم الشمالي في اللغات السامية وفي هذا اللسان قسمان احدهما غربي وهو لسان اليهود المتأخرين في

(١) قال جويدي : واول ما بلغنا مما سطره البابليون هو في غاية القدم اي من القرن الاربعين قبل الميلاد والكتابات الكنعانية في مكاتيب تل العمارنة هي من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ثم الكتابات السبئية في جنوب جزيرة العرب قيـل انها من القرن الثاني عشر والكتابات الفينيقية والآرامية من القرن الثامن او السابع ق٠م وكتابات الحبش القديمة سطرت في منتصف القرن الرابع بعد الميلاد ٠

فلسطين وفي مصر وهو لسان عدة أمم كالسامرة والنبط واهل تدمر والقسم الثاني شرقي وهو لسان اليهود في بابل ولسان السريان وغيرهم ·

قال : ومن اللغات الآرامية الغربية لغة الكتابات النبطية وكان الانباط أمة عربية الاصل ولغتهم المأنوسة العربية للتكلم والمحاورة بين الناس لا لكتابة الرسائل والكتابات اذ الاحرف الهجائية لم تستنبط بعد عند العرب ·

* * *

البابلية والكنعانية والكلدانية : فكان اهل الشام منذ الزمن الاطول قبائل سامية من البابليين ولم يزل يهاجر اليها اجيال من الناس سموا الكنعانيين فغلب الكنعانيون البابليين و باللغة البابلية كتبت رسائل تل العمارنة التي وجدت في مصر سنة ١٨٨٨ م وهي رسائل صدرت عن عمال الشام الى ملوك مصر قبل موسى وهرون فاستدل علماء الافرنج ان اللغة البابلية كانت في ذلك العهد لغة الحكومة بين الدول الراقية وارتأى بعضهم ان الشام كانت تتكلم اذ ذاك بالبابلية وكان اللسان الكنعاني اخذ يمتزج بلغة بابل فتغلب بفرعيه العبراني والفينيقي على لغة اشور و بابل · وكان الكلدانيون يتكلمون بالآرامية على رأي بوست وفقاً لعادة ديوان الحكومة ولكنها لم تكن لغتهم الخاصة ولا العلمية اما لغة الكلدانيين الاصلية فالكلدانية القديمة وهي لغة أكّد وقد استعملها سكان بابل الاصليون الا انها كانت على وشك الاضمحلال في زمن بخت نصر وقد هجرتها الالسنة لذلك الحين وكان ظهور اللغة المسماة الآن بالسريانية في القرن الثاني بعد المسيح هجر اهلها استعمالها نحو القرن الثاني عشر ·

* * *

الحثية والآرية واليونانية واللاتينية : اما اللغة الحثية فكانت على قول كروفرد في القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل التاريخ المسيحي لغة مستعملة من اللغات الهندية الاوربية اي اللغات الاوربية المشابهة للاتينية والآرية الايرانية والارمنية وان الحثيين انفسهم من سلالة آرية اوربية ولكن امتزج بهم مع الزمن دم من غير الدم الآري الاوربي اي ان الحثيين من اصل غير سامي ولم تنتشر لغتهم

كما قال حتى بين عامة البلاد ولم يتوفق البحاثون الى حل رموزها حتى الآن · فاللغة البابلية كانت منتشرة في الشام منذ زهاء ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح ثم تغلبت الكنعانية التي تشمل العبرانية والفينيقية ثم تغلبت الآرامية على الكنعانية وهما متشابهتان · ولما صار الامر الى الفرس بعد البابليين في الشام بقيت اللغة الآرامية لغة البلاد الرسمية · اما دولة الروم السلوقية خلفاء الاسكندر فقد بثوا المدنية اليونانية في سكان سواحل البحر المتوسط وكانت مع هذا الى ضعف ولا سيما في لبنان اذ دام اهله على استعمال الآرامية ممزوجة باللغة الفينيقية وكانت اليونانية اللغة الرسمية ولغة العلماء على عهد الروم والرومان ايضاً في كثير من البلاد · وكانت مدرسة الفقه في بيروت تدرس باللاتينية مدة اربعة قرون · ولكن اليونانية على تأصلها بالنسبة للاتينية لم تشع في العامة · ولما استولى الايطوريون على لبنان لم يغيروا شيئاً من لغته ولا شك في ان لغتهم كانت العربية الآرامية · اما النبط وهم من اقارب الايطوريين وجيرتهم فان لغتهم لم تكن سوى لهجة آرامية ·

وذكر احد الباحثين : ان الرومان لما جاؤوا الشام واستعمروه انتشرت اللغة اليونانية في المراكز الكبرى حتى نسي كثيرون اللغة الفينيقية واللغة الآرامية ولا سيما بين الاشراف واصحاب الثروة وبقيت اللغة اللاتينية لغة الحكومة وحافظ العامة على اللغة الفينيقية والسريانية وكان الفقهاء يكتبون باللاتينيه لغة الفقه والقضاء ، والادباء والفلاسفة باليونانية وهي لهجة العامة في الشرق واللغة الآرامية هي اللغة الرسمية لدولة تدمر · وظل الشاميون يتكلمون اليونانية على عهد انتشار النصرانية وكذلك عمال الحكومة ورجال القضاء وكان الآراميون او الانباط كما كان يسميهم العرب في كل محل ما عدا المدن التي كانت مزيجاً من عناصر مختلفة ·

***

تنازع السريانية مع العربية : قال بعضهم : ان السريانية كانت لغة عامة في الشام لم تدثر الا بتملك الرومان على الشرق ونشرهم لغتهم فيه فدثر مجد السريانية ولم يبق الا القليل حتى جاء الاسلام وادخل العربية · وقال آخر: ان السريانية كانت على عهد المسيح اللغة العامة في سورية وفلسطين ممزوجة بقليل من العبرية · ورأى دي فوكويه ان جميع الكتابات التي وفقنا الى اكتشافها لا تتجاوز القرن الاول

قبل الميلاد واللغة التي كان شعوب سورية يتكلمون بها الاماندر هي اللغة الآرامية وجميع الكتابات التي عثرنا عليها في تدمر وحوران وبلاد النبطيين كتبت بهذا الفرع من اللغة السريانية . واللغة التدمرية واللغة اليونانية هما الغالبتان على الكتابات المكتشفة في تدمر . قالوا : وكانت اللغة اليونانية بمنزلة اللغة الرسمية في جميع الاقاليم الشرقية الخاضعة لدولة الرومان واما لسان اهل تدمر فهو لهجة آرامية على غاية الشبه بالسريانية . وقال بعضهم: انها من اللغات الآرية الغريبة وتقارب النبطية وفي بعض هذه الكتابات اسم ملكهم أذينة ومن اللغات الكنعانية لغة موآب في شرقي فلسطين وفي متحف باريز كتابة قديمة في هذه اللغة وضعها ملك اسم ميشع يذكر فيها حروبه مع عمري ملك الاسباط (اسباط بني اسرائيل) ويقال لهم في كتب العرب ملوك الاسباط .

***

رأي رنان : { وذكر رنان ان الفينيقيين كانوا الواسطة الوحيدة بين العنصر السامي وسائر العالم وكثيراً ما عرفوا بانهم اخترعوا اموراً ما كانوا فيها الا نقلة . وما الفينيقيون سوى سماسرة مدنية كانت بابل مقرها ، وظاهر الحال يدعو الى الاعتقاد بان بابل التي علمت العالم اصول المقاييس والموازين قد اخترعت حروف الف باء مركبة من اثنين وعشرين حرفاً . قال : وكانت اللغة العبرية لغة الشعوب في فلسطين عند ما دخل بنو اسرائيل الى هذه البلاد وقد ذكرت اسماء الشعوب المذكورة في الاصحاح العاشر من سفر التكوين بجلاء ووضوح الأمم المجاورة لفلسطين وجعلت امم كنعان رابطة من روابط القربى بين جميع شعوب الساحل ولبنان من مدينة حماة وارواد في الشمال الى جرار (في فلسطين) والبحيرة المنتنة في الجنوب وهم مجموعة الشعوب التي كان اليونان يطلقون عليهم اسم الفينيقيين .

***

ارآء أخرى : { وذكر يوسف داود: ان لسان اهل فلسطين ولا سيما أورشليم في عصر المسيح الآرامي اي السريانية فكانت اليونانية لغة اجنبية يتكلم بها كثير من الغرباء النازلين في الشام وهي لغة الحكام والحكومة في عهد تلك الدولة كما تقدم بيانه . وكثيراً ما كانوا يكتبون بعض المقدسات على ذاك

الدور بالعبراني او السرياني واللاتيني واليوناني وكان يحرم على اليهود في فلسطين ولا سيما الرجال ان يتعلموا اللغة اليونانية ويباح للنساء تعلمها من باب التزين الجائز لهن. قلت وهذا من التحكمات الباردة مثل الامر الصادر عن احد خلفاء بني العباس من اخذ اهل الذمة بتعلم اللغة السريانية والعبرانية وترك العربية ولكن امره لم ينفذ لانه غير معقول.

وارتأى حتّى: ان الآرامية كانت لغة العامة في عهد المملكة الاشورية وكانت الاشورية اللغة الرسمية، وكان الموظفون في العهد البيزنطي القادمون الى سورية يعتمدون على التراجمة مع الاهلين المتكلمين بالآرامية. ولما انقضى العصر البابلي الاشوري حلت اللغة الآرامية محل البابلية في السياسة والتجارة، واصبحت اللغة الرسمية لملوك فارس وآرام وتدمر والبتراء. وكانت اللغة الفينيقية تختلف عن السريانية في القرن الاول قبل الميلاد ثم تمازجتا حتى اصبحتا شيئاً واحداً، وكانت اللهجة العامة عند يهود فلسطين وهي اقرب الى الآرامية منها الى العبرية، يطلق عليها بين اليهود انفسهم اسم اللغة العبرية ولكنها تختلف عن لغتهم المقدسة. وقد ذكر رنان: ان اللغة السريانية الكلدانية كانت اكثر اللغات انتشاراً في بلاد الجليل وان المسيح عليه السلام كان يتكلم بها في محاوراته مع الناس، والاناجيل كتبت لاول امرها باليونانية واصبحت هذه في الشام لغة عامة ولغة علم، وكان من نتائج ذلك دخول الالفاظ اليونانية في اللغة السريانية بكثرة زائدة حتى ان اللغة اللاتينية لم يكن لها تأثير البتة بين الشعوب السامية، فمن القواعد العامة ان الفتح الروماني لم يستطع ان يقضي على استعمال اللغة اليونانية في كل البلاد التي رآها متأصلة فيها على حين كانت اللغة اللاتينية تنتشر في ارجاء الغرب انتشاراً هائلاً.

وذكر منش: انه بعد انقراض دولة الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد عم اسم آرام بلاد الشام فاصبح القسم الاكبر منها يسمى آرام وسكانها يدعون بالآراميين وهم الذين اختطوا حلب او حلبون وعادت اللغة الآرامية الى شيوعها في جهات حلب تمازجها اللهجة البابلية بدليل ما يشاهد في نواحي حلب من اعلام الامكنة التي مازالت تلفظ على اصلها بالفتح الى اليوم، وسادت اللغة اليونانية بظهور الدولة السلوقية وكانت

لغة الخاصة والعلماء ورجال الدولة ولما تقلص ظلها عادت السريانية الى ازدهارها يخالطها فرعها التدمري الذي انتشر اذ ذاك في سورية الشمالية على عهد سيادة تدمر في صدر النصرانية ٠

***

انتشار العربية : هذا ما كان من امر اللغات السامية واللاتينية واليونانية في الشام ٠ اما اللغة العربية فكان يتكلم بها قبل الفتح الاسلامي بزمان طويل لما ثبت من انتشار الغسانيين والتنوخيين والنبطيين والسبأيين وغيرهم ٠ وكانت حوران والبلقاء والشراة من الاصقاع التي سبقت غيرها في هذا السبيل بدليل ما يشاهد من اسماء بعض قراها العربية مثل جرش ، جاسم ، تبنة ، اذرعات ، اذرع ، محجة ، السويداء ، البتراء ، نجران ، القسطل ، القناطر ، الحفير ، الخ وذلك لان هذه الاقاليم الثلاثة كانت اقرب الى الاتصال بالعرب من الجنوب ٠ وكان السابقون الى نشر العربية في ديارنا الوثنيون من العرب اولاً ثم نصارى العرب ويرجع اليهم الفضل في نشرها بادئ الامر فلم تلبث اللغة ستين اوسبعين سنة للفتح الاسلامي ان انتشرت في سورية ٠ ونقلت الدواوين زمن عبد الملك من اليونانية الى العربية ونازعت اللغة العربية السريانية فبذتها على صورة مدهشة وان كان الضعف قد دب في هذه قبل الاسلام ٠وتغلبت العربية لغناها وسلاستها وضبط قواعدها وشدة احتياج الناس اليها في مصالحهم ٠ قال ابن خلدون : ولما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب ٠ وهجر الامم لغاتهم والسنتهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم وصارت الالسنة الاعجمية دخيلة فيها وغريبة اه٠

***

العربية لغة كاملة وفصاحة الشام : وقال رنان : من اغرب ما وقع في تاريخ البشر ، وصعب حل سره ، انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء فبدت فجأة على غاية الكمال سلسلة غنية واي غنى كاملة بحيث

انها من ذلك العهد الى يومنا هذا لم يدخل عليها ادنى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لاول امرها تامة ، ولا ادري اذا وقع مثل ذلك للغة من لغات الارض دون ان تدخل في اطوار وادوار مختلفة . وقال : وما عهدت قط فتوح اعظم من فتوح العربية ولا اشد سرعة منه ، فان العربية ولا جدال قد عمت اجزاء كبرى من العالم لم ينازعها الشرف في كونها لغة عامة او لسان فكر ديني او سياسي اسمى من اختلافات العناصر الا لغتان اللاتينية واليونانية ، ولكن اين مجال هاتين اللغتين في السعة من الاقطار التي عم انتشار اللغة العربية فيها اه .

قلنا وربما ذهب الشام بفضل هذا الشرف الاعظم ولعله سبق العراق في الاخذ بمذاهب العرب . قال الثعالبي: لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها اشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام والسبب في ذلك تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر ، قربهم من خطط العرب ولاسيما اهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ، حتى ان كتاب الدولة الأموية استعملوا من الالفاظ العربية الفحلة والمتينة الجزلة ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية لان كتاب الدولة الأموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذي استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها حتى عدت في جملة الفضائل التي يثابر على اقتنائها . وليست استفاضة لغة العرب في العراق كاستفاضتها في ارض الحجاز والشام . وقال اليزەركلو : ان اهل دمشق اكثر السوريين عراقة في العربية وذلك لعلاقتهم المتصلة بالتجارة مع مكة واللهجة العربية فيها اجمل من سائر لهجات الشام . وكان محمد عبده يقول : ان الفصح في لغة الشام اي بلاد الشام اوفر مما هي في لهجة مصر .

* * *

كيف انتشرت العربية : وإذا اردنا استقراء الطرق في نشر العربية في الشام لم نرها حاربت لغة البلاد الاصلية على رسوخها فيها بل سارت في نشرها سير تعقل ، وراعى دعاتها سنن الطبيعة والنشوء ، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعي عملها في اللغة كما عملت في العناصر ، فبقي ما هو مفيد للناس في مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم . ومنذ عدل في القرن الاول عن اللغة الرومية في الدواوين

لم تبرح جميع الحكومات التي تعاقبت على هذه الديار تستعمل اللغة العربية في مفاوضاتها وسجلاتها على ان منها الكردي والتركي والشركسي الا الدولة العثمانية في آخر عهدها فانها الغت الديوان العربي من مراكز الحكومات السورية والفلسطينية واكتفت بالدواوين التركية وعلى كثرة عنايتها بلغتها في الستين سنة الاخيرة لم توفق الى نشرها الا بين الموظفين فقط من ابناء البلاد فكان شأنها هاهنا شأنها في رومانيا وصربيا وبلغاريا و يونان والبانيا امتد سلطانها عليها قروناً ومع هذا لم تستطع نشر لغتها بين سكانها . والعرب اجدر من غيرهم بان يحرصوا على لسانهم وهو لسان مدنية ودين معاً وان لا يتخذوا عنه بديلاً وهو متأصل في هذه الديار قبل الاسلام .

* * *

اللغة الصفوية : قال دوسو : الى الجنوب الشرقي من دمشق في مدخل بادية الشام حول الصقع البركاني المسمى بالصفا ، يعثر الباحث على كتابات كثيرة زبرت على الصخر البركاني والشعب الذي خط هذه الكتابات في القرون الاولى للميلاد هو من اصل عربي ولغته من اللهجات العربية وخطه من فضيلة خطوط بلاد العرب الجنوبية . وبفضل هذه الكتابات تعرف احدى اللغات التي كان يتكلم بها في بادية الشام قبل الاسلام ونقف على مقام رحالة من العرب كانوا على وشك ان ينتقلوا الى اتخاذ البيوت وعيش الحضارة في الشام . اما الصفويون فلم يكونوا اول من قصد الى ارض الميعاد ولا آخرهم بل هم وحدهم الذين عرفناهم قبل ان يتحولوا تحولاً كلياً اي عندما كان لهم لسانهم وخطهم واربابهم وعاداتهم . فمن الخطإ الاعتقاد بان دخول العناصر العربية الى الشام يرجع فقط الى الفتح الاسلامي واختراق المسلمين صفوف الروم في وقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م ومهاجمتهم الشام ثم انتشارهم في الشرق حتى اواسط آسيا وفي الغرب حتى اقاصي شمالي افريقية ثم الى اسبانيا . هذا الهجوم قد دل على بلوغ دولة العرب غاية مجدها فاذا ظهر ان الفتح الاسلامي في القرن السابع قد كان من الحوادث الشاذة فهو في الحقيقة نتيجة حركة عادية طبيعية نشأت من اختلاط العرب على الدوام بسكان الحضر ودخولهم بلادهم .

قال : ولا ينبغي ان يفهم من لفظة العرب سكان جزيرة العرب فقط بل انه يتناول اهل الظعن الذين يطوفون اواسط بلاد العرب وشمالها وجميع بادية الشام ·

***

الصليبيون ولغاتهم والعربية ولبنان : وما برحت العربية تتأصل القرن بعد القرن في هذا القطر الجميل ، حتى كانت الحروب الصليبية نخشي عليها ان تنازعها الاولية لغات الصليبيين، خصوصاً بعد ان طال مقامهم في انطاكية والساحل نحو قرنين يتكلمون بلهجات مختلفة اهمها الطليانيـة والافرنسية · بيد ان اللغة الافرنسية كانت لغة جميع الغربيين النازلين في الشرق وكان فرسان الصليبيين الا قليلاً من الفرنسيس ومنهم جميع الأسر الحاكمة في الشام على ان اكثر امراء الافرنج من الصليبيين كانوا تعلموا اللغة العربية ومنهم من ضرب النقود بالعربية مثل اصحاب عكا وصور و بيروت وطرابلس ورسموا عليها حروفاً كوفية على شبه النقود الاسلامية مع رموز نصرانية كالصليب وآيات من الكتاب المقدس· واصبح نساؤهم ينتقبن كالمسلمات ويلبسن ثياب المسلمات مثلما كان رجالهن يلبسون ثياب الوطنيين ·

ثم ان بعض انحاء لبنان قد تأخرت في التعرب بجملتها حتى القرن الرابع عشر للميلاد فيما قيل وقلّ انتشار العربية في اعالي لبنان وظلّ السكان في عدة قرى يتكلمون بالسريانية وذلك لقلة المخطوطات العربية في لبنان ولا سيما بين الموارنة وكان اهل بشراي وحصرون والقرى المجاورة لها الى قبيل مئة سنة يتكلمون بالسريانية كما بقيت الى اليوم ثلاث قرى في جبل قلمون وهي جبعدين ومعلولا و بخعة يتكلم المسلمون من اهلها والمسيحيون مع العربية باللغة السريانية، وسريانيتهم افصح من السريانية العامة اليوم في آثور والجزيرة والعراق على ما قاله العارفون ·

***

اللغة التركية : و بينا كان جبل لبنان الشرقي والغربي يحفظان في مغاورهما بقايا اللغة السريانية التي انحصرت في الاديار والبيع ، بعد ان انهزمت امام العربية، كانت بعض ارجاء جبال اللكام وما اليها تؤوي من اللغات اللغة التركية او التركمانية وعندما رحل الاشرف قايتباي سنة ٨٨٢ هـ من مصر الى اقصى

الشام كانت اهل البلاد من اللاذقية الى البيرة (بيره‌جك) يتكلمون بالتركية . قال مؤلف رحلته : واهل البيرة يتحدثون بالعربي اللطيف اكثر من التركي بخلاف ماتقدم من البلاد فانه من حين توجهنا من اللاذقية والى البيرة لم يكن كلامهم الا التركي .

ولم نعرف العهد الذي انتشرت فيه التركية في الحدود الشمالية من الشام وربما كان من عهد العباسيين، وان كان المتكلمون بالعربية في بعض الجهات اكثر من المتكلمين بالتركية . ومن شأن بلاد التخوم على الاغلب ان يتكلموا بلغتين ومنهم من يتكلم بثلاث . والغالب ان نزول الاتراك في جزء صغير من شمالي الشام اقدم من العثمانيين وربما كانوا من زمن السلجوقيين والاتابكيين . ومدينة حلب برزخ بين البلاد العربية والتركية . وعلى نحو اربعين كيلومتراً من شمالي حلب يقل المتكلمون بالعربية وتصبح البلاد الى التركية اقرب وتتكلم بعض قرى كليس بالعربية والتركية والكردية وجميع السكان عرب من شرق حلب وغربها ما عدا بعض قرى من عمل حارم فسكانها من الشركس . وسكان العمق اكراد وفي قضاء الباب قليل جداً من التركمان والاتراك والاكراد والشركس . واهل قضاء منبج شركس وفيهم عرب وتغلب التركية على اهل عمل الاسكندرونة . ومن اهل انطاكية من يتكلم بالتركية ومنهم من يتكلم بالعربية . فيصح ان يقال فيهم ان تركيهم تعرب وعربيهم تترك . و بعض اهالي قضاء بيلان (بغراس) يتكلمون بالتركية وكذلك ناحية اردو على ان العربية غالبة عليهم . يتكلم نحو نصف سكان مدينة انطاكية بالتركية ولكن اصولهم عربية على الاكثر الا قليلاً وثمانون في المئة من اهل عملها هم عرب لساناً وجنساً وهكذا يقال في بيلان وكليس واردو ، ولا يمكن ان نثبت باحصاء صحيح ان الاتراك يؤلفون في بلاد الشام كتلة واحدة ووسطاً واحداً كما ان التركمان والشراكسة والطاغستان والششن والبشناق والاكراد والمغاربة لم يؤلفوا شيئاً من ذلك ، وتراهم يتمازجون كلهم بالبوتقة العربية ويندمجون في العرب . شأن سكان فرنسا والمانيا وايطاليا وغيرها من الممالك التي كانت جامعتها لسانها ولا يزالون في الحدود واواسط البلاد يتكلمون بغير لغة الدولة التي يُظلهم علمها .

* * *

السواد الاعظم والعربية : ليست العبرة ببقعة مخصوصة وانما هي بمجموع القطر الذي يراد ان تعزى اليه جنسية او قومية معروفة والا لزم من ذلك ان تعد ولاية أذنة اليوم او جزء عظيم منها او قليقية عربية لان نحو مئة الف من سكانها عرب باصولهم، ولسانهم على تأصل الدول التركية والتركمانية في صقعهم، وهم في بعض الانحاء المتاخمة للشام من جبال اللكام يؤلفون اكثرية السكان · واذا كان بعض سكان البلاد الواقعة في الجهة الشمالية من الشام يغلب عليهم التكلم بلغات متعددة فان ذلك نتيجة طوارئ تاريخية ودولية بل نتيجة حكم الغالب على المغلوب وميل هذا الى التشبه بغالبه · ومن الثابت ان سكان الحدود آخذون انفسهم بحكم الضرورة بتعلم لغات السكان المجاورين ليتمكنوا من التفاهم وإياهم في المصالح المشتركة المتبادلة ولا سيما الاقتصادي منها كما هو المشاهد في كل مملكة من الممالك · وما الترك في انطاكية واسكندرونة الا مهاجرون مثل مهاجرة السوريين في نيو يورك وسان باولو ومن يحاول ان يلبس انطاكية والاسكندرونة ثوباً تركياً هو كالواقف امام البداهة والاولى ان ينظر اذ ذاك الى عرب مرسين وطرسوس و يردوهما الى الشام وما هما من حيث الجغرافية واللسان الا شاميتان ·

وبعد فاذا اردنا ان نحصي المتكلمين فقط بغير اللغة العربية في الشام بحدوده الطبيعية لانراهم يزيدون على ثلاثمائة الف من عناصر مختلفة وسط سكان يربي عددهم على ثلاثة ملايين ونصف · والعربية مع هذا تأخذهم فتعربهم ونحو نصفهم يهود وأرمن وروم والباقون مسلمون يرون في تعلم العربية فرض عين عليهم ·

* * *

رسوخ اللغة : اذا عرفت هذا فقد ساغ لك ان تقول ان اللغة العربية دخلت واسعة النطاق الى الشام من الجنوب منذ نحو خمسة وعشرين الى ثلاثين قرناً وزادت بالاسلام رسوخاً وانتشاراً · ولم يمض القرن الاول حتى استعربت وامتزج العرب الفاتحون والمهاجرون باهل البلاد من السريان فاصبحوا اكثرية مع الزمن وغلبت على الكافة الصبغة العربية غلبة الانكليزية على اهل كندا والولايات المتحدة الاميركية في القرون الاخيرة · وما اهل كند

واميركا الشمالية الا مهاجرة من انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وهولاندة واسبانيا والمجر وروسيا وغيرهم من الامم غدوا اميركاناً بقوميتهم انكليزاً بلغتهم ومناحيهم . وليس في الارض قطر نعلم صقع تكوّن اهله من عنصر واحد وخلا من عناصر دخيلة امتزجت فيه ، بل ان الشعوب الكبرى في الغرب وهي خمس أمم اوست مؤلفة من بضعة اجناس من الناس جمعتها لغة واحدة ، وليس عمر اقدم لسان من السنة العالم المتمدن اليوم اكثر من عشرة الى اثني عشر قرناً على حين ان عمر العربية في الشام اكثر من ذلك بضعفين على اقل تقدير . وكلما دخل هذا الجسم جسم جديد تاقح به وأدغم في مجموعه فزاده قوة ومضاء .

رأينا من مجموع ما تقدم ان اللغتين اليونانية واللاتينية لم ترسخا في هذه الديار رسوخ السريانية اولاً والعربية ثانياً وذلك لان اليونان والرومان كانوا فيها مستعمرين ولم يكونوا من اهلها كما كان السريان فالعرب . ومن اجل هذا لم يؤثر حكم الروم والرومان هنا على طول عهدهما في قلب لغة السكان بل تعلمها بعض افراد كما يتعلم بعضنا التركية والافرنسية والانكليزية وغيرها من اللغات التي حكم اهلها البلاد او كانت لنا بار بابها علاقة تجارية او سياسية او علمية بل كما كان بعضهم يتعلم في القرن الماضي اللغة الطليانية لقلة مدارسنا ومدارس الامم الاخرى اذ ذاك .

* * *

الشاميون أمة واحدة (قلنا من محاضرة في سكان الشام ولغاته : مهما قيل في لسانهم العربية فقط (كثرة عدد المتكلمين بالافرنسية في بيروت وبالعبرية في القدس وبالتركية في حلب ومهما اختلفت درجة العواطف من حيث حب العربية فالبلاد عربية صرفة والسكان عرب مهما ضعفوا وضعفت مشخصاتهم . ولا ينسبون الى غير أممهم ولا يدعون الا لآبائهم . يقولون ان من تعلم لغة قوم احبهم فما أحرى ان يحب المرء اولاً ارضاً انبتته ، واهلاً تجمعه واياهم جامعة الوطن والجنس واللسان . نحن في الشام أمة واحدة مهما حاول المحاولون ان يجعلوا بيننا فروقاً . والمذاهب ما كانت ولن تكون معياراً في هذا الباب . الماروني والكاثوليكي والارثوذكسي والانجيلي والعلوي والاسماعيلي والعبري وغيرهم تربطنا بهم رابطة اجمع من كل الروابط

وأعني بها رابطة المصلحة الواحدة والوطن المشترك ، وقرابة الجنس واواصر اللغة ٠

ان كنت احب بيتي فما اولاني ان احب سكانه ٠ ان كنت لا ارى عدتي في شدتي ، غير أمتي ، فما احراني ان ارعى ذمامها ، واحمي مشخصاتها ، واول المشخصات في شعب لغته ٠ ومعظم الامم الحديثة تكوّنت تحت رايتها ، وسادت وشادت بتأثيرها ٠ من اللغات يا قوم ما لا ينطق به اكثر من بضعة ملايين كالدانيمركية والسويدية والفنلاندية تجد بين ابنائها — من الصلات على اختلاف في المذهب — من التناغي بحب قوميتهم ما لا يقلّ عن تغالي الانكليزي والالماني والفرنساوي والطلياني والسلافي بحب لغته وقوميته وهو ابن أمة عظيمة ٠

ليست العربية من اللغات الميتة حتى يزهد بعض ابنائها فيها ٠ بل هي لغة خمسة وستين مليوناً من البشر نازلين في اجمل اقطار الارض في افريقية وآسيا ولسان ديني لثلثمائة وخمسين مليوناً من المسلمين ٠ ولسنا معاشر اهلها دون ارقى أمم الحضارة الحديثة بعقولنا وذكائنا فتاريخنا موضع الدهشة على توالي الاحقاب ، وانا اذا عرانا بعض الضعف فتأخرنا في المجتمع ، وقصرنا عن اللحاق بالسابقين فيه ، لا نلبث بتماسكنا وتفانينا بحب قوميتنا ولغتنا ان نساوي غيرنا قريباً ٠ وكم من أمم عراها اكثر مما عرانا من ضعف الملكات ، وضياع المقدسات والمشخصات ، فنفضت عنها غبار الخمول يوم صحت ارادتها على ان لا تموت بصنعها ، وقامت تجادل وتجالد في معترك المدنية فأتت بالعجب العجاب ٠

نحن اهل الشام أمة واحدة ، ولا خير لابناء الوطن الواحد الا من انفسهم ٠ فقد نزح عنا منذ خمسين سنة الى اميركا وغيرها زهاء نصف مليون من ابنائنا وما زلنا معاشر السواد الاعظم هنا نهتم لهم اكثر من اهتمامنا لامة لا تربطنا بها جامعة اللسان والجنس ٠ وهم على شاكلتنا يهتمون ببلادهم ولغتهم وما يقوّمها ٠ وما ننس لا ننس يوم كانت اللغة العربية يحفظ تراثها في الاعصر الاخيرة في بيع لبنان واديارة ، اكثر من حفظه في جوامع دمشق وحلب ومدارسها ، ويوم كان في اللبنانيين الغيورون على مجدها العاملون بما يصلحها الساعون الى نشرها ٠

لا يفلح قوم لا يتضامنون و يتساندون ٠ وكل شعب وضع قوميته في الذروة

العليا من الكرامة يوقّر و يبجّل . ومن لي يوم الكريهة غير حمي اخي وجاري ألجأ اليه . المرء كثير بأخيه ، ولن تضام أمة عرفت نفسها . نحن عرب قبل ان نكون مسيحيين ومسلمين ، نحن شاميون قبل ان نكون أمويين وعباسيين وسلجوقيين وعثمانيين .
سعادتنا مناط الاحتفاظ باصولنا ، ولا تمثلنا الا قوميتنا ، واعظم قوة لها لغتنا ، والسلام .



تاريخ الشام

قبل الاسلام

اول شعب غزا الشام والحثيون والكنعانيون

ذكر اهل الاخبار والسير ان بلاد الشام كانت يوم عرف تاريخها مغشاة بالاشجار ولا سيما في اللبنانين الغربي والشرقي فجاءها من بلاد اشور رعاة نزلوا القسم الشمالي منها وما زالوا يتقدمون في فتوحهم حتى بلغوا معظم سواحل الشام واستولوا على عكا . وانقسم هؤلاء الرعاة واسمهم عمو اي الشعب الى قسمين قسم اقام على تربية الماشية في السهول ، واحترف القسم الآخر بالاحتطاب في الجبال ، او بالصيد على شواطىء البحر وضفاف الانهار ، وقيل ان ذلك كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد ولعله يرد الى اكثر من خمسة آلاف سنة ولم يعرف من كان سكان القطر يومئذ . والغالب ان من اقدم الشعوب التي استولت على الشام الحثيون في الشمال والكنعانيون في الجنوب . والحثيون لم يعرف عنهم الا انهم كانوا وراء جبال طوروس بادئ بدء يسكنون الحوض الاعلى من نهري الفرات وقزل ايرمق خضعوا اولاً للكلدانيين ثم توسعوا في ملكهم واستولوا بقيادة ملكهم سابالولو على شمالي البلاد وامتدوا الى وادي العاصي فاستصفوه برمته و بنوا مدناً مثل كركميش (جرابلس) على الفرات وقادس على العاصي وربما كانت مدينة حلب ايضاً من بنائهم وفي رسائل تل العمارنة التي وجدت في صعيد مصر اوائل هذا القرن بيان وافٍ في الجملة لحالة هذه الدولة الحثية التي حاربت فراعنة مصر اربع عشرة سنة فلم يظفر بهم الفراعنة حتى جاء ستي الثاني فحاربهم وقهرهم .

وكان الكنعانيون ينزلون في جنوب الشام وفي وسطه . ونسبتهم لكنعان جد القبائل التي سكنت غربي الأردن ، قتل الاسرائيليون اكثرهم واستعبدوا اكثر من لم يقتل منهم . وكانت حدود ارض كنعان الاصلية من مدخل حماة شمالي لبنان الى البادية ولم تمتد الى ساحل البحر لان الفلسطينيين ما زالوا الى ان انقرضوا يسكنون ذلك الساحل ، وقد سكن ارض كنعان عدة اسباط ورد ذكرهم في التوراة كالحثيين واليبوسيين والاموريين والجرجاشيين والحويين والفرزيين والعرقيين والسينيين والارواديين والصماريين والحماثيين وكان في ارض كنعان ١١٨ او ١١٩ مدينة ورد ذكرها في جدول عثر عليه في هيكل الكرنك من صعيد مصر يظن انها المدن التي افتتحها تحوتمس الثالث من ملوك الفراعنة قبل ايام يشوع .

* * *

تعدد الحكام والحكومات

وعلى كثرة عناية علماء النصرانية بتاريخ الارض المقدسة او فلسطين او ارض اسرائيل او ارض الموعد لم يبرح تاريخها غامضاً بعض الشيء لقلة المصادر التي يركن اليها واكثرها اشبه بتقاليد منها بتاريخ . وهكذا يقال فيما عرف من تاريخ وسط هذا القطر وشماله في العهد القديم . وكان اكثر اماراته مستقلة متعادية شأن بلاد الجنوب منها . واذ لم تكن البلاد كما قال بوست تحت حكم القضاة والملوك حكومة واحدة كثرت فيها التغيرات وتعددت القضاة كشمشون وجدعون ويفتاح الى ان اجتمعت كلمة شعب اسرائيل على اقامة ملك ولما انقضى ملك سليمان وقام ابنه رحبعام انقسمت المملكة الى مملكتين مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا وبعد ان تقلبت الاحوال على هاتين المملكتين اخذتا بالانحطاط الى ان سبى الاشوريون الاسرائيليين والبابليون يهوذا . وجملة الزمن الذي مضى من ملك داود الى سبي بابل نحو خمسمائة سنة .

* * *

الفراعنة والاشوريون

كانت الشام بين عاملين بل بين سلطانين قويين العامل الاول دولة الاشوريين والبابليين اذا قويت احداهما يمتد سلطانها على الشام او تكتفي من اهله بالجزية وتجنيد بعضهم . واذا

كانت القوة لفراعنة مصر حكموا الشام او اقتنعوا من سكانها بالجزية وبعض الجند وقد ظلت البلاد تابعة لمصر واحياناً كانت تبعيتها اسمية نحو اربعة قرون فقد فتحها تحوتمس الاول وتحوتمس الثالث وفي ايام تحوتمس الاول تجلت حدود الشام على الفرات وظل الشام في حكم الفراعنة الى عهد رعمسيس الخامس ولما خلص من المصريين داهمه الاشوريون فاستولوا عليه واعترف الشام كله بسلطة اشور، وتجلت سلطة الشام على عهد تغلت فلازر وكان المصريون يحتلون بعض القلاع مثل غزة ومجدو (تل المتسلم) في الداخل وجبيل وصيدا في الساحل على ما ثبت ذلك بالآثار .

وكان الفراعنة على الارجح يداهمون الشام من طريق صحراء التيه والجفار لقلة سفنهم بسبب قلة الاشجار في بلادهم كما هي قليلة في وادي دجلة والفرات وربما كان وجود الاشجار في الشام من جملة الاسباب التي حملت اهل بابل واشور ومصر على مد سلطانهم على الشام قال احد الباحثين : كانت الشام في الالف الثالثة قبل المسيح يقطنها خليط من سكان ساميين وهم العموريون والحثيون وهم غير ساميين فهجموا على بابل . وفي اوائل الالف الثانية هجم الساميون من سكان الشام وربما كان بايعاز الحثيين على مصر وحكموها وهذا العهد هو عهد الرعاة (الهيكسوس) . وما برح ملوك الاشوريين والكلدانيين في القرون الاخيرة يحسنون صلاتهم مع الفراعنة ويرضون بسلطانهم الضئيل على الشام حتى ثارت الفتن في مصر فاغتنم ولاة الشام من عمال الفراعنة هذه الفرصة وخرجوا عن الطاعة وجمع احد رؤساء الحثيين قبائل امته واسس دولة قوية الشكيمة وقاتل المصريين فلم يكتب لرعمسيس الاول وستي الاول من الأسرة التاسعة عشرة تقويض دعائم تلك الدولة بل ان رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم سيزوستريس بعد حرب عشرين سنة اضطر الى الرضا بما وقع وعامل ختسارو امير الحثيين معاملة الاكفاء والاقران . ومن ذلك الحين زال حكم مصر عن فينيقية والشام الجنوبي وقامت في الشمال دولة مستقلة فاصلة بين مصر واشور وكان ذلك في حدود سنة ١٣٥٠ ق.م .

ضعفت دولة الحثيين وعادت اشور تقوى بملوكها على الاطراف امثال سالامنزار وتغلت فلازر وسنحاريب يغيرون على الشام فيلقي منهم المصائب وكانوا يريدون اخضاعه

ليكون لم مجازاً الى الاستيلاء على تجارة مصر والحبشة وليبيا (طرابلس و برقة) والبحر الاحمر والابيض ولما سقطت نينوى سنة ٦٥٥ ق٠م باستيلاء ملوك المملكة الكنعانية الثانية خضع الشام زمناً قليلاً للفراعنة ثم عاد بعد انهزام نيخو وخلفائه الى ساطة ملوك بابل وكان العهد الكنعاني عهد الخراب والدمار لان بخت نصر ملك الكلدان فعل في بيت المقدس (٥٨٦ ق٠م) افعالاً مدهشة من الهمجية وجلا الشعب الاسرائيلي الى بابل ٠

* * *

اليهود والكنعانيون وخراب بخت نصر استولى الشعب الاسرائيلي على الكنعانيين وغيرهم لما جاؤا بلادهم من وراء الفرات وكانوا ينقسمون الى اثني عشر سبطاً ظلوا منقسمين على انفسهم قروناً كثيرة وتعدد ملوكهم وكل منهم يحكم بهواه حتى خربت مملكتهم بايدي بخت نصر فكان تاريخهم مدة ٩٩٤ سنة عبارة عن مشاغبات وانقسامات في عهد الملوك والقضاة والكهنة ٠

* * *

الفينيقيون واستقلالهم التجاري ولم تكن مملكة اسرائيل بعمرانها وقوتها مثل مملكة فينيقية الصغيرة التي قامت في ارض الشام واشتهرت اكثر من غيرها من الدول الشامية لانها كانت دولة بحرية على جانب من الحضارة المقتبسة عن المصريين والاشوريين والبابليين ، ومعرفة زائدة بطرق البحار والتجارة في البلاد القاصية ، فكان الفينيقيون في عهد عظمتهم كالبنادقة في القرون الوسطى بحريتهم واتساع تجارتهم اوالبريطانيين في القرنين الاخيرين باساطيلهم العظيمة وتجاراتهم الواسعة ، مع مراعاة النسبة بين البلاد والعصور ٠

والفينيقيون من القبائل السامية التي نزلت بلاد آرام اي الشام وبلادهم ضيقة النطاق طولها خمسون فرسخاً وعرضها من ثمانية الى عشرة فراسخ بين بحر الشام واعلى سلسلة في جبل لبنان وتدخل فيها صور وصيدا وارواد وجبيل و بيروت ومنهم من ادخل فيها البترون وطرابلس ولم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها بل كان لكل ناحية مدينة صغيرة تستقل بها ولها مجالس وملك تحكم نفسها بنفسها وتبعث بنوابها الى اعظم

مدينة فينيقية لنفض المصالح المشتركة وكانت صور محط رحال النواب منذ القرن الثالث عشر ، ولما لم يكن الفينيقيون أمة حربية خضعوا لسطوة الفاتحين من المصريين والاشوريين والبابليين والفرس وادوا اليهم الجزية عن يد وهم صاغرون ٠

هذا رأي سنيوبوس وقال مسبيرو : ان تحوتمس الثالث تعب في اخضاع بعض الفينيقيين وقد استكانت مدائن الوسط والجنوب وهي جبيل وبيروت وصيدون وصور من غير قتال ، واخلص اهلها الطاعة لمواليهم الاجانب الى مابعد رعمسيس الثاني وكان هذا والحق يقال عين الحكمة والصواب٠فقد ترتب على رضاهم بالعبودية ان توصلوا الى احتكار جميع تجارة مصر مع أمم آسيا والبحر الابيض ثم نالوا استقلالهم في اواسط القرن الثاني عشر قبل الميلاد لما كف فراعنة مصر عنهم ٠ ولكن حدث في حدود سنة ١٢١٠ ق٠م ان اقلع من عسقلان اسطول فلسطيني ولقي اسطول صيدا فدمره فانتقلت العظمة الى صور ولما ملكها حيرام الاول (من سنة ٩٨٠ — ٩٤٦ ق٠م) عقد مع داود وسليمن علاقات عادت على بلاده بالثروة والرخاء٠

قال : ثم ظهر الاشوريون على الفينيقيين ورضيت صور بدفع الجزية لهم ثم لما ملكها ايلولي (من سنة ٧٢٨ الى سنة ٦٩٢) حارب شلمناصر الثاني وسرجون وسنحاريب حروباً انتهت بهلاكه وانقراض دولته فاصبحت بلاد فينيقية تابعة للاشوريين ولما سقطت نينوى (٦٠٧) عاد اليها استقلالها ففازت من دفاع بختنصر بمعاونة الفراعنة الصاوبين واحتملت الحصار ثلاث عشرة سنة وحدثت في فينيقية تورات في اوقات مختلفة فقمعت وفي سنة ٥٥٧ أعيدت للكلدانيين ولما خربت بابل سنة ٥٣٨ حصل لصور ماحصل لها فدخلت في قبضة الفرس من غير حرب ولا قتال٠ ومن اهم الاسباب التي حالت دون الفينيقيين وتأسيس مملكة ضخمة مؤلفة اولاً من جميع اصقاع الشام ثم من الاقطار المجاورة صعوبة التوغل في داخلية البلاد الشامية لما فيها من العقاب والشعاب وهم في قلة وغيرهم في كثرة فصرفوا نظرهم الى البحار وكانوا اعظم تجار وسفّار ٠

* * *

حروب الفرس والاسكندر

تخلصت الشام من عوامل كثيرة كانت تتنازعها ،منها ما هو داخلي كالفتن الاهلية والحروب الداخلية ٠ ومنها ماهو خارجي

كان يحكمها المصريون تارة والاشوريون او البابليون أخرى ولما تراجعت هذه الامم قامت دولة الفرس فاستولت على الشام وكانت دمشق وحماة وارفاد اهم مدنها ولما فتحها تغلات فلازر سنة ٧٣٣ ق . م عاد الفرس ففتحوها على عهد كسرى .

وعلى عهد دارا من ملوك الفرس جعلت صيدا عاصمة البلاد وما برحت في قبضة الفرس الى سنة ٣٣٣ وقد اجتاز بها الاسكندر المكدوني بعد ان قرض مملكة فارس واباد بين الاسكندرونة وجبال اللكام (امانوس) جيش دارا ملك الفرس واخرب مدينة صور بعد ان حاصرها سبعة اشهر (٣٣٢) . وكان بخت نصر حاصرها ثلاث عشرة سنة (٥٨٦ — ٥٧٣) ولم يستطع فتحها . واستبسل الصيداويون وعرضوا انفسهم للهلاك مرات في حصار الاسكندر لصور وعمل الاسكندر سداً لانه كان يتعذر بدونه الدنو من البلد لبعدها عن اليابسة وبعث السامريون له بثمانية آلاف رجل نجدة وابى اليهود الخضوع له بادئ بدء . وفي سنة ٣٥١ ق.م خربت صيدا عقيب انتقاضها على ملك فارس وقتل وحرق فيها اربعون الف نسمة .

قالوا : ان دارا لما انخذل في وقعة ايسوس على خليج الاسكندرونة الى الشمال منها ، وقع الرعب في قلوب الفينيقيين والسور بين فدان اكثرهم للاسكندر طائعين، ولما وصل الى جبيل تلقاه اهلها بالبشر والحفاوة . وكان الاسكندر قد ارسل برمنيون الى دمشق ليستحوذ على خزائن دارا التي ارسلها اليها لما سار الى قيليقية لحرب الاسكندر فاستولى عليها وكان فيها من الذهب والفضة والآنية والحلي والحلل الثمينة ما لا يعد ولا يوصف فضلاً عما كان لبعض اعيان الفرس في دمشق من المتاع والاموال . وخربت البلاد التي استولى عليها الاسكندر بايدي الفرس وكان من عادتهم ان يحرقوا المدن والقرى قبل ان تسقط في ايدي عدوهم .

* * *

دولة السلاقسة وملك الارمن ولما هلك الاسكندر اقتسم المملكة قواده الاربعة المعروفون بالسلاقسة فكانت الشام من حصة سلوقس . وكان من اشهر مدن مملكته انطاكية التي جعلها عاصمته وسلوقية (السويدية) وافامية (قلعة المضيق) واللاذقية . واستولى بطليموس والي مصر من دولة البطالسة على ارض اليهودية

وفينيقية وجزيرة قبرص والمدن الساحلية من الشام · وفتح انتيغونس من خلفاء الاسكندر صور ويافا وغزة ولم يفتح صور الا بعد حصارها خمسة عشر شهراً · تعاصت عليه مع انه لم يكن مضى على فتحها سوى تسع عشرة سنة فاعادها اهلها الى حصانتها الاولى وعادت قطب التجارة في الشرق والغرب · وجدّ بطليموس في اصطناع اسطول له في جبيل وطرابلس · وجرت وقعة مهمة بين بطليموس وسلوقس وبين ديمتريوس انجلت عن خمسة آلاف قتيل وثمانية آلاف اسير من جيش ديمتريوس ولما رأى بطليموس ان ليس في قدرته محاربة انتيغونس عاد الى مصر وهدم قلاع عكا ويافا والسامرة ·

كانت الدولة السلوقية اليونانية دولة حرب ونزاع ، فغدت الشام في حالة بؤس ونحس ، رومية تطالبها ببسط سلطانها عليها ، ومصر تحاربها لتضمها اليها ، واهل فارس يجتاحونها ، حتى قررت لهم السيادة الاسمية عليها ، فمنيت البلاد بضعف الحال وقلة الرجال ، فضاق ذرع الشاميين بالحروب المتصلة بين ملوكهم من اليونان وعسفهم واعناتهم وانقساماتهم وقتلهم اولادهم وابناءهم واخوتهم فعزموا ان يختاروا ملكاً عليهم من الاجانب فكتبوا الى تغران ملك ارمينية وارسلوا اليه وفداً يفضون اليه بما عزموا عليه ويكاشفونه في قبوله فاجابهم الى طلبتهم واتى الشام سنة ٨٣ ق · م ولبس تاج ملكها واستمر ملكه فيه ثمان عشرة سنة الى ان جاءها الرومان سنة ٦٥ ق · م واستخلصوا البلاد منه ·

* * *

دولة الرومان كان بومبيوس اول قائد روماني استولى على الشام وجعله ولاية رومانية وجعل انطاكية عاصمتها · قالوا : ان قرب الشام من البارثيين قد منعها من الاستمتاع من نعمة النجاح التي وصلت اليها سائر اقطار المملكة الرومانية ثم انفصلت مدة عن رومية اعطاها انطونيوس الى احد اولاد الملكة كلوبطرا وعادت فضمت الى مملكة الرومان على عهد الامبراطور اغسطس ونقلت بها الاحوال الادارية على عهد الامبراطورين فيسباسين وادريانوس ولم تكد تطمئن من ناحية البارثيين بفضل الوقائع التي كتب فيها النصر للقائدين تراجان وسبتيم

سيفير وانتظمت حالها وانبسط ظل عمرانها وقام منها امبراطرة شاميون قبضوا على قياد المملكة الرومانية من عهد الامبراطور سبتيم سيفير الى اسكندر سيفير حتى كان من عهد تأسيس مملكة الفرس الثانية على انقاض مملكة البارثيين ما جاب المصائب والنوائب على البلاد لو لم يقم امثال القواد ادرليانوس وديوكلسيانوس ويوستنيانوس ويردوا تلك الغارات ·

قال مومسن : ان البدو واليهود والنبطيين كانوا على عهد بومبيوس الروماني اصحاب السلطان في الشام ، فان الصحاري الرملية الجافة التي لا تسكن من حدود شبه جزيرة العرب آخذة في الغرب الى جبال الشام والشواطئ الواقعة من الجهة الشرقية الى البادية من الفرات الاسفل المخصبة · هذه الصحراء لم تبرح موطن ابناء اسماعيل العرب · ومنذ عرف اول تقليد لم نبرح نشاهد ابناء البادية ينصبون خيامهم ويرعون انعامهم يطاردون على خيولهم المطهمة القبائل المعادية لهم او يغزون التجار الآتين مع القوافل · ولما كان الملك تيغران قد اخذ بأيدي ابناء البادية لحاجته اليهم في التجارة اهتبلوا الغرة في هذا الاضطراب الذي جعل امور الشام فوضى ليتوسعوا في شمالي البلاد وكان للقبائل القريبة من بلاد الشام ممن هم على حي من الحضارة القدح المعلى في هذا الشأن ·

قال : وكان زعماء قبائل البادية اشبه بعصابات منفردة يساوون ابناء البادية ويفوقونهم في قطع الطرق والاضرار بالسابلة · وهكذا شأن بطلميوس بن مينوس وربما كان اقوى هؤلاء اللصوص واغنى اهل عصره · وكان يحكم بلاد الايطور بين اي الجبلين وهي بلاد الدروز اليوم في اودية جبل لبنان وحكمه نافذ من الشطوط الى بعلبك وهكذا حال ديونيزوس وكنيراس صاحبي مدينتي طرابلس وجبيل · ومثل ذلك كان شأن اليهودي سيلاس في قلعته على مقربة من افامية على العاصي ·

* * *

مملكة يهودا وانقراض اليهود

قال : وكان اليهود في جنوبي الشام يحاولون توطيد سلطانهم السياسي فانشأ المكابيون يحترمون عبادة اليهود ويقدسونها حتى توصلوا بذلك الى انشاء مملكة وراثية جمعت الى الرئاسة الدينية

الرئاسة الدنيوية ثم فتحوا بلاداً في الشمال والشرق والجنوب ولما مات الشجاع جاني الكسندر سنة٦٧٥ كانت مملكة يهودا ممتدة نحو الجنوب الى جميع بلاد الفلسطينيين الى التخوم المصرية ونحو الجنوب الشرقي الى مملكة النبطيين في البتراء والى الجنوب الى ماوراء بلاد السامرة والمدن العشر الى بحيرةطبرية فكانت الشواطئ بايدي اليهود من جبل الكرمل الى العريش وفي جملتها مملكة غزة وكانت عسقلان مدينة حرة واصبحت مملكة اليهود مرافئ حرة للصوص البحار بعد ان كانت مفصولة عنها فيما غبر من الايام ·

ولذلك اضطهد الرومان اليهود كثيراً فنالهم في ايام هيرودس من الاضطهاد واهراق الدماء ما نالهم وفي ايام فلورس الوالي الروماني لحقهم في كثير من مدن فلسطين ضروب الاذى والقتل · ونكل السوريون باليهود عملاً باشارة الوالي الروماني · واحرق الرومان أورشليم ودمروا المدن وسبوا اليهود وثار هؤلاء على الرومان سنة ١٣٢ فقتل هؤلاء منهم ٥٨٠ الفاً واحرقوا ودمروا تسعمائةقرية عدا الحصون واسروا كثيراً منهم بعثوا بهم الى رومية حتى انقطعت شأفتهم من فلسطين مدة خمسة عشر قرناً ·

قال كلرمون كانو : لما دخل المسلمون ارض اليهودية لم يجدوا يهوداً لان حروب فسباسين وطيطوس وتراجان وادريانوس واضطهادات ملوك النصرانية لم تترك حجراً على حجر من اليهودية السياسية والوثنية بل امعنوا في القضاء عليها وذروا رمادها في الرياح الاربعة ففقدت في فلسطين جميع التقاليد اليهودية وجميع اليهود الذين تراهم بلا استثناء هم من الطراء على فلسطين مؤخراً نزلوها بعد ان بادوا منها مدة خمسة عشر قرناً ·

* * *

الايطوريون والنبطيون } وذكر مومسن : في كلامه على الاضطرابات والمنافسات بين الرؤساء في الشام ان المدن الكبرى مثل انطاكية والسويدية ودمشق هي التي كان ينالها الاذى من جراء ذلك فيصاب زراع البلاد بزراعتهم وتجارتهم البرية والبحرية · ولا يستطيع سكان جبيل و بيروت حماية حقولهم وسفنهم من هجمات الايطوريين — الذين استولوا على اللبنانين الشرقي والغربي ونزلوا فينيقية

وجعلوا عين جر (عنجر) عاصمتهم الاولى ثم اتخـذوا طرابلس عاصمتهم الأُخرى — الذين كانوا يطيلون ايدي التعدي على البر والبحر من حصونهم العالية . ويحاول سكان دمشق ان يدفعوا عن انفسهم عادية الايطور بين والبطالسة وذلك بخضوعهم للملوك البعيدين عنهم مثل النبطيين واليهود وتداخل سامسيكراموس وازيوس في انطاكية في الخلافات المدنيـة بين الوطنيين فاصبحت هذه المدينة اليونانيـة عاصمة امير عربي .

خضع سكان دمشق للنبطيين اصحـاب البتراء لانهم اصبحوا اصحاب الحول والطول في الشام ومصر لما دب فيهما من الضعف نحو سنة ١١٠ الى ١٢٠ ق . م بالحروب المتأصلة وقد كان النبط يغيرون على ارض مصر والشام بعصاباتهم فحاربوا الادوميين واسسوا ملكاً بالبتراء . قال مومسن : ان دمشق لم تبرح ملكاً للنبطيين والاولى ان يقال ان هذه المدينة اعطاها كاليجولا الروماني الى الحرث صاحب البتراء . وانحط النبطيون بسرعة على عهـد مالتوس التاني نحو سنة ٤٨ الى ٧٠ ب . م فاضاعوا دمشق . ثم فقد النبطيون استقلالهم في سنة ١٠٥ م عقيب حملة كرنيليوس بالما حاكم الشام الذي استولى على البتراء واصبحت جرش الى سنة ١٦٢ خاضعة لولاية الشام ثم البتراء ثم ضمت فينيقية الى الشام وكانت لمملكة النبط القديمة بلدتان مهمتان بصرى والبتراء .

وروى بعضهم : ان بومبيوس لما فتح الشام واستولى على دمشق وما جاورها ابقى لدمشق بعض استقلالها وكذلك لبصرى وجرش وعمّان وبعد فتح البتراء وجعلهـا ولاية رومانية جعلت بصرى عاصمة حوران مقر الفيلق من الجنود فعمرت البلاد وكانت ميدان السلب والنهب من قبل وازدانت المدن بآثار تدهش خرائبهـا واطلالهـا . وغزا انطوخيوس النبطيين سنة ١٣٢ ق . م فلم ينـل منهم ثم حاصرهم ديمتريوس .

كانت مملكة النبط على عهد المكابيين ممتدة بين فلسطين وخليج العقبة ووادي الحجر والبحر الرومي وهي عبارة عن مملكة ادوم قديماً ويسميها اليونان بلاد العرب الحجرية وعاصمتهـا مدينة سلع او البتراء في وادي موسى وسماها بعضهم مدينـة

الرقيم ظناً منه بانها مدينة اصحاب الكهف واسم البتراء اقرب الى الامم التي عرفها به اليونان وان كانت البتراء على ما ورد من وصفها في كتب العرب هي في ارض الحجاز . قامت هذه الدولة العربية على حين غفلة من دولة البطالسة والسلاقسة في مصر والشام وقوي سلطانها في القرن الثاني قبل الميلاد . ولقب الحرث الثالث نحو سنة ٨٥ بمحب اليونان وهو الذي فتح البقاع سنة ٨٥ واستولى الحرث الرابع على دمشق وفي ايامه حدث المصاف الاول بينه و بين الرومان فاضطر الحرث ان يؤدي اليهم الجزية . واضطر النبطيون على عهد الامبراطور بومبيوس واخلافه ان يقدموا جنداً من ابنائهم الحين بعد الآخر لمعاونة الرومان ولكن ظلت مملكتهم حرة قوية . واصبحت مملكة النبط ولاية مستقلة برأسها نحو سنة ٣٥٨ تحت اسم مملكة فلسطين اوفلسطين المسالمة . وحمل الامبراطور تراجان على النبطيين فبدد شملهم وقضى على مدنيتهم سنة ١٠٦ م فاندمجوا في غيرهم وعدد ملوكهم اربعة عشر ملكاً منهم من اسمه الحرث ومنهم عبادة ومنهم مالك و بينهم بعض الملكات من النساء .

* * *

دولة تدمر ولما تراجع امر مملكة النبط في نحو منتصف القرن الثالث للمسيح لارتقاء مملكة تدمر ومملكة فارس اللتين نازعتاها التجارة اخذت تدمر ترتقي بتجارتها واصبحت زمناً هي ومملكة النبط مركزي التجارة في الشام ونقطة اتصال الشرق بالغرب . وانضمت مملكة تدمر الى ممالك الرومان نحو السنة السادسة والثلاثين قبل الميلاد . وكان القائد مرقس انطونيوس عائداً من حرب الملوك الارشكيين فحاول الاستيلاء على تدمر فقاومه اهلها على الفرات فتغلبوا عليه . وبعد ذلك توطدت العلائق الحسنة بين تدمر ومملكة الرومان ونالت حقوق مستعمرة رومانية بفضل بعض امبراطرة الرومان .

قال رنوفال: واذا اعتبرت ان العهد الذي فيه ارتقت حاضرة زينب اي تدمر الى اوج التمدن هو نفس الزمن الذي به تواتر على عرش رومية بعض الملوك الشرقيين كسبتيميوس ساويرس واسكندر ساويرس وفيلبوس العربي ، فلا تعجب من كون أذينة الاول قد تجاسر على خلع السلطة الرومانية واقامة دولة مستقلة تحتوي على

انحاء البراري وبلاد العرب الشمالية . وكان هذا الرجل ابن خيران بن وهبلات بن نصور من بني السميدع انتهز الفرصة وادعى الملك سنة ٢٥٠ م فقتله القيصر الروماني وحارب أذينة واخلافه الفرس غير مرة كانوا فيها يستظهرون عليهم ويحرزون رضا الامبراطورية الرومانية .

ولقد خرج على أذينة قائد روماني اسمه كيانوس فحاصره أذينة في حمص ، فلما ضاقت به الحال خانه قائده كاليستوس وقتله ففتحت ابواب حمص ثم قتل كاليستوس فاقر امبراطور الرومان لأذينة بحق الرئاسة ودعاه امبراطوراً على جميع انحاء المشرق اي على الشام والجزيرة وآسيا الصغرى خلا بعض نواح في الشام ، ودعي ملك الملوك واول ما سعى له القضاء على الاضطهاد الذي أصاب النصارى في بعض مدن الشام كانطاكية وحمص ودمشق وقيسارية فاطلق الحرية الدينية لكل الطوائف ، واوعز الى الوثنيين ان لا يتعرضوا للمسيحيين في قضاء فروض عبادتهم ، ورخص لهم في إقامة البيع والكنائس ، وادب العصاة من بقايا جيوش كاليستوس ممن كانوا انتشروا في البلاد وعكروا صفوها باعتداءاتهم على الناس . وقاتل ملك الفرس مرة ثالثة وظفر به ثم قتل بيد ابن اخيه مَعَنّى مع ابنه هيروديس وبويع لمعنى . الا ان اهالي حمص ثاروا به بعد ايام وقتلوه .

* * *

زينب اوزنوبيا او الزباء } وكانت زينب او الزباء او زنوبيا زوجة أذينة الثاني فولدت له ثلاثة اولاداً اكبرهم وَهْبَلات ثم خَيْران ثم تيم الله فلما قتل أذينة اخذت زوجته بأزمة الملك بالنيابة عن وهبلات بكرها وكان لها مجلس شيوخ ترجع الى رأيه ولها من الحلم وحسن الادارة والسياسة والكرم ما عدت به من اعظم الملوك والملكات . وكانت نفسها تحدثها على ما يقال بالاستيلاء على المملكة الرومانية . وعقدت مع سابور ملك الفرس معاهدة وكان يخشى بأسها . وغصت عاصمتها باجناس الشعوب والعناصر واكثريتهم من العرب والنبط .

وكان بنو السميدع يسكنون بادية الشام في اوائل النصرانية فظهر بنو غسان بعد خراب سد مأرب وسيل العرم واستولوا على جهات فلسطين ودمشق وكانت

سبقتهم قبيلة بني سليح من قضاعة وسكنت البلقاء فانتشروا في البلاد اواخر القرن الثاني للمسيح وفي خلال تلك المدة قدمت فرقة من بني لخم الى جنوبي فلسطين وامتدوا في غربي بحيرة لوط و برز قوم من مضر يعرفون ببني كلب امتدوا من انحاء الحجاز الى جنوبي الشام ونزلوا في جوار دومة الجندل (الجوف) فاذعنت بقايا هذه القبائل لزينب فاستأجرتهم وادخلتهم في جملة جيشها · وخاف غاليانس قيصر عادية زينب وقد اصبحت محبوبة من الامم فوجه جيشاً لقتالها فغلبته جيوشها وانهزم فلّ الجيش الروماني · ثم حدثتها نفسها ان تستولي على بلاد بيثينية فقهرتها وبلغت خلقيدونة فدعا سكانها القيصر اورليانس الى نصرتهم ففاجأ التدمريين في بيثينية نحو ٢٧١ — ٢٧٢ فطردهم عنها ثم واصل فتوحاته فتغلب على غلاطية وقبادوقية حتى بلغ مدينة انقرة ففتحت له ابوابها ·

وكانت زينب في سنة ٢٧١ امدت عاملها فيرموس على مصر بالقائد زبدا لصد هجمات الرومان الذين قدموا مصر بقيادة بروبس، فنشب بين الفريقين قتال انهزم فيه التدمريون تاركين مصر الى الابد، وعاد زبدا مع بقايا عسكره · وكانت زينب اعدت جيوشها لمقاتلة الرومان وقسمتها ثلاثة اقسام وجعلتها تحت امر زبدا وزباي · وجهت القسم الاول الى طريق حلب والثاني الى طريق حمص والثالث الى القريتين وهي تتقدمهم بنفسها · وجاءها جيش الرومان من الشمال ففتحوا مدينة طيانة ومدائن جبال طوروس حتى قربوا من انطاكية فأمرت زينب قوادها ان يناوشوا الرومان القتال فشتت عساكرها عسكر الرومان لاول الوقعة ثم عاد عسكر الرومان على التدمريين فكسروهم فملك اورليانوس انطاكية وذهبت زينب الى حمص فتأثرها الجيش الروماني ففتح في طريقه عدة مدن على ضفة العاصي مثل افاميا وشيزر (لاريسا) والرستن وبلغ جوار حمص ·

استعدت زينب لقتال القائد الروماني في سبعين الفاً وكان عدد جيشه اقلّ من جيشها الا انه اكثر مراناً على الحرب واسرع في الكر والفر · فانكسر جيش زينب كسرة عظيمة واستولى على حمص · فلم يسع زينب الا ان تسرع الى تدمر للدفاع عنها وخف اورليانس الى حصار تدمر وتخلى عن نصرتها حلفاؤها من الفرس والارمن

والعرب ثم وقعت زينب في قبضة القيصر الروماني وفتح التدمريون ابواب مدينتهم للرومان في اول سنة ٢٧٣ ثم وضع اوريليانس حامية قليلة واخذ معه زينب واسرى التدمريين الى آسيا الصغرى فبلغه في طريقه الى رومية ان التدمريين ثاروا بالحامية التي وضعها عندهم فكرّ راجعاً عليهم وأعمل السيف فيهم اياماً وقوض الابنية والهياكل ودك الاسوار والقلاع فخربت تدمر خراباً لم تنتعش منه ·

* * *

آخر عهد الرومانيين وسياستهم (كثرت الفتن على عهد دولة السلاقسة خلفاء الاسكندر واستقلت فلسطين في عهد المكابيين (١٤٣ ق ٠ م) لاشتغال السلاقسة بحروبهم · وامتد سلطان استقلالها من البحر المتوسط الى الفرات · واحتفظت بحريتها حتى تدخل بالامر القائد بومبيوس الروماني و بسط سلطان دولته على البلاد سنة ٦٣ ق٠م ولما اراد الرومان اضافة فلسطين الى ولاية الشام الرومانية ثار اليهود فكانت نتيجة ذلك حصار بيت المقدس وخراب معبد سليمان على يد تيتوس سنة ٦٦ ب٠م وثار اليهود في فلسطين بقيادة باركوخبا (١٣٢—١٣٥ م) فثار بهم ادريانوس الروماني واخضعهم بعد حرب هائلة قتل فيها قائدهم ·

قال بعض المؤرخين : لما وقعت الفتن بين اليهود والرومانيين في فلسطين سنة ٦٦ لم يبق من مملكة اغريبا وهي الجولان احد من اهلها · لان اغريبا مضى لزيارة غلوس والي سورية في قيسارية واناب عنه رجلاً اسمه فاروس فاتى اليه وجهاء بعض المدن من اليهود يسألونه ان يرسل اليهم جنوداً للمحافظة على راحتهم فبدلاً من ان يحسن ملتقاهم بعث قوماً فتلوهم ليلاً عن آخرهم · ثم لم يدع جوراً ولا اعتسافاً الا واقدم عليه · ولما بلغت اغريبا اخبار ظلمه عزله ولم يقتله لاتصال نسبه باحد ملوك العرب ·

وزحف غلوس الى زابلون ففر اهلها الى الجبال فانتهبها واحرق بيوتها التي لم تكن ابنية صور وصيدا وبيروت احسن منها ونهب واحرق القرى المجاورة لها وعاد الى عكا فنشط اليهود الى عودته وطاردوا السوريين فقتلوا منهم الفي رجل اكثرهم من بيروت ثم سار غلوس الى قيسارية وارسل كتائب من جيشه الى يافا فباغتوا اهلها وقتلوهم عن آخرهم ونهبوا المدينة واحرقوها وكان عدد القتلى ثمانية آلاف واربعمائة ·

وارسل غلوس ايضاً حملة الى السامرة قتلت كثيرين من اهلها ثم ارسل فريقاً آخر الى الجليل ففتحت مدينة صفورية (صافوريس) ابوابها لجنود الرومانيين واقتدى بها غيرها من المدن٠على ان المشاغبين اعتزلوا في جبل عرقون المقابل لصفورية فسار اليهم الجند فظهروا عليهم وقتلوا منهم اكثر من مائتي رجل واحدقوا بالجبل من كل جهة فقتلوا منهم نحو الف رجل ثم احرق افيق (فقوعة) والفولة والقرى المجاورة لها٠

وتسلسلت هذه الوقائع الرومانية في هذا القطر فسار فسبسيان الروماني الى الكرك (تاريكا) فقتل كثيرين وانهزم كثيرون في سفنهم وابعدوا في البحيرة بحيرة لوط فكان عدد القتلى من اليهود في البحر والمدينة ستة آلاف وخمسمائة رجل ٠ وبعد ان قهر الرومانيون كرك وجمت — وجفت غربي قانا الجليل على مقربة من جبل كوكب كاران — استسلمت اليهم باقي المدن وهلك من اهل كامالا شرقي البحيرة خمسة آلاف ثم خضعت بعض مدن فلسطين وقتل في القدس ثمانية آلاف وخمسمائة سنة ٦٨ وجعلت القدس مستعمرة رومانية (١٣٦) باسم ايليا كابيتولوزا ثم انقضت قرون في سلام على الجملة ولم يدخل الشام في حرب خارجية ٠

كانت معاملة الرومان للشاميين بادئ بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب٠ولما شاخت دولتهم انقلبت الى اتعس مما كانت عليه من الرق والعبودية ٠ ولم تُغنف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ولا ارضهم ارضاً رومانية بل ظلوا غرباء ورعايا وكثيراً ما كانوا يبيعون ابناءهم ليوفوا ما عليهم من الاموال وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق وبهذه الايدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام ٠

وفي سنة ٥٤٠ جاء ملك الفرس خسرو الاول واسمه عند العرب انو شروان في جيوشه الضخمة ودخل الشام وظل فيه ثلاث سنين ثم اخرج الفرس منه بليزير الروماني سنة ٥٤٢ وعادوا اليها بعد وفاة يوستنيانوس بزعامة خسرو الثاني والتحم القتال مع ملوك الساسانيين وطردهم الى ما وراء عبر الفرات الامبراطور هرقل وفي هذه الحقبة خربت انطاكية بفتح الفرس لها وقتلهم اهلها٠وكانت مدة ثمانية قرون من قبل مهد المدنية الشرقية ٠

حكم الرومان الشام سبعمائة سنة بدأ معهم في البلاد النزاع والشقاق والاستبداد والانانية وقتل الانفس · وحكم اليونان الشام ٢٦٩ سنة سادت في عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم وظهرت المطامع اليونانية باعظم مظاهرها وكان حكمهم من اشد الويلات واشأم النكبات على الامة الشامية · جاء في التاريخ العام : نرى التأثيرات الرومانية والبيزنطية قد اثرت في عرب الشام اخلاف العالقة القدماء الذين كانوا يتقوون كل مدة بمن يهاجر اليهم من اليمن والحجاز فكانت المملكة الرومانية محتاجة لمعاونتهم سواء كان ذلك لحرب الطلائع ضد ابناء جنسهم النازلين على ضفاف الفرات او لاملاء فراغ الشام وكان يتهدده البارثيون ثم الفرس · ومعلوم كيف قاومت أرملة أذينة واسمها زينب او زنوبيا القوى الرومانية في الشرق · ولما انحلت مملكة تدمر عهدت الامبراطورية الرومانية الى أسر أخرى بالحكم في تلك الارجاء وثبتت الامارة في الغساسنة ودامت فيهم ثلاثة قرون ودان رؤساء الغسانيين بالنصرانية فاشتركوا في حرب فارس من القرن الرابع الى القرن السادس وكان احدهم الحرث الخامس من قوام مقام القائد بليزير في حملة آسيا ·

* * *

بنو غسان والعرب في الشام (اختلفت روايات مؤرخي العرب في بني غسان وكانوا اقيالاً بل عمالاً لملوك البيزنطيين في هذه الديار ·

وقد عهد اليهم الدفاع عن تخوم الشام من اعتداء الفرس ورد غارات اللخميين اصحاب الحيرة وكانت سلطة الغسانيين كما قال شلفير تتناول الولاية العربية (او بلاد حوران والبلقاء الا قليلاً) وفينيقية ولبنان وفلسطين · وقال حمزة الاصفهاني وابوالفدا : ان عدد ملوك الغسانيين في الشام احد وثلاثون ملكاً على حين لم يبلغ عن ابن قتيبة والمسعودي عددهم الى اكثر من عشرة · ويقول الاصفهاني ان الحرث بن جبلة هو من اشهر ملوكهم لم يطل حكمه اكثر من عشر سنين · ومؤرخو الروم يقولون انه حكم نحو اربعين سنة وهو المحقق · وكان للغسانيين تمدن فاقوا به اللخميين لاختلاطهم بالروم البيزنطيين · ولم تكن لهم عاصمة معينة بل كانوا ينزلون الجولان والسويداء والجابية وجلق · وكان الغسانيون يؤدون الجزية عند ما هاجروا من اليمن الى الشام الى رؤساء الاسباط

من الرومان ثم امتنعوا من ادائها عندما نالوا من الضجاعم واستولوا على الامر دونهم فاضطر الروم ان يقروا الغسانيين على ذلك لحاجتهم اليهم في رد عادية اللخميين سكان الحيرة· وربما كان ذلك في اواخر القرن الخامس للميلاد ·

وفي سنة ٥٢٩ عهد الامبراطور يوستنيانوس الى الحرث بن جبلة — وكان الحرث يدين بالنصرانيــة على مذهب القائلين بطبيعة واحدة في المسيح ومن المتحمسين لهذا المعتقد الحامين له — بزعامة جميع القبائل العربية في الشام ونالـــ لقب رئيس الاسباط وبطريق · وكان هذا اللقب في مملكة البيزنطيين اذ ذاك ارقى لقب بعد الامبرطور·وفي تلك السنة اشترك مع البيزنطيين في قمع ثورة السامريين واتقضى معظم عهده في حروب المنذر الثالث ملك الحيرة · وفي سنة ٥٢٨ تغلب على المنذر وبعــد نحو عشر سنين اصبحت المنافسة بينه وبين المناذرة على اتمها بسبب اراضي التخوم الواقعة بين دمشق وتدمر الى الرصافة وكان كل واحد منهما يدعيها· قال هوار: ان الحرث الغساني كسر المنذر ملك الحيرة سنة ٥٢٨ وانه لما كان والي فلسطين اشترك في اعادة السامريين الى الطاعة فوهبه يوستنيانوس لقب الملك ليقضي على العرب الذين كانوا اقطاعاً لملوك الساسانيين من الفرس وكان كثيراً ما يجتاز دجلة ويخرب البلاد ويحمي قبائل العرب النازلة في برية تدمر من اعتداء المناذرة الذين كان يحاول هؤلاء ان يأخذوا منهم الجزية وحاربهم على الطريق الحربي (La Srata) الذي كان بين دمشق وتدمر ·

وحارب الحرث مع الرومان في العراق ثم حارب المنذر الحرث وأسر ابنه وقدمه للعُزّى ضحية · وفي سنة ٥٥٤ ظفر الحرث بالمنذر في جهات قنسرين فهلك المنذر في المعركة · وخلف الحرث ابنه المنذر وتغلب على العرب الفرس الذين هاجموا بلاد الغسانيين وظفر بملكهم قابوس في عين اباغ على الاغلب · وحاول ملك الروم قتل المنذر فرفع لواء العصيان ثلاث سنين ولما عصى العرب والفرس على المملكة البيزنطية اضطرت هذه ان تعقد مع المنذر الصلح ثم حُمل المنذر الى القسطنطينية اسيراً وانقطعت الاموال التي كانت تعطيها له مملكة الروم فثار اولاده الاربعة بقيــادة النعمان بكر اولاد الحرث وهاجموا اراضي الروم وخربوا فيهــا فاخذ النعمان اسيراً ايضاً · ولكن

الفوضى انتشرت في بادية الشام واخذت كل قبيلة تختار لها زعيماً خاصاً وانشأوا يميلون الى الفرس ولما سقطت دمشق والقدس في يد ملك الفرس كسرى ابرويز (٦١٣— ٦١٤) انهارت مملكة الغسانيين · وقيل ان جبلة بن الايهم كان آخر ملوكهم · هذا ما يعرف عن الغسانيين في الجملة نقلاً عمن حقق امرهم من مؤلفي الغرب ·

* * *

اليك نبذة في تاريخ الشام القديم لمؤرخين منورين من المحدثين اقفتها على ضؤولتها وكنت احب التوسع اكثر من ذلك في سرد وقائع تلك الايام لولا الخوف من الوقوع في نقل ما لم يتفق الباحثون عليه · والتعرض للمجهولات يؤدي الى سقوط في غلطات او خيالات او حكايات متناقضات · ولعل عناية علماء العاديات في عصرنا توصلهم الى اكتشاف ما كان مجهولاً من تاريخ هذه الديار كلما اوغلوا في حفرياتهم في هذه التربة التي طالما غذيت بدماء الغالبين والمغلوبين وسارت على اديمها دول كبيرة كان الناس في ظلها ظالمين ومظلومين وقتل اهلها في سبيل شهوات الفاتحين بالالوف والمئين ·



تاريخ الشام في الاسلام

«من سنة ٥ الى سنة ١٨ للهجرة»

حالة الشام قبيل الفتح } دعا الداعي الى الاسلام في جزيرة العرب وكثر من دانوا به فكان الشام من اول البلاد المجاورة للحجاز التي فكر الرسول العربي (عليه الصلاة والسلام) في فتحها لنشر كلمة التوحيد وكانت هذه الديار تحت حكم الرومان منذ سبعة قرون وملكها صاحب مملكة بيزنطية او مملكة الروم الشرقية و يعرف عند العرب باسم «هرقل — Héraclius» وسكان هذه البلاد من سريان وعرب وروم وفرس اصحاب علاقات مع الحجاز بالتجارة كما كانت علائق عرب الحجاز في الجاهلية كثيرة جداً باهل هذا القطر . واهم ما كان يرجى منه تيسير الفتح ان قبائل عربية كثيرة كانت تنزل الشام بل تشارك دولة الروم في الاحكام واشهرها غسان في الجنوب وتنوخ في الشمال وتغلب في الشرق .

وكانت هذه القبائل العربية دانت بالنصرانية وتركت عبادة الاصنام والاوثان. فقويت الروابط بينها و بين البيزنطيين فكانوا يؤدون لزعمائهم الرواتب ليقفوا في وجه البادية في الجنوب حتى لا يهاجموا الشام وفي وجه الفرس في الشرق حتى لا يهددوا آسيا الصغرى .

وكان الفرس قبل الهجرة النبوية بثمان سنين فتحوا الشام (سنة ٦١٣— ٦١٤م) فدافع هرقل عنها سنة ٦٢٦ وانتصر على كسرى ولكنه فقد بانونيا ودلماسيا من اجزاء مملكته وسقطتا في ايدي الخرواتيين والصربيين وخوى نجم المملكة وساء

طالعها وظهرت اعراض الانحطاط في اعصابها فارتأى هرقل ان يلقي بقياده الى البطريرك سرجيوس القائل بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة في المسيح (عليه الصلاة والسلام) . وكانت النصرانية تشعبت الى مذاهب مختلفة كنحلة النساطرة واليعاقبة وجميع ارباب هذه المذاهب تكره حكومة الروم التي كانت تضطهدهم باسم المذهب الارثوذكسي وكانت عداوتهم تزيد على الايام تأصلاً .

ولقد كانت مصر والشام من جملة الاقطار التي تحاول الانفصال عن المملكة البيزنطية وقد شغل الامبراطور وشعبه بالمسائل الدينية والخلافات المذهبية فاخذ ينظر الى غارات العرب نظر العاجز الضعيف وزاده ضعفاً شيخوخته واستسلامه لرجال الدين مع انه كان على ضعف ارادته شجاعاً عاملاً بعيد النظر . وما حال ملك ينخر جسمه سوس الفساد في الداخل وهل لمن ضعف جسمه واختلت قواه ان يرسل نظره الى القاصية فينقيها وهو عن القاء ما لديه من المنهكات اعجز . فلا عجب ان اصبحت احوال الشام من اشد ما يكون ملائمة لفتوح العرب في تلك الحقبة من الزمن واسباب الظفر موفورة لهم من كل وجه .

هذا وخزائن هرقل فارغة ومرتبات الامير الغساني التي كانت الدولة تجريها عليه منقطعة . والنفوس في الشام مستاءة من المظالم والمغارم، سئمت الحروب والغارات وهي عرضة لمطامع الفرس اوسوء ادارة الروم والناس يتحدثون بقرب انفراج الازمة على ايدي الفاتحين من العرب وكان يبلغهم من اخبار عدلهم ما تثلج له الصدور وتود لو ترى قبل ساعة طلعة الدولة الجديدة التي اتت من الاعمال ما صعب على الفاتحين ان يأتوا مثله في باب العدل والرحمة والتسامح .

***

صلح دومة الجندل وغزوة ذات السلاسل ومؤتة والجرباء واذرح ومقنا وجيش أسامة { لما انتشر الاسلام في جزيرة العرب حجازها ويمنها ونجدها اخذ الرسول (ص) يغزو الروم في الشام غزوات قليلة و يرسل سرايا ضئيلة تزيد بحسب الحاجة حتى يتعرف المسلمون طرق الشام وامصاره و يسبروا غور الروم واستعدادهم . وكان بعض العرب في الجاهلية رحلوا الى الشام مرات لغرض التجارة اوغيرها من الاغراض

التي تنشأ بين اهل قطرين متجاورين . وكان عليه الصلاة والسلام ممن رحل الى الشام في التجارة قبل النبوة فبلغ حوران وعاد منها الى الحجاز فعرف شيئاً من حالها وقوة الروم ولكن ذلك لم يثن من عزمه الشريف في سبيل غرضه النافع . وكانت اول غزواته الشام على رأس تسعة واربعين شهراً من مهاجره بلغه ان بدومة الجندل جمعاً كثيراً وانهم يظلمون من مرّ بهم من الضافطة [1] وانهم يريدون ان يدنوا من المدينة وهي طرف من افواه الشام بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة او ست عشرة ليلة فندب رسول الله الناس واستخلف على المدينة وخرج في الف من المسلمين فكان يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل له من بني عذرة فأخذ نعمهم وشاءهم ورجع لم يلق كيداً .

وفي سنة ست ندب الرسول عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل وقال له ان استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم فدعاهم الى الاسلام فاسلم الاصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً وكان رأسهم وأسلم معه ناس كثير من قومه واقام من اقام على اعطاء الجزية وتزوج عبد الرحمن بتماضر بنت الاصبغ . وكان صاحب دومة أكيدر بن عبد الملك في طاعة هرقل ملك الروم يعترض سفر المدينة وتجارهم فصالحه الرسول على الجزية على كل حالم في ارضه ديناراً وكتب له ولاهل دومة كتاباً وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : من محمد رسول الله لأكيدر دومة حين اجاب الى الاسلام وخلع الانداد والاصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل واكنافها ان لنا الضاحية [2] من الضّحل والبَوْر والمعامي واغفال الارض والحلقة

(١) الضافطة الذين يجلبون الميرة والطعام (٢) الضاحي البارز . والضّحل الماء القليل . والبَوْر الارض التي لم تستخرج . والمعامي الارض المجهولة . والاغفال التي لا آثار فيها . والحلقة الدروع . والحافر الخيل والبراذين والبغال والحمير . والحصن دومة الجندل . والضامنة النخل الذي معهم في الحصن . والمعين الماء الدائم . وقوله لا تُعدل سارحتكم اي لا يصدقها المصدق (اي الذي يعدها ويأخذ صدقها والمصدّق عامل الزكاة الذي يستوفيها من اربابها صدّقهم يصدقهم فهو مصدّق) الا في مراعيها ومواضعها ولا يحشرها . وقوله لا تعدّ فاردتكم اي لا تضم الفاردة الى غيرها ثم يصدق الجميع فيجمع بين متفرق الصدقة .

والسلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور ، لا تُعدل سارحتكم ، ولا تُعدّ فاردتكم ، ولا يحظر النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر من المسلمين » .

وارسل الرسول كتباً الى هرقل والحرث بن ابي شمر يدعوهما الى الاسلام وكان فروة بن عمرو الجذامي عاملاً لقيصر على عمّان من ارض البلقاء قد اسلم وارسل الى رسول الله رسولا يقال له مسعود بن سعد من قومه واهدى الرسول بغلة يقال لها فضة وحمارة يعفور وفرسًا يقال له الظرب واثوابا من كتان وقباء من سندس مخوّصاً (١) بالذهب فقبل رسول الله كتابه وهديته وكتب اليه جواب كتابه وأجاز رسوله مسعوداً باثنتي عشرة اوقية ونش وبلغ قيصر اسلام فروة بن عمرو فحبسه حتى مات فلما مات صلبوه — قاله ابن سعد .

وفي السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول سرية كعب بن عمير الغفاري الى ذات اطلاح من ناحية الشام وهي وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات وكان ينزلها قوم من قضاعة ورأسهم رجل يقال له سدوس فخرج في خمسة عشر رجلا فوجد جمعا كثيراً فدعاهم الى الاسلام فأبوا ان يجيبوا وقتلوا اصحاب كعب جميعًا وتحامل رجل منهم حتى بلغ المدينة . وفي هذه السنة استنفر الرسول الناس الى الشام فكانت غزوة ذات السلاسل ، والسلاسل ماء بارض جذام — فوجه عمرو بن العاص في ثلثمائة مقاتل ثم استمده فأمده بأبي عبيدة بن الجراح على المهاجرين والانصار فيهم ابو بكر وعمر في مائتين فكان جميعهم خمسمائة والغالب انهم رجعوا من هذه الغزاة على غير جدوى .

ومن السرايا التي أرسلت الى الشام سرية زيد بن حارثة الى جذام بحسمى وراء وادي القرى مما يلي بلادفلسطين من ارض الشام وسببها ان دحية بن خليفة الكلبي كان اقبل من عند قيصر وقد اجاره وكساه فسلبه اهل حسمى فغزاهم زيد بن حارثة ثم ردّ الرسول عليهم اسلابهم . وفي تلك السنة بعث الرسول جيشًا مؤلفا من ثلاثة

(١) الخوص بالضم ويكسر حلقة الذهب والفضة .

آلاف مقاتل بلغوا تخوم البلقاء فلقيتهم جموع هرقل ملك الروم ومعهم العرب المتنصرة بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة والتقى الناس عندها فلقيتهم الروم في جمع عظيم فقتـل من الامراء زيد بن حارثة ثم جعفر ابن ابي طالب ثم عبـد الله بن رواحة فلما فجع المسلمون بثلاثة قواد عظام منهم وكان خالد بن الوليد من القواد في ذاك الجيش رأى المصلحة ان يعود الى المدينة بمن معه · وكان سبب هذه الغزوة ان النبي بعث الحرث بن عمير رسولاً الى ملك بصرى عاصمة حوران بكتاب كما بعث الى سائر الملوك فلما نزل بمؤتة عرض له عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله ولم يقتل لرسول الله رسول غيره · وكانت الروم يوم مؤتة في نحو مائة الف على ما قيل · وقيل ان هرقل نزل مآب من ارض البلقاء في مائة الف من الروم وانضمت اليه المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي في مائة الف منهم ·

كانت اخبار الشام عند اهل المدينة كل يوم لكثرة من يرد عليهم من الانباط[1] فقدمت عليهم قادمة فذكروا ان الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وان هرقل صاحب الروم قد رزق اصحابه لسنة واستنفر العرب المتنصرة فأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة وبهراء وكلب وسليح وتنوخ من عرب الشام وزحفوا وقدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص وضرب الروم على العرب الضاحية البعوث · فرأى الرسول ان لم يبدإ الروم القتال بدأوه به فاعلم في سنة تسع بالتجهيز لغزو الروم والطلب بدم جعفر بن ابي طالب الذي استشهد في مؤتة في السنة الفائتة · وكان الرسول اذا أراد غزوة ورّى بغيرها الا في هذه لقوة العدو وبعد الطريق والجدب والحر والناس في عسرة · وكان معه ثلاثون الفاً والخيل عشرة آلاف والجمال اثنا عشر الفاً ولقي الجيش حراً وعطشاً · وقد انفق ابو بكر الصديق في تجهيز هذا الجيش جميع ماله ، وانفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة وكان من اغنيائهم ·

قالوا : خرج المسلمون في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير وخرجوا في حر

---

(١) كان الانباط يقدمون كثيراً الى المدينة في الجاهلية والاسلام يحملون الزيت والدّرمك · والدرمك دقيق الحُوّاري ·

شديد فاصابهم يوماً عطش شديد حتى جعلوا ينحرون ابلهم فيعصرون اكراشها و يشربون ماءها فكان ذلك عسرة من الماء وعسرة من الظهر وعسرة من النفقة ولذلك سمي جيش العسرة ٠

وبلغ الجيش الحجر ارض ثمود فنهاهم الرسول عن مائه ووصلوا تبوك فاقام بها عشرين ليلة وسميت هذه الغزوة غزوة تبوك ولم يلق المسلمون في هذه المعركة كيداً٠ واتى يحنة بن رؤبة أسقف أيلة على البحر الاحمر فصالحه الرسول على الجزية ٠ وكتب ليحنة بن رؤبة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا أمنة من الله ومحمد النبي ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة اساقفهم وسائرهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر فمن احدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس وانه لايحل ان يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر او بحر ٠ هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة » ٠

وصالح الرسول اهل جرباء وأذرح من بلاد الشراة وصالح اهل أذرح على مائة دينار وصالح اهل مقنا على مقربة من أيلة على ثلاثمائة دينار على ربع عروكهم[1] وغزولهم وربع كراعهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم وكانوا يهوداً وكتب اليهم هذا الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ٠ من محمد رسول الله الى بني حبيبة واهل مقنا سلم انتم فانه انزل عليَّ انكم راجعون الى قريتكم فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به لاشريك لكم في قريتكم الا رسول الله او رسول رسول الله وانه لاظلم عليكم ولاعدوان وان رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة الا ما عفا عنه رسول الله او رسول رسول الله وان عليكم بعد ذلك ربع ما اخرجت نخيلكم وربع ماصادت عروككم وربع ما اغتزلت نساؤكم وانكم قد ثريتم بعد ذلكم ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان

(١) العروك الخشب يصطاد عليه ٠

يكرّم كريمكم و يعفو عن مسيئكم ومن ائتمر في بني حبيبة واهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له ومن اطلعهم بشر فهو شر له وليس عليكم امير الا من انفسكم اومن اهل بيت رسول الله وكتب علي بن ابي طالب في سنة ٩

وفي السنة الحادية عشرة ضرب الرسول على الناس بعثاً الى الشام ايضاً وأمر عليه أسامة ابن زيد ندبه الى بلاد البلقاء وأذرعات ومؤتة ثائراً بابيه ولاسامة يومئذ ثمان عشرة سنة . وفي رواية ان الرسول امره ان يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم وان يبلغ يبنى وأزدود من ارض فلسطين وقيــل امر ان يوطئ من آبل الزيت بالأردن من مشارف الشام ودعا الرسول عليه السلام أسامة بن زيد فقالـــ : « سر الى موضع مقتل ابيك فاوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على اهل أبنى وحرّق عليهم واسرع السير تسبق الاخبار فان ظفرك الله فاقلل اللبث فيهم وخذ معك الادلاء وقدم العيون والطلائع امامك» . وبينا الناس يتأهبون للغزاة ابتدأ الرسول شكواه التي قبضه الله عز وجل فيها . وكان يقول في علته : جهزوا جيش أسامة . ثم سار أسامة الى أبنى فشنّ عليها الغارة وقتل قاتل ابيه ولم يصب احد من المسلمين . وبلغ هرقل وهو بحمص ماصنع أسامة فبعث رابطة يكونون بالبلقاء فلم تزلـــ هناك حتى قدمت البعوث الى الشام في خلافة ابي بكر وعمر .

فاول غزوات الشام دومة الجندل والثانية مؤتة والثالثة ذات السلاسل والرابعة تبوك والخامسة آبل الزيت . وكلها مقدمات لفتح هذا القطر وامر قطعي من صاحب الرسالة الى اصحابه بان يكملوا العمل الذي وضع اساسه بنفسه الشريفة .

***

جيوش العرب وجيوش الروم } توفي الرسولـــ عليه السلام فارتدت بعض نصيحة ابي بكر الصديق لقواده } . قبائل العرب فقــاتلهم ابو بكر الصديق حتى جمع شملهم بالاسلام فلما أمن من ناحيتهم كتب الى اهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد في الشام و يرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس اليه بين محتسب وطامع فعقد ثلاثة الوية لثلاثة رجال وهم يزيد بن ابي سفيان وشرحبيل ابن حسنة وعمرو بن العاص . وكان ابو بكر امر عمرو بن العاص ان يسلك طريق

أيلة عامداً لفلسطين · وامر يزيد وشرحبيل ان يسلكا طريق تبوك فقصد الجيش فلسطين في الجنوب وقسم منه قلب الشام ·

وكان العقد لكل امير في بدء الامر على ثلثة آلاف رجل فلم يزل ابو بكر يتبعهم بالامداد حتى صار مع كل امير سبعة آلاف وخمسمائة ثم تتام جمعهم بعد ذلك اربعة وعشرين الفاً وكان جيش الروم اربعين ومائتي الف منهم المسلسل للموت والمربوط بالعمائم والفرسان والرجالة جمعهم هرقل من اهل الشام والجزيرة وارمينية وولى عليهم رجلاً من خاصته وبعث على مقدمته جبلة بن الأيهم الغساني في مستعربة الشام وانجد ابو بكر جيوش الشام بخالد بن الوليد من العراق في تسعة وقيل في عشرة آلاف فصار المسلمون ستة وثلاثين الفاً وفي رواية ستة واربعين الفاً · ويقول سيديليو ان جيش العرب كان على اكثر تعديل مؤلفاً من عشرين الفاً وجيش الروم ستين الفاً · قال سعيد بن عبد العزيز : ان المسلمين يوم اليرموك كانوا اربعة وعشرين الفاً والروم عشرين الفاً ومائتي الف عليهم ماهان وصقلان (سقلار) ·

ومهما كان من تقدير الجيشين فالعرب كانوا اقل من الروم وتقدير مؤرخي العرب للجيش الاسلامي بستة وثلاثين الفاً ولجيش الروم بزهاء مائتي الف اقرب الى الصحة وهو تقدير معقول لاسيما اذا عرف انه كان سكان الشام اذ ذاك نحو سبعة ملايين وان العرب على بعد الحجاز عن الشام لا يستطيعون ان يجهزوا اكثر من ذلك لانهم كانوا يحاربون في جهات أخرى ·

ولما انفذ ابو بكر الامراء الى الشام كان فيما اوصى به يزيد بن ابي سفيان وهو مشيع له : اذا قدمت على اهل عملك فعدهم الخير وما بعده ، واذا وعدت فانجز ، ولا تكثر عليهم الكلام ، فان بعضه ينسي بعضاً ، واصلح نفسك يصلح الناس لك ، واذا قدم عليك رسل عدوك ، فاكرم مثواهم ، فانه اول خيرك اليهم ، واقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن انت الذي تلي كلامهم ، ولا تجعل سرك مع علانيتك فيمرج امرك ، واذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة ، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك ، واذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها ، واستر في عسكرك الاخبار ، واذك حراسك ،

واكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك ، واصدق اللقاء اذا لقيت ، ولا تجبن فيجبن من سواك ·

وقد شيع ابو بكر يزيد بن ابي سفيان راجلاً الى ما بعد ربض المدينة فقال له يزيد : اما ان تركب واما ان انزل · فقال : ماانت بنازل وما انا براكب · اني احتسب خطاي هذه في سبيل الله ثم قال : انك ستجد قوماً حبسوا انفسهم لله فذرهم وما حبسوا انفسهم له يعني الرهبان · وستجد قوماً فحصوا (حلقوا وسطها) عن اوساط رؤوسهم فاضرب مافحصوا عنه بالسيف · ثم قال اني موصيك بعشر : لا تغدر ، ولا تمثل ، ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، ولا تعقرن شاة ، ولا بعيراً الا ما اكلتم ، ولا تحرقن نخلاً ، ولا تخرب عامراً ، ولا تغلّ ولا تجبن ، والغلول الخيانة في المغنم ·

وصل الجيش العربي الى مشارف الشام فنزل في آبل وزيزاء والقسطل وكان جيش الروم من دون زيزاء بثاث · وطلع ماهان قائد الروم وقدم قدامه الشمامسة والرهبان والقسيسين يحضون جيش الروم على القتال · وكان هرقل وهو من عظام القواد ادرك الخطر ورأى لما اتاه الخبر بقرب جيش العرب ان لا يقاتلهم وان يصالحهم · وقال لقومه : فوالله لان تعطوهم نصف ما اخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتقرّ بكم جبال الروم خير لكم من ان يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم فلما رآهم يعصونه ويردون عليه بعث اخاه تيودورا وامّر الامراء ·

***

مبدأ الحرب بين العرب والروم | واول وقعة كانت بين العرب والروم بقرية من قرى غزة يقال لها داثن (١٢ هـ) كانت بينهم وبين بطريق غزة فاقتتلوا فيها قتالاً شديداً فهزم الروم وتوجه يزيد بن ابي سفيان في طلب ذلك البطريق فبلغه ان بالعربة من ارض فلسطين جمعاً للروم فاوقع بهم وقتل عظيمهم وانتهى اليه ان ستة من قواد الروم نزلوا العربة في ثلاثة آلاف فسار اليهم المسلمون في كثف منهم فهزموهم وقتل احد القواد فصار الروم الى الدّبة فهزمهم المسلمون وغنموا غنماً حسناً · واول صلح كان بالشام صلح مآب · مرّ ابو عبيدة بهم في طريقه فقاتلوه ثم سألوه الصلح فصالحهم وقالوا ان اول حرب كانت بالشام بعد سرية أسامة بالعربة ثم اتوا الداثن ثم كانت

مرج الصُفَّر واول مدينة فتحت بصرى عاصمة حَوْران ٠

لما سار خالد بن الوليد من العراق مدداً للمسلمين في الشام وقد ضاق المسلمون فيه لكثرة جيوش الروم فتح في طريقه ما اجتاز به من شرق الشام مثل أرك ودومة الجندل وقُصم وتُدمر والقريتين وحُوّارين من جبل سنير ومرج راهط شرقي غوطة دمشق ووجه احد رجاله الى غوطة دمشق فاغار على قرى من قراها وصار خالد الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب المشرفة على غوطة دمشق فوقف عليها ساعة ناشراً رايته وهي راية كانت لرسول الله تسمى العقاب علماً لها٠ والعرب تسمي الراية عقاباً ٠ واغار على بني غسان في يوم فصحهم ٠

ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين بقناة بصرى و يقال انه اتى الجابية من حوران و بها ابوعبيدة في جماعة من المسلمين فالتقيا ومضيا جميعاً الى بصرى ٠ ولما فتحت بصرى توجه ابوعبيدة بن الجراح في جماعة كثيفة فاتى مآب من ارض البلقاء و بها جمع العدو فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى ثم كانت وقعة اجنادين قرب القدس شهدها من الروم زهاء مئة الف سرّب هرقل اكثرهم وتجمع باقوهم من النواحي فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة ٠

وقالوا : ان خالد بن الوليد لما جاء بصرى والمسلمون نزول عليها ضايق اهلها حتى صالحهم على ان يؤدوا عن كل حالم ديناراً وجريب حنطة ٠ وافتتح المسلمون جميع ارض حوران وغلبوا عليها وقتئذ وذلك في سنة ١٣ ٠

***

اهم الوقائع وقعة اليرموك (واهم وقائع العرب في الشام التي انهزم فيها الروم شر هزيمة ولحق فلُّهم بالشمال وقعة اليرموك — واليرموك نهر — فهي لوقعة الفاصلة التي هان بها الاستيلاء بعد ذلك على القدس ودمشق وما اليهما ثم على حمص وحماة وحلب وما في اكنافها من البلدان وظهر فيها النبوغ العربي في الحرب باجلى مظاهره ٠ وتبين ان تلك الأمة الفقيرة بمالها ، ليست فقيرة بعقل رجالها ٠ وقرأ العرب على الروم يومئذ درساً من مضائهم وحسن بلائهم ، واروهم راموزاً من تضامنهم واستمانتهم ، واتوهم بمثال من طيب اخلاقهم وجودة فطرهم ، خلافاً لما كان عليه اعداؤهم من الانقسام وتشتت الاهواء والخصام ٠

« لما قدم خالد بن الوليد مدداً للمسلمين في اليرموك وجد العرب يقاتلون الروم متساندين كل امير على جيش : ابو عبيدة على جيش و يزيد بن ابي سفيان على جيش وشرحبيل بن حسنة على جيش وعمرو بن العاص على جيش . فقال خالد : ان هذا اليوم من ايام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي فاخلصوا لله جهادكم وتوجهوا الى الله بعملكم . فان هذا يوم له ما بعده فلا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وانتم على تساند وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وان كثر وراءكم لو يعلم عملكم حال بينكم و بين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون انه هو الرأي من واليكم . قالوا فما الرأي قال : ان الذي انتم عليه اشد على المسلمين مما غشيهم وانفع للمشركين من امدادهم . ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم والله ، فهلموا فلنتعاور الامارة فليكن علينا بعضنا اليوم وبعضنا غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني اليوم عليكم . قالوا : نعم . فأمروه وهم يرون انها كخرجاتهم فكان الفتح على يد خالد . وجاءه البريد يومئذ بموت ابي بكر وخلافة عمر وتأمير ابي عبيدة على الشام كله وعزل خالد فأخذ الكتاب منه وتركه في كنانته ووكل به من يمنعه ان يخبر الناس من الامر لئلا يضعفوا . وهزم الروم وقتل منهم على الواقوصة ما يزيد على مئة الف ثم دخل على ابي عبيدة وسلم عليه بالامارة وكانت من اعظم فتوح المسلمين و باب ما جاءها من الفتوح لان الروم كانوا قد بلغوا في الاحتشاد فلما كسروا ضعفوا ودخلتهم هيبة » .

وفي كتاب ابي حذيفة ان المسلمين اوقعوا بالروم يوماً باليرموك فشد خالد في سرعان الناس (اوائلهم) وشد المسلمون معه يقتلون كل قتلة فركب بعضهم بعضاً حتى انتهوا الى اعلى مكان مشرف على اهوية فاخذوا يتساقطون فيها وهم لا يبصرون . وهو يوم ذو ضباب — وفي رواية ثارت فيه الرياح الهوج — وقيل كان ذلك بالليل وكان آخرهم لا يعلم بما صار اليه الذي قبله حتى سقط فيها ثمانون الفاً فما احصوا الا بالقضيب وسميت هذه الاهوية بالواقوصة من يومئذ لانهم واقصوا فيها اي اقتربوا فلما اصبح المسلمون ولم يروا اعداءهم ظنوا انهم قد كمنوا لهم حتى اخبروا بأمرهم .

وقال سعيد بن بطريق : بلغ ماهان قائد الروم ان العرب قد خرجوا من طبرية يريدون دمشق فجمع عسكره وخرج من دمشق وسار يومين حتى نزل على واد كبير يقال له

وادي الرماد و يقال للموضع الجولان و يعرف بالياقوصة وصير الوادي بينهو بين العرب شبيه الخندق واقاموا اياماً والعرب بحذائهم • و بعد ايام خرج منصور العامل من دمشق يريد عسكر ماهان ومعه مال قدجباه من دمشق بالمشاعل، فلما قربوا من العسكر ضربوا الطبول و بوّقوا وصاحوا ، وكان ذلك من منصور مكيدة فلما نظر الروم الى المشاعل خلفهم وسمعوا صوت الطبول والبوقات، توهموا ان العرب قدجاؤهم من خلفهم و كبسوهم، فوقعت فيهم الهزيمة فسقطوا كلهم في ذلك الوادي اعني وادي الرماد وهو وادٍ عظيم كبير فماتوا ولم يتخلص منهم الا نفر قليل ومنهم من هرب الى مواضع شتى ومنهم من تراجع الى دمشق ومنهم من هرب الى بيت المقدس ومنهم من هرب الى قيسارية وفلسطين اه •

وشهد اليرموك الف صحابي منهم نحو من مائة من اهل بدر وتهافت في الواقوصة من الروم عشرون ومائة الف ، ثمانون الف مقرّن واربعون الف مطلق سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل • و يقول الطبري : ان قتلى اليرموك من الروم سبعون الفاً وزعم بعض المؤرخين : ان جيش الروم تكامل يوم اليرموك اربعمائة الف •

***

الفتح في خلافة عمر بن الخطاب فِحل واجنادين و بَيْسان

ذكروا ان اول كتاب كتبه عمر حين ولى اباعبيدة الشام : اوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه ، الذي هدانا من الضلالة ، واخرجنا من الظلمات الى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بامرهم الذي يحق عليك • لا تقدم المسلمين الى هَلَكة ، رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل ان تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية الا في كَثْف من الناس ، واياك والقاء المسلمين في الهلكة ، وقد ابتلاك الله بي وابلاني بك ، فغمّض بصرك عن الدنيا ، وألهِ قلبك عنها ، اياك ان تهلكك كما اهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم اه •

توفي ابو بكر الصديق قبل فتح اليرموك بعشر ليالٍ و بعد ان أصيبت الروم بالهزيمة القاطعة على اليرموك كانت وقعة فِحل من الأردن بعد خلافة عمر بن الخطاب بخمسة اشهر • وذلك ان هرقل لما سمع بانتصارات العرب المسلمين صار الى انطاكية

واستنفر الروم واهل الجزيرة وبعث عليهم رجالاً من خاصته وثقاته فلقوا المسلمين بفحل فقاتلوهم اشد قتال وابرحه حتى ظهروا عليهم وقُتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف معه وتفرق الباقون في مدن الشام ولحق بعضهم بهرقل .

ولما سار المسلمون بعد ان فرغوا من اجنادين الى فحل من ارض الأردن نزلت الروم بَيْسان فبثقوا انهارها وهي ارض سَبِخة (ارض ذات نز وملح) فكانت وحلاً ونزلوا فِحل وبَيْسان بين فلسطين و بين الاردن ، فلما غشيها المسلمون ولم يعلموا بما صنعت الروم وحِلَت خيولهم ، ولقوافيها عناء ثم سلموا . وسميت بيسان ذات الرَّدغة لما لقي المسلمون فيها -- والردغة الوحل — ثم نهضوا الى الروم وهم بفحل فاقتتلوا فهزمت الروم ودخل المسلمون فحل ولحقت رافضة الروم بدمشق فكانت فحل في ذي العقدة سنة ١٣ على ستة اشهر من خلافة عمر . قال الطبري : « كان الروم في فحل بعد ان رحلت حيارى لا يعرفون مأخذهم فاسلمتهم هزيمتهم وصيرتهم الى الوحل فركبوه ولحق اوائل المسلمين بهم وقد وحلوا فركبوهم وما يمنعون يد لامس فوخزوهم بالرماح فكانت الهزيمة في فحل وكان مقتلهم في الرِّداغ فأصيب الثمانون الفاً لم يفلت منهم الا الشريد . وكان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون : كرهوا البثوق فكانت عوناً لهم على عدوهم وأناة من الله ليزدادوا بصيرة وجداً » .

* * *

الأردن وفلسطين وجبل اللكام (افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن عنوة ما خلا طبرية فان اهلها صالحوه على انصاف منازلهم وكنائسهم وفتحت جميع مدن الأردن وحصونها على مثل صلح طبرية فتحاً يسيراً بغير قتال ففتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت رأس وقدس والجولان وغلب على سواد الأردن وجميع ارضها وعلى صفورية وعكا وصور وبفتح هذين الثغرين من الساحل انقطع ما بين الروم في ايلياء وبين خط رجعتهم من البر مع انطاكية وما وراءها من الدروب . وصالح ابو عبيدة السامرة بالأردن وكانوا عيوناً وادلاء للمسلمين كما صالح الجراجمة في جبل الأُلكام بين بياس وبوقا على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل الأُلكام — والمسالح جمع مسلحة وهي الحامية المسلحة — وفتح عمرو بن العاص

غزة ثم سبسطية ونابلس ولدّ ويُبنى وعَمَواس وبيت جبرين ويافا ورفح وظلت القدس وقيسارية محاصرتين ولم تفتح القدس الا سنة خمس عشرة اي بعد فتح دمشق بسنة ونيف وطلب اهله من ابي عبيدة ان يصالحهم على صلح اهل مدن الشام وان يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وخرج صفرونيوس بطريق بيت المقدس الى عمر بن الخطاب فاعطاه عمر اماناً وكتب لكل كورة كتاباً واحداً ما خلا اهل ايلياء · وهذا نص عهد اهل ايلياء :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : هذا ما اعطى عبد الله عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود · وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي اهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى اهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية · شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ ·

وكتب عمر الى اهل لدّ ومن دخل معهم من اهل فلسطين اجمعين مثل شروط اهل ايلياء · واختلف القوم في صلح بيت المقدس فقالوا صالح اليهود وقالوا النصارى والمجمع عليه انه صالح النصارى · وفي كتاب عمر صراحة في ذلك · واشترط فيه اخراج الروم اي الذين ليسوا من ابناء البلاد الاصليين · واتاه جبلة بن الايهم رأس بني غسان وكان هذا أسلم ثم ارتد وقاتل المسلمين مع الروم فقال له : تأخذ مني الصدقة كما تصنع العرب قال : بل الجزية والا فالحق بمن هو على دينك · فخرج في ثلاثين الفاً من قومه حتى لحق بارض الروم وندم عمر على ما كان منه في امره ·

***

فتح دمشـــق والاحكام العسكرية | بعد ان تم للمسلمين ما ارادوا من هزيمة الروم على اليرموك اجتمعت الروم جمعاً عظيماً وأمدهم هرقل بمدد فلقيهم المسلمون بمرج الصُّفَّر بين دمشق والجَوْلان وهم متوجهون الى دمشق وذلك لهلال المحرم سنة ١٤ فاقتتلوا قتـالاً شديداً وجرح من المسلمين زهاء اربعة آلاف وولى الروم مفلولين لا يلوون على شيء حتى أتوا دمشق وبيت المقدس. ولما فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمرج رجعوا الى مدينة دمشق فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوةً ونازلوا دمشق وحاصروها من الباب الشرقي وباب توما وباب الفراديس وباب الجابية والباب الصغير وفتح نصفهـا عنوةً والنصف الآخر صلحاً فاجراها عمر كلها صلحاً . وكتب اهل دمشق كتاباً لابي عبيدة هو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : هذا كتاب لابي عبيدة بن الجراح ممن اقام بدمشق وارضها وارض الشام من الاعاجم، انك حين قدمت بلادنا سألناك الامان على انفسنا واهل ملتنا، وانا اشترطنا لك ان لا نحدث في مدينة دمشق ولا فيما حولها كنيسة ولا ديراً ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا شيئاً منها مما كان في خطط المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين ان ينزلوها في الليل والنهار ، وان نوسع ابوابها للمارة وابناء السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم على من غش المسلمين، وعلى ان لا نضرب بنواقيسنا الا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا ، ولا نظهر الصليب عليها، ولا نرفع اصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا ولا نخرج باعوثا ولا شعانين ، ولا نرفع اصواتنا بموتانا ، ولا نظهر النيران معهم في اسواق المسلمين، ولا نجاورهم بالخنازير ولا نبيع الخمور، ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين، ولا نرغب مسلماً في ديننا ، ولا ندعو اليه احداً وعلى ان لا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، ولا نمنع احداً من قرابتنا ان ارادوا الدخول في الاسلام، وان نلزم ديننا حيثما كنا، ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم ولا نتسمى باسمائهم وان نجز مقادم رؤوسنا ونفرق نواصينا ونشد الزنانير على اوساطنا وان لا ننقش في خواتيمنا بالعربية ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نجعله في بيوتنا ولا نتقلد السيوف، وان نوقر

المسلمين في مجالسهم ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم من المجالس اذا ارادوها، ولا نطلع عليهم في منازلهم ، ولا نعلم اولادنا القرآن ولا نشارك احداً من المسلمين الا ان يكون للمسلم امر التجارة ، وان نضيف كل مسلم عابر سبيل من اوسط مانجد ، ونطعمه فيها ثلاثة ايام، وعلينا ان لانشتم مسلماً ، ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده . ضمنا ذلك على انفسنا وذراريناوارواحنا ومساكننا وان نحن غيرنا او خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الامان عليه فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما حل من اهل المعاندة والشقاق . على ذلك اعطينا الامان لانفسنا واهل ملتنا فاقررنا في بلادكم التي ورثكم الله اياها . شهد الله على ما شرطنا لكم على انفسنا وكفى به شهيداً .

وكتب عمر بن الخطاب على النصارى كتاباً في هذا المعنى ايضاً وهذان الكتابان هما من قبيل ما يقرره الفاتحون من الاحكام العسكرية او الادارية العرفية كما يسمونها اليوم وهي لا يخفى تختلف باختلاف الامم والحالات وليست اصلاً من اصول الدين لايجوز تبديله .

وهذا نص العهد الذي اعطاه خالد بن الوليد قبل ان يعلم بما صار اليه حال المسلمين في الشق الآخر من المدينة مدينة دمشق :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذ دخلها، اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية .

وذكر الطبري : في حوادث سنة ١٤ ان اباعبيدة بن الجراح دخل دمشق تلك السنة فشتى بها فلما ضاقت الروم سار هرقل في الروم حتى نزل انطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة ومن تلك القبائل من قضاعة وغسان بشر كثير ومعه من اهل ارمينية مثل ذلك وبعث الصقلار خصياً له فسار بمائة الف مقاتل معه من اهل ارمينية اثنا عشر الفاً ومعه من المستعربة من غسان وتلك القبائل من قضاعة اثنا عشر الفاً عليهم جبلة بن الايهم الغساني وسائرهم من الروم . وسار اليهم المسلمون وهم اربعة وعشرون الفاً عليهم ابو عبيدة بن الجراح فالتقوا باليرموك في رجب سنة ١٥ فاقتتل الناس

قتالاً شديداً . وعبارة الطبري تدل على ان فتح دمشق كان قبل فتح اليرموك والمعقول المعول عليه ان فتح اليرموك كان قبل فتح دمشق .

***

فتح حمص وشيزر والمعرة و بعلبك وصيدا و بيروت وجبيل وعرقة

وبينا المسلمون على حصار دمشق وقد حوصرت ستة اشهر اقبلت خيل من عقبة السليمة مخمرة بالحرير فثار اليهم المسلمون فالتقوا فيما بين بيت لهيا قرب دومة والعقبة التي اقبلوا منها فهزموهم وطردوهم الى ابواب حمص فلما رأى اهل حمص ذلك ظنوا انهم فتحوا دمشق فقال لهم اهل حمص: انا نصالحكم على ماصالحتم عليه اهل دمشق ففعلوا ، ولما فرغ ابو عبيدة من دمشق سار الى حمص فاستقرأها واجرى صلحها على مثل صلح بعلبك ثم مضى نحو حماة فتلقاه اهلها مذعنين فمضى نحو شيزر وبلغت خيله الزراعة والقسطل .

ومر ابو عبيدة بمعرة النعمان فخرج اهلها يقلسون (يلعبون) بين يديه ثم اتى فامية (قلعة المضيق) ففعل اهلها مثل ذلك وبعث خالد بن الوليد الى البقاع ففتحه بالسيف وبعث سرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون وعلى الروم رجل يقال له سنان تحدر على المسلمين من عقبة بيروت فقتل منهم يومئذ جماعة من الشهداء فكانوا يسمون عين ميسنون عين الشهداء . واستخلف ابوعبيدة على دمشق يزيد بن ابي سفيان شقيق معاوية كما وعده بها الصديق فسار يزيد الى صيدا و بيروت وجبيل وعرقة ففتحها فتحاً يسيراً و بعث يزيد دحية بن خليفة الى تدمر في سرية ليمهدوا امرها و بعث ابا الازهر القشيري الى البثنية وحوران فصالح اهلها .

***

قنسرين وحلب وانطاكية وجميع بلاد الشمال

وسار ابو عبيدة الى قنسرين فصالحه اهلها على مثل صلح حمص وغلب المسلمون على ارضها وقراها ثم سار الى حلب وحاضرها ففتحها و بعث ابو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف اليهم الروم وعليهم ميناس وهو رأس الروم واعظمهم فيهم بعد هرقل فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومعه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها . فاما

الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم احد واما اهل الحاضر فارسلوا الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم ·

وسار ابو عبيدة الى انطاكية وقد لحق بها خلق من اهل جند قنسرين فلما صار بمهروبة قريب فرسخين من مدينة انطاكية لقيه جمع للعدو ففضهم والجأهم الى المدينة فحاصرها ثم صالحه اهلها على الجزية والجلاء فجلا بعضهم واقام بعضهم · ووجه ابو عبيدة ميسرة بن مسروق العبسي الى درب بغراس (بيلان) فلقي جمعاً للروم ومعهم مستعربة من غسان وتنوخ يريدون اللحاق بهرقل فاوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة · و بلغ ابا عبيدة ان جمعاً للروم بين معرة مصرين وحلب فلقيهم وقتل عدة بطارقة وفض ذلك الجيش ، وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب ، وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين وعزاز وصالحوا اهل دير طبايا ودير الفسيلة(?) على ان يضيفوا من مر بهم من المسلمين · واتاه نصارى خناصرة في سيف البادية فصالحهم وفتح ابو عبيدة جميع ارض قنسرين وانطاكية واللاذقية · وورد عبادة بن الصامت السواحل ففتح مدينة تعرف ببلدة على فرسخين من جبلة وانطرطوس ومرقية و بلنياس ثم صالح ابو عبيدة اهل قورس و بث خيله فغلب على جميع ارض قورس الى آخر حد نقابلس وفتح منبج ودلوك ورعبان وعراجين و بالس وقاصرين و بلغ ابو عبيدة الفرات واشترط على اهل رعبان ودلوك ان يبحثوا عن اخبار الروم و يكاتبوا بها المسلمين ·

* * *

وقعة مرج الروم وقيسارية

وفي سنة خمس عشرة كانت الوقعة بمرج الروم وكان من ذلك ان ابا عبيدة خرج بخالد بن الوليد من فحل الى حمص ، وانصرف بمن أضيف اليهم من اليرموك فنزلوا جميعاً على ذي الكلاع وقد بلغ الخبر هرقل فبعث تيودرا البطريق حتى نزل بمرج دمشق وغربها فنزل ابو عبيدة بمرج الروم فنازله يوم نزل عليه شنس الرومي في مثل خيل تيودرا امداداً لتيودرا وردءاً لاهل حمص فنزل في عسكر على حدة فلما كان من الليل اصبحت الارض من تيودرا بلاقع وكان خالد بازائه وابو عبيدة بازاء شنس واتى خالداً الخبر ان تيودرا قد رحل الى دمشق فاجمع رأيه ورأي ابي عبيدة ان يتبعه خالد وهم يقتتلون فاخذهم من خلفهم

فقتلوا من بين ايديهم ومن خلفهم ، فافناهم ولم يفلت منهم الا الشريد فاصاب المسلمون ما شاؤوا من ظهر واداة وثياب . وناهد ابو عبيدة بعد خروج خالد في اثر تيودرا وشنس وامتلأ المرج من قتلاهم فانتنت منهم الارض وهرب من هرب منهم فلم يفلتهم وركب اكساءهم (اقفيتهم) الى حمص .

وهكذا تم فتح الشام على هذا الوجه المحكم في ثلاث سنين ولم تعص الا قيسارية في فلسطين فان معاوية فتحها سنة ١٩ بعد ان حوصرت نحو سبع سنين ، وكان اهلها يزاحفون معاوية وجعلوا لا يزاحفونه مرة الا هزمهم وردهم الى حصنهم ، ثم زاحفوه آخر ذلك وخرجوا من صياصيهم فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين الفاً وكملها في هزيمتهم مائة الف (الطبري) . وكانت قيسارية من اعيان امهات المدن قيل كان مقاتلة الروم الذين يرزقون فيها مائة الف وسامرتها ثمانون الفاً ويهودها مائة الف (ياقوت) . وكان كتاب عمر الى معاوية : اما بعد فاني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم واكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير .

* * *

سر نجاح المسلمين وقتال نسائهم يوم اليرموك

بمثل تلك الجيوش القليلة التي ظهرت على جيوش الروم ومن والاهم فتح العرب هذا القطر العزيز وكانت قوتهم في معظم الوقائع على نسبة واحد الى ثلاثة او اربعة من قوة اعدائهم بعد ان قطعوا بوادي الحجاز والعراق والشام على جمالهم وخيولهم ، قليل عتادهم ، جليل جهادهم . وساروا في فلوات لا ماء فيها يستقون منه ، ولا مراعي يرعون فيها انعامهم ، ولا ميرة يمتارونها ، وكل ما لديهم من الماديات قليل ضئيل ، ولكن معنوياتهم كانت فوق معنويات من جاؤهم من سكان البلاد ، فكان كل فرد من افراد جيوشهم يعتقد بانه ان مات مات شهيداً ، وان عاش عاش سعيداً .

اما الروم فكانوا على كثرة جيوشهم ووفرة اسبابهم من المؤن والذخائر في ارض عامرة هي وما وراءها الى ارض الروم ، والنجدات تأتيهم ارسالاً على ايسر سبيل ، ومع هذا فقد كثرت هزائمهم وعد قتلاهم بالالوف وقتلى العرب بالمئات ، وتركوا بلاداً

عرفوا معالمها ومجاهلها فلم تغن عنهم كثرتهم ولا وفرة اسبابهم فقهروا وغُلبوا على امرهم وهاموا في البلاد على رؤوسهم لا يلوون على شيء ، وذلك لانهم كانوا منفسخين مشتتة اهواؤهم، والناس هنا قد يئسوا من عدل الرومان في اواخر ايامهم حتى انهم لما طلبوا مالاً من منصور عامل هرقل بدمشق لاستئجار رجال يحاربون المسلمين نادى بان ليس لديه مال ، ليسمع الناس و ييأسوا و يفتح السبيل للمسلمين . وكان هرقل كتب الى منصور هذا يمسك عليه الرجال بالمال فابى منصور وقال : ان الملك غير محتاج الى هذا العسكر العظيم وان العرب قوم غزاة . ولو كان يخرج اليهم رجال ليقصدوهم الحرب لقتلوا عساكرهم وهذا العسكر يحتاج الى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم . قال ابن بطريق : اراد بذلك ان يسمع الرجال ان ليس بدمشق مال يعطيهم فينفرقون و يسلم دمشق الى المسلمين .

ولعل لتأليف جيش الروم وكان مؤلفًا من اجناس واخلاط دخلا في الهزيمة ، وربما كان رجال الدين من الروم في دمشق يوم الفتح العربي مستائين من القواعد التي سنها هرقل ليضع حداً للمنازعات الدينية ، ولعلهم عاونوا على تسليم دمشق للعرب او تركوا المسائل تجري في اعنتها . ولكن من المحقق ان العرب المتنصرة في الشام عادوا بعدان صاروا مع الروم فانضموا الى العرب المسلمين واخذتهم النعرة الجنسية فغلّبوها على النُّعرة الدينية واصبحوا للمسلمين عيوناً على الروم وان اليهود والسامرة كانوا مع المسلمين الفاتحين . قال هوار : ومع هذا توصل الامبراطور ان يجمع في حمص ثمانين الف مقاتل نصفهم من جنده والنصف الآخر من معاونين ارمن وكانت النجدات تتوالى عليه الا ان الشقاق الداخلي كان يمزق احشاء الجيش الروماني وقد تشغّب الجنود من الارمن وطلبوا ان يكون ماهان امبراطوراً قبل وقعة اليرموك .

لاجرم ان سلاح الروم كان امضى من سلاح العرب ، ونظامهم الظاهري كان اجلى . قال سيديليو : كان جيش الروم يفوق جيش العرب بلباسه، وخبرة ضباطه، ونوع سلاحه، وغنى دور صناعاته ومناعة حصونه، وسهولة المواصلات والتموين عليه . والروم يعرفون البلاد و يسكون البحر ولهم من ورائهم ولايات مأهولة مخصبة . اما العرب فكانوا جاهلين معدمين ليس لهم شيء من الاسباب المادية ولا يحسنون من ضروب الحرب غير حروب العصابات على اصول البادية وقد يعمدون الى الفرار احياناً و يُرى

جيشهم لاول وهلة كأنه عصابات مجموعة كيفما اتفق : الفرسان وسط المشاة ، ومن الجنود من يسترون بعض اجسامهم ومنهم العراة . وسلاح كل واحد كما يحب من قوس الى حربة او دبوس وسيف ورمح . قال : ووجه الغرابة ان يضيف العرب الى المفاداة احترام النظام يضاف اليها عظمة العواطف وهم طالما وصموا بانهم متوحشون ظلماً وتعنتاً .

قلنا : وهكذا كان شأن العرب في سائر فتوحاتهم في آسيا وافريقية واوربا فكانت معنوياتهم في كل مكان ارقى من معنويات من غلبوهم على امرهم ، ودون ماديات أمم كانت راسخة القدم في ارضها ، عزيزة السلطان في ربوعها ، وحاجياتها منها على طرف الثمام تأتيها بدون تعمل كثير . ولكن كان العرب اعتادوا التقشف والشظف في الحياة يتبلغون هم ودوابهم بميسور العيش . حتى ان خالد بن الوليد لما سار في جيشه من العراق الى الشام من طريق البرية ليخرج من وراء جموع الروم لانه كان يرى انه اذا استقبلها حبسته عن غياث المسلمين ، سقى الجمال مرتين لقلة الماء في الطريق ، فكلما نزل منزلاً نحر وجعل اكراشها على النار وشرب القوم .

ومن أعظم العوامل في غلبة المسلمين خوف الهزيمة من الزحف وكانت الهزيمة او التخلف عن الجهاد من اعظم العار ، بل من الكبائر التي لايرحم فاعلها . فقد ذكروا ان فلّ جيش مؤتة لما رجع الى المدينة جعل الناس يحثُون عليهم التراب و يقولون يا فُرّار فررتم في سبيل الله . فقال النبي (عليه الصلاة والسلام) : ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرار ان شاء الله . هذا وكان في جملة اولئك الفرار خالد بن الوليد سيف الله وعن رأيه رجع الجيش .

وكان للنساء يد طولى في نصرة العرب ، فقد تطوع ابو سفيان بن حرب في حرب الشام وكانت له فيه تجارات واملاك في الجاهلية وله قرية في البلقاء اسمها بِقِنّس . وكان شيخ مكة بل شيخ تجار قريش ورئيسهم ومن اعظم اهل الرأي والمكانة فيهم وهو كابنه معاوية من المؤلفة قلوبهم ثم حسن اسلامهما ، وقد حارب الرسول كثيراً وقال له الرسول يوم أسلم في فتح مكة سنة ثمان للهجرة : « من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» . وجاء الشام في الاسلام

في مشيخة من قريش يحارب تحت راية ابنه يزيد وكان له ولابنيه يزيد ومعاوية بل وللجماعة من أسرته بل للنساء منهن اليد الطولى والكعب المعلى في فتح الشام ·

ومما قاله ابو سفيان للنساء اللاتي مع المسلمين ، وكان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع ازواجهن وابنائهن ، وقد اجلسهن خلف صفوف المسلمين فأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن : لايرجع اليكن احد من المسلمين الا رميتموه بهذه الحجارة وقلن له مَنْ يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام واهلهْ وعن النساء وهم أمام العدو · ولما حمي الوطيس واستقبل النساء سرعان من انهزم من المسلمين معهن بعمد البيوت او عمد الفساطيط واخذن يضربن وجوههم و يرمين بالحجارة و يقلن: اين اين عن الاسلام والامهات والازواج · وبعض النساء قاتلن بالفعل يوم اليرموك مثل جويرية ابنة ابي سفيان وكانت مع زوجها · قال البلاذري : وقاتل يوم اليرموك نساء المسلمين قتالاً شديداً وفيهن هند بنت عتبة أُم معاوية بن ابي سفيان · وقال الطبري : وقاتل نساء من نساء قريش يوم اليرموك بالسيوف حتى سابقن الرجال منهن ام حكيم بنت الحرث بن هشام ·

وصف رومي العرب وكان أسيراً في أيديهم فأفلت وسأله هرقل عنهم فقال : اخبرني عن هؤلاء القوم فقال : احدثك كأنك تنظر اليهم « فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ، ما يأكلون في ذمتهم الا بثمن ، ولا يدخلون الا بسلام ، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه · فقال : لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدميّ هاتين ·

ولما انتصر المسلمون بفحل وقدم المنهزمون من الروم على هرقل بانطاكية دعا رجالاً منهم فأدخلهم عليه فقال : حدثوني ويحكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم · قالوا : بلى · قال : فأنتم اكثر او هم · قالوا : بل نحن · قال : فمابالكم · فسكتوا ، فقام شيخ منهم وقال: ألا أُخبرك انهم اذا حملوا صبروا ولم يكذبوا واذا حملنا لم نصبر ونكذب ، وهم يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يرون ان قتلاهم في الجنة واحياءهم فائزون بالغنيمة والاجر · فقال : ياشيخ لقد صدقتني ولاخرجن من هذه القرية ومالي في صحبتكم من حاجة ، ولا في قتال القوم من ارب · فقال ذلك الشيخ : انشدك الله ان تدع سورية جنة الدنيا للعرب وتخرج منها ولم

تعذر . وما زال به حتى ثناه الى المقام وارسل الى رومية وقسطنطينية وارمينية وجمع الجيوش وقاتل العرب .

وبعث أخو ملك الروم لما تراءى العسكران في اليرموك رجلاً عربياً من قضاعة وقال له : أُدخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر فأقام فيهم ثم اتاه فقال : ما وراءك قال: هم رهبان بالليل فرسان بالنهار لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ولو زنى رجموه إقامة للحدّ . فقال صاحب جيش الروم . لئن كنت صادقاً لبطن الارض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها .

ومما أعانهم على تأييد سلطانهم في البلاد تسامحهم مع اهل الذمة وحمايتهم لهم ، فكانوا كأنهم بين اهلهم وعشيرتهم لا يرهبون من وراءهم كما انهم لم يرهبوا من أمامهم . روى البلاذري : ان هرقل لما جمع للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على اهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على امركم . فقال اهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغَشْم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد .

قال غستاف لوبون : لما دخلت العرب الشام كانت رومانية منذ نحو سبعمائة سنة ، فابانوا عن تسامح مع كل مدن الشام ولذلك رضي السكان بسلطتهم مختارين ، وانتهت بهم الحال ان اطرحوا النصرانية وقبلوا دين الفاتحين وتعلموا لسانهم . وقال دي توري : ان الخطر الذي اندفع عن الشام من جهة الفرس على يد الامبراطور هرقل عاد فداهمها من جهة جزيرة العرب ، ولكنه خطر كانت فيه سلامتها من الانحلال والاضمحلال . وذلك ان العرب هاجمتها وقد اصبح العرب أمة برسولهم فزعزعوا اركان المملكة الرومانية وفي سنة ٦٣٦ فتحت دمشق و بعد سنتين فتحت القدس ولم تدخل سنة ٦٣٩ حتى فتح الشام كله ، وساد فيه السلام بدل الخصام ، فمن آمن عصم دمه وماله ، ومن لم يؤمن دفع الجزية واعتصم في الجبال فتركه الفاتحون وشأنه اه .

* * *

وداع صاحب الروم وآخر سهم في كنانتهم

لما دخل اليأس على هرقل من الشام سار عنه الى القسطنطينية من الرُّها في الجزيرة فالتفت الى الشــام عند مسيره وهو على نَشَزٍ وقال : « السلام عليك ياسورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومي بعدها الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم وليته لم يولد فما اجل نفعه وامرّ فتنته الروم » . ولم يفسر المؤرخون الذين نقلوا عبارة هرقل هذه معنى « الولد المشؤوم » وقيل انه قال باليونانية « سوزه سورية » اي كوني بسلام . وقد اخذ هرقل اهل الحصون التي بين الاسكندرونة وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين انطاكية و بلاد الروم وشعث الحصون فكان المسلمون لايجدون بها احداً .

وفي سنة ١٧ قصدت الروم ابا عبيدة بحمص فضم ابوعبيدة اليه مسالحه وعسكروا بفناء مدينة حمص واقبل خالد من قِنَّسرين حتى انضم اليهم فيمن انضم من امراء المسالح وكتب ابوعبيدة الى عمر بخروج الروم عليه وشغلهم اجناد الشام عنه، وقد كان عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولاً من فضول اموال المسلمين عدةً لكون ان كان . فكان بالكوفة اربعة آلاف فرس فلما وقع الخبر لعمر كتب بان يسرح الجند منها الى الشام مدداً لابي عبيدة . ولما أحيط بالمسلمين جمع ابو عبيدة الناس فحمد الله واثنى عليه وقال : ايها الناس ان هذا يوم له ما بعده اما من حي منكم فانه يصفو له ملكه وقراره واما من مات منكم فانهــا الشهادة . فاحسنوا بالله الظن ولا يُكَرِّهن اليكم الموت امر اقترفه احدكم دون الشرك ، توبوا الى الله وتعرضوا للشهادة فاني اشهد ، وليس اوان الكذب ، اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة .

وكأنما كانــ في الناس عُقُل تنشطت ، فخرج بهم وخالد على الميمنة وعباس على الميسرة وابو عبيدة في القلب وعلى باب المدينة مُعاذ بن جبل فاجتلدوا بها ، فانهم كذلك اذ قدم القعقاع متعجلاً في مائة وانهزم اهل قنسرين بالروم ، فاجتمع القلب والميمنة على قلبهم ، وقد انكسر احد جناحيه واوعبوا المدد ، فما افلت منهم مخبر ، وذهبت الميسرة على وجهها ، وكانــ آخر من أُصيب منهم بمرج الديباج انتهوا اليه

فكسروا سلاحهم والقوا يلامقهم (قفاطينهم) تخفيفاً فأصيبوا وتُغُنِّموا . ولما ظفر المسلمون جمعهم ابو عبيدة نخطبهم وقال : لاتنكلوا ولا تزهدوا في الدرجات فلو علمت انه يبقى منا احد لم أحدثكم بهذا الحديث. وتوفي ابوعبيدة في طاعون عَمَوَاس سنة ١٨ وهو الطاعون الذي مات فيه خمسة وعشرون الفاً وطمع العدو في الشام بسببه .

***

منزلة ابي عبيدة

وقد كان من اعمال ابي عبيدة في الشام وعدله ما حببه الى الروم حتى انهم لما فتحوا له باب الجابية بدمشق سنة اربع عشرة للهجرة ودخل خالد بن الوليد من الباب الشرقي عَنوة. قال خالد لابي عبيدة : اسبهم فاني دخلت وشرحبيل بن حسَنة عنوة . فابى ابو عبيدة . ولذلك كان الروم يميلون الى ابي عبيدة دون خالد بن الوليد . ولما طعن ابو عبيدة بالأردن دعا من حضره من المسلمين فقال : اني موصيكم بوصية ان قبلتموها لن تزالوا بخير : اقيمواالصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهررمضان ، وتصدقوا وحجواواعتمروا ، وتواصوا ، وانصحوا لامرائكم ، ولا تغشوهم، ولاتلهكم الدنيا ، فانامرأ لوعمر الفحول ما كان له بد انمن يصير الى مصرعي هذا الذي ترون، انالله تعالى كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، واكيسهم اطوعهم لربه ، واعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله . يامعاذ بن جبل صلِّ بالناس ومات رضي الله عنه . وكان عهد بولاية دمشق لسعيد العدوي وسويد الفهري وكلهم من الصحابة الكرام .

ولما ولي ابو عبيدة معاذاً قام في الناس فقال : ايها الناس توبوا الى اللهمنذنوبكم توبة نصوحاً فان عبداً لايلقي الله تعالى تائباً من ذنبه الا كان حقاً على الله انيغفر له ، من كان عليه دين فليقضه ، فانالعبد مرتهن بدينه، ومناصبح منكم مهاجراً اخاه فليلقه فليصالحه ، ولا ينبغي لمسلم انيهجر اخاه فوق ثلاث ، والخطب العظيم انكم ايها المسلمون قد فجعتم برجل ما ازعم اني رأيت عبداً ابر صدراً ، وابعد من الغائلة ، ولا اشد حباً للعامة ، ولا انصح للعامة منه ، فترحموا عليه رحمه الله تعالى . واحضروا الصلاة عليه .

واقام معاذ رضي الله عنه على امرته ولم تطل مدته حتى مات رضي الله عنه في طاعون عمواس في هذه السنة واستخلف معاذ عمرو بن العاص احد الدهاة المقدمين في الرأي والسياسة . وكان عمر رضي الله عنه اذا استضعف رجلاً في رأيه قال : اشهد ان خالقك وخالق عمرو بن العاص واحد . يريد خالق الاضداد . ولما قدم عمر رضي الله عنه الى الشام بالجابية امر عمرو بن العاص بالمسير الى مصر وبقي الشام ليزيد بن ابي سفيان ولم يطل امد ولايته طويلاً حتى هلك في طاعون عمواس ايضاً . وعمواس من الرملة على اربعة اميال مما يلي بيت المقدس .

وابو عبيدة بن الجراح امين هذه الامة كان عظيماً باخلاصه للاسلام، عظيماً بنفسه وعدله وشجاعته ، والشام مدين لفضله بفتحه وتمهيد اموره . ذكر اهل الاخبار عن عائشة انها قالت : سمعت ابابكر يقول : لما كان يوم أحد ورُمي رسول الله في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلقتان من المغفر فاقبلتُ اسعى الى رسول الله (ص) وانسان قد اقبل من قبل المشرق يطير طيراناً فقلت : اللهم اجعله طاعة حتى توافينا الى رسول الله (ص) فاذا ابو عبيدة بن الجراح قد بدرني فقال : اسألك بالله يا ابا بكر الا تركتني فانزعه من وجنة رسول الله قال ابو بكر فتركته : فاخذ ابو عبيده بثنيته احدَ حلقتي المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنية ابي عبيدة ثم اخذ الحلقة الاخرى بثنيته الاخرى فسقطت فكان ابو عبيدة في الناس اثرم .

هذا مثال من قوة نفس ابي عبيدة وحبه لرسوله . شهد ابو عبيدة واسمه عامر بن عبد الله بدراً وأحداً وثبت يوم أحد مع الرسول حين انهزم الناس وولوا ، وشهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله وكان من علية اصحابه . وطلب اهل نجران من الرسول ان يبعث معهم رجلاً اميناً . قال : لابعثن اليكم رجلاً اميناً حقَّ امين حقَّ امين قالها ثلاثاً : فبعث ابا عبيدة . قال ابو عبيدة وهو امير على الشام : يا ايها الناس اني امرؤ من قريش وما منكم من احد احمرَ ولا اسودَ يفضلني بتقوى الا وددت اني في مسلاخه[1] . قال عمر بن الخطاب لجلسائه : تمنوا فتمنوا فقال عمر بن الخطاب : لكني اتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل ابي عبيدة بن الجراح

(١) المسلاخ الجلد ، ومن المجاز فلان حمار في مسلاخ انسان .

قال سفيان فقال له رجل · وما ألوت الاسلام فقال ذاك الذي أردت · وقال عمر ابن الخطاب : لو أدركت ابا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت، فان سئلت عنه قلت استخلفت امين الله وامين رسوله وفي رواية لو سألني عنه ربي لقلت سمعت نبيك يقول : هو امين هذه الامة ·

بمثل هؤلاء النوابغ المخلصين فتحت البلاد وتمهدت ، ودخل الناس في الاسلام افواجاً · بمثل هـذه الامانة والعدل والاحسان استمال العرب القلوب فاصبح اعداؤهم اولياءهم ، بعد ان شاهدوا عياناً ماانطوت عليه تلك النفوس الكبيرة · قالوا : ان البلاد الحارة ضنينة بالنوابغ العاملين فأكذب العرب في هذا المثال من فتوحهم تلك النظرية بمن أخرجوا من رجالاتهم الذين أدهشوا على قلتهم وفقرهم العالم المعروف اذ ذاك بشجاعتهم وصبرهم وقناعتهم واخلاصهم ، وتوجيه قوى الصغير والكبير منهم الى مقصد واحد ، اي انهم كانوا موحدين في عقائدهم ، مُوَحَّدين في مقاصدهم ، وهذا غريب من نصف أميين وليسوا بعد عريقين في المدنية ·

الدولة الأموية

«من سنة ١٨ الى ١٣٢»

إمارة معاوية بن ابي سفيان واعماله

لما هلك يزيد بن ابي سفيان والي دمشق سنة ١٨ ولى عمر بن الخطاب اخاه معاوية بن ابي سفيان فلم يزل واليًا لعمر حتى قتل عمر. ثم ولاه عثمان بن عفان ذلك العمل وكان عثمان أقرّ عمال عمر على الشام فلما مات عبدالرحمن بن علقمة الكناني وكان على فلسطين ضم عمله الى معاوية. وكان عمير ابن سعيد الانصاري في سنة ٢١ على دمشق والبثنية وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة، ومعاوية على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وانطاكية ومعرة مصرين وقليقية، ثم جعل عمير في سنة ٢٣ على حمص ومعاوية على دمشق، ثم تولى عمير بن سعيد حمص وقنسرين، وعلقمة بن مجزّز فلسطين، وعمير بن سعيد هو الذي كان يقول على منبر حمص : الا ان الاسلام حائط منيع وباب وثيق، فحائط الاسلام العدل وبابه الحق، فاذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح الاسلام، فلا يزال الاسلام منيعًا ما اشتد السلطان وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضربًا بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل. لما تم هذا اجتمع الشام على معاوية لسنتين من امارة عثمان اي في السنة الخامسة والعشرين للهجرة.

ومن الاحداث مع الروم غزوة معاوية بن ابي سفيان (سنة ٢١) وصلح ابي هاشم ابن عتبة على قليقية وانطاكية ومعرة مصرين وجاشت الروم (٢٤) حتى استمد من بالشام من جيوش المسلمين من عثمان مدداً فأمدهم بثمانية آلاف رجل من اهل الكوفة

فدخلوا مع اهل الشام الى ارض الروم فشنوا الغارات فأصاب الناس ما شاؤا من سبي وملؤا أيديهم من المغنم وافتتحوا بها حصوناً كثيرة وغزا قبرص (٢٨) فصالحه اهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة . وخرج اهل الشام (٣١) وعليهم معاوية وعلى البحر عبد الله بن سعيد وخرج عامئذٍ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بافريقية في جمع لم يجتمع للروم مثله قط مذ كان الاسلام فخرجوا في خمس مائة مركب فربط المسلمون سفنهم بعضها الى بعض حتى كان يضرب بعضهم بعضاً على سفن المسلمين وسفن الروم وقاتلوهم أشد قتال ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن و يتواجؤن بالخناجر حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الامواج وطرحت الامواج جثث الرجال ركاماً . ثم انتصر المسلمون وانهزم قسطنطين مدبراً فما انكشف الا لما أصابه من القتل والجرح .

وافتتح معاوية جزيرة أرواد في السنة الثالثة لعثمان وهدم سورها وأحرقها وجلا اهلها الى الشام ووجه قسطومس ملك الروم الى معاوية يسأله الصلح فأجاب الى ذلك على ان يكون عنده عدة من اهل بيته رهائن . وفي السنة الثامنة لعثمان وجه معاوية بجيوش الى جزيرة رودس فأخذوها ورتبوا بها المسالح وجعلوها منظرة للعرب . وفي السنة الثالثة لمعاوية كانت غزوة بشر بن ارطاة الروم دفعة ثانية وسبى بها وهزمت الروم حتى بلغت القسطنطينية وفي سنة ثلاث عشرة لمعاوية غزا بشر بن ارطاة الروم فقتل وأخرج معه سبياً كثيراً . وفي السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في البحر وساروا الى لوقية فخرج اليهم ثلاثة بطارقة فقتل الروم من العرب ثلاثين الفا ومن بقي منهم ركب البحر فلما توسطوه لحقهم بعض الروم في سفينة فالقى النار في سفن فاحترقت كلها وفازت الروم وهم اول من اخرج النار وصارت لهم عادة . وفي السنة السابعة عشرة ركب الروم السفن واقبلوا فيها في البحر حتى اتوا ساحل صور وصيدا ثم خرجوا من السفن واستولوا على جبل لبنان فأووا اليه وكان الناس يسمونهم الجراجمة فاستولوا على جبل لبنان وانتشروا من جبل الجليل الى الجبل الاسود وذلك ان قسطنطين دسهم ليشغلوا العرب عن الغزو .

ولم يكد معاوية يتولى الامر بالشام حتى اخذ بما أوتيه من علم وحلم يضع اساس

الملك و يسير في رعيته سيرة حسنة حببته اليهم وكان يتأنى الامور و يداري الناس على منازلهم و يرفق بهم على طبقاتهم فاوسع الناس من اخلاقه وافاض عليهم من بره وعطائه وشملهم من احسانه فاجتذب القلوب واستدعى النفوس حتى آثروه على الاهل والقرابات وعدّ « مربي دول وسائس أمم وداعي ممالك » ٠

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس

ولطالما افضل على اشراف قريش مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر وابان بن عثمان ابن عفّان وناس من آل ابي طالب يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ومنهم عقيل بن ابي طالب شقيق علي بن ابي طالب قدم على معاوية بالشام فامر له معاوية بثلاثمائة الف دينار وقال له : هذه مائة الف تقضي بها ديونك ومائة الف تصل بها رحمك ومائة الف توسع بها على نفسك ٠ وكان عقيل قدم من قبل على اخيه في الكوفة فشكا له الضائقة فوعده بان يعطيه عطاءه اذا خرج فقال عقيل : وانما شخوصي من الحجاز اليك من اجل عطائك وما ذا يبلغ مني عطاؤك وما يدفع من حاجتي ٠ وكان معاوية مدة حكمه في الشام اميراً نحو عشرين سنة وخليفة مثلها يعمد الى المال فينفقه اذا رأى هناك مصلحة وما يحسم بالمال وحسن التدبير لايحله باهراق الدماء الا بعد الاضطرار الشديد ٠

***

مقتل عثمان بن عفان

وبينا كان معاوية في الشام مستقلاً بعيداً عن كل شغب يعمل لنفسه ولآله ملكاً اخذ الناس ينقمون في الحجاز وغيره على عثمان لست سنين من خلافته وتكلم فيه من تكلم٠« فاجتمع ناس من اصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان سنة رسول الله وسنة صاحبيه وما كان من هبته خمس افريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من اهله وبناته وبنيان مروان القصور بذي خشب وعمارة الاموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله وما كان من افشائه

العمل والولايات في اهله و بني عمه من بني أمية احداث وغلمة لاصحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالامور » ٠

ومازال عثمان على شيخوخته مغلوباً لمروان و بني أمية واهما عدواعليه توسيده الامور لهم حتى قتل في المدينة وتولى الخلافة علي بن ابي طالب ٠ وكان معاوية على مثل اليقين من ان علياً لايقره على الشام فكان كما ظن وهنا ظهر نبوغ معاوية السياسي حتى بلغ ما اراد وقسم الأمة شطرين له وعليه وكانت كفته الراجحة ٠ واختلفت الآراء في تبعة معاوية من مقتل عثمان فقال فريق : ان عثمان كتب الى معاوية : « ان اهل المدينة قد كفروا وخلعوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث اليّ من قبلك من مقاتلة اهل الشام على كل صعب وذلول »٠ فتربص به معاوية وكره اظهار مخالفة اصحاب رسول الله وقد علم اجتماعهم فابطأ امره على عثمان حتى كان ما كان من مقتله ٠

***

آمال علي بن ابي طالب في الخلافة

ولم يتخلف معاوية عن مبايعة علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) فقط بل قام يطالب بدم عثمان و يتهم علياً بقتله لان علياً كان يحتج على الصحابة منذ يوم البيعة لابي بكر و يقول : انا اجدر بهذا الامر منكم لا ابايعكم وانتم اولى بالبيعة لي حتى قال له ابو عبيدة بن الجراح: « يا ابن عم انك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالامور ، ولا ارى ابا بكر الا اقوى على هذا الامر منك ، واشد احتمالاً واضطلاعاً فسلّم لابي بكر ، فانك ان تعش ويطل بك بقاؤ فانت لهذا الامر خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك »٠ وقد وقعت لعلي تأوهات في المطالبة بالخلافة وانه بغي عليه في ذلك وغمط حقه في عهد الثلاثة الخلفاء، ولذلك كان في تساهله بالدفاع عن عثمان وجه عند بعضهم على حين ثبت ان علياً قرّع عثمان على التفريط وانذره بان عاقبته تكون القتل بقوله : أحذرك ان تكون إمام هذه الامة الذي يقتل فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ٠

وذكر ابن حزم في الملل والنحل في باب رأي كبار الأمة في حرب علي ومعاوية ان امتناع معاوية من بيعة عليّ كامتناع علي من بيعة ابي بكر فما حارب ابو بكر

ولا اكرهه وابو بكر اقدر على علي من علي على معاوية ومعاوية في تأخره عن بيعة علي اعذر وافسح مغاراً من علي في تأخره عن بيعة ابي بكر لان عليًا لم يمتنع من بيعة ابي بكر احد من المسلمين غيره بعد ان بايعه الانصار والزبير واما بيعة علي فان جمهور الصحابة تأخروا عنها إما عليه واما لا له ولا عليه وماتابعهم فيه الا الاقل سوى أزيد من مائة الف مسلم بالشام والعراق ومصر والحجاز كلهم امتنع من بيعته فهل معاوية الا كواحد من هؤلاء في ذلك ؟ الى ان قال بشأن البيعة : فصح ان عليًا هو صاحب الحق الامام المفترضة طاعته ومعاوية مخطيء مأجور مجتهد قال: ولم يقاتل علي معاوية لامتناعه من بيعته لانه كان يسعه في ذلك ماوسع ابن عمر وغيره ولكن قاتله لامتناعه من انفاذ اوامره في جميع ارض الشام وهو الامام الواجبة طاعته فعلي المصيب في هذا ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة لكن اجتهاده اداه الى رأي تقديم اخذ القود من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة ورأى نفسه احق بطلب دم عثمان والكلام فيه عن ولد عثمان وولد الحكم بن ابي العاص لسنه ولقوته على الطلب بذلك .

***

اتفاق معاوية وعمرو بن العاص على المطالبة بدم عثمان اغتنم معاوية هذه الفرصة السانحة في مقتل عثمان ليعيد الامر الى بني أمية ويصبحوا امراء في الاسلام كما كانوا امراء في الجاهلية . وكان النعمان بن بشير اتاه الى دمشق من المدينة بقميص عثمان الذي قتل فيه مخضبًا بدمه و باصابع نائلة زوجته فوضع القميص على منبر دمشق وكتب بالخبر الى الاجناد وثاب اليه الناس و بكوا سنة وهو على المنبر والاصابع معلقة في اردانه وتعاهد الرجال من اهل الشام على قتل قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء او تفنى ارواحهم وكان ستون الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان .

وكان عمرو بن العاص لما نشب الناس في امر عثمان في ضيعة له بالسبع من حيز فلسطين قد اعتزل الفتنة فاستدعاه معاوية يسترشد برأيه ووعده بملك مصر ان هو ظفر بعلي . فارتأى عمرو ان يجلب معاوية شرحبيل بن السمط الكندي رأس اهل الشام فسار هذا يستقري مدنها مدينة مدينة يحرض الناس على الأخذ بدم عثمان

فاجابه الناس كلهم الا نفراً من اهل حمص نساكاً فانهم قالو : نلزم بيوتنا ومساجدنا وانتم اعلم منا .

وذكر المؤرخون : ان معاوية قدم بيت المقدس وقدم عليه عمر بن و العاص فبايعه على دم عثمان وكتبا كتاباً بينهما : « بسم الله الرحمن الرحيم » : هذا ماتعاهد عليه معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص ببيت المقدس بعد قتل عثمان وحمل كل واحد منهما صاحبه الامانة ان بيننا عهد الله على التناصر والتخالص والتناصح في امر الله والاسلام ولا يخذل احدنا صاحبه بشيء ولا يتخذ من دونه وليجة ولا يحول بيننا ولد ولا والد ابداً ما حيينا فيما استطعنا » .

وهكذا اخذ معاوية يحرك النفوس ويطالب بثار عثمان ومما كتب به الى علي : « ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الانصار فاطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف وقد ابى اهل الشام الاقتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان » . فاجابه عليّ : « زعمت انه انما افسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ولعمري ما كنت الا رجلاً من المهاجرين اوردت كما اوردوا واصدرت كما اصدروا وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى وما امرت فيلزمني خطيئة عثمان ولا قتلت فيلزمني قصاص القاتل ... واما قولك ندفع اليك قتلة عثمان فما انت وعثمان انما انت رجل من بني أمية وبنو عثمان اولى بعثمان منك » .

***

حرب صفّين وشؤمها وما برحت الحزازات تشتد بين عليّ ومعاوية يريد الاول ان يبايع له الثاني ويطالب الثاني بدم عثمان وهو مستقل بالشام حتى التقيا سنة ٣٧ في صفين من ارض الشام بجيشيهما وكانت بينهما وقائع سالت فيها الدماء كالأنهار فقتل من أهل الشام جيش معاوية خمسة واربعون الفاً ومن أهل العراق والحجاز جيش عليّ خمسة وعشرون الفاً وكان معاوية في مائة وعشرين الفاً وعلي في تسعين الفاً وجمّر عليٌّ الجنود « حتى قُتل من أبطال الاسلام في تلك المعارك الوف ولم يكترث بقتلهم » « وان علياً لينغمس في القوم فيضرب بسيفه حتى ينثني ثم يخرج متخضباً بالدم حتي يسوى له سيفه ثم يرجع فينغمس

فيهم » . روى ابن سعد قال : « اقتتل الناس بصفين قتالاً شديداً لم يكن في هذه الامة مثله قط حتى كره أهل الشام وأهل العراق القتال وملوه من طول تباذلهم السيف . فقال عمرو بن العاص : وهو يومئذ على القتال لمعاوية انت مطيعي فتأمر رجالاً بنشر المصاحف ، ثم يقولون يا أهل العراق ندعوكم الى القرآن والى ما في فاتحته الى خاتمته فانك ان تفعل ذلك يختلف اهل العراق ولا يزيد ذلك امر أهل الشام الا استجماعاً ، فاطاعه معاوية ففعل ، وامر عمرو رجالاً من أهل الشام فقرئ المصحف ثم نادى يا أهل العراق ندعوكم الى القرآن ، فاختلف أهل العراق فقالت طائفة أولسنا على كتاب الله وبيعتنا ، وقال آخرون كرهوا القتال : أجبنا الى كتاب الله ، فلما رأى علي عليه السلام وهنهم وكراهتهم للقتال قارب معاوية فيما يدعوه اليه واختلف بينهم الرسل فقال علي عليه السلام : قد قبلنا كتاب الله فمن يحكم بكتاب الله بيننا وبينك ، قال : تأخذ رجلاً منا نختاره ونأخذ منكم رجلاً تختاره ، فاختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار علي ابا موسى الاشعري » .

وجرت المهادنة بين علي ومعاوية على وضع الحرب بينهما ويكون لعلي العراق ولمعاوية الشام فلا يدخل احدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو فأقام معاوية بالشام يجبيها وكان ذلك سنة ٤٠ .

وكانت حرب صفّين من أشأم الحروب على الامة ، وهي في اول نشأتها وشبابها ، التقى فيها المسلم بالمسلم بالسلاح ، واقتتلا قتالاً شديداً ، وهلكت من الفريقين نفوس ذكية ، لو سلمت لفتحت بها القاصية ، ولو لم يشغل بال معاوية بمقتل عثمان ثم بمدافعة علي لكان تفرغ لا محالة للقضاء على الدولة البيزنطية آخر الدهر . خصوصاً وقد كان من اكبر همه ان يغادي الروم القتال ويراوحهم منذ استقل بامارة الشام . وكان يغزوهم براً وبحراً ويصيب منهم وقلما يصيبون منه وربما توفق معاوية وآله لولا هذه الغائلة الاهلية الى استصفاء معظم اقطار الارض .

***

صلح الحسن مع معاوية وبعض ما عزي الى هذا	ومن اهمّ الاحداث في زمن معاوية قيام الحسن بن علي في العراق عقيب مقتل ابيه

علي بن ابي طالب فسار معاوية الى الموصل والتقى العسكران فوجه معــاوية الى قيس ابن سعد امير جيش الحسن يبذل له الف الف درهم على ان يصير معه او ينصرف فابى ويقال انه ارسل الى عبد الله بن عباس وبذل له مثل هذا المال فصار اليه في ثمانية آلاف من اصحابه وهم من شيعة الحسن واقام قيس على محاربته حتى اضطر الحسن الى صلح معاوية بعد ان رأى اصحابه تفرقوا عنه وصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وقالــــ : « ايها الناس ان الله هداكم باولنا وحقن دماءكم بآخرنا وقد سالمت معاوية وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » ٠

ولما مات الحسن بعد شهرين وقيل اربعة اشهر من استيلائه على العراق صفا الجو لمعاوية وبايع له الناس فملك العراق والحجاز ومصر واجمعت القلوب على مبايعته طوعًا او كرهًا ٠ وكان ممن مالأ معاوية على تحقيق رغائبه عمرو بن العاص قريبه وعامله على مصر، والمغيرة بن شعبة عامله على الكوفة، وهما الداهيتان اللذان يقول فيهما الحسن البصري انهما افسدا امر هذه الأمة لاحتيال الاول برفع المصاحف يوم صفين وتقرير التحكيم ولان الثاني كان من الداعين لاخذ البيعة ليزيد ٠ فاوعز معــاوية سرًا الى ولاة الامصار ان يوفدوا الوفود اليه يزينون له اعطاء العهد لابنه حتى استوثق له اكثر الناس وبايعوه والسيوف مسلولة فيما قيل على رقاب الصحابة في مسجد الرسول ٠ وذكروا ان معاوية استعمل ابن أُثال الطبيب ليدس السم على بعض من كان يتخوف منهم التوثب على الخلافة مثل عبد الرحمن بن خالد امير حمص احد فرسان قريش وشجعانهم وكان له هدي حسن وفضل وكرم وكان قد عظم شأنه في الشام ومال اليه اهلها حتى خشي معاوية على نفسه منه لميل الناس اليه ونسي له غناءه في قتال الروم ومواقفه يوم صفين ٠

* * *

خلافة يزيد ورأي ابن خلدون	اخرج معاوية الخلافة عن اصولها وكانت بالعهد لافضل الصحابة او بالشورى بينهم لمن يقع اختيارهم عليه وجعلها

كالملك يورثها الاب ابنــه او من يراه اهلاً لها من خاصته او كسروية او قيصرية على سنة كسرى وقيصر كما قالوا ٠ وبذلك نقم على معاوية بعض الصحابة والتابعين من الانصار والمهاجرين ٠

قال ابن خلدون : والذي دعا معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق اهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية اذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش واهل الملة اجمع واهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره مما يظن انه اولى بها وعدل عن الفاضل الى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الاهواء الذي شأنه اهم عند الشارع وان كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضور الاكابر لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن تأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فانهم كلهم اجلُّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبدالله ابن عمر من ذلك انما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الامور مباحاً كان او محظوراً كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور الا ابن الزبير · وندور المخالف معروف ·

ثم قال : انه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وامثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم ايثارهم ابنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينياً فعند كل احد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسمو ذلك الى وازعه واما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد اشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطاني والعصباني فلو عهد الى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض امره سريعاً وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف ·

ذكروا ان معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها دعا ابنه يزيد فقال : « يا بني اني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الاشياء ، وذللت لك الاعداء ، واخضعت لك اعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، واني لا اتخوف ان ينازعك هذا الامر الذي استتب لك الا اربعة نفر من قريش ، الحسين بن علي ، وعبد الله بن

عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن ابي بكر ، فاما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق احد غيره بايعك ، واما الحسين بن علي فان اهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، اما ابن ابي بكر فرجل ان رأى اصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة الا في النساء واللهو ، واما الذي يجثم لك جثوم الاسد و يراوغك مراوغة الثعلب فاذا امكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربا إربا . ومن جملة وصايا معاوية لابنه يزيد في اهل الشام وكان رباهم على الطاعة المطلقة : « انظر اهل الشام فليكونوا بطانتك ورعيتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا اصبتهم فاردد اهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم . ولما قدم مشيخة اهل الكوفة على معاوية كان فيما سألهم عنه رأيهم في اهل الاحداث من الامصار فقال احدهم : واما اهل الشام فاطوع الناس لمرشدهم واعصاهم لمغويهم .

* * *

غزوات معاوية

ومما يجب ان يذكر لمعاوية انه مع اشتغال ذهنه بالملك لم يغفل قط عن انشاء اسطول عظيم غزا به الروم وغزا القسطنطينية غير مرة واغزى الروم مراراً وكان يغزو الصوائف والشواتي اي غزوات الصيف والشتاء، وخص قوماً من رجاله بتولي هذه الغزوات و بلغه ان الروم سنة ٤١ قد زحفت في جموع كثيرة فخاف ان يشغلوه عما يحتاج الى تدبيره واحكامه خصوصاً بعد خروجه من وقعة صفين فوجه اليهم فصالحهم على مائة الف دينار . وكان معاوية اول من صالح الروم فلما استقام له الامر اغزى امراء الشام على الصوائف فسبوا في بلاد الروم سنة بعد سنة وطلب صاحب الروم الصلح على ان يضعف المال فلم يجبه ورضي مرة بصلح ملك الروم على ان يكون عنده من اهل بيت ملكهم رهائن وافتتح معاوية من الجزائر ارواد وقبرس ورودس وغيرها وبث فيها المسالح وجعلها منظرة للعرب .

وحدث مرة سنة ٣٤ ان معاوية كان يستعد لقصد القسطنطينية و يعد السفن الكثيرة بمدينة طرابلس و يحمل من السلاح امراً عظيماً ان اخوين لرجل يقال له بقنطر وكانا في خدمة العرب فلما نظرا ما اعده معاوية اخذتهما الغيرة فاتيا السجن ففتحاه

واخرجا من فيه من الروم وقتلوا عامل البلد واحرقوا السفن والعدة وركبوا البحر . فلما بلغ معاوية ذلك جهز جيوشاً كثيرة الى الروم فافتتح بلاداً كثيرة . وسبى من اهلها مئة الف انسان و بعث اخاه على البحر فانهزم الروم بحراً ايضاً ، ثم تعددت وقائعه مع الروم وكان في اكثرها ظافراً ، ومن وقائعه وقعة سنة ٣١ . ولولا النار التي اخترعها الروم لاحراق السفن و بها حرقت سفن كثيرة للعرب وهلك الوف من رجال بحريتهم لامتدت الفتوحات ولسهل على معاوية فتح القسطنطينية كما سهل عليه غزو الروم لتحصينه سواحل الشام واقامته الصناعة في صور وعكا وغيرها من مدن الشام . ومن اهم ما حدث في اواخر ايام معاوية ان الروم ركبوا السفن للسنة السابعة عشرة من خلافته واتوا ساحل صور وصيدا فاستولوا على جبل لبنان وانتشروا من جبل الجليل الى الجبل الاسود وكان الناس يسمونهم الجراجمة و بعضهم يسميهم المردة دسهم قسطنطين ملك الروم ليشغلوا العرب عن الغزو وبقوا في البلاد حتى اخرجهم عبد الملك بن مروان .

وفي سنة ٤٨ سير معاوية جيشاً كثيفاً مع سفيان بن عوف الى القسطنطينية فاوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية وتوفي في مدة الحصار ابو ايوب الانصاري ودفن بالقرب من سورها .

* * *

احداث معاوية ووصيته اهله — توفي معاوية سنة ٦٠ بعد ان وطأ أكناف الملك وابتكر في الدولة اشياء لم يسبقه احد اليها ، منها انه اول من وضع الحشم للملوك ورفع الحراب بين ايديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي الملك او الخليفة بها في الجامع منفرداً عن الناس ، وهو اول من وضع البريد لوصول الاخبار بسرعة ، واخترع من امور الملك ديوان الخاتم واستخدم المسيحيين في مصالح الدولة فعهد بنظارة المالية الى منصور وسرجون من نصارى العرب السوريين . أوصى معاوية بني أمية فقال : انه لما قرب مني ما كان بعيداً ، وخفت ان يسبق الموت اليّ و يسبقكم بي سبقته اليكم بالموعظة لابلغ عذراً ، وان لم أردّ قدَراً ، ان الذي أخلفه لكم من دنياي امر تشاركون فيه او تقبلون عليه ، وان الذي أخلف لكم من رأيي مقصور عليكم نفعه ان

فعلتموه ، مخوف عليكم ضرره ان ضيعتموه ، فاجعلوا مكافأتي ، قبول نصيحتي ، وان قريشًا شاركتكم في أنسابكم ، وتفردتم دونها بأفعالكم ، فقدمكم ما تقدمتم فيه اذا أخّر غيركم ما تأخروا له ، ولقد جُهرلي فعلمت ، وفُهم لي ففهمت ، حتى كأني أنظر الى اولادكم بعدكم كنظري الى آبائهم قبلهم ، ان دولتكم ستطول ، وكل طويل مملول ، وكل مملول مخذول ، فاذا انقضت مدتكم كان اول ذلك اختلافكم بينكم ، واتفاق المختلفين عليكم ، فيدبر الامر بضد ما اقبل به ، فلست أذكر عظيماً يُنال منكم ، ولا حرمة تُنتهك لكم ، الا وما أكف عن ذكره اعظم منه ، فلا معوّل عليه عند ذلك أفضل من الصبر، واحتساب الاجر ، فيا لها دولة أنست أهلها الدولَ في الدنيا والعقوبة في الآخرة فيمادكم القوم دولتكم تمادّ العِنانين في عنق الجواد ، فاذا بلغ الامر مداه ، وجاء الوقت الذي حده رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعفت الحيلة ، وعزب الرأي ، وصارت الامور الى مصايرها ، فأوصيكم عندها بتقوى الله عز وجلّ الذي يجعل لكم العاقبة ان كنتم متقين اه .

* * *

خلافة يزيد ومقتل الحسين ووقعة الحرة تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد ابيه ثلاث سنين وستة اشهر وسار على خطته في جهاد الروم وكان جلداً صبوراً ولم تمنعه فتن ابن الزبير وشيعة العراق عن قتالهم وأهم الاحداث في زمانه قتل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) في كربلاء من العراق وحمل رأسه الشريف الى الشام وإهانة أسرته الطاهرة وقتل بعض رجالها . فارتكب ابن زياد عامل العراق ليزيد من ذلك امراً نكراً أكبره أهل الاسلام وزادت بذلك شيعة علي وآله حنقاً وشدة . ولم يكن يزيد يريد قتل الحسين عملا بوصية والده له فان زحر بن قيس لما حمل من العراق الى الشام أهل بيت الحسين ودخل على يزيد وبشره بذلك دمعت عينه وقال : قد كنت ارضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سُميّة (يعني ابن زياد) اما والله لو اني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين .

ومن الاحداث في ايامه مسير يزيد بالجيش الى نواحي حماة وتصدى اهل لبنان له

وهزيمته وغزا الروم بالغذقدونة من قلقية في ولايته للعهد ثم غزاهم في خلافته وعد ذلك من مزاياه ومزايا ابيه ٠

واتفق اهل المدينة سنة ٦٢ على خلع يزيد فجهز جيشاً مع مسلم بن عقبة وامره بقتال اهل المدينة فاذا ظفر بها اباحها للجند ثلاثة ايام ، يسفكون فيها الدماء و يأخذون الاموال وان يبايعهم على انهم خَوَل وعبيد ليزيد ٠ فقاتل جند الشام اهل المدينة في الحَرَّة واستباح مسلم المدينة ، وكان قتلى الحرة سبعمائة من وجوه الناس من قريش والمهاجرين والانصار وعشرة آلاف من وجوه الموالي ، ثم بايع من بقي من الناس وعاد الى الشام من كان بالمدينة من بني أمية ٠

حنقت نفوس الأمة من وقعة الحرة لان فتلتها التهمت بضع مئات من علية قريش ، وكانت غلطة زياد في قتل الحسين وسبي آله الطاهرين ذريعة اكبر للنيل من يزيد وآل يزيد، فتقولوا عليه وحطوا من كرامته، مع انه سار بسيرة ابيه في الملك من التوسع في الفتوح وقتال اعداء المملكة من الروم ٠ اما وقعة الحرة فان اهل المدينة استطالوا على يزيد وحاسنهم فخاشنوه واحرجوه حتى اخرجوه ٠

***

عهد معاوية الصغير

توفي يزيد بن معاويه سنة ٦٤ وبويع ابنه معاوية بن يزيد ثالث خلفاء بني أميــة ، ولما استخلف لبث شهرين وليالي محجوبًا لا يُرى، ثم خرج بعد ذلك فجمع الناس فحمد الله واثنى عليه ثم قال: ايها الناس اني نظرت فيما صار اليَّ من امركم، وقلدته من امارتكم، فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني و بين ربي ان اتقدم على قوم وفيهم من هو خير مني ، واحقهم بذلك واقوى على ما قلدته ، فاختاروا مني احدى خصلتين اما ان اخرج منها واستخلف عليكم من اراه لكم رضىً ومقنعًا، واكم الله عليّ لا آلوكم نصحًا في الدين والدنيا، واما ان تختاروا لانفسكم وتخرجوني منها، فانف الناس من قوله، وابوا من ذلك وخافت بنو أمية ان تزول الخلافة منهم وماج امرهم واختلفوا ٠

وقيل انه خطب الناس وقال : «ما كنت اتقلدكم حيــاً وميتاً فوالله لئن كانت الدنيا مغنماً فقد نلنا منها حظــاً ، وان تكن شراً فحسب آل ابي سفيان ما اصابوا منها»

فقال له مروان بن الحكم : سنّها فينا سيرة عمرية قال : ما كنت أتقلدكم حيّاً وميتاً .
ولما حضرته الوفاة بعد خلافته اربعة اشهر وقيل اقل من ذلك ، وله عشرون سنة وقيل احدى وعشرون سنة ، لم يرض ان يعهد بالامر من بعده . وقال: أتفوز بنو أمية بحلاوتها، وابوء بوزرها وامنعها اهلها ، كلا اني لبريء منها . وقال المسعودي : اراد ان يجعلها الى نفر من اهل الشوري ينصبون من يرونه اهلاً لها .

وقيل ان معاوية بن يزيد كان قدرياً لان عمر المقصوص كان علمه ذلك فدان به وتحققه ، فلما بايعه الناس قال للمقصوص : ماترى قال : اما ان تعتدل او تعتزل . فخطب الناس يستعفي من بيعتهم، فوثب بنو أمية على عمر المقصوص وقالوا: انت افسدته وعلمته فطمروه ودفنوه حياً .

قال الطبري : وكان معاوية بن يزيد بن معاوية فيما بلغني أمر بعد ولايته فنودي الصلاة جامعة فحمد الله واثنى عليه ثم قال : اما بعد فاني قد نظرت في امركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع اليه ابو بكر فلم اجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم اجدها ، فانتم اولى بامركم فاختاروا له من احببتم . ثم دخل منزله ولم يخرج الى الناس وتغيب حتى مات . فقال بعض الناس دُس اليه فسقي سماً وقال بعضهم طعن .

* * *

قيام ابن الزبير ومبايعة مروان بن الحكم بالخلافة ووقعة مرج راهط

وكان عبد الله بن الزبير قد تغلب على مكة وتسمى بامير المؤمنين ومال اليه اكثر النواحي . ابتدأ امره في ايام يزيد بن معاوية فلما توفي يزيد مال الناس من البلدان جميعاً الى ابن الزبير . وكان بفلسطين ناتل بن قيس الجذامي ، و بدمشق الضحاك بن قيس الفهري ، و بحمص النعمان بن بشير الانصاري ، و بقنسرين والعواصم زفر بن الحارث الكلابي . وثب على سعيد بن بحدل الكلبي واخرجه منها ، ولم تبق ناحية الا مالت الى ابن الزبير خلا الأردن ورئيسها يومئذ حسان بن بحدل الكلبي بمعنى ان الناس افترقوا « ثلاثاً : فرقة بحدلية وهو اسم لبني حرب ، وفرقة زبيرية ، وفرقة لايبالون لمن كان الامر » .

وقدم مروان بن الحكم، وامر الشام مضطرب ومعظم اجنادها مبايعة لابن الزبير، فدعا مروان الى نفسه وهو من اعظم رجال أمية عقلاً ودهاءً وسياسة وحنكة . واجتمع الناس بالجابية من ارض حوران فتناظروا في ابن الزبير وفيما تقدم من بني أمية عندهم، وتناظروا في خالد بن يزيد بن معاوية، وفي عمرو بن سعيد بن العاص بعده، فكان رَوْح بن زنباع الجذامي يميل مع مروان فقام خطيباً فقال : يا اهل الشام هذا مروان ابن الحكم شيخ قريش، والطالب بدم عثمان، والمقاتل لعلي بن ابي طالب يوم الجمل و يوم صفين، فبايعوا الكبير واستنيبوا للصغير . فلما عقدوا البيعة جمعوا من كان في ناحيتهم ثم تناظروا في اي بلد يقصدون فقال : نقصد دمشق فانها دار الملك ومنزل الخلفاء، وقد تغلب بها الضحاك بن قيس فلقوا الضحاك بمرج راهط، وكان مع الضحاك من اهل دمشق وفتيتهم جماعة، وقدامده النعمان بن بشير عامل حمص بشرحبيل بن ذي الكلاع في أهل حمص، وامده زفر بن الحرث الكلابي بقيس بن طريف بجيش من شمالي الشام، فكان في ثلاثين الفاً، ومروان في ثلاثة عشر الفاً اكثرهم رجالة، والتقوا بمرج راهط فاقتتلوا قتالاً شديداً ودام القتال عشرين يوماً فقتل الضحاك بن قيس وخلق من اصحابه، وهرب من بقي من جيشه . و بلغ الخبر النعمان بن بشير وهو بحمص فخرج هارباً فتبعه قوم من حمير و باهلة وقيل من اهل حمص فقتلوه في البرية، وكان من اخطب اهل الدنيا، وهرب زفر بن الحرث الكلابي والخيل تتبعه حتى اتى قرقيسيا على الخابور .

واقام مروان بن الحكم بالشام في ايام ابن الزبير واجتمعت اليه بنو أمية بعد وقعة مرج راهط التي انقسمت بها الشام فرقتين قيسية ويمانية وغلب اليمانية وكان بنو أمية يبغضون اليمانية . قال المسعودي : وكانت هذه الوقعة سبب رد ملك بني أمية وقد كان زال عنهم الى بني أسد بن عبد العزّى، ولذلك رأى قوم ان مروان اول من اخذ الخلافة بالسيف . وهذه الوقعة من الوقائع المشهورة والايام المذكورة . واليمانية تفتخر بها على النزارية، وقد اكثرت شعراؤها الافتخار بذلك . ولما بويع لمروان بن الحكم اشترط حسان بن مالك، وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام، على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد، منها ان يفرض لهم لالفي رجل، الفين الفين، وان مات قام ابنه او ابن عمه مكانه، وعلى ان يكون لهم الامر والنهي وصدر

المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة ، فرضي مروان بذلك وانقاد اليه . وكان هذا أول قانون عربي وضع للمراسيم والتشريفات (بروتوكول) وضع أساسه القحطانية ، وكانوا اصطلحوا على ذلك منذ عهد معاوية ارضاهم بهذا التصدر فدخل مصطلحهم الآن في طور الدساتير المعمول بها .

ولم يلبث مروان ان وجه جيشاً الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ثم خرج يريد مصر، فلما سار الى فلسطين وجد ناتل بن قيس متغلباً على البلد فحاربه، فهرب ولحق بابن الزبير، وسار مروان الى مصر فصالحه اهلها . وأرسل عبيدالله بن زياد الى العراق لقتال الشيعة، ولما صار مروان الى الصنبرة من ارض الأردن منصرفاً من مصر بلغه ان حسان بن بحدل قد بايع عمرو بن سعيد بن العاص فاحضره فانكر و بايع لعبد الملك ثم بعده لعبدالعزيز ابن مروان ، وكانت ولاية مروان تسعه أشهر وقيل ثمانية وقيل ستة . و بايع أهل الشام بعده لابنه عبد الملك « وكان مروان اول من أخذ الخلافة بالسيف كرهاً على ما قيل بغير رضى من عصبة من الناس، بل كل خوّفه الا عدد يسير حملوه على وثوبه عليها ، وقد كان غيره ممن سلف أخذها بعدد وأعوان » . لا جرم ان مروان سيد بني عبد مناف في عصره كان من الرجال العظام وكان مولعاً بالشورى في امارته المدينة وكان يجمع في ولايته على المدينة اصحاب رسول الله يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه ، ومثل هذا الرجل بطول تجربته وحنكته وأخذه بالآراء السديدة بنجح ولا شك في عمله، فهو مفخر من مفاخر الأمويين وبنو أمية مدينة بالخلافة له .

* * *

خلافة عبدالملك ابن مروان

وكان عبدالملك بن مروان بعد مهلك ابيه بعيداً عن دمشق فأقبل مسرعا خوفاً من وثوب عمرو بن سعيد، وكان عمرو بن سعيد من أحب الناس الى أهل الشام وكانوا يسمعون له و يطيعون . واجتمع الناس على عبد الملك فقال لهم: اني أ [illegible] ان يكون في أنفسكم مني شيء فقام جماعة من شيعة مروان فقالوا : والله لتقومنّ الى المنبر او لنضربن عنقك ، فصعد المنبر وبايعوه .

وتفرغ عبد الملك لاستصفاء العراق من شيعة علي فاستخلصها منهم بعد ان قتل من الطرفين جمهور كبير وقتل أشراف أهل الشام وكان جيشهم ثلاثين الفاً . وذكر

اليعقوبي وأكد روايته غير واحد من المؤرخين : ان عبد الملك منع أهل الشام من الحج وذلك ان ابن الزبير كان يأخذهم اذا حجوا بالبيعة · ووجه وجوه الناس الى مسجد بيت المقدس فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سدنة وأخذ الناس بالطواف حولها كما تطوف حول الكعبة · قلنا وكذلك فعل بنو أمية في الاندلس في الغرب، فانهم منعوا الناس عن الحج مدة ملكهم أوائل عهد بني العباس مخافة ان يأخذهم العباسيون بالبيعة لهم ·

ومن الاحداث في أيام عبد الملك تجهيز يوحنا امير جبل لبنان اثني عشر الف فارس وذهابه الى البقاع ونزوله في قب الياس ، وغزوه الجبل الشرقي وشنه الغارات على الحجاج حتى ضاقت به الرعية وقطعت الطرق وخربت المسالك· وكان اميرلبنان مرتبطاً مع صاحب الروم بعهود فسارقائدجيوشهم لاون سنة٦٥ وضم اليه عساكرالجبل، وغزا بلاد العرب واسترد منهم ما كانوا أخذوه من بلادهم، فاضطرعبدالملك بن مروان الى تجديد الهدنة مع ملك الروم على ان يدفع كل يوم للروم الف دينار وفرساً ومملوكاً و يقاسمه على خراج قبرص وارمينية على شرط ان يخرج اللبنانيين من جبلهم ، فأجابه ملك الروم الى ذلك ولما قتل امير المردة أمروا عليهم سمعان · ولقب اللبنانيون بالمردة اي العصاة لكونهم عصوا امر يستنيان ملك الروم في عدم التعرض للعرب والشخوص الى بلاد المغرب ·

* * *

الجراجمة والمردة في جبل لبنان

ويؤخذ مما قاله ابن عساكر : ان طاغية الروم لما رأى ما صنع الله للمسلمين من منعه مدائن الساحل، كاتب انباط جبل لبنان واللكام فخرج الجراجمة وعسكروا بالجبل، ووجه ملك الروم قلقط البطريق في جماعة من الروم في البحر فسار بهم حتى أرسى بهم بوجه الحجر [1] وخرج بمن معه حتى علا بهم على جبل لبنان ، وبث قواده في أقصى الجبل حتى بلغ انطاكية وغيرها من الجبل الاسود، فأعظم ذلك المسلمون بالساحل حتى لم يكن احد يخرج في ناحية من رجال ولا غيرها الا بالسلاح ، فغلبت الجراجمة على الجبال كلها من لبنان وسنير

(١) قرية قرب حامات فوق البترون ·

وجبل الثلج وجبال الجولان ، فكانت بالسبل مسلحة لنا ، وفي الزقاد وعقربا الجولان مسلحة، حتى جعلوا ينادون عبد الملك بن مروان من جبل دير مران من الليل ، حتى بعث اليهم عبد الملك بالاموال ليكفوا حتى يفرغ اليهم، وكان مشغولاً بقتال أهل العراق ومصعب بن الزبير وغيره . قال : ثم كتب عبد الملك الى سحيم بن المهاجر في مدينة طرابلس وكان أميرها يتواعده ويأمره بالخروج اليهم فلم يزل سحيم ينتظر الفرصة منهم ويسأل عن أخبارهم وأمورهم حتى بلغه ان قلقط في جماعة من أصحابه ، وتهيأ بهيئة الروم في لباسه وهيئته وشعره وسلاحه متشبهاً ببطريق من بطارقة الروم قد بعثه ملك الروم الى جبل اللكام في جماعة من الروم فغلب على ما هنالك ، فلما دنا من القرية خلّف أصحابه فقال انتظروني الى مطلع كوكب الصبح فدخل على قلقط وأصحابه وهم في كنيسة يأكلون ويشربون، فمضى الى مقدم الكنيسة فصنع مايصنعه النصارى من الصلاة والقول عند دخولهم كنائسها، ثم جلس الى قلقط فقال له: من أنت فانتمى الى الرجل الذي يشبه به فصدقه ، وقال له : انما جئتك لما بلغني عن جهاد سحيم وما اجتمع عنده من العساكر للخروج اليك، فأتيت لأخبرك به واكفيك امره، اياك ان تتناول من طعامهم . ثم قال لقلقط واصحابه : انكم لم تأتوا هنا للطعام والشراب . ثم قال لقلقط: ابعث معي عشرة من هؤلاء من أهل النجدة والبأس حتى نحرسك الليلة ، فاني كثيب ان تأتيك بلية ، فبعث معه عشرة وأمرهم بطاعته ، فخرج بهم الى اقصى القرية وقام بهم على الطريق الذي يتخوفون ان يُدخل عليهم منه فاقام حارسا منهم وامر أصحابه فناموا، فأمر الحارس اذا هو اراد النوم ان يوقظ حارساً منهم وينام هو، فحرس الاول ثم أقام الثاني ثم قام سحيم ثم قال : انا أحرس فنم فلما ثقل نومهم قتلهم بذبابة سيفه رجلاً بعد رجل، فاضطرب التاسع فأصاب العاشر برجله فوثب الى سحيم فأخذه وصرعه الرومي وجلس على صدره وأخرج سحيم سكيناً ومقلها في نحره فقتله ، ثم اتى الكنيسة فقتل قلقط واصحابه رجلاً بعد رجل ، ثم خرج الى اصحابه العشرين فجاء بهم وأراهم قتله وقتل الحرس وقلقط ومن في الكنيسة ووضعوا سيوفهم فيمن بقي فنذر بهم من بقي منهم، وخرجوا هراباً حتى اتوا سفنهم بوجه الحجر فركبوها ، ولحقوا بارض الروم ورجع انباط جبل لبنان الى قراهم .

وذكر بعض المؤرخين : ان عمرو بن سعيد امتنع على الملك(٨٩) وخرج ايضاً قائد من قواد الضواحي في جبل اللكام واتبعه خلق كثير من الجراجمة والانباط وأباق عبيد المسلمين وغيرهم ثم سار الى لبنان ، فلما فرغ عبد الملك من عمرو أرسل الى هذا الخارج عليه فبذل له كل جمعة الف دينار فركن الى ذلك ولم يفسد في البلاد ، ثم قتل الخارج ومن أعانه من الروم وقتل نفر من الجراجمة والانباط ونادى المنادي بالامان فيمن بقي منهم فتفرقوا في قراهم وسد الخلل . وقال ابن القلاعي : ان الموارنة في دخول المسلمين الى الشام كانوا يسكنون جبل لبنان ، و يتولون الجبال والسواحل التي تجاورهم ، وبلادهم من حدود الشوف الى بلاد الدريب ، واميرهم يسكن قرية بسكنتا نزل الى البقاع في رجاله ونهبها وقتل كثيرين ولبث اياماً في قب اليـاس فلما انتهى خبره الى عبـد الملك بن مروان ارسل اليه هدية ولم يزل يمكر به حتى قتله وقتل كثيرين من عسكره ، واحرق القرى وابعد الموارنة من البقاع ، ولم تزل الحروب منذ ذلك الحين ثائرة بين المسلمين والموارنة الى نحو ثلاثين سنة ثم ابتنى الموارنة حصناً فوق نهر الكلب وجرت عنده موقعة هائلة .

قلنا: ان اللبنانيين لقبوا بالمردة اي العصاة لعصيانهم امر ملك الروم في عدم التعرض للعرب . والمردة هم المعروفون في كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جُرجومة كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي عند معدن الزاج فيما بين بيّاس وبوقة قرب انطاكية وقد صالح الجراجمة المسلمين على ان يكونوا اعواناً لهم وعيوناً ومسالح في جبل اللكام . ودخل معهم من كان معهم في مدينتهم من تاجر واجير وتابع من الانباط من اهل القرى ومن معهم في هذا الصلح فسموا الرواديف لانهم تلوهم وليسوا منهم ، وكانوا يستقيمون للولاة مرة و يعوجون اخرى ، فيكاتبون الروم يمالئونهم على المسلمين . وخرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير الى الشام مع قائد الروم فتفرقوا في نواحي الشام ولا سيما لبنان فاضطر عبد الملك الى ان صالحهم على الف دينار في كل جمعة .

وصالح الروم على مال يؤديه اليهم ، لشغله عن محاربتهم وتخوفه ان يخرجوا الى الشام فيغلبوا عليه ، واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالاً وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك وذلك في سنة ٧٠ و بعد ان

قتل قائد الروم نادى عبد الملك في سائر من ضوى اليه بالامان ، فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم باللكام ، واتى الانباط قراهم فرجع العبيد الى مواليهم . ولما كانت سنة ٨٩ اجتمع الجراجمة الى مدينتهم واتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرونة ورسين فوجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فاناخ عليهم في خلق فافتتحها، على ان ينزلوا بحيث احبوا من الشام، ويجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وهو مديان من قمح وقسطان من زيت ، وعلى ان لا يكرهوا ولا احد من اولادهم ونسائهم على ترك النصرانية، وعلى ان يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منهم ولا من اولادهم ونسائهم جزية، وعلى ان يغزوا مع المسلمين فينفلوا اسلاب من يقتلونه مبارزة، وعلى ان يؤخذ من تجاراتهم واموال موسريهم ما يؤخذ من اموال المسلمين ؛ فاخرب مدينتهم وانزلهم فاسكنهم جبل الحوّار وسنخ اللولون (؟) وعمق تيزين وصار بعضهم الى حمص ونزل بعضهم بطريق الجرجومة في جماعة معه من انطاكية ثم هرب الى بلاد الروم. قال ياقوت : واستعان المسلمون بالجراجمة في مواطن كثيرة في ايام بني أمية و بني العباس واجروا عليهم الجرايات وعرفوا منهم المناصحة .

وفي سنة ٧٣ قتل عبد الملك جيش ابن الزبير في مكة وقتل هذا بعد ان كانت خلافته تسع سنين والفتنة بينه وبين عبدالملك سبع سنين ، فبويع لعبد الملك بالحجاز واليمن وصفا له ملك مصر والشام والحجاز والعراق واليمن وغيرها . وغزا عبد الملك الروم غير مرة براً وبحراً وصالحهم مرة لاضطراب البلدان عليه وحمل اليهم اموالاً كثيرة حتى انصرفوا عن المصيصة على ان تكون الهدنة عشر سنين ويخرج الروم الذين كانوا في جبل لبنان من آخر ايام معاوية و يؤدي عبد الملك في كل يوم الف دينار ، فرساً وغلاماً وتكون قبرص مشتركة بين الروم والعرب .

وفي سنة ٧٥ وصل مور يق ومور يقان الى بلاد الشام وحملا بجيوشهما على دير القديس مارون في جهات حماة وقتلا منه خمسمائة راهب وهدما بنيانه ، ثم تحولا من هناك الى قنسرين والعواصم فقتلا الاهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيا عن احد من اتباع

بطريرك الموارنة ثم انتهى جيشهما الى طرابلس فخضع لم اهل الكورة، ثم قوي الجبليون على عسكر الروم ثم قتلوا اكثرهم وانهزم الباقون ·

* * *

عهد الوليد

وتوفي عبد الملك في سنة ٨٦ بعد ان ولي الخلافة منذ قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة واربعة اشهر ، وكان من الحزم وسعة الصدر وجمال العلم والادب على جانب عظيم جداً، وكان يعد من فقهاء المدينة وهو اول من حولت الدواوين في ايامه الى العربية ، وفي عهده نقشت الدنانير والدراهم بالعربية (٧٦) وكان قبل ذلك نقش الدنانير بالرومية ونقش الدراهم بالفارسية ، وهو اول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء وكان الناس قبل ذلك يراجعون ويعترضون عليهم · وبويع للوليد بن عبد الملك ووقعت في ايامه فتوحات كثيرة وارتاح الناس · وكانت ايامه من ابرك ايام بني أمية عمر الجوامع العظام وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد والزيادة فيها، وتسهيل الطرق، وبث في الامة روح العمران فكان الناس اذا التقوا في زمانه يسأل بعضهم بعضاً عن الابنية والعمارات في كل مكان، وكان اول من عمل اعمالاً جسيمة ابتدعها في الصدقات والقربات ، هذا مع ان الخراج انكسر في ايامه فلم يحمل كثير شيء من العراق وغيره فاضطر الى احصاء اهل الديوان والقى منهم بشراً كثيراً بلغت عدتهم عشرين الفاً، واجرى الوليد على زمنى اهل الشام كالمجذّمين والعميان وكساهم وامر لكل انسان منهم بخادم، واخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشرة ، ثم زاد اهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لاهل الشام خاصة ، وزاد من وفد اليه من اهل بيته في جوائزهم الضعف، وكان وهو وليّ عهد يطعم من وفد اليه من اهل الصائفة قافلاً ، ويطعم من صدر عن الحج بمنزل زيزاء في البلقاء ثلاثة ايام ويعلف دوابهم ، ولم يقل في شيء يُسأله : لا · فقيل له : ان في قولك أنظر عِدَةً ما يقيم عليها الطالب فقال : لا اعوّد لساني شيئاً لم اعتده وقال :

ضمنت لكم ان لم تعقني عوائق بان سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاق معاً وزيادة واعطية مني عليكم تبرّع

محرّمكم ديوانكم وعطاؤكم به يكتب الكتاب شهراً وتطبع

وقد بلغ بنو أمية في عهد الوليد اقصى درجات عزهم واعتز بحكمه الاسلام والمسلمون، فتحت البلاد وتغلغلت جيوشه في بلاد الترك والروم والهند، وفتحت الاندلس وجاء فاتحها موسى بن نصير الى دمشق يضع بين يدي الخليفة الاموال والجواهر، و يعرض ابناء ملوك البربر والجزائر والروم والاسبان والافرنج يلبسون تيجانهم، و يقف ابناء ملوك اوربا في باب الخليفة الاموي بحالة الأسر.

وبعث الوليد اخاه مسلمة لغزو الروم فقتل منهم اربعين الف رجل وغزا قلقية وفتح فيها حصوناً كثيرة بالامان. وحمل اهلها الى الشام وفتح امسية وحصوناً كثيرة. وكان قد همّ بالاقامة في القدس.

***

سليمان بن عبد الملك

وتوفي الوليد سنة ٩٦ فبويع اخوه سليمان بن عبد الملك سابعهم وكان حسن السيرة فصيحاً مفوّهاً اتته بيعة الاجناد وهو بمشارق البلقاء فاتى القدس واتته الوفود بالبيعة، فلم ير الناس وفادة احسن منها، جلس في قبة صحن المسجد وقد بسطت البسط لديه والنمارق عليها والكراسي، فيجلس و يأذن للناس فيجلس الناس على الكراسي والوسائد، والى جانبه الاموال والكساوي وآنية الذهب والفضة والدواوين، فيدخل وفد الجند و يتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعمن قدموا من عنده و يقول: ان من حال جندنا كذا ومن حاجتهم كذا وكذا ومما يصلحهم كذا فيأمر سليمان بذلك كله ثم يقبل على حاجته فان سأله زيادة في عطائه وبلاغ في شرف، امر الكتاب فما يطلب احد شيئاً الا نوّله مرامه (الصفدي).

رد المظالم وعزل عمال الحجاج واخرج من كان في سجن العراق، واعتق سبعين الف مملوك ومملوكة وكساهم، وكانت ايامه ذات فتوح متوالية، جاء الخبر من الروم الى سليمان بن عبد الملك ان الروم خرجت على ساحل حمص فسبت امرأة وجماعة فغضب سليمان وقال: والله لاغزونهم غزوة افتتح بها القسطنطينية اواموت دون ذلك، فاغزى جماعة اهل الشام والجزيرة والموصل في البر في نحو مائة وعشرين الفاً، واغزى أهل مصر وأفريقية في البحر في الف مركب وعلى جماعة الناس مسلمة بن عبد الملك، واغزى داود

ابن سليمان في جماعة من أهل بيته وقدم سليمان من القدس إلى دمشق ومضى حتى نزل مرج دابق فامضى البعث وأقام بالمرج · واتخذ ابن عمه عمر بن عبدالعزيز وزيراً وأوصى له سليمان بالخلافة فسمي سليمان مفتاح الخير لاستخلافه عمر بن عبد العزيز ·

* * *

عهد عمر بن عبدالعزيز وسيرته

لما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز اوائل سنة تسع وتسعين أبطل سب علي رضي الله عنه على المنابر ، وكان من العادة سبه عقيب كل خطبة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي قدم الخطبة على صلاة الجمعة لان الناس كانوا يكرهون سماع اللعن ، فكانوا اذا أدوا الصلاة خرجوا من المسجد · أراد معاوية من ذلك كما قال ابن ابي الحديد : « تشييد الملك وتأكيد ما فعله الاسلاف ، وان يقرر في انفس الناس ان بني هاشم لا حظ لهم في هذا الامر ، وان سيدهم الذي به يصولون ، وبفخره يفخرون ، هذا حاله وهذا مقداره فيكون مَن ينتمي اليه و يدلي به عن الامر أبعد ، وعن الوصول اليه أشحط وانزح » · على ان الطالبيين كانوا يقنتون عقيب كل صلاة و يلعنون ايضاً بني أمية ·

وكتب ابن عبدالعزيز الى نوابه بابطال السب وكانوا يقولون: لعن الله ابا تراب · ولما خطب يوم الجمعة أبدل السب في الخطبة بقوله تعالى : « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤف رحيم » · وقيل بل جعل مكان ذلك قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان و إيتاء ذي القربى ، و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » · فاستمر الخطباء على قراءتها الى هذا اليوم وشكر سعيه كل عاقل · وردّ عمر بن عبد العزيز المظالم وسار سيرة عمر بن الخطاب جده لأمه ، واستعمل اصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته ، واستدعى الجيش الاسلامي من حصار القسطنطينية ساعة ولي الخلافة حقناً لدماء المسلمين ، وكان قد بلغ منهم الجهد ، ولم يغفل مع ذلك عن غزو الروم عند الاقتضاء الشديد · ولو طال أجله لاجلى المسلمين عن الاندلس لانه رأى مقامهم فيها غير طبيعي لاحاطة الاعداء بهم ·

والفضل في العهد لعمر بن عبد العزيز يرجع الى سليمان بن عبد الملك الذي عرف بحكمته ان ابن عبد العزيز اعدل رجل واعقل رجل في بني أمية ، فعهد اليه بالخلافة فأحسن للامة واي احسان، وحنق عليه بعض المتلاعبين من اهل بيته فسقوه السم فيما قيل فهلك سنة ١٠١ وخلافته سنتان وخمسة اشهر .

وكانت سيرة عمر بن عبد العزيز مضرب الامثال في القاصية والدانية وقدوة السلف للخلف في كل عصر ومصر . قال عمرو بن ميمون : كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة . بعث عمر بن عبد العزيز وفداً الى ملك الروم في امر من مصالح المسلمين وحق يدعوه اليه ، فلما دخلوا اذا ترجمان يفسر عليه ، وهو جالس على سرير ملكه والتاج على رأسه، والبطارقة عن يمينه وشماله ، والناس على مراتبهم بين يديه ، فأدى اليه ما قصدوا له فتلقاهم بجميل واجابهم باحسن جواب وانصرفوا عنه في ذلك اليوم ، فلما كان في غداة غدٍ اتاهم رسوله فدخلوا عليه فاذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة فقال : هل تدرون لما ذا دعوتكم ؟ قالوا لا : قال ان صاحب مسلحتي التي تلي العرب جاءني كتابه في هذا الوقت ان ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا انفسهم ان بكوا فقال : لاتبكوا له ا[illegible] لانفسكم ما بدا لكم. فانه قدخرج الى خير مما خاف . قد كان يخاف ان يدع [illegible] [illegible] يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا والآخرة . لقد بلغني من بره وفضله وصدقته [illegible] لو كان احد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت انه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني اخباره باطناً وظاهراً فلا اجد امره مع ربه الا واحداً ، بل باطنه اشد حين خلوته بطاعة مولاه . ولم اعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعة ، ولكني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب: ان اهل الخير لايبقون مع اهل الشر الا قليلا .

***

يزيد بن عبد الملك وهشام والوليد بن يزيد } تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك تاسع الامويين ، وقد أعقب الوليد وسليمان و يزيد وهشام ابناء عبد الملك بالاكبش الاربعة ، ولم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم اربعة اخوة

الا هؤلاء . فعزل يزيد عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً واعاد سب علي على المنابر، ودام ذلك الى انقضاء امر بني مروان ، يربو عليها الصغير و يهرم الكبير، ولم يكن يزيد بن الوليد بالخليفة الذي تحمد سيرته كثيراً، وتوفي بعدان تولى الخلافة اربع سنين وشهراً وعهد بها الى اخيه هشام وهو عاشرهم، كان هشام يحب جمع المال وعمارة الارض واصطناع الرجال وتقوية الثغور واقامة البرك والقني في طريق مكة وغير ذلك. وكان لا يدخل بيت ماله مال حتى يشهد اربعون قسامة لقد اخذ من حقه واعطي لكل ذي حق حقه. وظهر في ايامه بخراسان سليمان بن كثير الخزاعي واصحابه يدعون الى بني هاشم سنة ١١١ فكثرت دعوتهم وكثر من يجيبهم وارادوا خلع بني أمية وبيعة بني هاشم ، فقاتلهم وقاتل الخوارج على ملكه في اقطار أخرى ، وكان قد بلغ ملك بني أمية بلاد فارس والسند وشمالي افريقية والاندلس . وكان هشام من احزم بني أمية غزا الروم مرات واسر قسطنطين ملكهم وحارب الترك كما حاربهم من قبله من الخلفاء وتوفي سنة ١٢٥ فبويع بعده للوليد بن يزيد فاضطربت البلاد في عهده لانه كان مهملاً قليل العناية باطرافه وقيل انه كان صاحب ملاهٍ « وضم ذلك الى ما ارتكبه من اغضاب اكابر اهله والاساءة اليهم وتنفيرهم فاجتمعوا عليه مع اعيان رعيته وهجموا عليه وقتلوه » . فقتل بعد سنة وخمسة اشهر من ولايته سنة ١٢١ « وكانت تنابعت منه فعال انكرها الناس عليه فدب يزيد بن الوليد في الدعاء الى خلعه فأجابته اليمن بأمرها وعاضدوه ووثبوا معه على عامل الوليد بدمشق فاجابوه وبايعوا يزيد ثم ساروا الى الوليد فقتلوه » .

وكان اجتمع من باقطار الشام من اليمانية فخرج اليهم الوليد بمضر واقتتلوا ، واثخنت اليمانية القتل في مضر فانهزمت مضر واخذوا نحو دمشق ، ودخل الوليد قصره فتحصن فيه فبايعوا يزيد بن الوليد وبايعه اشراف المضر بين طوعاً وكرهاً وخلعوا الوليد بن يزيد فلبث مخلوعاً اياماً كثيرة وهو خليع بني أمية ثم قتلوه .

وفي سنة ١٢٦ اضطرب امر بني امية وهاجت الفتنة فكان من ذلك وثوب سليمان ابن هشام بن عبد الملك بعد قتل الوليد بعمان ، وكان قد حبسه الوليد بها ، فخرج من الحبس واخذ ما كان بها من الاموال واقبل الى دمشق . وفي هذه السنة امّر الوليد بن يزيد على جيوش البحر، الاسود بن بلال المحاذي وسيره الى قبرص ليخير اهلها بين

المسير الى الشام او الى الروم، فاختارت طائفة جوار المسلمين فسيرهم الى الشام، واختار آخرون الروم فسيرهم اليهم واسكنهم الماحور على ساحل البحر بين صور وصيدا ٠

* * *

يزيد بن الوليد

وكان من امر يزيد بن الوليد وهو ثاني عشر خلفائهم ان نقص الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص ، فاضطربت عليه البلدان وربما كان ذلك من العوامل الكبيرة في قتله ، ولما قتل الوليد خرج اهل حمص واغلقوا ابواب المدينة واقاموا النوائح والبواكي عليه وطلبوا بدمه ، وقتلوا مروان ابن عبدالله بن عبد الملك وكان عامل الوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلاً وكرماً وعقلاً وجمالاً ، ولما اجمع الحمصيون على محاربة يزيد بدمشق جهز جيشاً قاتلهم قريباً من ثنية العقاب فانهزم الحمصيون واستولى على المدينة واخذ البيعة عليهم٠ قال الدينوري معللاً سر قيام الحمصيين: ان المضرية تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها، وقتلهم اشاية الوليد بن يزيد فدبّ بعضهم الى بعض، واجتمعوا من اقطار الارض، وساروا حتى وافوا مدينة حمص وبها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وكان يومئذ شيخ بني أمية وكبيرهم وكان ذا ادب كامل ، ورأي فاضل ، فاستخرجوه من داره وبايعوه وقالوا له : انت شيخ قومك وسيدهم فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد فاستعد مروان بجنوده في تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق ٠

ولما بويع يزيد بن الوليد خطب وذكر الوليد بن يزيد فقال على رواية ابن الطقطقي ان سيرته كانت خبيثة وكان منتهكاً لحرمات الله فقتلته ثم قال : ايها الناس ان لكم عليّ ان لا اضع حجراً فوق حجر ، ولا لبنة (على لبنة) ، ولا اكري نهراً ، ولا اكنز مالاً ، ولا انقل مالاً من بلد الى بلد حتى اسد ثغره ، وخصاصة اهله بما يغنيهم، فما فضل منه نقلته الى البلد الآخر الذي يليه ، ولا اغلق بابي دونكم ، ولكم أعطياتكم في كل سنة ، وارزاقكم كل شهر ، حتى يكون اقصاكم كادناكم ، فان وفيت لكم ما قلت فعليكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وان لم اف فلكم ان تخلعوني ، الا ان اتوب ، وان كنتم تعلمون ان احداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ما قد بذلت لكم ، واردتم ان تبايعوه ، فانا اول من يبايعه معكم، انه لا طاعة لمخلوق ، في معصية الخالق٠

وخرج على يزيد بن الوليد بشر بن الوليد بقنسرين وعمر بن الوليد بالأردن و يزيد بن سليمان بفلسطين، ووجه الى الأردن اخاه ابراهيم ولي عهده وقد امروا عليهم محمد بن عبد الملك فاستمال الثائرين بالمال فتفرقوا، وكانت ولايته خمسة اشهر والفتنة في جميع المملكة عامة، وقتل اهل حمص عاملهم عبد الله بن شجرة الكندي وكانوا انتخبوه والياً على جندهم، ولما توفي يزيد ابن الوليد ملك ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك فامتنع اهل حمص من البيعة فجاءهم الجند من دمشق وحاصرهم ٠

***

مروان بن محمد

وقدم مروان بن محمد بن مروان من ارمينية خالعاً ليزيد ابن الوليد فلما صار بحران دعا الى نفسه فبايع له اهل الجزيرة مسراً واقبل في جموع من اهل الجزيرة، فلقي بشراً ومسروراً ابني الوليد بن عبد الملك معسكرين بحلب فهزم عسكريهما واسرهما ، ثم مضى حتى اتى حمص وبلغ ابراهيم الخبر فوجه اليه سليمان بن هشام ، وكان سليمان في مائة وعشرين الفاً ، فلقي مروان وكان في ثمانين الفاً ومن معه من اهل الجزيرة وقنسرين وحمص فالتقوا بعين الجر من عمل دمشق فتناوشوا القتال (١٢٧) وانصرف بعضهم عن بعض فلما كان من الغد انهزم سليمان بن هشام واصحابه فلحقوا بابراهيم واقبل مروان حتى نزل في دير العالية فبايع له اهل دمشق ودخلها فخلع ابراهيم نفسه و بايع لمروان ٠ وقد قتل في وقائع عين جر وما تقدمها وتأخر عنها ثمانية عشر الف مقاتل ٠ وروى الطبري انه لما قيل قد دخلت خيل مروان دمشق هرب ابراهيم بن الوليد وتغيب ، فانهب سليمان ما كان في بيت المال وقسمه فيمن معه من الجند، وخرج من المدينة ، وثار من فيها من موالي الوليد بن يزيد الى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية ، ودخل مروان دمشق فنزل عالية ٠

ولما ملك مروان بن محمد كتب الى عمال البلدان فأتته كتبهم بالسمع والطاعة، ولم يلبث الا ثلاثة اشهر حتى اتاه الخبر ان اهل حمص مقيمون على المعصية ، فسار اليهم فحاصرهم حتى فتح المدينة وقاتل الثائرين وقتل خمسمائة او ستمائة فصلبوا حول مدينة حمص، وهدم من حائطها نحواً من غلوة٠ وثار اهل الغوطة الى دمشق فحاصروا اميرها

زامل بن عمرو فقاتلهم جيش مروان وخرج ثابت بن نعيم الجذامي بناحية الأردن فوجه اليه جيشاً · وكان مروان عند دخوله دمشق ترك لاهل كل جند من أجناد الشام ان يختاروا عمالهم فوقع اختيارهم على هؤلاء العمال الذين ثاروا بهم بعد على مروان ، وممن ثار سليمان بن هشام في اهل حمص وقنسرين وقصد حمص فحصنها فبايعه اصحابه بالخلافة وخرجوا قاصدين مروان وكمنوا له في طريقه في قرية تعرف بتل مير من عمل معرة النعمان فالتقى العسكران وقتل منها خلق كثير فانهزم سليمان الى حمص ، فجاء مروان اليها وحاصرها ثانية عشرة اشهر ثم صالحها وتسلمها ، وكان سليمان ابن هشام في سبعين الفاً وقتل زهاء ثلاثين الفاً ·

***

ادبار الأمويين

وما زالت الحال على ذلك حتى استقامت لمروان الشام كلها ثم قوي امر ابي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية بخراسان واظهر الدعوة علناً لبني هاشم وقتل ابومسلم عسكر الأمويين، ولما بايعوا بالخلافة في الكوفة لابي العباس سراً وجه عمه عبدالله بن علي لقتال مروان ، وكان مع مروان مئة الف مقاتل ولا يكون مع عبد الله بن علي الا الاقل من ذلك ، فلقيه بالزاب من قرب الموصل فخار به عبد الله بن علي فهزمه ثم لم يزل في اثره وهو منهزم لايلوي على شيء حتى اخرجه الى الجزيرة ثم اخرجه من الجزيرة الى الشام، فجعل مروان لايمر بجند من اجناد الشام الا انتهبوه، فلما اجتاز بقنسرين والحاضر حاضر حلب اوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته ووثب اهل حمص وقالوا : مرعوب منهزم فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه على اميال فناشدهم فابوا الا مكاثرته وقتاله ، فنشب القتال واثار كمينين من خلفهم وكان قد نصبهما فهزمهم وقتلتهم خيله ·

وسار مروان الى دمشق فوثب به الحرث بن عبدالرحمن الحرشي، ثم اتى الأردن فوثب به هاشم بن عمر العنسي والمذحجيون اي اليمانيون جميعاً، ثم مرَّ بفلسطين فوثب به الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع لما رأوا من ادبار الامر عنه · قال الدينوري : جعل مروان يستقري مدن الشام فيستنهضهم فيروغون عنه ويهابون الحرب فلم يسر معه منهم الا قليل · قالوا : ولما صار مروان الى دمشق وهو مضمر ان يتحصن بها لو لا ما

انتهبه اهلها ووثب عليه من بها من قيس فدخلها عبدالله بن علي العباسي عنوةً ، ومضى مروان الى فلسطين هارباً حتى جاء مصر فقاتل مروان في قرية بوصير في الصعيد حتى قتل وذلك في ذي الحجة ١٣٢ ، وبموته انقرض ملك بني أمية في المشرق وهو الرابع عشر من خلفائهم . وكان من رأيه ان يقطع الدرب وينزل بعض حصون الروم ويكاتب ملكها ويجمع عليه رجاله وشيعته من البلاد الى ان يرتئي في امره ، ولكن حُمّ القضاء ولا رادّ لحكمه .

***

دولة بني مروان وحسناتها — انقضت دولة بني مروان وكانت دولة عربية صرفة سارت مع المدنية اشواطاً مع اشتغالها بالفتح وقيام الخارجين عليها ولم يبطلوا في كل دور غزو الروم في بلادهم ، وكانوا على الاكثر يسبون ويقتلون ويغنمون ويخربون حصونها ، وكان الروم يغزون الشام وآسيا الصغرى وقد يصلون الى انطاكية ودلوك (مرعش) . وكان اكثر ملوك الامويين من الحزم والعلم وحسن السياسة والادارة على جانب عظيم ، والسواس منهم معاوية وعبد الملك وهشام ، وليس كالوليد في باب الاضطلاع بما يعمر البلاد ، ولا مثل عمر بن عبدالعزيز في تطهير المملكة من المظالم واحياء سنن العدل والمراحم ، ولا كسليمان بعد النظر ، وما منهم الا العالم والشاعر والخطيب والسياسي ، وقد فتحت عليهم الاقطار فنشروا فيها اللغة والدين على ايسر سبيل ، وهذا مما لم يوفق الي مثله غيرهم ووضعوا اسس النظام في الممالك التي دوخوها وعرفوا ما يصلحها ، وكانت ادارتهم اشبه باللامركزية في عهدنا يبعثون بالعامل فيحل المسائل باجتهاده على رأي اهل الشرف والمكانة في القطر الذي يتولاه ، ولا يفاوض مقر الخلافة الا في عويص الامور ، وقد نصب علم الامويين الابيض في المشارق والمغارب ، نصب في بكين عاصمة الصين كما نصب في بواتيه من جنوبي فرنسا ، هذا وقد كثر المخلصون لدولتهم الى اواخر ايامهم وقل المنتقضون عليهم المتوثبون على خلافتهم .

للدول كما للافراد اعمار طبيعية . وملك بني أمية لم يطل اكثر من الف شهر كاملة لانهم ملكوا تسعين سنة واحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً يوضع من

ذلك ايام الحسن بن علي وهي خمسة اشهر وعشرة ايام ، وايام عبد الله الزبير الى الوقت الذي قتل فيه وهي سبع سنين وعشرة اشهر وثلاثة ايام فيصير الباقي بعدذلك ثلاثاً وثمانين سنة واربعة اشهر ·

ذهب بنو أمية بالفضل في جمع الشمل ، ولولا قيامهم هذا القيام المحدود الممزوج بالانتباه لكل ما يعلي شأن دولتهم ، لانتثر هذا العقد اكثر مما انتثر ، ولما ثبتت الدولة الاسلامية هذا الثبات الذي استغرب منه الخُبر والخبر · قال المقريزي : اظهر الرسول بني أمية لجميع الناس بتوليتهم اعماله مما فتح الله عليه من البلاد ، فقوي ظنهم وانبسط رجاؤهم وامتد في الولاية املهم ، وضعف امل بني هاشم وانقبض رجاؤهم وقصر املهم · قال : وقد ظهر لي ان ولاية رسول الله بني أمية الاعمال كانت اشارة منه الى ان الامر سيصير اليهم ·

وطد مؤسس ملك الأموين السلطان بالدهاء وبجند من اهله قاتل هو واخلافه، وقد اشتهر جند الشام بالطاعة حتى ان علي بن ابي طالب تمنى لو يقايض على عشرة من جنده بواحد من جند معاوية ، فقال في احدى خطبه : « لوددت والله ان معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ مني عشرة منكم واعطاني رجلاً منهم » · فتحت هذه الفتوح بنفس قوية وعقول راجحة وسياسة حازمة وقائل ، زعماؤهم وابناؤهم بل بناتهم ونساؤهم حتى نحوا الشام · وكان من جملة توفيق معاوية انه عرف طبائع هذا القطر وخصائصه من ابيه وآله وكانت لهم به علائق كثيرة في الجاهلية ، ثم درس احواله بنفسه فكان يعرف قوته معرفة حقيقية ، ولذلك لم ينل منه علي بن ابي طالب منالاً لانه كان اخذ لهذا الامر عدته وتدبره ودبره · اخذ بآراء اشراف القوم والنزول على حكم وفود البلاد وكانت وفودهم تشبه ما يسميه الافرنج بمجالس الولايات (Les états-Généraux) ، وكان لمعاوية وآل بيته مجالس يعقدونها في المسجد الجامع تدور حول سياسة الامة في الاكثر ، وخطاب الخليفة يوم الجمعة بمثابة ما نسميه في عرف سياسة اليوم خطاب العرش ، ومجالسهم اشبه بمجالس النواب والشيوخ والولايات ، فلم يكونوا الى الاستبداد بالرأي في معظم حالاتهم ·

وفي الحق ان معاوية بن ابي سفيان اورث الاسلام مجداً ، واولى العرب عزّة

ومنعة ، وكان العربي حيث نزل من الارض محترماً ، مرعي الجانب آمناً على نفسه وحقه ، ولم يوفق الى ذلك الا بحسن السياسة وصائب التدبير . ذكر المسعودي ، وهو من المنحرفين عن بني أمية ، ان المسلمين غزوا في أيام معاوية فأسر جماعة منهم ، فأوقفوا بين يدي الملك فتكلم بعض أسارى المسلمين ، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حرّ وجهه فآلمه ، وكان رجلاً من قريش فصاح : وا إسلاماه ، اين انت عنا يا معاوية اذ أهملتنا ، وضيعت ثغورنا ، وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا واعراضنا . فنمي الخبر الى معاوية وغضب وأقام الفداء بين المسلمين والروم وفادى بذلك الرجل ، فلما صار الى دار الاسلام دعاه فبرّه واحسن اليه . وبعث الى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور وكان به عارفاً كثير الغزوات في البحر ، صمل [1] من الرجال مرطان بالرومية ، واعطاه كل ما طلب ، وهيأ له مركباً واوعز اليه ان يتظاهر بانه يتاجر مع روم القسطنطينية وما زال على ذلك سنين حتى أسر الصوري البطريق الرومي الذي كان لطم القرشي واتى به الى معاوية في قصة طويلة . فقال معاوية : عليّ بالرجل القرشي فأتى به وقد حضر خواص المسلمين وقال له : قم واقتص من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط معظم الروم فانا لم نضيعك ولا ابحنا دمك وعرضك ، فقام القرشي ودنا من البطريق فقال له معاوية : انظر لا تتعدّ ما جرى عليك منه . وانقلب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها وقال : ما أضاعك من سوّدك ، ولا خاب فيك امل من امّلك ، انت ملك لا تستضام ، تمنع حماك ، وتصون رعيتك . واحسن معاوية الى البطريق وحمل معه هدايا الى الملك وقال له : ارجع الى ملكك وقل له : تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك ، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك ، فقال ملك الروم : هذا امكر الملوك وادهى العرب . ولهذا قدمته العرب عليها فساس امورها والله لو همّ باخذي لتمت له الحيلة عليّ .

* * *

(١) الصُّمُل كعُتُل الرجل الشديد الخلق العظيم . والرطانة (بالفتح ويكسر) الكلام بالعجمية ورطن له رطانة وراطنه كلمه بها وتراطنوا تكلموا بها والمرطان الذي يتكلم بالعجمية .

قواد الأمويين

نشأ للأمويين رجال عظام في الحروب والسياسة والحكم ، مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة بن مسلم وعقبة بن نافع الفهري وبُسْر بن ابي ارطاة وشرحبيل بن السمط وحبيب بن مسلمة ومسلمة بن عبد الملك واسد بن عبد الله وعبد الرحمن بن ام الحكم الثقفي ومروان بن محمد ومالك بن عبد الله الذي كان اميراً على الجيوش في غزوة الروم اربعين سنة ايام معاوية وقبلها وايام يزيد وايام عبد الملك بن مروان ولما مات كسر على قبره اربعون لواء لكل سنة غزاها لواء . وروح بن زنباع الذي قال فيه عبد الملك انه جمع طاعة اهل الشام ودهاء اهل العراق وفقه اهل الحجاز ، ومنهم زفر بن الحرث الكلابي والجراح بن عبد الله الحكمي وحُبَيْش بن دلجة القيني وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي وميمون بن مهران وخالد بن عبد الله بن خالد بن اسيد وعمر بن عبيد الله بن معمر وخالد بن عبد الله القسري وعثمان بن الوليد و يزيد بن المهلب والمهلب بن ابي صفرة وعمرو بن هبيرة الفزاري وعبد الله بن ابي بكرة والقاسم بن محمد الثقفي والعباس ابن الوليد ومروان بن الوليد وخالد بن كيسان وعبد الله بن عقبة بن نافع ومعاوية بن هشام وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج واسحق بن مسلم العُقَيلي ونصر بن سيار وعبد الله بن سعد بن ابي سرح ومعاوية بن حُدَيج واسحق بن مسلم العقيلي ونصر بن سيار وعبد الله بن سعد بن ابي سرح ومعاوية بن حُدَيج وعبدالرحمن بن حبيب وزهير ابن قيس البهلوي وحسان بن النعمان وميسرة بن مسروق العبسي وعبد الله بن قيس ومالك بن هبيرة السكوني وفضالة بن عبيد الانصاري وسفيان بن عوف وعبدالله ابن مسعدة الفزاري وجنادة بن أمية الازدي ومحمد بن مالك وعمرو بن مرة الجهني وعلقمة بن يزيد الانصاري والضحاك بن قيس ويزيد بن شجرة وعياض بن الحرث والمخارق بن الحرث الزُّبَيْدي وزمل بن عمر العذري وابو الاعور السلمي عمرو بن سفيان وسبيع بن يزيد الانصاري وعتبة بن ابي سفيان و يزيد ابن الحر العبسي وعلقمة بن حكيم الكناني و يوسف بن عمر ومحمد بن القاسم الثقفي ومالك بن عبد الله الخثعمي وحمزة بن مالك الهمداني وغيرهم .

دوّخ هؤلاء القواد العظام البلاد بجيوش قليلة على بعد المواصلات مع مركز الخلافة وفتحوا الامصار والاقطار بهمة لم تعرف الملل ، وادخلوا فيها نظامهم وعاداتهم

وتقاليدهم، وأداروها ادارة حسنة في الجملة، فامتد ملك الأمويين كما قال احد كتاب الافرنج من اقاصي جبال حملايا في الشرق الى اداني جبال الالب في الغرب ، ثم انحلت هذه المملكة المساوية تقريباً لمملكة قياصرة رومية على وجه غريب من السرعة . وكان مروان بن محمد الجعدي الذي لقب بالحمار لصبره على الحروب من امثل خلفائهم وكان « سديد الرأي ميمون النقيبة حازماً فلما ظهرت المسوّدة ولقيهم كان ما يدبر امراً الا كان فيه خلل » . فما السر يا ترى في انحلال هذا الملك الضخم والقوة تدعمه، وفيه افراد افذاذ مثلوا النبوغ العربي اجمل تمثيل لا تستطيع دولة من دول الحضارة الحديثة ان تقوم باحسن منه مع اعتبار الفرق بين عصر الدولة الأموية وهذا العصر ؟ .

ونظن ان السر في ذلك ان بني العباس كانوا قد اجمعوا امرهم وهيأوا اسباب قيام دولتهم على صورة متينة جداً، وكان منشأوها من خراسان والعراق وهما القطران اللذان افحش القتل فيهما الحجاج بن يوسف الثقفي حتى قتل من اهل العراق مئة وعشرين الفاً مدة حكمه ، واشمأز الناس من بني أمية بسببه وسبب من يستسهلون من قوادهم اهراق الدماء فكثرت الاحقاد والحفائظ ونغلت نيات الامة واختلف الأمويون بينهم واصبحوا في هرج يقتل بعضهم بعضاً .

وقد نسب الخضري اسباب سقوط دولة بني أمية الى استيلائهم على الخلافة بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة ، فان معاوية بن ابي سفيان استعان باهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من اهل العراق والحجاز حتى تم له الامر ورضي الناس عنه ، والقلوب منطوية على ما فيها من كراهية ولايته ، وكان في الامة فريقان لا يرضيان عنه : الخوارج وشيعة بني هاشم ، واستعمل ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة فألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم . ومن رأيه ان معاوية زل زلة كبرى قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالغض من علي بن ابي طالب على منابر الامصار هو وامراؤه حتى تأججت النيران في صدور شيعته وان عدة عيوب كانت سبباً في القضاء عليهم . الاول : مسألة ولاية العهد ، فان بني مروان اعتادوا ان يولوا عهدهم اثنين يلي احدهما الآخر فانشق بيتهم على نفسه . الثاني : احياء العصبية الجاهلية التي جاء الاسلام مشدداً النعيّ عليها . الثالث : تحكيم بعض الخلفاء من بني

أمية اهواءهم في امر قوادهم وذوي الاثر الصالح من شجعان دولتهم ، ففسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية ·

سُئل بعض شيوخ بني أمية عقيب زوال الملك عنهم ، ما كان سبب زوال ملككم ؟ فقال: جار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخربت بيوت اموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وامضوا اموراً دوننا اخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا ، وطلبنا اعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة انصارنا ، وكان استتار الاخبار عنا من اوكد اسباب زوال ملكنا ·

قد يغتر بعض من لم يساعدهم الوقت ان يمحصوا الحقائق ليصلوا الى لباب التاريخ الصحيح فيأخذون روايات بعض المؤرخين الذين كتبوا بعوامل المذاهب السياسية او نقلوا الاخبار على علاتها كما رأوها في مصادر ضعيفة واخذوها قضية مسلمة ، من ذلك الطعن في اخلاق يزيد بن معاوية فان الروايات المنقولة في هذا الشأن لو نُقدت نقداً صحيحاً لرأينا انها مدخولة على الاكثر املتها اهواء الخصماء ، ولطالما رأينا الناس اذا ارادوا النيل من احد العظماء يتخدعون باقوال يلفقها عليهم خصومهم ، وربما نسبوا لبعضهم الفسق والفجور واكل اموال الناس بالباطل وهم من اكمل الناس اخلاقاً وفضلاً · اذا سلمنا ان معاوية اخطأ بحسب ما يقوله الفريق المعتدل بتوسيده الخلافة الى يزيد وفي العرب يومئذٍ من هم افضل منه فانه كان يعتقد ان ابنه يصلح للخلافة وان قوة الامة مجتمعة على آل ابي سفيان · والدليل انه كان اذا عرض لمعاوية مشكل من المشكلات بعث الى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها واستسهال معضلاتها ، فلم يكن يزيد اذاً بالصورة التي صورها بها اعداؤه · خطب معاوية فقال : « اللهم ان كنت انما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ، وان كنت انما حملني حب الوالد لولده وانه ليس لما صنعت به اهلاً فاقبضه قبل ان يبلغ ذلك » ·

قال الطبري : وهو المؤرخ الذي لم تشب رواياته شائبة ، ان يزيد كان صاحب رَسلة اي كسل وتهاون وانه كف عن كثير مما كان يصنع ايام وسدت اليه الخلافة · وقال غيره : ان يزيداً كان يحب الصيد و يربي القرود والكلاب مما عدوه عليه · وهذا

لا يقدح في العدالة بل ربما كان مما يعين على الجهاد لترويضه الجسم والذهن ، اما الفسق والفجور فلم يثبت من طريق مؤتمن ، فاذا فرضنا ان معاوية اخطأ في اعطائه ولاية العهد لابنه بطرق استعمل فيها بعض الشدة ، وان يزيداً ارتكب عماله من قتل آل بيت الرسول امراً نكراً فلا يجوز من ذلك الطعن بشخصيات كبيرة، والعقل يستبعد التصديق بما قاله خصوم بني أمية عنهم ، ولو كان يزيد شريباً خميراً كما يزعمون او يرتكب أموراً لا تسمح بها الشريعة ولا تليق بشأن الملك والدين غض ، واصحاب اصحاب رسول الله احياء واعداؤهم من العلويين بالمرصاد ، لقتلته أمرته نفسها كما فعلت بالوليد بن يزيد بعد ستين سنة من مهلك يزيد بن معاوية . والغالب ان يزيد ادخل في العادات كأبيه اشياء انكرها بعضهم ووجدوا السبيل الى الطعن فيه وكان تعلمها من عشرته بعض ابناء الروم في الشام .

سُئل عبد الله بن عباس عن معاوية فقال : سما بشيء أسرّه واستظهر عليه بشيء أعلنه؛ فحاول ما أسر بما أعلن فناله ، وكان حلمه قاهراً لغضبه ، وجوده غالباً على منعه ، يصل ولا يقطع ، ويجمع ولا يفرق ، فاستقام له امره وجرى الى مدته . قيل فاخبرنا عن ابنه قال : كان في خير سبيله وكان ابوه قد أحكمه وامّره ونهاه فتعلق بذلك وسلك طريقاً مذللاً له . وسئل علي (رض) عن بني أمية فقال : أشدنا حُجَزاً (صبراً) وأطلبنا للامر لا ينال فينالونه .

الخلاف بين الأمويين وخصومهم من العلويين ما زال يقوى و يضعف ، وما هو الا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك وليس من الدين في شيء . فليس اذاً من العقل ان تتسلسل هذه الاحقاد في الامة وتتفرق شيعاً وتظهر بمظهر النصب او التشيع و يزكي فريق من يحبهم حتى يخرجهم عن طور البشر ، و يطعن في آخرين حتى يسلخ عنهم كل ما يمتازون به من الصفات الكاملة حتى لقد اخرجوهم عن الملة . اهل الاسلام يحبون الخليفة الرابع و يعرفون له صفات غرّاً يفاخرون بها على غابر الدهر ، ولكن من تحبه لا يجوز لك ان تغضي عن هفواته ، او ان تذكر لخصمه مزاياه .

أريد ان أقول : ان مسألة الخلافة بين علي ومعاوية قد مضى عليها الزمن وكان لكل منهما اجتهاده ، وهي من المسائل المؤلمة في تاريخنا ينبغي لنا ان ندرسها بأنصاف

لا ان نقول مع القائلين ونسكت عما شجر بينهم ، ولا ان نبالغ فيما وقع ونتعصب لفريق على آخر ، فالامة يجب عليها ان تعرف مواطن الضعف والقوة من جسمها ، وتكشف حقائق ماضيها لانها ابنة حوادث ماضية ، والواجب في البحث ان لا يثير في النفوس احقاداً ، ولا ينشئ في اجزاء الامة فرقة متلفة ، ولا يُرتكب معه سوء أدب مع عظام أسسوا مجد الامة على امتن الدعائم ، ووضعوا بناءها على القومية العربية ، وكانوا مثال التساهل مع ابناء الاديان الاخرى .

اهل الاسلام في الشرق جديرون بان يكونوا كأهل النصرانية في الغرب ، تحاربوا حروباً دينية سالت فيها الدماء انهاراً بين البابوي والبروتستانتي ، ثم جاءت القرون الحديثة فقضت على التحزبات الدينية ، وصاروا في المسائل الوطنية والقومية متلازمين تلازم اللام للالف ، واذا ذكروا ما ارتكبه اجدادهم في هذا الشأن خجلوا ووجموا . الأمويون كالعلويين بشر يخطئون ويصيبون ، فلا يليق بنا ان نغض من الأمويين لانهم لم يتنازلوا عن ملكهم للعلويين ، ولا ننكر ان اصابتهم كانت كثيرة جداً في جنب خطيئاتهم ، واهل الشام قبل كل شعب عربي يجب عليهم ان يفاخروا بتاريخ الأمويين و يمعنوا النظر فيه طويلاً ، و يعرفوا ان لكل دولة كما لكل فرد ما يعدّ لها وعليها .

بنو أميــة أسسوا دولة عظيمة وفتحوا الفتوح ونشروا كلمة التوحيد وبثوا اللغة العربية في الممالك التي دوّخوها فماذا عمل خصومهم لو انصف المتشيعون لهم ? لم يوفقوا من قبل ولا من بعد الا ان يدلوا على الامة بشرفهم ، وانهم خير من أمية في الجاهلية والاسلام ، وان الواجب على المسلمين ان يخضعوا لهم مهما كانت حالهم لشرف هذه النسبة فقط ، فقد قامت لهم عدة دول في اقطار مختلفة وكان مصيرها كلها الانحلال . مهما طال الزمن عليها او قصر ، ولذلك كان من المعقول ان لا يغضّ من قدر العاملين خصوصاً من كانت حسناتهم تربو على سيئاتهم ، ان كان هناك ما يتجوز في تسميته سيئات ، اضعافاً مضاعفة . الملك لا يقوم بالزهـد والتقوى ولزوم المساجد والخطب والحماسة والادلال بصفات طبيعية اتصف بها صاحبهـا . الملك يحتاج كما جرى الامويون الى بذل ، وتسامح ، وتماسك ، وعمل نافع ، بعيد عن الدعوى ما امكن . في الصفات الاولى تُمثل حالة العلويين ، وفي الثانية تُمثل حالة الأمويين .

دور الدولة العباسية

الى ظهور الدولة الطولونية
من سنة ١٣٢ — ٢٥٤ هـ

مبدأ الدعوة العباسية

كانت دولة الأمويين الشرقية ، كدولة الخلفاء الراشدين ، عربية اسلامية صرفة ، لم تنتشر كلمتها ، ولم تتوزع سلطتها ، اما الدولة العباسية فكانت دولة عناصر ، والحاكم فيها العنصر العربي او من دخل في خدمته وطاعته ، من الفرس والترك والديلم والموالي ، ولقد قال المؤرخون : في دولة بني العباس افترقت كلمة الاسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، واستولت الديلم ثم الاتراك ، وصارت لهم دولة عظيمة وانقسمت ممالك الارض عدة اقسام ، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ، ويملكهم بالقهر .

كان اهل البيت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام يعتقدون انهم احق بالامر ، وان الخلافة لرجالهم دون سواهم من قريش ، فكانوا يرون من بني أمية غاصبين حقهم في الخلافة ، فبدأوا يدعون سراً لذلك منذ وقعت الحرب بين علي ومعاوية في صفين وتنازل الحسن بن علي لمعاوية بن ابي سفيان عن الخلافة . وقد رزق معاوية صدرا رحباً وحلماً ضربت به الامثال ، فكان ابداً « يَرُوض من شُماس اهل البيت ، ويسامحهم في دعوى تقدمهم واستحقاقهم ، ولا يهيج احداً منهم بالتثريب عليه في ذلك » . وكان خلفاؤه من صلبه او من بني مروان يعمدون الى القسوة على القائمين بالدعوة لآل البيت

تارة ، والى الاغضاء زمن العجز طوراً ، وكان شيعة علي مقهورين ، واقاموا على شأنهم وانتظار امرهم والدعاء لهم في النواحي ، يدعون للرضا من آل محمد ولا يصرحون بمن يدعون له حذراً عليه من اهل الدولة ٠

وكان شيعة محمد بن الحنفية اكثر شيعة اهل البيت يرون ان الامر بعد محمد بن الحنفية لابنه ابي هشام عبد الله وكان كثيراً ما يغدو على سليمان بن عبد الملك في الشام ٠ فمرّ في بعض اسفاره بمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس بمنزله بالحُمَيْمَة فنزل عليه وادركه المرض عنده فمات واوصى له بالامر ٠ وقد كان أعلَم شيعته بالعراق وخراسان ، ان الامر صائر الى ولد محمد بن علي هذا ، فلما مات قصدت الشيعة محمد بن علي وبايعوه سراً وبعث الدعاة منهم الى الآفاق فاجابه عامة اهل خراسان ، وبعث عليهم النقباء وتداولوا امرهم هنالك ، وتوفي محمد سنة اربع وعشر ومئة وعهد لابنه ابراهيم واوصى الدعاة بذلك ، وكانوا يسمونه الامام وهو الذي دعا اليه ابو مسلم الخراساني صاحب الدعوة ٠

عند تمام المئة سنة صحت في الحقيقة نية بني العباس على تأليف جمعية سرية تدعو لهم ، وبثت في الآفاق بغض بني مروان وبلفظ اعم بني أمية ٠ وكانت الدعوة مقبولة في العراق وخراسان عند كل من تعرض عليه ٠ ورأس الدعوة في ارض الشام مهد عصبية الامويين وفروعها في خراسان ٠ فانبثت دعوة العباسيين من قطر وسط بين الاقطار العربية وهو الشام لقرب اتصالها مع الاقطار الاخرى ولا سيما بالعراق ثم بخراسان ، ولم تقم الدولة من الحجاز لانه بعيد عن القاصية تحيط به من جهاته الثلاث صحارٍ وبوادٍ محرقة ، والاستناد على اهل الحجاز كالاستناد على اهل العراق لا يخلو من اخطار ٠ فقد اراد اهل المدينة ان لا يبايعوا يزيد بن معاوية بالخلافة ، فضربهم ضربة قاضية ، ولم يستطع ان ينجدهم احد من العراق او اليمن لبعد الشقة ٠ وخذل اهل العراق علياً وابنه الحسين ، فلم يتمكن اهل الحجاز واليمن ان ينجدوا آل البيت فوقع ما وقع ٠

فمن ثم كان دعاة آل البيت يغدون من الحُمَيمة وقيل من كرار من جبال الشراة في الشام والحميمة عن الشوبك دون يوم بينها وبين وادي موسى — وبنو أمية غافلون

عنهم وخليفة المستقبل الذي يدعى له على ايام من دار ملكهم كبعض الرعية، والناس في خراسان يصدرون عن امره ويقدسون خلافته ، وكأن الاقدار خصت الشام بقيام دولتين عظيمتين فيه الأموية والعباسية ، وكانت عصبية الامويين اهل الشام وعرب الحجاز واليمن ، وعصبية العباسيين اهل خراسان والعراق وقيس ، ومن اهم العوامل في نجاح بني هاشم في دعوتهم الجديدة ، اتفاقهم مع الطالبيين على هذا المقصد ، وهو نزع الخلافة من بني مروان ، فكان البيتان لاول الامر كأنهما بيت واحد ، ولذلك اثمرت الدعوة سريعاً .

بعد نيف وثلاثين سنة من الدعوة لابناء العباس انتبه الامويون في الشام الى مقاصد اعدائهم ، وانهم في صدد تأسيس دولة للقضاء على دولة الامويين ، وفي ذلك دليل ظاهر على ضعف اصحاب الاخبار في ايامهم وعلى تساهلهم وعنايتهم بتدويخ الاقاصي والغفلة عن احوال الدواني ، ابلغ ذلك مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية عامله على خراسان نصر بن سيار وقد كتب اليه :

ارى تحت الرماد وميض جمر	ويوشك ان يكون له ضرام
فان النار بالعودين تُذكى	وان الشر مبدأوه الكلام
وقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية ام نيام
فان يقظت فذاك بقاء ملك	وان رقدت فاني لا ألام
فان يك اصبحوا وثووا نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام

فكتب مروان الى عامله بدمشق الوليد بن معاوية يأمره بتوجيه احد ثقاته الى الحميمة او كرار ليأتيه بابراهيم الامام، فحمله الى مروان فحبسه في المحرم من سنة ١٣٢ وقتل في محبسه بعد شهرين ، وعهد بالامر بعده الى اخيه ابي العباس عبد الله بن محمد وهو ابن الحارثية اول خلفاء بني العباس نسبة الى جده الاعلى علي ابو محمد السجاد بن عبدالله بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم . قتل ابراهيم الامام فكان قتله داعياً الى التعجل بالمناداة علناً بالخلافة العباسية . وذلك ان ابراهيم الامام لما امسكه مروان نعى نفسه الى اهل بيته ، وامرهم بالسير الى اهل الكوفة مع اخيه السفاح وبالسمع له والطاعة ، واوصى بالخلافة الى اخيه السفاح واوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة ، وان لا يكون له

بعده بالحُـمَيمة لُبث ولا عَرجة ، حتى يتوجه الى الكوفة ، فان هذا الامر صائر اليه لامحالة ، وانه بذلك انتهم الرواية واظهره على امر الدعاة بخراسان والنقباء ، رسم له في ذلك رسماً اوصاه ان يعمل عليه ولا يتعداه · فسار السفاح باهل بيته منهم اخوه ابو جعفر المنصور وغيره الى الكوفة فاقام فيها شهراً مستخفياً ثم ظهر في ربيع الاول وسلموا عليه بالخلافة وعزوه في اخيه ابراهيم الامام ودخل دار الامارة · وفي خلال ذلك زاد نفور المتطلعين الى العباسيين من اهل خراسان والعراق بفضل الدعاة الى آل البيت وذكر الناس شدة بني مروان في الضرب على ايدي كل من خالفهم ، وكان الناس منذ امد طويل يتمنون لو يدبلهم الله بغيرهم وان كانوا دونهم ، فكيف ببني العباس ومنزلتهم من الشرف منزلتهم · والبشر ميال الى التجدد ولكل جديد طلاوة ·

ومن الغريب على ما قال الطقطقي : انه لما قدر انتقال الملك الى بني العباس ، هيئت لهم جميع الاسباب ، فكان ابراهيم الامام بالحجاز او بالشام جالساً على مصلاه مشغولاً بنفسه وعبادته ومصالح عياله ، وليس عنده من الدنيا طائل ، واهل خراسان يقاتلون عنه ، و يبذلون نفوسهم وأموالهم دونه ، واكثرهم لا يعرفه ، ولا يفرق بين اسمه وشخصه ، لا ينفق عليهم مالاً ، ولا يعطي احدهم دابة ولا سلاحاً بل هم يجبون اليه الاموال ، و يحملون اليه الخراج كل سنة ، ولما خُذل مروان وأشرف ملك بني أمية على الانقراض ، كان مروان خليفة مبايَعاً ومعه الجنود والاموال والسلاح ، والدنيا باجمعها عنده ، والناس يتفرقون عنه ، وامره يضعف ، وحبله يضطرب ، فما زال يضمحل حتى هُزم وقتل ·

والثوب ان انهج فيه البلى   اعيى على ذي الحيلة الصانع

***

فتح العباسيين عاصمة الأمويين اضطرب نظام المملكة الأموية على عهد مروان بن محمد ، وكانت كلما عراها الضعف والانحلال ، يزيد خصوم الأمويين شدة وقوة · ولما بويع بالخلافة لابي العباس بالكوفة كانت جيوش خراسان تطارد جيوش العباسيين مطاردة ، و ينتثر سلك الملك سلسلة بعد سلسلة ، على صورة مستغربة سريعة · ولم يكد العراق يدخل في طاعة العباسيين ، حتى ولى ابو العباس

عمه عبد الله بن علي الشام فسار من حران الى منبج وقد سوّد اهلها ، وبعث اليه أهل قنسرين ببيعتهم ثم سار حتى نزل حمص ثم سار الى بعلبك ثم جاء عين جر ، وكان مروان بن محمد آخر الامويين لما انهزم على الزاب اتى من حرّان الى حمص باهله ، فجاء عبد الله بن علي الى حمص فرحل مروان عنها الى دمشق ، فتبعه فهرب الى فلسطين في بقايا جيشه وهناك جيش جيشاً آخر ، وكان اجتمع للأمويين في دمشق جيش قدّر بخمسين الف مقاتل . وكان جيش عبد الله بن علي لا يمر ببلد الا ويخرج اهلها مسوّدين اي حاملين شعار العباسيين وهو السواد بايعونهم عن رضىً ، هذا وجيشه اقل من ثلث جيش مروان المنهزم وربما كان الربع . فلما جاء دمشق عبد الله بن علي من ناحية المزّة نزل بها يومين ، ثم جاءه اخوه صالح بن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح على طريق السماوة ، فنزل صالح برج عذراء ثم نزل على باب الجابية، ونزل عبد الله بن علي على الباب الشرقي ، ونزل ابوعون على باب كيسان ، وبسام على الباب الصغير ، وحميد بن قحطبة على باب توما ، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس ، فحاصروها اياماً ثم افتتحها يوم الاربعاء لعشر خلون من رمضان (١٣٢) ، اي بعد ستة اشهر من مبايعة ابي العباس السفاح بالخلافة في مدينة الكوفة .

فأباح الفاتح دمشق ثلاث ساعات ، وقيل انهبها ثلاثة ايام ، ووضع السيف في اهلها ، ولم يزل جماعته يجزون الرؤوس في الطرق والمنازل ، ويأخذون الاموال ، حتى جاء الظهر فأمر برفع السيف وقتل والي المدينة فيمن قتل من الامراء والعلماء حتى في المسجد الجامع . وممن صلب عبد الله بن عبد الجبار . ودخلت أباعر العباسيين الى صحن الجامع الاموي وظل اصطبلاً لدوابهم وجمالهم سبعين يوماً، وقتل يومئذ على رواية المنبجي من النصارى واليهود خلق كثير ، ونبشت قبور بني أمية في دمشق وغيرها واحرقوهم بالنار ، ولم يبقوا على غير قبر عمر بن عبد العزيز في دير سمعان قرب حمص ، اعترافاً بفضله وتقواه ، ونقضوا سور دمشق حجراً حجراً .

قيل ان اهل دمشق لما حاصرهم عبد الله بن علي ، اختلفوا فيما بينهم ما بين عباسي وأموي ، وقيل وقعت بينهم العصبية في فضل اليمن على نزار ونزار على اليمن حتى

اقتتلوا ، فقتل بعضهم بعضاً ، وذكروا : انه قتل فيها في هذه المدة نحو من خمسين الفاً ٠ ولما جاءها عبد الله بن علي وحاصرها فضيق حصارها ، بلغ بالناس الجهدُ فاستغاثوا ، ووجهوا اليه يحيى بن بحر يطلب لهم الامان ، فخرج اليه فسأله الامان فاجابه اليه فدخل فنادى في الناس بالامان ، ثم قال له يحيى بن بحر : اكتب لنا ايها الامير كتاب الأَمان ، فدعا بدواة وقرطاس ، ثم ضرب ببصره نحو المدينة واذا بالسور قد غشيه المسوّدة عسكر بني العباس فقال له : قد دخلتها قسراً ٠ فقال يحيى : لا والله ولكن غدراً ٠ فقال عبد الله : لولا ما اعرف من مودتك لنا اهل البيت لضربت عنقك ، اذ استقبلتني بهذا ، ثم ندم فقال : ياغلام خذ هذا العلم فاركزه في داره ، وناد من داخل دار يحيى بن بحر فهو آمن ، فانحشر الناس اليها ، فما قتل فيها ولا في الدور التي تليها احد ، ونادى المنادي بعد ان قتل خلق كثير : الناس آمنون الا خمسة الوليد ابن معاوية و يزيد بن معاوية وأبان بن عبد العزيز وصالح بن محمد ومحمد بن زكريا ٠

وصار عبد الله بن علي الى المسجد فخطبهم خطبته المشهورة التي يذكر فيها بني أمية وجورهم وعداوتهم و يصف ما استحلوا من المحارم والمظالم والمآثم ، اي انه قال ما يقوله العدو في عدوه ٠ اي عداوة اعظم من عداوة المتنازعين على الملك والسلطان ، و بينهم الطوائل والاحقاد القديمة والجديدة ٠ وهذه الخطبة اشبه بكلام العلويين في الامويين ، والامويين في العلويين ، يقصد بها إثارة النفوس ، لينزع منها حب الدولة السالفة ، ويفسح مجال الاماني للناس و يرغبوا في الدولة الخالفة ٠

***

فتح فلسطين واهلاك رجال الأُمويين

اقام عبد الله بن علي في دمشق خمسة عشر يوماً ، رويت خلالها سيوفه من اعداء دولته ، ثم سار وراء مروان بن محمد في خمسين الف مقاتل ، واخذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك ، فحملها الى ابي العباس السفاح فقتلها وصلبها بالحيرة وامر ابو العباس عمه عبد الله بن علي ان يجدّ السير نحوها ، وهنأه بما اصاب من اموال بني امية فسار يريد فلسطين فنزل نهر الكسوة فوجه منها يحيى بن جعفر الهاشمي الى المدينة ثم ارتحل الى الأُردن فاتوه وقد سودوا ثم نزل بَيْسان ثم سار الى مرج الروم

ثم اتى نهر ابي فطرس، ولما قدم فلسطين اظهر للناس ان اميرالمؤمنين وصاه ببني أمية، وامره بصلتهم والحاقهم في ديوانه ورد اموالهم عليهم ، فقدم عليه من اكابر بني أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلاً ، وفي رواية الطبري : انهم كانوا اثنين وسبعين رجلاً وقد اعد لهم مجلساً على نهر بالرملة فيه اضعافهم من الرجال ومعهم السيوف والأجرزة ، فأخرجهم عليهم فقتلهم وسحبوا وطرحت عليهم البسط وجلس عليها ، ودعا بالطعام فاكل وجماعته ، وما زال بعض القتلى يئن، وقال : يوم كيوم الحسين بن علي ولا سواء. وكان في جملة قتلاه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وكان قد بذّ العابدين في زمانه ، وسبق المجتهدين في عصره ، واتخذ اموالاً معجبة ، تطرد فيها المياه والعيون ، فقتله ثم استقصى ماله ومال من قتل من سادات بني أمية وصناديدهم ، ومنهم من قتلوا لانهم ابوا ان يصيروا اموالهم الى السفاح . وقصارى القول ان فاتح الشام للعباسيين بطش في الأمويين ومن والاهم من اهل هذه الديار بطش الجبارين. وسار من الجور سيرة لم يسرها احد قبله كما وصفه المؤرخون :

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما اغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... فاودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرّة والتيجان والحلل
اين الوجوه التي كانت منعّمة ... من دونها تضرب الامتار والكلل
فافصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما اكلوا دهراً وما شربوا ... فاصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ... ففارقوا الدور والاهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الاموال وادخروا ... فخلفوها على الاعداء وارتحلوا
اضحت منازلهم قفراً معطلة ... وساكنوها الى الاجداث قد رحلوا

تتبع العباسيون بني أمية في الحجاز والعراق فقتلوا منهم اناساً كثيرين ولم يفلت الا افراد ومنهم عبد الرحمن بن معاوية الذي فر الى الاندلس وهناك اقام الخلافة الاموية الغربية فدامت مائتين وثمان وستين سنة ، ولم تطل اليه ولا الى آله ايدي العباسيين حتى انقرضت دولتهم . ومنهم من فرّ الى الحبشة و بقي فيها وذريته الى

خلافة المهدي العباسي . وبعد مقتل بني أمية واشتداد خوفهم ، وتشتت شملهم ، واختفاء من قدر على الاستتار منهم ، اصدر السفاح الى سليمان بن علي كتاباً عاماً الى البلدان يعطي فيه الأمان للأمويين . فكان هذا اول امان بني أمية . وكان سليمان بن علي كتب الى السفاح انه وفد وافد من بني أمية علينا ، وانا انما قتلناهم على عقوقهم لا على ارحامهم ، فاننا يجمعنا واياهم عبد مناف والرحم تبل (توصل) ولا تقطع ، وترفع ولا توضع .

* * *

انتقاض الجنوب والشمال والاعتقاد بالسفياني

ولما افنى بنو العباس بني أمية في فلسطين ندمت عرب الشام على ما فعلت لما ركبهم من العار ، وتسليط العجم من ابناء خراسان عليهم ، ينزلون منازلهم ، ويأخذون اموالهم ، فهاجت لذلك واضطربت ، وامتنعوا من البيعة . وفي السنة التي دخل فيها العباسيون ارض الشام ، بيّض حبيب بن مرة المري واهل حوران والبثنية ، ومدينتها أذرعات ، اي لبس شعار الأمويين وهو البياض ، ونصب رجلاً من بني أمية ، فقاتلهم عبد الله بن علي بارض البلقاء والبثنية وحوران ، وكان بينه وبينهم وقعات . وحبيب بن مرة من قواد مروان وفرسانه . وكان سبب تبييضه الخوف على نفسه وقومه ، فبايعه قيس وغيرهم ممن يليهم من اهل تلك الكور ، فلما بلغ عبد الله بن علي تبييضُ اهل قنسرين في الشمال ، دعا حبيب بن مرة الى الصلح فصالحه وأمنه ومن معه .

وكان الداعي الى خلع قنسرين طاعة بني العباس ، قائد من قواد مروان ايضاً اسمه ابو الورد الكلابي وكان دخل في طاعتهم ، ثم نزع الطاعة لما قدم احد قواد عبد الله ابن علي الى بالس والناعورة ، وانشأ يعبث بولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم ، فشكا بعضهم ذلك الى ابي الورد ، وكان قد اجتمع معه جماعة من اهل قنسرين وكاتبوا من يليهم من اهل حمص وتدمر فقدم منهم الوف عليهم ابو محمد زياد بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ودعوا اليه . وقالوا هذا السفياني الذي كان يذكر .

والغالب ان انصار الأمويين وضعوا بعد سقوط دولتهم ملحمة من الملاحم [1] ، زعموا فيها انهم يعرفون ما يحدث في المستقبل من الزمان والآتي من الايام ، من ظهور امرهم ورجوع دولتهم ، وظهور السفياني في الوادي اليابس من ارض الشام ، في غسان وقضاعة ولخم وجُذام وغاراته وحروبه ، ومسير الأمويين من بلاد الاندلس الى الشأم ، وانهم اصحاب الخيل الشهب ، والرايات الصفر ، وما يكون لهم من الوقائع والحروب والغارات والزحوف ، على ما نقله المسعودي . والاعتقاد بظهور السفياني كما قال صديقنا احمد تيمور باشا يشبه الاعتقاد بظهور المهدي ويروون فيه احاديث واقاصيص الله اعلم بها . وفي البدء والتاريخ ان الروايات بشأن السفياني فيها حشو كثير ومحالات مردودة . ومسألة السفياني تدبير للأمويين حتى لا ينقطع الامل من رجوع دولتهم ويخيفوا اعداءهم على الدوام . وربما كانت دعوى قرب ظهور السفياني ايضاً واسطة لفتك العباسيين بكل من توهموا فيه شيئاً من الرائحة السفيانية ولم تنقطع هذه النغمة في الشام الا سنة ٢٩٤ وقد زعم رجل انه السفياني فحمل هو وجماعة معه من الشام الى باب السلطان فقيل انه موسوس .

كان اتباع زياد في نحو اربعين الفاً فعسكروا بمرج الأخرم بنواحي سَلَمْيَة ودنا منهم عبد الله بن علي ووجه اليهم اخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف . وكان ابو الورد هو المدبر لعسكر قنسرين وصاحب القتال ، فناهضهم وكثر القتل في الفريقين وانكشف عبد الصمد ومن معه وقتل منهم الوف ، ولحق باخيه عبدالله فأقبل عبد الله معه وجماعته القواد فالتقوا ثانية بمرج الاخرم فاقتتلوا قتالاً شديداً وثبت عبد الله فانهزم اصحاب ابي الورد وثبت هو في نحو من خمسمائة من قومه واصحابه فقتلوا جميعاً وهرب ابو محمد ومن معه حتى لحقوا بتدمر وأمّن عبد الله اهل قنسرين وسوّدوا وبايعوه ودخلوا في طاعته ثم رجع الى دمشق وكان قد خرج

(١) راجع الفصل الذي كتبه ابن خلدون في الملاحم وان بعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة الى مشاهير من اهل الخليقة وليس منها اصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه ومنها المنظوم والمنثور والرجز .

من بها عن الطاعة ايضاً ، ونهبوا اهل عبد الله بن علي ، فلما دنا عبد الله من دمشق هربوا ثم امّنهم قال المؤرخون : ان العباسيين قتلوا من الشاميين ما لا يحصى ، ثم اذكوا العيون على الأمويين يقتلون رجالهم ونساءهم ، وينبشون عن قبورهم فيحرقونهم ، فمن ثم سمي عبد الله بن محمد بن علي السفاح وفيه يقول الشاعر :

وكانت أمية في ملكها تجول وتظهر طغيانها
فلما رأى الله ان قد طغت ولم تطق الارض عدوانها
رماها بسفاح آل الرسول فجزَّ بكفيه أذقانها

***

انتقاض العباسيين على انفسهم

هذا ما كان من امر من خلعوا طاعة بني العباس من عصبية بني أميـة في الجنوب والشمال ولم يكن اثر تلك العصبية قد زال على شدة العباسيين في قطع شأفة الأمويين . ولما هلك ابو العباس السفاح قام عمه عبد الله بن علي عامل الشام يدعو الى نفسه بالخلافة وقد استمال من معه من جنود خراسان فمالوا معه وكان صالح بن علي بمصر على طاعة ابي جعفر فلما بلغه ان عبـد الله بن علي قد خلع ابا جعفر وانه قد عزم على حربه اقبل ابن علي بمن معه من اهل خراسان منكراً لفعل عبد الله بن علي حتى لقي الحكم بن ضبعان الجذامي ومع الحكم خلق كثير من اهل الشام في طاعة عبدالله بن علي فهزمهم صالح بالجون بين فلسطين والأردن وقتل منهم ناساً كثيراً وافلت الحكم حتى اخذه بعـدُ يزيد بن روح اللخمي بارض بعلبك وكان يزيد عاملاً لصالح بن علي ببعلبك فضرب عنق الحكم وبعث برأسه الى صالح بن علي ونقل يزيد بن روح عند قتله الحكم بن ضبعان الى ولاية دمشق . هذه رواية ابن عساكر وقال غيره ان صالح بن علي لما جاء فلسطين من مصر طلب احياء العرب وجعل يذبحهم حتى اتى على آخرهم وانتهب اموالهم ومواشيهم .

وعلل صاحب البدء والتاريخ خروج عبد الله بن علي على ابي جعفر بقوله : انه لما مات ابو العباس ادعى الخلافة عبد الله بن علي وبايعه اهل الشام والجزيرة وذلك ان ابا العباس لما ظهر امره وضع سيفاً وقال : من تقلد هذا السيف وسار الى مروان

فقاتله فله الخلافة بعدي ، فحاماه النـاس وقام عبد الله بن علي فتقلده ، وسار فقاتل مروان فقتله ، فلما مات ابوالعباس قام بالخلافة ابوجعفر و بايعه الناس على ذلك، وكان اجلدهم واشجعهم ، فهال ذلك اباجعفر واستشار ابامسلم فقال: الرأي ان تعاجله ولا تتأنى به ، وكان عبد الله بن علي في مائة الف مقاتل ومائة الف من الفعلة ، وحفر الخندق من جبل نصيبين الى نهرها ، وجعل فيـه ما يحتاج اليه من العـدة والآلة ونصب المجـانيق والعرادات وبث الحسك وسد الطريق على من يقصده من العراق وجعل الخصب والقرى وراءه ٠

وقالوا : لما وجه ابو جعفر المنصور ابا مسلم الخراساني قال له : أيها الرجل انما هو انا او انت ٠ فاما ان تسير الى الشـام فتصلح امرها او اسير انا ٠ قال ابو مسلم : بل اسير انا ٠ فاستعد في اثني عشر الفاً من ابطال جنود خراسان حتى اذا وافى الشام انحاز اليه من كان بهـا من الجنود جميعهم وبقي عبد الله بن علي وحده فعفا ابو مسلم عنه ولم يؤاخذه بما كان منه وقال المطهر بن طاهر : بل اسره وحمله الى ابي جعفر فخلده الحبس الى ان مات وهذا هو الاصح وابو مسلم من اقرب الناس الى سفك الدماء وقد قتل في دولتـه ستمائة الف انسان ولكنه تحامى ان يقتل عم الخليفة واكتفى من عقوبة الثائر بالاستيلاء على خزائنه وكانت عظيمة لانه استولى كما تقدم على ذخائر خلفاء بني أمية ونعمتهم وذلك بعد حروب كثيرة ببلاد نصيبين في الموضع المعروف بدير الاعور وصبر الفريقان شهوراً على حروبها ٠ ومع هذا تعاقب على حلب كثير من ولد عبد الله بن علي بن العباس نحو مئة سنة ٠ وكان العباسيون كالأمويين يولون في مبدإ امرهم الولايات لآل بيتهم واولياء عهد الخلافة ٠

***

نزع الابنانيين والفلسطينيين طاعة العباسيين | ومن كوائن هذا الدور ما وقع في سنة ١٣٥ من نهب المقدم الياس في لبنان البقاع ونهب قراها واهلها فارسل والي الشام من قبل ابي العباس اليه رسلاً لعقد الصلح ، ثم هاجمه في قرية المرج وقتله وبعد رجوع عسكر الشام رجع اصحـابه ودفنوه بقرب الجامع الذي في القرية (فسميت قبر الياس ولعلها المعروفة بقب الياس وكانت القرية تسمى

المروج) ثم اقيم مقدماً على الجيش سمعان ابن اخت المقتول فسارت اليه عساكر الشام وكانت الحروب بينهم في قرية الشويز فانكسر العسكر الشامي وارتد راجعاً ، ودام القتال على ما في تواريخ الموارنة بين عساكر المسلمين ونصارى تلك البلاد مدة طويلة .

قال البلاذري : وخرج قوم بجبل لبنان شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح ابن علي بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلتهم واقرّ من بقي منهم على دينهم وردهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان . وقد كتب الامام الاوزاعي الى صالح رسالة طويلة في تخطئته في طريقته التي سار عليها في مقاتلة اللبنانيين حفظ منها ما يأتي : «وقد كان من إجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم ؟ وحكم الله تعالى « ان لا تزر وازرة وزر اخرى » وهو احق ما وقف عنده واقتدى به واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قال : من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه . ثم ذكر كلاماً .

روى ابن عساكر : ان الروم دخلوا طرابلس في زمان واليها باح بن عثمان بن حيان لصالح بن علي الهاشمي امير الشام ومصر ثم ظهر رجل من اهل المنيطرة ، وذلك في سنة اثنتين او سنة ثلاث واربعين ومائة وسمى نفسه الملك ولبس التاج واظهر الصليب واجتمع عليه انباط جبل لبنان وغيرهم ، ثم استفحل امرهم فسبوا بعض قرى البقاع فقتلوا المسلمين واخذوا ما وجدوا وكتب بندار [1] الملك الى اهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم ويأمرهم بقتالهم ، فتأهبوا وقاتلوهم في اسفل جبل لبنان ثم اظهروا الهزيمة فامعنوا في الطلب ، فلما بعدوا عن الجبل كرّت عليهم خيل بعلبك فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وانهزم بقيتهم ، ثم هاجموهم في قلعتهم فظهروا عليهم وامتلكوها منهم ، وهرب بندار الى

(١) البنادرة تجار يلزمون المعادن او هم الذين يخزنون البضائع للغلاء جمع بُندار بالضم ويقال رجل بندري ومبندر ومتبندر وهو كثير المال . والبندار فارسي ومعناه في الاصل صاحب الاساس .

ملك الروم فكتب حينئذ صالح بن علي يأمر باخراج من بقي في الجبل وتفريقهم في بلاد الشام وكورها . وصالح بن علي من اعظم رجال العباسيين هو الذي كسر الروم في نوبة مرج دابق وكانوا في مئة الف او يزيدون .

وبعد صالح بن علي وجه ابو جعفر المنصور محمد بن الاشعث الى الشام وكتب اليه ان يخرج عمال صالح بن علي فجهزه وعقد له وضم اليه من قواده جماعة وكتب امير المؤمنين الى صالح بن علي ان يسلم دمشق الى محمد بن الاشعث فاتاها فاقام بها مدة ، ثم اتاه كتاب امير المؤمنين يأمره ان يسير الى الأردن ويخرج عمال صالح بن علي من الأردن والبلقاء وفلسطين فأخرجهم .

* * *

قيس ويمن والفتن الداخلية والخارجية

وفي سنة ١٦٨ نقض الروم الصلح فوجه علي بن سليمان وهو يومئذ على الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر بن البطال في سرية الى الروم فغنموا وظفروا . ولم يغفل العباسيون عن غزو الروم الصوائف وغيرها على مثال بني أمية . وفي هذه السنة رد المهدي ديوان اهل بيته من دمشق الى المدينة . ومن الفتن فتنة سنة ١٧٦ هاجت بدمشق بين المضريين واليمانيين ، وكان على دمشق عبد الصمد فسعى الرؤساء في الصلح فاجاب بنو القين واستمهلت اليمانية ثم ساروا الى بني القين وقتلوا نحو ستمائة ، فاستنجدت بنو القين قضاعة وسليحاً فابوا ، فاستنجدوا قيساً فساروا معهم الى العواليك من ارض البلقاء فقتلوا من اليمانية ثمانمائة وكثر القتل منهم ، ثم عزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاها ابراهيم بن صالح ابن علي ، وكان هواه مع اليمانيين ، فوقع في قيس عند الرشيد واعتذرعنهم عبد الواحد ابن بشر ، واستخلف ابراهيم على دمشق ابنه اسحق فحبس جماعة من قيس وضربهم ثم وثبت غسان برجل من ولد قيس العبسي فقتلوه ، واستنجد اخوه بالزواقيل (اللصوص) من حوران فانجدوه ، وقتلوا من اليمانية نفراً . قال ابن كثير : في حوادث سنة ١٧٦ انه وقعت فتنة بين النزارية واليمانية وهذا كان بدء العشران بحوران وهم قيس ويمن اعادوا ما كانوا عليه في الجاهلية في هذا الاوان فقتل منهم بشر كثير فلما تفاقم الامر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القواد ورؤوس الكتاب

فاصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة واستقام أمر الشام وحملوا جماعات من رؤساء الفتنة الى دار السلام فرد امرهم الرشيد الى عامله خالد فعفا عنهم واطلقهم ففي ذلك يقول بعض الشعراء :

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده
وصب موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشام لما اتى نسيج وحيده

دامت هذه الفتنة نحو سنتين وسببها فيما قيل ان رجلاً من بني القين قطع بطيخة من حائط بالبلقاء لرجل من لخم او جذام . وفي رواية ان الفتنة لما هاجت بالشام بين النزارية واليمانية وولى الرشيد سنة ١٧٦ موسى بن يحيى بن خالد الشام جميعه اقام به سنتين حتى اصلح بينهم . قال ابن الاثير : ان سبب هذه الفتنة بين المضرية واليمانية ورأس المضرية ابو الهيذام عامر بن عمارة احد فرسان العرب المشهورين ان عاملاً للرشيد بسجستان قتل اخاً لابي الهيذام فخرج أبو الهيذام بالشام وجمع جمعاً عظيماً . وهذا السبب أرجح اذ لا يعقل ان تنشب الفتنة بين قبيلين من أجل بطيخة قطعت من بستان . اما ابو الهيذام فاستولى على دمشق وقاتل في قومه فهزم أكثر الجيوش التي قابلته وكان معه فريق كبير من اعراب الشام .

وفي سنة ١٨٠ تفاقم امر هذه الفتن فعقد الرشيد ايام عصبية ابي الهيذام لجعفر ابن يحيى البرمكي على الشام ، فاتاهم واصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها محارباً ولا فارساً ، فعادوا الى الأمن والطمأنينة واطفأ تلك النائرة ، وولى جعفر بن يحيى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها واستخلف على الشام عيسى بن العكي وانصرف ، وقال بعض الشعراء في ذلك :

لقد اوقدت بالشام نيران فتنة فهذا اوان الشام تخمد نارها
اذا جاش موج البحر من آل جعفر عليها جنت شهبانها وشرارها
رماها امير المؤمنين بجعفر وفيه تلافى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد تراضى به قحطانها ونزارها

وفي سنة ١٨٧ صارت العصبة ايضاً بالشام بين المضرية والنزارية وجمعوا جموعاً كثيرة وكانت بينهم في ذلك فتن قتل فيها من المضرية نحو من خمسمائة والوالي على دمشق شعيب بن حازم بن خزيمة . قال ابن عساكر: وذكروا منه تعصباً فوجه امير المؤمنين الرشيد محمد بن منصور بن زياد الى اهل دمشق ، وامره بدعاء الفريقين جميعاً الى الرجوع عمالهم عليه ، على ان يحمل من بيت ماله ما كان بينهم من الدماء ويعفو عنهم ويولي من احب الفريقان فاطفئت الفتنة . وفي سنة ١٨٨ كان غزو ابراهيم بن جبريل الصائفة ادرب (دخل الدرب والدرب كل مدخل الى الروم) من درب الصفصاف فيما ذكر اربعون الفاً وسبعمائة .

* * *

الحمصيون وفتنة السفياني

وفي سنة ١٩٠ وثب أهل حمص بواليهم فخرج الرشيد نحوهم فلما صار بمنبج لقيه وفدهم يعطون بأيديهم ويسألون فعفا عنهم. وفي سنة ١٩١ خرج ابو النداء بالشام فوجه الرشيد في طلبه يحيى بن معاذ وعقد له على الشام . وفيها نقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى فسبى أهلها . وفي سنة ١٩٤ اختلف أهل حمص مع عاملهم اسحق بن سليمان فانتقل عنهم الى سلمية فعزله الامين واستعمل مكانه عبدالله بن سعيد الحرسي ، فقاتل أهل حمص حتى سألوا الامان فأمنهم ، ثم هاجوا فضرب أعناق عدة منهم . وفي سنة ١٩٥ أي في أيام الخليفة الامين وكان سيء التدبير مهملاً للامور ظهر بالشام السفياني علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بالعَمَيْطر (كسفرجل) لانه زعم انها كنية الحرذون فلقبوه به ، وكان من بقايا بني أمية بالشام ومن أهل العلم والرواية ، فدعا الى نفسه وسمي خليفة ، وكان أصحابه يوم ادعى الخلافة يدورون في اسواق دمشق ويقولون للناس : « قوموا بايعوا مهدي الله » . وكان يفتخر بقوله : انا ابن شيخي صفين يعني علياً ومعاوية لانه كان ينتسب لبني أمية من جهة أبيه ولآل ابي طالب من أمه وكان اكثر أصحابه من كلب وتعصب له اليمانية وقاومه القيسية فنهب دورهم وأحرقها وقتلهم وفتك باهل دمشق ، وطرد منها سليمان بن ابي جعفر المنصور عاملها بعد حصره اياه ، وكان عامل الامين عليها فلم يفلت منها الا بعد اليأس وأعانه

الخطاب بن وجه الفُلس مولى بني أمية ، وكان قد تغلب على صيدا ، وقاومه محمد بن صالح بن بيهس الكلابي فخرج الى قرية الحرجلة فقتل من ظفر به من بني سليم ونهبها وأحرقها ، وجعل يطلب من بدمشق من القيسية . وكان القرشيون وأصحابه من اليمن يمرون بالدار من دور دمشق فيقولون : ريح قيسي نشم من هذه الدار ، فيضربونها بالنار ، فهرب القيسية من دمشق وكان من لم يبايعه سمّر عليه بابه ، وكان اذا خرج من الخضراء وهو راكب يمشي بين يديه خمسمائة رجل على رؤوسهم القلانس الشاميات وفي أيديهم المقارع .

كتب ابو العميطر الى ابن بيهس الكلابي : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فالعجب كل العجب لتخلفك عن بيعة أمير المؤمنين (يعني نفسه) وجحدانك نعم آبائه عليك ، ولست ولا أحد من سلفك الا في نعمته ، وأنت تعلم مكان حرمتك بقرية تلفياثا ، وان عشيرتك بالغوطة كرش منثورة ، وأمير المؤمنين يحلف لك بالله لئن سمعت وأطعت، ليبلغن بك اقصى غاية الشرف، وليولينك ما خلف بابه، ولئن تخلفت وتأخرت ليبعثن اليك ما لا قبل لك به من الزحوف ، التي تتلوها الحتوف ، بشاهد السلاح المعدّ لاهل الخلاف والمعصية . وقد بعث اليك أمير المؤمنين شعراً فتدبره » وكتب في أسفل كتابه :

لئن كان هذا الجد منك لقد هوى	بك الحَيْن في أهويّة غيرَ طائل
أبعد اجتماع الشام سمعاً وطاعة	اليّ وإذلالي جميع القبائل
وتوجيهي العمال في كل بلدةٍ	وزحفي اليها بالقنا والقنابل
رجوت خلافي أو قنيت جاهلاً	ازالة ملك ثابت غير زائل
فان نعط سمعاً أو تعلق بطاعة	تُقَلْ من ملمات شداد الزلازل
وان تعص ِ لا تسلم وفي السيف واعظ	لذي الجهل ما لم يتعظ بالرسائل

فلم يجبه ابن بيهس على كتابه ، وأقبل ابو العميطر على طلب القيسية فكتبوا الى ابن بيهس، فأقبل اليهم في ثلاثمائة فارس من الصباب ومواليه واتصل الخبر بأبي العميطر فوجه اليه يزيد بن هشام في اثني عشر الفاً فاقتتلوا ، فلم يزل القتل في أصحاب يزيد ابن هشام حتى دخلوا أبواب دمشق فبلغ القتلى الفي رجل وأسر ثلاثة آلاف ، فدعا

بهم ابن بيهس لحلق رؤوسهم ولحاهم وأحلفهم بانهم يصيرون الى باب ابي العميطر فيصيحون نحن عتقاء ابن بيهس ، فاشتدت شوكته وتوهن امر ابي العميطر السفياني ، فجعل ابن بيهس يغير كل يوم على ناحية فيقتل ويأسر . ولما فرغ ابن بيهس من حرب يزيد بن هشام نزل قرية سكا واجتمع الى ابي العميطر وزاره فقالوا له لا يهولنك محاصرة ابن بيهس اياك فان الحرب سجال فكتب ابو العميطر الى السواحل والبقاع وبعلبك وحمص فأتاه خلق عظيم واشتبكت الحرب بين الشبعا وفرحتا وتقاتلوا قتالاً طويلاً . واجتمعت نمير على مسلمة بن يعقوب بن علي بن محمد بن سعيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن ابي العاص وبذلوا له البيعة بالخلافة فقبل منهم وجمع مواليه ودخل على السفياني ابي العميطر في الخضراء فقبض عليه وقيده وقبض على رؤساء بني أمية فبايعوه وادنى قيساً وجعلهم خاصته .

وجمع ابن بيهس رؤساء بني نمير فقال لهم : قد كان من علتي ما ترون فارفقوا ببني مروان بن الحكم والطفوا بهم ، وعليكم بمسلمة بن يعقوب فبذل له بنو نمير البيعة . وبعث مسلمة الى رؤساء بني أمية عن لسان ابي العميطر يأمرهم بالحضور فجعل كل من دخل يقال له بايع والسيف على رأسه فبايع وأدنى مسلمة القيسية (عن ابن عساكر) والبس الثياب الحمر وجعل أعلامه حمراً وأقطع بني نمير ضياع المرج وجعل لكل رجل من وجوه قيس بمدينة دمشق منزلاً وولاهم ، ثم أقبل ابن بيهس حتى نزل قرية الشبعا وأصبح منها غادياً الى دمشق ، وصاح الديدبان بالسلاح ، وخرج مسلمة وخرجت معه القيسية فقاتلوا ذلك اليوم مع مسلمة قتالاً شديداً وكثرت الجراحات في الفريقين ، وانصرف ابن بيهس وخاف القيسية على أنفسهم وذهبوا الى ابن بيهس واحكموا الامر معه ، وصبح دمشق بالخيل والرجالة والسلالم ، ونشب القتال وصعد أصحاب ابن بيهس السور بناحية باب كيسان فلم يشعر بهم أصحاب مسلمة واستولى ابن بيهس على دمشق لعشر خلون من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، ولم يزل يحارب أهل المزة وداريا وبيت لهيا الى أن صالحه أهل بيت لهيا وأقاموا على حرب أهل المزة وداريا وهو مقيم بدمشق أميراً متغلبًا عليها الى ان قدم عبد الله بن طاهر دمشق سنة ثمان ومائتين وخرج الى مصر ورجع الى دمشق سنة ست عشرة ومائتين وحمل ابن بيهس معه

الى العراق . وكان الامين مدة خلافته وجه الى ابن بيهس الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان فلم ينفذ اليه ولكنه لما صار الى الرقة أقام بها. وولى الامين (١٩٦) عبد الملك بن صالح بن علي على الشام وأمره بالخروج اليها وفرض له من رجالها جنوداً يقاتل بها طاهراً وهرثمة . وعبد الملك هذا هو الذي كان يقول في أهل الشام : قوم قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وان أهل الشام اجرأ من أهل العراق وأعظم نكاية في العدو . ووقعت فتنة في عسكره بين الخراسانيين وأهل الشام وكثر القتل وأظهر عبد الملك النصرة للشاميين وانتقص الحسين بن علي للخراسانيين ونادى الناس بالرجوع ، فمضى أهل حمص وقبائل كلب فانهزم أهل الشام واتصلت الحروب (١٩٨) بين سكان الشام وجماعة العباسيين ، وكان يعقوب ابن صالح الهاشمي يحارب الحاضر حاضر حلب . فلم يبق منهم واقترقوا أيدي سبا فصار اكثرهم الى مدينة قنسرين ، وضرب يعقوب الحاضر وكان فيه عشرون الف مقاتل .

ولم تكد الشام تستريح من فتنة ابي العميطر حتى قام في أول عهد المأمون بدمشق رجل من بني أمية ايضاً اسمه سعيد بن خالد الأموي العثماني الفدّيني وادعى الخلافة وهو من قرية الفدّيين في حوران قام بعد ابي العميطر وأغار على ضياع بني شهيب (شرنبث ؟) السعديين وتطلب القيسية وقتلهم وتعصب لمن لجزله محمد بن صالح ابن بيهس أخاه يحيى بن صالح ، فلما صار بالقرب من حصنه المعروف بالفدّيين هرب فوقف يحيى حتى هدمه وخرب زيزاء في البلقاء وتحصن سعيد في قرية ماسوح قرب عمان ثم انه جمع عليه جمعاً عظيماً زهاء عشرين الفاً فلم يجد محاربه الى ان أجلاه عن مكانه وصار بعد ذلك الى حسبان وفيه حصن حصين فأقام به وتفرق عنه اصحابه .

* * *

فتنة نصر بن شبث

وهكذا لم يخل عهد السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والامين والمأمون من خلفاء بني العباس من فتن مشئومة وبقيت نارالعصبيات تتأجج . واليمانيون مع الأمويين والقيسيون مع العباسيين والدعوة للسفياني الذي وعد بارجاع ملك بني أمية تهب وتنام ، وقد ابتدأت اوائل

خلافة المأمون بشيء من هذا القبيل ، فقد عصى عليه نصر بن شبث العقيلي وكان يسكن كيسوم ناحية شمالي حلب وكان في عنقه بيعة للامين وله فيه هوى فلما قتل الامين أظهر نصر الغضب وتغلب على ما جاوره من البلاد ، وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الاعراب وأهل الطمع وقويت نفسه ، وعبر الفرات الى الجانب الشرقي وحدثته نفسه بالتغلب عليه . فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت عما كانت عليه وقوي امره (١٩٩) بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا : قد وترت [١] بني العباس وقتلت رجالهم وأعاقت عنهم العرب فلو بايعت لخليفة كان أقوى لامرك فقال : من اي الناس فقالوا : نبايع لبعض آل علي بن ابي طالب فقال : أبايع اولاد السوداوات فيقول : انه خلقني ورزقني . قالوا : فنبايع لبعض بني أمية فقال : اولئك قد أدبر امرهم والمدبر لا يقبل ابداً ، ولو سلّم عليّ رجل مدبر لاعداني بادباره ، وانما هواي في بني العباس ، وانما حاربتهم محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم .

قوي امر نصر فأرسل عليه المأمون احد عظام قواده طاهر بن الحسين فلقيه نصر وكسره ، فسير اليه المأمون عبد الله بن طاهر القائد العظيم ابن ذاك القائد العظيم فحصره في كيسوم من مدن العواصم واخذه بعد وقائع كثيرة ، واحتوى على الشام جميعه وهدم عدة اسوار من المدن المجاورة لحلب ومنها كيسوم من قرى سميساط . وسار عبد الله بن طاهر يستقري الشام بلداً بلداً لا يمر ببلد الا اخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل وهدم الحصون وحيطان المدن ، وبسط الامان للاسود والابيض والاحمر وضمهم جميعاً ، ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج ، فلم يبق مخالف ولا خالع الا خرج من قلعته وحصنه ، وعاد عبد الله ابن طاهر الى دار السلام يحمل معه المتغلبين على الشام امثال ابن السرج وابن ابي الجمل وابن ابي الصقر ودام عصيان نصر خمس سنين .

* * *

(١) وتر الرجل أفزعه وأدركه بمكروه ووتره ماله نقصه اياه . وقوله أعاقت عنهم دفعت عنهم .

المأمون وحكمه على قيس ويمن ﴿ لم يطفئ الفتنة التي أثارها نصر بن شبث في الشمال والتي أثارها غيره في الوسط والجنوب غير أعاظم قواد بني العباس، اطفأوها بالعقل والتؤدة ، وقد رأينا ان عصبية الأمويين لم تنقطع على شدة العباسيين في استئصالها ، وكان كل حين يثور ثائر باسم السفياني ويثور معه جماعته ولا سيما من اهل القرى والبوادي . وكانت الاحوال اخذت تهدأ على عهد الرشيد والمأمون فتفرغا لاجراء الاصلاح في البلاد . وكان الرشيد تولى شمال الشام ايام كونه ولياً للعهد ، والمأمون زار الشام ثلاث مرات يقيم فيها نصاب العدل ، ويوطد دعائم المدنية ، حتى عُدّ عهده وعهد ابيه من أجمل عصور التاريخ الاسلامي . المأمون الخليفة العادل ناشر اعلام الحضارة ، وممثل التسامح المحمدي العجيب ، ومحكّم العقل في أحكامه ومعتقداته ، وقلما اجتمعت صفات كصفاته وعقل كعقله وعلم كعلمه لخليفة من خلفاء الاسلام بل لم تجتمع قط ولم تعدّ عليه غلطة سياسية ولا مدنية .

وكان ما وقع في اوائل عهد العباسيين من الغوائل التي غالت أهل البوادي والحواضر في هذه الديار كانت عقوبة لاهلها عما قدمت ايديهم من خيانة عهد بني أمية ونفض ايديهم من مروان بن محمد لاول ظهور قوة خصمه وإدبار الامر عنه ، حتى قاتلوه وطاردوه ، على مثل ما قاتله جيش خراسان العباسي وزيادة ، فتعجلوا انقراض دولة الأمويين معلقين آمالهم على الدولة الفتية . ولذلك زعم بعضهم ان الملك في الشام لا يثبت ، لعدم الثبات المغروس في فطرة اهله ، ولتلون الطبائع فيه تلوّن اقاليمه وسمائه وهوائه . وكان من اثر العادة التي حملها العرب معهم من جزيرتهم وهي عادة الغزو المتأصلة في غير سكان المدن ، ان نشبت الثورات وكثر قتل الانفس وغرست هذه الاضطرابات في ارض البلاد فنمت خصوصاً وهي بلاد جبلية على الاكثر تصلح للدفاع والهزيمة والاستمرار على المشاكسة لصاحب القوة .

بالغ العباسيون في اهراق الدماء في الشام لاول امرهم ، وقضوا على آثار بني أمية وهي كثيرة جداً بالنسبة لمهدهم القصير ، ومع ذلك كان اسم الأموي والسفياني يرنّ في الآذان والمستعدون للثورة يتنشقون الحسام عند اول داعية يسمعهم صوته ، او ثائر يستتبع الناس ويعدهم الوعود الخلابة . نعم ان التنازع بين القيسيين واليمانيين

كان في هذا القرن على اشد حالاته ، وهذه العداوة بين الفريقين العظيمين من العرب اضرت ضرراً بالغاً في البلاد . وكان القيسيون حزب العباسيين على الاغلب واليمانيون حزب الأمويين والمنافسة بينهما على الملك والسلطان .

« تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال له : يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم اهل خراسان فقال : اكثرت عليّ يا اخا اهل الشام ، والله ما انزلت قيساً من ظهور الخيل الا وارى انه لم يبق من مالي درهم واحد ، واما اليمن فوالله ما احببتها ولا احبتني قط . واما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من اشياعه ، واما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما ثائراً ، اعزُب فعل الله بك » .

* * *

سبب تباغض الزارية واليمانية وحكمة حكيم

تأصلت البغضاء بين النزارية واليمانية منذ كان للعرب في الشام سلطان . وكثيراً ما تظهر بوادر هذه العداوة لسبب تافه . فقد ذكروا ان الكميت الشاعر المعروف مدح النزارية فافحش في مدحه ففخروا بذلك على اليمانيــة واغدق بنو هاشم المال على الكميت مكافأة له وقام دعبل الخزاعي يمدح اليمانيين ويعيب غيرهم ، فكان هذا اول الشنآن بين النزارية واليمانية ، ومنها تحزب الناس بالمنــاقب وثارت بينهم في البدو والحضر ، الى ان قام محمد الجعدي متعصباً لقومه فانحرف الناس للدعوة العباسية وتقلقل الامر الى انتقال الدولة من بني أمية الى بني هاشم ولم يبق معهم الا من فر بنفسه مستخفياً .

وكان رجال الادارة والسياسة اذا احبوا نشر العدل بين هذين الحيين العظيمين من احياء العرب يتعــذر عليهم ذلك الا بغمط حقوق الفريق الثاني ولذلك عُدّ من حسن سياسة ابراهيم بن محمد المهدي المعروف بابن شكلة الهاشمي اخي الخليفة الرشيد لما ولي دمشق ما اتخذه او ابتدعه من طريقة جديدة ارضى بهــا قيسا ويمناً ، فانه لما جاء غوطة دمشق وافاه الحيان من مضر ويمن فلقي كل من تلقاه بوجه واحد ، فلما دخل المدينة امر حاجبه باحضار وجوه الحيين وامره بتسمية اشرافهم وان يقدم من كل حي الافضل فالافضل منهم ، وان يأتيه بذلك فلما أتاه به امر بتصيير اعلا الناس من

الجانب الايمن مضريًا ، وعن شماله يمانيًا ، ومن دون اليماني مضري ، ومن دون المضري يماني ، حتى لا يلتصق مضري بمضري ، ولا يماني بيماني ، فلما قدم الطعام قال قبل ان يطعم شيئًا : ان الله عز وجل جعل قريشًا موازين بين العرب فجعل مضر عمومتها ، وجعل يمن خؤولتها ، وافترض عليها حب العمومة والخؤولة ، فليس يتعصب قرشي الا للجهل بالمفترض عليه . ثم قال : يا معشر مضر كأني بكم وقد قلتم اذا خرجتم لاخوانكم من يمن قد قدَّم أميرنا مضر على يمن ، وكأني بكم يا يمن قد قلتم وكيف قدمكم علينا ، وقد جعل بجانب اليمني مضريًا ، وبجانب المضري يمانيًا ، فقلتم يا معشر مضر ان الجانب الايمن اعلا من الجانب الايسر وقد جعلت الايمن لمضر والايسر ليمن ، وهذا دليل على تقدمته ايانا عليكم . الا ان مجلسك يا رئيس المضرية في غدٍ من الجانب الايسر ومجلسك يا رئيس اليمانية في غدٍ من الجانب الايمن . وهذان الجانبان يتناوبان بينكما يكون كل من كان في جهته متحولاً عنه في غده الى الجانب الآخر . فانصرف القوم وكلهم حامد . وهذا من ألطف اساليب السياسة واستمالة القلوب بدون خسارة .

ولذلك افتخر ابن تكلة وقال : ما اعلم احداً ولي جند دمشق فسلم من لقب يلقبه به اهل ذلك الجند غيري ، وذلك ان كل ملقب ممن ولي امرة الشام ، لم يكن الامين بمنحرف عنه من اليمانية او المضرية ، فكان ان مال الى المضرية لقبته اليمانية ، وان مال الى اليمانية لقبته المضرية ، فعاملهم ابراهيم معاملة واحدة في الاجتماع وقضاء الصالح . فكانت الحاجة تعرض لبعض الحيين فيسأل قبل ان يقضيها له ، هل لاحد من الحي الآخر حاجة تشبه حاجة السائل ؟ فاذا عرفها قضى الحاجتين في وقت واحد . قال : فكنت عند الحيين محموداً لا استحق عند واحد منهم ذماً ولا عيباً ولا نبزاً أنبز به وقال ابراهيم : انه ولي دمشق سنتين ثم اربع سنين بعدهما لم يقطع على احد في عمله طريق . وأخبر ان الآفة كانت في قطع الطريق في عمل دمشق من ثلاثة نفر دعامة والنعمان موليان لبني أمية ويحيى بن أرميا من يهود البلقاء وانهم لم يضعوا ايديهم في يد عامل قط ، فكاتبهم فارعوى الاثنان وابى الثالث اداء الجزية فقتل في معركة وساد الامن في القطر .

ولكن هذه السياسة لم يجر العمل بها دائماً ، فقد ذكروا ان ابراهيم بن صالح والي دمشق في خلافة الرشيد لما خرج منها في الوفد الذي قدم به على الرشيد استخلف ابنه اسحق على دمشق وضم اليه رجلاً من كندة يقال له الهيثم بن عوف فغضب الناس وحبس رؤساء من قيس واخذ اربعين رجلاً من محارب فضربهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وضرب كل رجل ثلاثمائة فنفر الناس بدمشق وتداعوا الى العصبية ونشبت الحرب ورجعوا الى ما كانوا عليه من القتل والنهب فلم يزالوا على ذلك اشهراً قاله ابن عساكر .

* * *

بين قيس ويمن	ولي دمشق بعد ابراهيم بن المهدي سليمان بن المنصور
وفتنة المرقع	فانتهبه اهل دمشق وسبوا حريمه وولي بعده منصور بن المهدي ،

وكانت على رأسه الفتنة العظمى ولم يؤد القوم طاعة بعد ذلك ، الى ان افتتح دمشق عبد الله بن طاهر في سنة عشر ومائتين . ووقعت بدمشق فتن على عهد الامين وسببها على ما ذكروه انه كان يعجبه البلور فدس عامله فاخذ له قلة دمشق من جامعها فلما شعر الدمشقيون قالوا « لاصلاة بعد القلة » فصارت مثلاً وافتتن الناس وامتدت فتنتهم ولما ولي المأمون ارجع القلة الى محلها . ولعل مسألة القلة اوجدها انصار المأمون على الأمين حتى لا تبقى ناحية في المملكة الا وتشعر بكراهة الأمين وتود لو استبدل غيره به .

وفي ايام المعتصم (٢٢٤) خرجت رجال دمشق على ابي المغيث الرافعي واليها في طلبهم محمد بن ازهر بن زهرة ، وكان قد عاث في مرج دمشق ونفر اهلها واجلاهم عنها ، فخرج رجل من بني حارثة اسمه يزيد في جماعة وغيرهم من يمن واجتمعت قيس بمرج دمشق واقبل محمد بن ازهر فلما صار اليهم خرجوا عليه وجرح وقتل من الجند خلق ، ووثب ابن لمحمد بن صالح بن بيهس على بعض امراء السلطان واخذه في جماعة من قيس بحوران ، واقبل الى مرج دمشق وصار مع يزيد وحاصر دمشق حصاراً شديداً وغلقت ابواب دمشق ولم يخرج احد الا اختطف . ولما مات المعتصم (٢٢٧) ثارت القيسية بدمشق وعلى رأسهم ابن بيهس الكلابي فعاثوا وافسدوا وحصروا

اميرهم فبعث الواثق اليهم رجاء بن ايوب الحضاري (وفي رواية رجاء بن اشيم الحميري) وكانوا معسكرين بمرج راهط فنزل رجاء بدير مران ودعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا فواعدهم الحرب بدومة فوافاهم فقاتلهم فهزمهم وقتل منهم نحواً من الف وخمسمائة وقتل من اصحابه نحو من ثلاثمائة وهرب مقدمهم ابن بيهس وصلح امر دمشق . وقال ابن عساكر : ان الذين ثاروا هم اهل الغوطة والمرج ، ومن قرى الغوطة الثائرة كفربطنا وجسرين وسقبا وقرى جرش ومن انضوى اليهم ، وأصيب من ذلك جماعة كثيرة وقاتلهم العامل في مجمع عسكرهم بكفربطنا وهي لقيس، وثار الناس من النواحي وقتلوا الاطفال وجرحوا النساء وهزمهم .

وسار رجاء الى فلسطين لقتال تميم اللخمي ويعرف بابي حرب و يلقب بالمبرقع الخارج بها في لخم وجذام وعاملة وبلقين فقاتله فانهزم المبرقع واخذ اسيراً سنة ٢٢٧ وكان المبرقع من اهل الغور خلع الطاعة ودعا الى نفسه فتبعه خلق كثير من الحراثين وغيرهم وقالوا : هذا هو السفياني المذكور انه يملك الشام ، واستفحل امره جداً واتبعه نحو مئة الف فانفذ المعتصم اليه جيشاً فلما قدم الامير رأى أمة كبيرة قد اجتمعت حوله فخشي ان يناجزه والحالة هذه فانتظر حتى جاء وقت حرث الارض ، فتصرم عنه الناس الى ارضهم ، وبقي في شرذمة قليلة من اصحابه فناهضه فأسره .وروى الطبري: ان سبب خروج المبرقع على السلطان ان بعض الجند اراد النزول في داره وهو غائب عنها وفيها اما زوجته واما اخته ، فمانعته ذلك فضربها بسوط اصاب ذراعها فاثر فيها، فلما رجع ابو حرب الى منزله بكت وشكت اليه ما فعل بها وأرته الاثر الذي بذراعها من ضربه فاخذ ابو حرب سيفه ومشى الى الجندي وهو غار فضربه حتى قتله ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يعرف فصار الى جبل من جبال الأردن، ولما كثرت غاشيته من الحراثين استجاب له جماعة من رؤساء اليمانية وارباب البيوت منهم . وروي ايضاً ان خروجه كان في سنة ٢٢٦ بالرملة وصار في خمسين الفاً من اهل اليمن وغيرهم وان القائد العباسي قاتله بالرملة فقتل من اصحابه في وقعتين خمسة وعشرون الفاً حتى أسر .

* * *

فتن اهلية وعصبيات حمصية ولبنانية ودمشقية وفلسطينية ومعرية } وثب في سنة ٢٢٦ علي بن اسحق بن يحيى ابن معاذ وكان على المعونة اي الشحنة في دمشق برجاء بن ابي الضحاك وكان على الخراج وقتله ثم عفي عن القاتل وفي سنة ٢٣١ جرى بين الامير هانيء والمردة حروب كثيرة في جبل لبنان فانتصر عليهم ولقب بالغضنفر ابي الاهوال ، وبلغ خبره خاقان التركي خادم الرشيد ، فكتب كتاباً يشكره على ما فعل ويحثه على الحرب ، ويخبره انه بلغ حسن سلوكه الى مسامع الخليفة . ومن اهم الاحداث في سنة ٢٤٠ وثوب اهل حمص بعاملهم ، فوجه المتوكل محمد بن عبدويه عاملاً عليهم فسكنهم واقام بديارهم عدة شهور ، ثم وثبوا فشغبوا عليه فسكنهم ومكر بهم واخذ جماعة منهم ، فحملوا الى باب المتوكل ثم ردوا اليه فضربهم بالسياط حتى ماتوا ، وصلبهم على ابواب منازلهم ، واتبع رجال الفتنة فافناهم .

ووثب في هذه السنة اهل دمشق بعامل المتوكل سالم بن حامد لظلمه وعسفه فيهم وقتله جماعة من اشرافهم ورؤسائهم فقتلوه على باب الخضراء . قال ابن عساكر : ان سالماً كان سيء السيرة اذل قوماً من اهل دمشق كان بينه وبينهم طائلة ودماء في اول دولة بني العباس وآخر دولة بني أمية . وكان لبني بيهس والجماعة من قريش دمشق وسائر العرب من السكون والسكاسك وغيرهم قوة ونجدة فقتلوه على باب الخضراء وقتلوا من قدروا عليه من رجاله وسلطوا الموالي على رجالهم واموالهم فسابوها .

غضب المتوكل لمقتل عامله وقال : من لدمشق وليكن في صولة الحجاج ؟ فقيل له : افريدون التركي . فامره وجهزه اليها في سبعة آلاف واحل له القتل والنهب ثلاثة ايام ، فنزل بيت لهيا قرب دمشق فبات بها فلما اصبح قال : يادمشق ايش يحل بك اليوم مني . فقدمت له بغلة وهمّ ليركبها فلما وضع رجله في الركاب ضربته بالزوج في صدره فسقط ميتاً . وبعد ثلاث سنين جاء المتوكل ليسكن دمشق هرباً مما كان يحاذره من شدته على العراقيين فنقل دواوين الملك اليها ثم رجع بعد اشهر وهناك قتل وكان من طغاة الملوك يجري في احكامه على غير المعقول ويتلون في مشربه .

وفي سنة ٢٤٨ شغب اهل حمص على عاملهم ايضاً ، فوجه الخليفة اليهم عاملاً آخر فأخذهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وحمل مئة رجل من عيونهم الى سامرا مقر الخلافة بالعراق . وفي هذه السنة غزا الصائفة وصيف ، وكان مقيماً بالثغر الشامي ثم دخل بلاد الروم وفتح بعض الحصون . وفي السنة التالية كان غزو جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصناً ومطامير ثم غلب وقتل جماعة كثيرة من جيشه . وفي سنة ٢٥٠ وثب اهل حمص بعاملهم فقتلوه فوجه اليهم المستعين من حاربهم فهزمهم بين حمص والرَّستن ، وافتتح حمص وقتل من اهلها وفيهم خلق من نصارى المدينة ويهودها فقتل مقتلة عظيمة واحرقها . وكان المتوكل امر باخراج النصارى من حمص لانهم كانوا يعينون الثوار . ووثب ايضاً اهل حمص بعاملهم مرة أُخرى فقتلوه وخافوا عامل دمشق فزحفوا اليه فوجه اليهم بعسكر من البابكية وغيرهم فهزموهم وانصرفوا الى حمص . وثاروا مرة فأرسل عليهم الخليفة عاملاً آخر فدخل بلدهم عنوةً وأباحها ثلاثة ايام وطرحت النار في منازلها . وكان الواثب بحمص العطيف ابن نعمة الكلبي في خلق عظيم من عشيرته وغيرهم . وكثر وثوب اهل حمص ، وبعبارة اعم وثوب اهل جند حمص بعمالهم لانهم يمانية نزاع الى الثورة ، ونار الاحن بينهم وبين القيسية لا تزال موقدة ، ثم انه كان لهم من سكان البلاد الاصليين من غير المسلمين من كانوا يحرضونهم على شق عصا الطاعة ، فلذلك كثرت ثوراتهم وما برحوا يثورون حتى ايام المهدي فقد ثاروا بمحمد بن اسرائيل فخرج هارباً ولحقه ابن عكار فكانت بينهما وقعة قتل فيها ابن عكار ورجع ابن اسرائيل على البلد .

وفي ايام المستعين وثب بالأردن رجل من لخم فطلبه صاحب الأردن فهرب فقام مكانه رجل يعرف بالقطامي وكثف جمعه فجبى الخراج وكسر جيشاً بعد جيش انفذهم اليه صاحب فلسطين . فلم تزل هذه حاله حتى قدم مزاحم بن خاقان التركي في جمع من الاتراك وغيرهم ففرق جمعهم ونفاهم عن البلاد . ووثب بالمعرة المعروف بالقصيص وهو يوسف بن ابراهيم التنوخي فجمع جموعاً من تنوخ ، وصار الى مدينة قنسرين فتحصن بها ، فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد مولى امير المؤمنين فاستماله ، واستعمل عُطَيْف بن نعمة وصار اليه ، ثم وثب بعطيف بن نعمة فقتله ، وهرب

القصيص فصار الى الجبل الاسود واجتمعت قبائل كلب بناحيـة حمص على الامتناع على المولد ، فسار اليهم فواقعهم فكانت عليهم ، ثم ثابوا عليه فهزموه وقتلوا خلقاً عظيماً من اصحابه وانصرف الى حلب في فلّه ، ورجع القصيص الى قنسرين وجرت بينـه وبين كلب محـاربة وعُزل المولد . وولي ابو الساج الاشروسي وكتب الى القصيص يؤمنه وصير اليه الطريق والبذرقة ثم ولاه اللاذقية ونحوها — قاله اليعقوبي .

وفي سنة ٢٥٢ عُقد لعيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني على الرملة فانفذ خليفته ابا الغراء اليها واستولى على فلسطين جميعها وتغلب على دمشق واعمالها وامتنع من حمل المال الى العراق فحمل ابن مدبر صاحب خراج مصر الى العراق سبع مائة الف وخمسين الف دينار فعارض عيسى بن الشيخ فذهب بها . وفي سنة ٢٥٦ عزل عيسى عن الشام وولي اماجور الشام فسار واستولى عليه بعد قتـال بينه وبين اصحاب عيسى على باب دمشق وانصر عيسى واسنقر ، وكان عيسى يومئذٍ في زهاء عشرين الفاً ، واماجور في مائتين الى اربعمائة وقيل الف ، فتغلب قليله على كثير خصمه . وكان اماجور اميراً مهاباً ضابطاً لعمله حشماً شجاعاً لا يتجاسر احد على ان يقطع في جميع اعماله الطريق وله في باب تأديب العصاة وقطاع الطرق حكايات أُثرت عنه .

***

الحكم على الدور الاول للعباسيين — مضت مائة وثنتان وعشرون سنة على الشام بعد انقراض دولة بني أمية ، وهو لا يخلو من فتن وحزازات تسمع فيها اسم السفياني والأموي العثماني او غيرهم من ارباب العصبيات من العرب ولاسيما قيس ويمن . فتن اهلية يثور بركانها ثم يهمد الى حين ، ونزاع الى الملك والسلطان ، ولم تكد البلاد تعامل بالحسنى الا على عهد الرشيد والمامون فكانت الفتن في عهدها غير ذات شأن لانهما كانا يوليان على الشام اقدر رجالها . والشاميون يرضيهم من الخلفاء حسن سياستهم ، والنظر بعطف على مصالحهم .

ولقد كانت الشام اوائل الفتح العباسي تتناوبها يدا عبد الله بن علي وصالح بن علي العباسيين واولادهما ثم اخذ عقلاء الخلفاء منهم يولون اولادهم واخوتهم شؤونها . فقد رأينا المهدي ولى ابنه هرون الرشيد ايام كونه ولياً للعهد ولاية قنسرين اوشمالي

الشام ، ورأينا الرشيد ولى اخاه ابراهيم بن المهدي دمشق ، ورأينا الرشيد ندب احد عظام رجاله يحيي البرمكي الى دمشق كما رأينا ابنه عهد الى طاهر بن الحسين بولاية مصر والشام وسوّغه خراج مصر سنة وهو ثلاثة آلاف الف دينار ففرقه على الناس وهو على المنبر ، ولم ينزل منه الا وقد اقترض عشرة آلاف دينار ليعطيها لرجل جاء متأخراً والمصلحة تقتضي برّه .

وقد رأينا حسن اثر السياسة التي اتبعها ابراهيم بن المهدي في وضع التوازن بين القيسيين واليمانيين في الشام ، فدل على عقل راجح ، وارادة هاشمية قوية ، وكان بسياسته حائلاً دون المتاغبات الباطلة ، والقى في البلاد مدة ست سنين سلاماً محبوباً ، وكانت من قبل تأجج فيها نيران العصبيات الجاهلية . ولكن المتوكل الخليفة المحمق ، اوسع مجال الخلف بينه و بين رعيته واكبر امر فتنة حدثت في دمشق ، فأباحها لعامله التركي ، ولكن الشعب في بغداد اطلّ دمه لخرقه ، وهلك عامله قبل ان يباشر بجبروته فتكه وسبيه ونهبه ، على نحو ما ارتكب العمال قبله في المتوثبين على العمال من اهل حمص .

واهم الاغلاط التي ارتكبها المعتصم ادخال الاتراك في جنده ، فكان الاعتماد عليهم في الجيش العباسي كالاعتماد على اهل خراسان الاعاجم لاول الفتح من اهم الدواعي في اغضاب العرب فأدى هذا الايثار الى نزع الحكم من العباسيين ، حتى دخل الوهن بدخول الاتراك على الدولة ، فأضت بصنيعهم الخلافة العباسية اسمية دينية فقط لاتعدى قرب بغداد الا قليلاً ، وغدا الحكم الفصل لمن قويت شكيمته من الدخلاء واستجاش الانصار والاعوان . وبعد ان كانت بغداد ترسل الى الشام اولاد خلفائها واعاظم قوادها من الاصول اصبحت ترسل اليها من الفروع افريدون التركي وخاقان التركي ومحمد المولد من الموالي فظهر الفرق في صورة الحكم لان الحكم كان في الغالب فردياً لا علاقة للجماعة به الا اذا احبّ صاحب الامر استشارة اهل الرأي استشارة خاصة ودية وله الحرية ان يعمل بما ارتأوه ولا احد يكرهه على قبول رأيه . فمن ثم اقتضى ان يكون العامل في الغاية اصالة ونبالة وعلماً ونزاهة .

افضى هذا التساهل مع الاعاجم والاعتماد عليهم ، الى جر البلاء على الخلائف من

بني العباس ، وبعد ان كانت وصية ابراهيم الامام الذي مات في سجن مروان الجعدي الى ابي مسلم الخراساني صاحب الدعوة : « انظر الى هذا الحي من اليمن فالزمهم ، واسكن بين اظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم ، واتهم ربيعة في امرهم ، واما مضر فانهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه وان استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وايما غلام بلغ خمسة اشبار واتهمته فاقتله » اصبحت تفتح للاتراك ابواب دار الخلافة لكل دخيل على العرب ولم يعد حكم لقيس ولا يمن بل للاعاجم من الفرس والترك والديلم . وفي ايام المأمون نشأت الدعوة الشعوبية اي الحط من قدر العرب وتفضيل العجم عليهم ، فتبدلت روح الدولة ، واخذ العربي يبغض العجمي والعجمي ينال من العربي ، منذ كانت السلطة لابناء خراسان امابدخول الاتراك فالمسألة بلغت اقصى حدودها الخطرة ، وكادت مقاليد الخلافة تخرج من ابناء دائم بعد عصر المعتصم .

كانت مسألة دخول الاتراك في الدولة بادئ بدء مسألة ساذجة في ذاتها وهي ان المعتصم جمع الاتراك واشتراهم من ايدي مواليه فاجتمع له منهم اربعة آلاف فالبسهم انواع الديباج ، والمناطق المذهبة ، والحلية المذهبة ، وابانهم بالزي عن سائر جنوده ، واصطنع قوماً من اليمن وقيس وسماهم المغاربة واعد رجال خراسان من الفراعنة وغيرهم والاشروسية — فلما تم هذا كثرت شكاية النـاس اولاً من ايذاء الاتراك لعوام بغداد ، وكلما زادت الشكاية توغل الاتراك في جسم المجتمع العباسي . وحاول من جاء بعده مثل المعتز ان يتخلص منهم ولكنهم كانوا تأصلوا في جسم الدولة وافسدوا عليها امرها ولكل اجل كتاب .

ظهور الدولة الطولونية وانقراضها

من سنة ٢٥٤ الى ٢٩٢

—·—

بداية الطولونيين

ظهرت بوادر الضعف في العباسيين ، وكادت تصبح سلطتهم اسمية ، وخلافتهم دينيــة لا دنيوية ، ساعد على ذلك اشتغال الخلفاء بعد المعتز بانفسهم ، فتغلب كثير من الامراء على الاطراف ، واصبحت البلاد رهن ايدي المتغلبة من العمال ، مع ان معظم الخلفاء الأُول الى ما بعد المعتصم كانوا على غاية من العلم والاخلاق وحسن السياسة ، ومن النادر ان يتسلسل هذا الرقي في الاخلاق في آل بيت واحد على اطراد جميل ، كما تسلسل في بني هاشم لاول امرهم ، ولكن منهم من ساعدهم الطالع ومنهم من خانه ، والسعادة اكثر من الشقاء في الجملة ·

وبينا كانت دولة الأمويين في الاندلس في إبان عزّها في القرن الثالث ، كانت دولة العباسيين تضطرب وتضيق بقعتها في هذا الشرق القريب ، خصوصاً في النصف الثاني من المئة الثالثة ، وعمال فارس ومصر والشام وغيرها يقطعون الخراج عن دار الملك ، و يستبدون بالامر ، وليس للخليفة العباسي الا الخطبة والسكة ، بل ان المتغلب على قطر قد يقرن اسمه الى اسم الخليفة في الدعاء ، و يضرب السكة باسمه او باسميهما معاً · وكانت الدولة الى هذا العهد لا تقوم لها قائمة الا اذا جمعت بين السلطتين الدينية والدنيوية ، فاذا ضعفت احداهما في القائم بامر المسلمين ، أصاب القوة الثانية ضعف عطلها عن العمل النافع ·

وكلما كان خلفاء بني العباس يعتمدون على الاعاجم ، في ولاية عمالاتهم ومقاطعاتهم وقيادة جيوشهم ، كانت الدولة العباسية تقترب من الانقراض ، ففسدت عصبية العرب كما قال ابن خلدون في بني العباس لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق ، لاستظهارهم بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية اي التركمان وغيرهم ، ثم تغلب الاولياء على النواحي ، وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن تعدو اعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم وملكوها وصار الخلائف في حكمهم .

وقال المقريزي : اختص المعتصم الاتراك ووضع من العرب واخرجهم من الديوان واسقط اسماءهم ومنعهم العطاء ، وجعل الاتراك انصار دولته واعلام دعوته ، وكان من عظمت عنده منزلته قلده الاعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة ، فيستخلف على ذلك العمل الذي تقلده من يقوم بامره ويحمل اليه ماله ، ويدعى له على منابره كما يدعى للخليفة ، وقصد المعتصم ومن بعده من الخلفاء بذلك العمل مع الاتراك محاكاة ما فعله الرشيد بعبد الملك بن صالح والمأمون بطاهر بن الحسين ، ففعل المعتصم مثل ذلك بالاتراك فقلد اشناس ، وقلد الواثق ايتاخ ، والمتوكل بغا ووصيف ، وقلد المهتدي اماجور وغير من ذكرنا من اعمال الاقاليم ما قد تضمنته كتب التاريخ . فضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال وتغلب على الخليفة فيها الاولياء والقرابة والمصطنعون وصار تحت حجرهم من حين قتل المتوكل فتغلب على النواحي كل متملك .

* * *

احمد بن طولون وسيما الطويل واحداث أخرى

وكان من اهم المتملكين النازعين ربقة الخلافة احمد ابن طولون في مصر والشام اول متغلب ظفر حقيقة بملك الشام فما وسع العباسيين الا مصانعته بعد ان حاولوا محاربته فعجزوا فقد كانت ديار مصر قد اقطعها بايكباك وهو من اكابر قواد الاتراك وكان مقيماً بالحضرة اي في عاصمة الملك في بغداد فاستخلف بها من ينوب عنها ، وكان طولون والد احمد بن طولون ايضاً من الاتراك ومن انسبائه ، وقد نشأ بعد والده على طريقة مستقيمة ، وسيرة حسنة فالتمس بايكباك من يستخلفه بمصر فأشير عليه باحمد بن طولون فولاه المعتز بالله سنة ٢٥٤ مصر وفي سنة ٢٦٤ توفي ماجور بدمشق واستخلف ابنه علي فحرك ذلك احمد بن طولون

على فتح الشام فكتب الى علي يخبره بانه سائر اليه وامره باقامة الانزال والميرة لعساكره فرد علي بن ماجور احسن جواب ، وخرج ابن طولون في المطوعة من مصر وفلسطين فبلغ الرملة فتلقاه محمد بن رافع خليفة ماجور عليها واقام له الدعوة بها فاقره عليها ، ومضى الى دمشق فتلقاه علي بن ماجور واقام له بها الدعوة واحتوى على خزائن ماجور فاقام بها احمد حتى استوثق له امرها ، ثم استخلف عليها احمد بن دوغباش ومضى الى حمص فلقيه عيسى الكرخي خليفة ماجور عليها فسلمها اليه ثم بعث الى سيما الطويل التركي وهو بانطاكية يأمره بالدعاء له فلم يجبه سيما ، فتحصن بانطاكية في جيش من الاتراك وغيرهم وامتنع فحاصره احمد ورمى حصنها بالمنجنيق ، وطال حصاره لها فاشتد ذلك على اهلها فبعثوا الى احمد بن طولون يخبروه بالموضع الذي يمكنه ان يدخل اليها منه فقصده ، وعاونه اهلها على سيما فدخلها في المحرم سنة خمس وستين ومائتين فقتل سيما واستباح امواله ورجاله . وكان قبل نزول ابن طولون على أنطاكية (٢٦٤) وقع بين سيما و بين احمد المؤيد حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم من ارض الشام ، وكان سيما قد عم أذاه اهلها من قتل واخذ مال ، فقتل ابن طولون سيما الطويل بعد حصار و يأس من فتح انطاكية ، وذلك بمعاونة بعض اهلها من داخل السور « فعاث ابن طولون ساعة بانطاكية وشمل الناس اذاه ثم رفع ذلك لساعتين من النهار وارتحل ابن طولون يؤم الثغر الشامي » فاستولى ابن طولون على الشام اجمع والثغور حتى حكم من مصر الى الفرات ، ومن مصر الى المغرب ، وكان ذلك مدة اشتغال الموفق ابي احمد طلحة بن المتوكل بحرب الزنج .

كان ابن طولون اول من اقتطع جزءاً من المملكة الاسلامية عن الخلافه ، وجمع بين ملك مصر والشام في الاسلام ، فكان لمن بعده من المستبدين بالنواحي قدوةً ومثالاً . واخذ يستكثر من مشترى المماليك والديالمة حتى بلغت عدتهم اربعة وعشرين الف مملوك واربعين الفاً من العبيد الزنج واستكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف . وذكر بعض المؤرخين : ان ابن طولون كان أعد بامر الخليفة جيشاً مؤلفاً من مئة الف انسان لقتال احد الخوارج على الخلافة في الشام — وهو سيما الطويل على الارجح — فلم يعد له به حاجة وكانت هذه الكتلة من الجند سبب فوزه فانه ابقى الجيش فكانت به سعادته .

وقويت شوكة ابن طولون واخذ ملك الروم يهاديه و يطلب رضاه لاتساع مملكته ومكانتها بين مملكة الشرق ومملكة الغرب الاسلاميتين ، ولم يلبث احمد بن طولون ان اخذ على الجند والشاكرية والموالي وسائر الناس البيعة لنفسه ، على ان يعادوا من عاداه و يوالوا من والاه و يحاربوا من حاربه من الناس جميعاً . فعندها سطا ابن طولون على الخليفة ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وانفرد بخراجها ، فحارب به الخليفة المعتضد بالله اشد محاربة فلم يقدر عليه ، ولما لم يجد الخليفة بدأ من مصانعته ، وادرك ان ابن طولون التركي لم يقض على دولة سيما الطويل التركي واماجور التركي حباً بسواد عيون خلفاء بغداد بل ليستأثر بالامر دونهم ، لما ادرك ذلك اضطر الى مراعاته والاكتفاء بما يناله منه من النفوذ والسلطان .

وكان ابن طولون لعدله وحسن سياسته يفضله الناس على بعض الخلفاء ، وفي الحق انه كان على جانب من العدل ، وحسن السيرة ، وعلو الهمة و بعد النظر ، والتفكر في عمران مملكته حتى زاد خراجها ، وكان هديه في ذلك هدي المعتصم العباسي وكان هذا يحب العمارة ويقول ان فيها اموراً محمودة : اولها عمران الارض التي يحيى بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الاموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الاسعار ، و يكثر الكسب ، و يتسع المعاش ، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : اذا وجدت موضعاً متى انفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة احد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه . فاستعان ابن طولون بما كانت البلاد تدر عليه من الخراج على تقوية سلطانه وكثرت صدقاته ، وما يجريه على القراء والفقهاء ، حتى كان يرسل كل سنة مائة الف دينار لفقراء بغداد عدا كساوي الصيف والشتاء

ولما رأى الخليفة ما يعدّ ابن طولون من العدد ، لبث دعوته ونشر كلمته ، وانه لا يألو عن الجهد في حاجته ، لم يرَ الا ان تسفر الحرب بينهما بعد ان اسفرت ، ويعمد الى طرق من السياسة تبقي على شأن الخلافة التي اقتطعت منها اهم اجزائها ، وتوشك ان تلحقها اقطار أُخرى وتضم اليه العراق ايضاً — طلب الخليفة الى ابن طولون ان يزوجه ابنة ابنه خمارويه واسمها قطر الندى وقال : ما قصدت بهذا الزواج الا إفقار ابن طولون لانه يضطر ان يجهزها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل ، وكان الامر كما قال ،

فانها جهزت بما استفرغ خزائن صاحب مصر والشام . قيل انه كان في جهازها الف هاون ذهبا فقط . وكانت قطر الندى من اجمل بنات عصرها ، واكثرهن ادباً وفضيلة . وقد عقد لها على المعتضد سنة ٨١ وشرط المعتضد على ابيها ان يحمل كل سنة بعد القيام بجميع وظائف مصر وارزاق اجنادها مائتي الف دينار . وفي رواية ان المعتضد جعل لخمارويه الصلات والخراج والقضاء وجميع الاعمال على ان يحمل في كل عام مائتي الف دينار عما مضى وثلاثمائة الف للمستقبل . وان وزير المعتضد عبيد الله بن سليمان سعى مع ابي الجيش خمارويه ، على ان يقتصر على حمص ودمشق والأردن وفلسطين ومصر وبرقة وما والاها ، ، ويتخلى عما كان في يده من ديار مضر وقنسرين والعواصم وطريق الفرات والثغور ، فاجاب الى ذلك وكتب سجلاً اشهد فيه على المعتضد وعلى خمارويه .

داء ملك احمد بن طولون في مصر والشام اثنتي عشرة سنة ومات لست وعشرين من ولايته مصر ، ولولا سفكه للدماء لعد بعدله وعقله وعلمه وسخائه من افراد العالم . ومن الاحداث في عهده ما وقع من العصبية بفلسطين (٢٥٧) بين لخم وجذام فتحاربوا حربا اخذت من الفريقين وما وقع (٥٨) بين الامير نعمان الذي حصن سور مدينة بيروت وقلعتها وبين المردة في لبنان من قتال عظيم على نهر بيروت دام اياماً حتى انهزموا وقتل منهم بعضهم واسر بعضاً، فارسل الرؤوس والأسرى الى بغداد ، فعرض الامر على الخليفة واكرموا رسله ، وكتب المتوكل اليه كتاباً يمدح شجاعته ويحرضه على القتال ، واقره على ولايته هو وذريته ، وارسل له سيفا ومنطقة وشاشاً اسود ، وكتب اليه اخوه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها فزينت البلاد واشتد امره وعظم شأنه وفي بعض الروايات ان القتال على نهر الكلب دام سبعة ايام . فانكسر عسكر المسلمين وقتل المقدم سمعان وأقيم مكانه خاله المقدم كسرى وهو الذي ذهب الى القسطنطينية ثم عاد الى بلاده وكانت خربت من تواتر الغارات عليها فعمرها وسميت باسمه كسروان . ومنها خروج رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشمي يقال له بكار بين سلمية وحلب وحمص فدعا سنة ٢٦٨ لابي احمد الموفق، فحاربه ابن عباس الكلابي فانهزم الكلابي، ووجه اليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائداً في عسكر كثيف فرجع وليس معه كثير احد .

ومنها مخالفة لؤلؤ غلام ابن طولون على مولاه سنة ٢٦٩ وكان في يد لؤلؤ حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة وسار الى بالس ونهبها ، وكاتب الموفق في المصير اليه ثم سار اليه ، ولما وثب خلف عامل ابن طولون سنة ٢٦٩ بيازمان الخادم في الثغور الشامية امر الموفق بلعن احمد بن طولون على المنابر . وفي هذه السنة ايضاً كتب احمد بن طولون الى اهل الشام يدعوهم الى نصر الخليفة وفيه غزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية خلف الفرغاني عامل ابن طولون ، فقتل من الروم بضعة عشر الفاً وغنم الناس . وبلغ ابن طولون قدوم عرب من الحجاز الى حوران فارسل الى صحراء أذرعات نحو خمسين الفاً فتلقاهم الامير عامر الملقب بالاذرعي بخمسة عشر الفاً فكسرهم . والامير عامر هو من نسل الحرث بن هشام المخزومي الذي ارسله الخليفة الثاني الى الشام مع ابي عبيدة بن الجراح اميراً على بني مخزوم فسكن ولده حوران وتولوا الاعمال للأمويين ثم للعباسيين وسموا ببني شهاب نسبة للامير شهاب المخزومي والي حوران المتوفى سنة ١٧٣ ثم انتقلوا الى وادي التيم ولبنان وحكموها في ادوار مختلفة .

***

عهد ابي الجيش خمارويه وجيشه — خلف احمد بن طولون ابنه ابو الجيش خمارويه وكان على قدم ابيه في الاستكثار من العَدد والعُدد وترتيب الرواتب الدارة والمشاهرات والجرايات لجيشه وغيره . وقد بلغ جيشه في الشام ومصر نحو اربعمائة الف فارس على ما روى اصحاب السير . ولا شك ان مثل هذا الجيش وما يلحقه من الرجالة والمتطوعة تُفتح به ممالك الخلافة العباسية كلها . وربما كان جيشه وجيش ابيه من قبله اول جيش جعل على الدواء تحت السلاح وعلى قدم الطلب . ولم يكن القصد من ذلك الا التغلب حين سنوح الفرصة على البلاد والمناداة بالخلافة لبني طولون لانها تمت لهم ادواتها الا الشرف العباسي والنسبة الى بني هاشم الكرام مما يصعب فيه التدبير ولا يشرى بمال ولا ينال بحيلة .

ولما بايع الجند ابا الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بعد وفاة ابيه ، امر بقتل اخيه العباس لامتناعه عن مبايعته ، وعقد لابي عبدالله احمد الواسطي على جيش الشام ، وعقد

لسعد الاعسر على جيش آخر ، وبعث بمراكب في البحر لتقيم على السواحل الشامية ، فنزل الواسطي فلسطين وهو خائف من خمارويه ان يوقع به لانه كان اشار عليه بقتل اخيه العباس ، فكتب الى ابي احمد الموفق اي المعتضد يصغر امر خمارويه ويحرضه على المسير اليه فأقبل من بغداد وانضم اليه اسحق بن كنداج ومحمد بن ابي الساج ، ونزل الرقة فتسلم قنسرين والعواصم وسار الى شيزر ، فقاتل اصحاب خمارويه وهزمهم ودخل دمشق فخرج خماريه في جيش عظيم لعشر خلون من صفر سنة احدى وسبعين ، فالتقى واحمد بن الموفق بنهر ابي فطرس (العوجاء) المعروف بالطواحين من ارض فلسطين واقتتلا ، فانهزم اصحاب خمارويه وكان في سبعين الفاً وابن الموفق في نحو اربعة آلاف ، واحتوى على عسكر خمارويه بما فيه ومضى خمارويه الى الفسطاط . واقبل كمين له عليه سعد الاعسر ولم يعلم بهزيمة خمارويه فحارب ابن الموفق حتى أزاله عن المعسكر وهزمه اثني عشر ميلاً ومضى الى دمشق فلم يفتح له ، وسار سعد الاعسر والواسطي فملكا دمشق ، وخرج خمارويه من مصر فوصل الى فلسطين ثم عاد الى مصر ثم خرج سنة ٧٢ فقتل سعد الاعسر ودخل دمشق لسبع خلون من المحرم سنة ٧٣ .

قال ابن عساكر : وسعد الاعسر ويقال الاعسر التركي ولي امرة دمشق من قبل ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون (٢٧٢) ولما قتل في قصر نخلة فيما بين الرملة وبيت المقدس اضطرب الناس بدمشق . وكان سعد الاعسر قد فتح طريق الشام للحاج لان الأعراب كانوا قد تغلبوا على الطريق قبل ولايته ، وكان قد بطل الحج من طريق الشام ثلاث سنين ، فخرج سعد الى الاعراب وواقعهم وقتل منهم خلقا عظيماً وفتح الطريق للحاج ، وكانت وقائعهم في المحل المعروف بالقسطل ، فأحبه اهل دمشق واغتموا لقتله فناح الناس بدمشق وضجوا في مسجدها الأموي ودعوا على من قتله ، وافتتن البلد حتى وافاهم ابو الجيش بن خمارويه فمهد البلد والناس وبعث الى طريق الحاج من اصلحها ، وفرق في دمشق مالاً عظيما على الفقراء والمساكين والمستورين وأهل العلم ، ومال اليه أهل دمشق وأحبوه اهـ . قال بعضهم ولما تغلب الاعراب على بعض نواحي دمشق وجه اليهم « طباره جي ? » فقتل منهم مقتلة عظيمة .

ثم سار ابو الجيش خمارويه لقتال ابن كنداج فكانت على خمارويه ، فانهزم اصحابه وثبت هو في طائفة ، فهزم ابن كنداج وابتعد حتى بلغ اصحابه سرّ من رأى ثم اصطلحا وتظاهرا ، وأقبل الى خمارويه فأقام في عسكره ودعا له في اعماله التي بيده . وكاتب خمارويه ابا احمد الموفق في الصلح فأجابه الى ذلك ، وكتب له بذلك كتاباً بولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات ، وبعبارة أخرى ولاه من الفرات الى برقة ، فأمر خمارويه بالدعاء لابي احمد الموفق وترك الدعاء عليه بعد ان كان خلعه من العهد . ثم بلغه مسير محمد بن أبي الساج الى اعماله الشمالية فخرج اليه ولقيه في ثنية العقاب من دمشق فانهزم اصحاب ابن أبي الساج وثبت هو فحارب حتى هزمه اقبح هزيمة ، واستبيح عسكره قتلاً وأسراً واتبعه جيش الى الفرات . وفي ذلك يقول البحتري :

وقد تولت جيوش النصر منزلة على جيوش ابي الجيش بن طولونا
يوم الثنية اذ ثنى بكرته خمسين الفاً رجالاً اويزيدونا

***

عهد جيش بن خمارويه وظهور القرامطة وانقراض الطولونية

وفي ايام الامير خمارويه بن احمد بن طولون استقامت شؤون الديار المصرية وانصلحت أحوال الناس ، ومع ان ايام المعتضد العباسي كانت ايام فتوق وخوارج كثيرين فقد حمدت سيرته . ولي والدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً كما قال المؤرخون حتى عمرت مملكته ، وكثرت الاموال ، وضبطت الثغور ، وكان قوي السياسة ، شديداً على أهل الفساد ، حاسماً لمواد أطماع عساكره عن اذى الرعية ، محسناً الى بني عمه من آل ابي طالب . وفي سنة ٢٨٢ ذبح ابو الجيش خمارويه في دمشق على فراشه ، ولما بلغ المعتضد ذلك قتل من خدمه الذين باشروا قتله نيفاً وعشرين خادماً . وكان مقتل خمارويه في قصره بسفح قاسيون أسفل دير مران بدمشق بعد ان فتح الشام كله ، ولم يسع الخليفة الا اقراره على عمله والاكتفاء بمال يحمل اليه في بغداد وخلفه ابنه جيش بن خمارويه فخلعه طغج بن جف امير دمشق سنة ٢٨٣ واختلف جيش حبيش عليه لصباه وتقريبه الاراذل

وتهديده قواد أبيه ، فثـاروا عليـه وقتلوه ، ونهبوا داره ونهبوا مصر واحرقوها ، واقعدوا هارون بن خمارويه في الولاية ، وعصا هارون بن خمارويه على الخليفة ، وبعد حروب كثيرة عقد الصلح بين الخليفة العبـاسي وبين هارون سنة ٢٨٦ فبقيت حلب للخليفة ومازالت الدولة بالفعل في الشام ومصر لبني طولون وبالاسم لبني العباس حتى سنة ٢٩٢ ، وقد بعث الكتفي العبـاسي مع محمد بن سليمان احد قواد بني طولون وكاتب جيشهم ، وكان استوحش منهم فلحق بالمعتضد فاستولى على دمشق ثم سار الى مصر وذبح ابناء بني طولون وهم عشرون انساناً ، ذبحهم بين يديه هم وقوادهم كما تذبح الشياه ، واشخص من ابقى عليه من آلهم وقوادهم الى بغداد ، فانقرضت بذلك الدولة الطولونية ٠

ومن الاحداث في اواخر ايامهم في الشام ، حفر اؤلؤ والي المعرة غلام وصيف بن صوارتكين امير حمص خنـدقاً على معرة النعمان ، وحاصره سنة ٢٨٧ جهير بن محمد التنوخي وبنو كنانة وطال القتال ولم يفتحها وفي سنة ٢٨٩ كانت حروب بالشام بين طغج بن جف الفرغاني عامل دمشق وحمص والأردن لهارون بن خمـارويه وبين القرامطة بالموضع المعروف بوادي القردان والافاعي من أعمال دمشق ٠ وفي هذه السنة ظهر بالشـام رجل جمع جموعاً كثيرة من الاعراب وغيرهم ، فأتى بهم دمشق وبها طغج بن جف من قبل هارون بن خمارويه بن احمد بن طولون على المعونة (الشحنة) فكانت بين طغج وبينه وقعات كثيرة قتل فيها خلق كثير ٠ وفي السنة التاليـة اشتدت شوكة القرامطة حتى هزموا جيش طغج وحصروا دمشق ثم اجتمعت عليهم العساكر وقتلوا مقدمهم يحيى المعروف بالشيخ فقام في القرامطة اخوه الحسين وتسمى باحمد وأظهر شامة بوجهه زعم انهـا آيته فسمي بصاحب الشامة وكثر جمعه ، فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه ، وتقرمط اكثر من حول دمشق من الغوطـة وغيرها وعاضدوه ، ثم انصرف عن دمشق فغلب على حمص ، وخطبوا له على منـابرها وتسمى بالمهدي امير المؤمنين ثم ساروا الى حماة والمعرة وغيرهما وقتل اهلها حتى الاطفال والنساء وأخذ سلمية بالامان فبدأ بمن فيها من بني هاشم وكانوا جماعة فقتلهم أجمعين ثم قتل البهائم وأباد اهل بعلبك ٠ وأرسل اليهم المكتفي بالجيوش من بغداد ، وكانت

هذه الوقعة هائلة بين عساكر الخليفة وصاحب الشامة القرمطي وأصحابه بمكان بينه وبين حماة اثنا عشر ميلاً . وذكروا ان مكان هذه الوقعة هو تمنع قرية في بلدة المعرة على الطريق الآخذة من حماة الى حلب . قالوا : ان ابن المزولد القرمطي كانت له وقائع كثيرة بالشام ، وأخرب مدناً وقرى منها ، وقتل طغج امير دمشق ، وحاصر دمشق ولم يقدر على دخولها ، وجاءت اليه عساكر من مصر ، فكانت بينهم وقائع وقتل في المعركة سنة تسعين ومائتين وكان يسمى صاحب الجمل هو واخوه ابنا زكرويه بن مهرويه القرمطي الذي خرج على الحاج وقتل منهم خلقاً كثيراً . وفي سنة ٢٩١ غزا غلام ظرافة الروم في انطاكية وفتحها وقتل نحو خمسة آلاف وأسر مثلهم واستنقذ من اسارى المسلمين ٤٠٠٠ وغنم ستين مركباً للروم وكانت الفاً .

هذا ما تم في الشام منذ قيام الدولة الطولونية الى انقراضها اي في ثمان وثلاثين سنة . وبالحقيقة ان روح الطولونيين هي روح العباسيين تطورت بتطور البلاد التي استولوا عليها . ولم يسكت العباسيون عن تغلبهم على كثرة ما بذل الطولونيون من اسباب التقرب من خلفاء بغداد . تقربوا اليهم بالصهر والاموال والطاعة فلم يرضوا عنهم . ولما قوي جيش العباسيين قتلوا خصومهم وقوضوهم وقوادهم آخر الدهر .

وفي استيلاء الطولونيين على الشام شعرت الامة انها مستقلة عن العباسيين ، وان في استطاعتها اذا جهزت لها جيشاً عظيماً كجيش احمد بن طولون وابنه خمارويه ان تستقل كل ساعة ، لان قوة بني العباس لم تعد كما كانت ، بمعنى ان ابن طولون كشف ستر القوة في الخلافة فطمع فيها عمال الاطراف . والدولة الطولونية دولة عمران وفضائل سارت في هديها على هدي اتقى خلفاء بني العباس ، وعمرت البلاد في ايامها ورأت مصر والشام انهما اذا ألفتا حكومة واحدة تصبحان دولة قوية يرهب بأسها . وقد اكثر الشعراء من رثاء الدولة الطولونية ومما قاله بعضهم :

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد اهله لفقدهم فليبك حزناً على مصر
ليبك بني طولون اذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر

دور الدولة العباسية الاوسط

« الاخشيدية والحمدانية والفاطمية »

٢٩٢ — ٣٦٤

القرامطة والبوادي والخوارج

لم يكف الشام ما ثار فيها من الفتن والحروب الاهلية ، حتى جاءها القرامطة من العراق يعيثون في ارضها ، و يقتلون سكان المدن والقرى ، و يبثون دعوتهم في النفوس [1] . وهم خوارج قطعوا السابلة واهلكوا الحجاج . نشأوا في ايام المكتفي العباسي وكانت اول وقعة لهم في الشام سنة ٢٨٩ وهزموا في السنة التالية جيش طغج بن جف الفرغاني وحصروا دمشق ثم اجتمعت عليهم العساكر وقتلوا مقدمهم يحيى المعروف بالشيخ ، فقام في القرامطة اخوه الحسين وتسمى باحمد ، واظهر شامة بوجهه زعم انها آيته ، فسمي بصاحب الشامة وكثر جمعه ، فصالحه اهل دمشق على مال دفعوه ، وتقرمط اكثر من حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوه ، ثم انصرف عن دمشق فغلب على حمص وخطبوا له على

---

(١) القرامطة منسوبون لحمدان قرمط ، لُقّب بذلك لقرمطته اي تقريبه في خطه او خطوه . ودعوة القرامطة من الدعوات الباطنية وهؤلاء دهرية يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها يميلون كما قالوا الى استباحة كل ما يميل اليه الطبع وشعارهم : ادع الناس بان تتقرب اليهم بما يميلون اليه واوهم كل واحد منهم بانك منهم فمن آنست منه رشداً فاكشف له الغطاء

منابرها ، وتسمى بالمهدي اميرالمؤمنين ثم سار الى حماة والمعرة وغيرها وقتل اهلها حتى الاطفال والنساء . واخذ سلمية بالأمان فبدأ بمن فيها من بني هاشم وكانوا جماعة فقتلهم اجمعين ثم قتل البهائم ، ووجه الى بعلبك فاباد اهلها ، وكانت الوقعة الفاصلة (٢٩١) بين عساكر الخليفة التي وجه بها من بغداد بمكان بينه و بين حماة اثنا عشر ميلاً اسمه تمنع ، وهي قرية قرب المعرة على الطريق الآخذة من حماة الى حلب .

وكانت عساكر الدولة الطولونية وافت دمشق (٢٩٠) فواقعوا القرمطي بالموضع المعروف بكناكر وكوكب من اقليم وادي العجم ، فاصبح القرامطة بين جيشين جيش الطولونيين من امامهم وجيش الخليفة من ورائهم . وكان من امر جيش العراق ان وصل من طريق الموصل الى وادي بطنان قرب حلب وفي جملة قواده ابو الاغر فنزع فيما ذكر جماعة من اصحابه ثيابهم ، ودخلوا الوادي يتبردون بمائه ، وكان يوماً شديد الحر ، فبينا هم كذلك اذ وافى جيش القرمطي المعروف بصاحب الشامة وقد بدرهم المعروف بالمطوق فكبسهم على تلك الحالة فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وانتهب العسكر وافلت ابو الاغر في جماعة من اصحابه ، فدخل حلب وأفلت معه مقدار الف رجل ، وكان في عشرة آلاف بين فارس وراجل ، وكان قد ضم اليه جماعة ممن كان على باب السلطان من قواد الفراغنة ورجالهم ، فلم يفلت منهم الا اليسير ، ثم صار اصحاب القرمطي الى باب حلب فحاربهم ابو الاغر ومن بقي معه من اصحابه واهل البلد ، فانصرفوا عنه بما اخذوا من عسكره من الكراع والسلاح والاموال والامتعة ، بعد حرب كانت بينهم ، ومضى المكتفي بمن معه من الجيش حتى انتهى الى الرقة فنزلها وسرح الجيوش الى القرمطي جيشاً بعد جيش .

وكان المكتفي العباسي عهد بامارة الشام الى احمد كيغلغ سنة ٢٩١ — فبقي بها ايام المكتفي والمقتدر والقاهر ولم يصرفه عنها الا الراضي سنة ٣٢٣ — وهو معروف بطاعته للخلفاء وشجاعته ، وسار ابن كيغلغ الى مصر لقتال الخليجي الثائر ، فواقعه بالقرب من العريش فانهزم اقبح هزيمة فطمعت القرامطة في دمشق لغيبة ابن كيغلغ عنها ، فنهبوا فيها وساعدهم ان بعض السكان دانوا بمذهبهم ، ثم سار القرامطة الى طبرية (٢٩٣) وقتلوا اكثر اهلها رجالاً ونساء واولاداً . وقال المسعودي : ان القرمطي

الذي خرج يكنى اباغانم وقد خرج في جمع من كلب وقوي امره وكثر اتباعه فوجه الخليفة الى القرامطة الحسين بن حمدان بن حمدون فحاربهم الى ان ظفر بهم واحضر رأس صاحبهم الى بغداد ، وكان القرمطي في طريقه الى طبرية مرّ بمدينتي بصرى وأذرعات فحارب اهلها ثم أمّنهم ، فلما استسلموا له قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم واستاق اموالهم ، ثم نهض الى دمشق فخرج اليه من كان بقي بها مع صالح بن الفضل خليفة احمد بن كيغلغ ، فقتل صالحاً وفض عسكره ، ولم يطمع في دمشق اذ دافعهم اهلها عنها .

وبالحزم الذي اظهره المكتفي في قتال القرامطة بالشام وبالجيوش الكثيرة التي سرحها من بغداد وسرّحت له من مصر اضمحل امر هؤلاء الباطنية الآن ، ولم يبقَ لهم امل بعد في ملك ولا مال ، وانفض عنهم جماعة الاعراب والمتلصصة ، ومن قال بقولهم ، وشايعهم على قيام امرهم من البوادي ، ولولا ذلك الحزم لا وشكوا ان ينشئوا لهم ملكاً بالشام وقد اتخذوا اسبابه ، ومال اليهم بعض العامة على اهوائهم ، ولو ظفروا في وقعة او وقعتين لتمت أمنيتهم ، ونشأت في الشام دولة جديدة لهم . وكان ادعى القائمون بها الشرف وانهم يمتون بالقرابة الى آل البيت . قال بعض المؤرخين : ان القرمطي في الشام المكنى ابا القاسم كان ينتمي الى آل ابي طالب .

واستطاب بعض اعراب الشام على عادتهم ، ما اصابوا من حلواء المغانم في ايام القرامطة ، فعاث بنو تميم في اعمال حلب وافسدوا فساداً عظيماً وحاصروا واليها زكا بن الاعور . فكتب المقتدر بالله الى الحسين بن حمدان في انجاد زكا بحلب ، فكانت وقعة بين الحسين بن حمدان وأعراب كلب والنمر واسد وغيرهم (٢٩٤) فاجتمعوا عليه وهزموه حتى بلغوا به باب حلب ثم أسر منهم وقتل . وفي سنة ٢٩٨ كان دخول فارس صاحب مراكب الروم وحربها الى ساحل الشام فافتتح حصن القبة بعد حروب طويلة وعدم مغيث يغيثهم من المسلمين وافتتح مدينة اللاذقية فسبى منها خلقاً كثيراً .

ومن اهم الاحداث ما وقع من الهيج بدمشق في زمن رصيف المكتمري الذي ولي أمارة دمشق في ايام المقتدر بعد هلال بن بدر (٣١٦) وفي ايامه خلع المقتدر المرة

الثانية ثم رجعت اليه الخلافة ، فطلب الاولياء من الكثمري البيعة له بدمشق فامتنع عليهم ، فركبوا الى داره بالسلاح والنفاطات . وكانت دار الامارة في تلك الايام خارج لؤلؤة الصغيرة على نهر بانياس فأحرقوها وبقيت صحراء . وفي هذا الدور سار (٣١٩) طريف بن عبد الله السكري الخادم والي حلب على بني القصيص التنوخيين وحاصرهم في حصونهم باللاذقية وغيرها فحاربوه حرباً شديدة ثم نزلوا على الامان .

ومن أهم الكوائن في خاتمة القرن الثالث ظهور ابن الرضا وهو محسن بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد في اعمال دمشق في سنة ثلاثمائة ، وكانت له مع ابي العباس احمد بن كَيْغَلَغ وقعة فقتل صبراً ، وقيل قتل في المعركة وحمل رأسه الى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي ذكر ذلك المسعودي . ولو تم الامر لابن الرضا لقامت دولته قبل دولة الفاطميين .

***

الدولة الاخشيدية — ظن بنو العباس انهم نجوا من ثائر ينا ب دولتهم العداء في الشام ومصر يوم قضوا على ابناء طولون وقوادهم وقرضوا الدولة الطولونية آخر الدهر ، وقتلوا ابن الرضا القائم بتأسيس دولة علوية جديدة ، كما قتلوا القرمطي القائم بدعوة متدرعة بالعلوية . وما كانوا يظنون ان تظهر لهم في الحال دولة أخرى قامت على أنقاض الطولونية وان لم تكن مثلها استعداداً وعدلاً فليست دونها من اكثر الوجوه والاعتبارات . ظهرت لهم الدولة الإخشيدية او دولة بني طُغج . والإخشيد كلمة فارسية معناها ملك الملوك ومعنى طُغج عبد الرحمن ، ورأس هذه الدولة ابو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين بن فوري بن خاقان . وكان جُف جد الإخشيد قد سار من فرغانة الى المعتصم العباسي ، فأكرمه وأقام معه الى ان توفي المعتصم ، فصحب ابنه الواثق الى ان توفي ، ثم صحب أخاه المتوكل الى ان توفي جُف . وكان احمد بن طولون قد قلده ديار مصر . ولما توفي ابن طولون صار طغج مع ابنه أبي الجيش فولاه دمشق وطبرية الى ان قتل أبو الجيش وولي ابنه جيش . ولما بويع هرون بن ابي الجيش ، ولي طغج دمشق وطبرية ، وتولى طغج

قتال صاحب الخال القرمطي سنة تسعين ومائتين الى ان ظفر به ، وكان لطغج من الولد سبعة ذكور الإخشيد احدهم .

ولم يزل طغج على دمشق وطبرية وابنه محمد المعروف بالإخشيد يخلفه على طبرية . وكان بطبرية ابو الطيب محمد بن ابي حمزة العلوي ، وكان وجه طبرية شرفاً وملكاً وقوة وعنافاً . فكتب الاخشيد الى أبيه طغج يذكر له انه ليس له امر ولا نهي مع ابي الطيب العلوي ، فكتب اليه أبوه : أعز نفسك . فأسرى محمد بن طغج على ابي الطيب في بستان له فقتله . ولم يزل طغج ايام ابي الجيش على دمشق وطبرية وأيام جيش وايام هرون بن ابي الجيش الى ان قتل هرون وانقرضت الدولة الطولونية . فمات طغج في حبس العباس بن الحسن وزير العباسيين ، ونجا من محبسه بعد مدة ابنه الاخشيد ، وهرب الى الشام قاصداً احمد بن بسطام عاملها ، وبقي معه يخدمه ، ثم تقلد ابن بسطام مصر فسار معه الإخشيد ، وكان معه الى ان توفي سنة سبع وتسعين ومائتين ، فصار مع ابنه ابي القاسم علي وحضر الاخشيد مع تكين الخاص وقعة حسن فيها اثره فولاه تكين عمّان وجبل الشراة . واتفق له وهو على عمان والشراة في سنة ٣٠٦ ان حاج الشام وفيهم جماعة من أهل العراق تمد له جمع من لخم وجذام فجمع عسكره ولقيهم ومعه اخوه علي بن طغج فهزمهم فصار له شأن في العراق وذاعت كفايته وامانته .

وتقلد محمد بن طغج الملقب بالإخشيد مصر من جهة الراضي وكان قبل ذلك تولى مدينة الرملة سنة (٣١٦) من جهة المقتدر وأقام بها الى سنة ٣١٨ فوردت اليه كتب المقتدر بولايته دمشق فسار اليها وتولاها ، وكان حينئذ المتولي على مصر احمد ابن كيغلغ فلما تولى الراضي عزل احمد بن كيغلغ وولى ابن طغج مصر وضم اليها البلاد الشامية فاستقر ابن طغج بها سنة ٣٢٣ وما شب ابن طغج وهو يتولى اعمال المعاون اي الشحنة في الشام علاوة على أعمال المعاون في مصر وقلد بدراً الخرشني دمشق ، واحمد بن سعيد الكلابي شيخ قبيلة بني كلاب حلب حتى كثر بذلك الكلابيون وزاد نفوذهم — ان خلع طاعة الخليفة العباسي ، فندب الخليفة محمد بن رائق الى الشام وأقطعه اياها على ان يستخلصها من الإخشيدية فاستولى ابن رائق سنة ٣٢٨

عليها وطرد بدراً نائب الاخشيد وولي إمرة دمشق محمد بن يزداد الشهرزوري (فلم يزل عليها الى ان قتل محمد بن رائق بالموصل (٣٣٠) فقدم الاخشيد محمد بن طغج فاستأمن اليه محمد بن يزداد فأقره على إمرة دمشق خلافة له) . و بلغ ابن رائق العريش يريد مصر فخرج اليه الاخشيد واقتتلا فانهزم ابن رائق الى دمشق .

ثم جهز الاخشيد الى ابن رائق جيشاً مع أخيه واقتتلوا ، فانهزم عسكر الاخشيد وقتل أخوه ، فأرسل ابن رائق يعزي الاخشيد في أخيه ويقول له: انه لم يقتل بامري ، وأرسل ولده مزاحم وقال له : ان احببت فاقتل ولدي به . فخلع الاخشيد على مزاحم وأعاده الى ابيه . فاستقرت مصر للاخشيد الى حد رملة فلسطين ، والشام لابن رائق من طبرية . وفي السنة التالية بعث الاخشيد من مصر قائده كافوراً الى الشام في جيش عظيم فهزم عامل ابن رائق واستولى على حلب ، وأفسد أصحابه في جميع النواحي وقطعت الاشجار التي كانت بظاهر حلب وكانت عظيمة جداً ، ونزل عسكر الاخشيد على الناس بحلب و بالغوا في اذاهم .

وبعد سنة عقد الصلح بين الاخشيد وابن رائق فاستأثر هذا بولاية حلب ، وانفرد الاخشيد بدمشق ، يصادر اغنياءها و يستصفي أموالها ، وكان ظالماً مستبداً . وقد وجد بداره قبل مسيره عن مصر الى الشام رقعة مكتوب عليها : « قدرتم ، فأسأتم ، وملكتم ، فبخلتم ، ووُسّع عليكم ، فضيقتم ، وأُدرّت عليكم الارزاق ، فقطعتم ارزاق العباد ، واغتررتم بصفو أيامكم ، ولم تتفكروا في عواقبكم ، واشتغلتم بالشهوات ، واغتنام اللذات ، وتهاونتم بسهام الاسحار ، وهن صائبات ، ولا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها ، واكباد اجعتموها ، واجساد أعريتموها ، ولو تأملتم في هذا حق التأمل لانتبهتم ، او ما علمتم ان الدنيا لو بقيت للعاقل ، ما وصل اليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى ، ما نالها من بقي ، فكفى بصحبة ملك يكون في زوال ملكه فرح للعالم ، ومن المحال ان يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم احد ، و يبقى المنتظر به ، افعلوا ما شئتم فانا صابرون ، وجوروا فانا بالله مستجيرون ، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فانا بالله واثقون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

قالوا وقد بقي الاخشيد بعد سماع هذه الرقعة في فكر ، وسافر الى دمشق فمات

فيها سنة ٣٣٤ ولم تطل دولته غير سنتين فهو في الحقيقة مؤسسها سنة ٣٢٣ (٩٣٥) وأيام حكمه من حيث المجموع كانت احدى عشرة سنة سافر فيهـا خمس مرات من مصر الى اعداء يقاتلهم ٠ الاولى لما بلغه مسير محمد بن رائق فتجهز الى الفَرَما واصطلحا، والثانية لما نقض ابن رائق الصلح فسار اليه والتقيا بالعريش وانهزم الاخشيد ، والثالثة لما قتل ابن رائق فسار الي دمشق في عديده ، والرابعة حين ورد اليه كتاب المتقي بالمسير اليـه ، والخامسة لما زحف عليه سيف الدولة بن حمدان فخف اليه واقتتلا بقنسرين ثم اصطلحا وتصاهرا ونفارا ٠

وكانت للاخشيد سياسة حسنة مع جميع رعاياه اي انه كان بارعًا بما نسميه اليوم « سياسة العنـاصر » ٠ كتب الى ارمانوس ملك الروم : « وسياستنا لهـذه المالك قريبها وبعيدها ، على عظمتهـا وسعتها ، بفضل الله علينـا ، واحسانه الينا ، ومعونته لنا ، وتوفيقه ايانا ، كما كتبت الينـا ، وصحّ عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الاولياء والرعيـة ، ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الامن والدعة في المعيشة ، ويكسبها المودة والمحبة »٠

وفي أواخر ايام الاخشيديين (٣٥٢) خرج في برية الشراة خارجي من بني سليم يسمى محمد بن احمد السلمي واجتمع اليـه خلق كثير من العرب ومن غيرهم ومن أهل الطمع وقوي امره وكثر جمعه ، فبلغ كافور الاخشيد خبره وكان الشـام يومئذٍ بيده ، فأنفذ عسكراً خوفاً من حادث يحدث وتقدم الى أصحـابه ان لا يبتدؤه بحرب ولا قتال وطال مقامه واياهم على تلك الحال ، فأسرى عليه في بعض الليالي رجل من العرب يعرف بثمال الخفاجي من بني عقيل وأخذه أسيراً وحمله الى مصر فشهر بهـا راكبًا فيلاً واعتقل مدة ثم عفي عنه وخلي سبيله ٠

ولما تفرد كافور بالامر (٣٥٥) جعل الحسن بن عبيد الله بن طغج على الشام مستخلفًا من قبله ، وكان في بيت المقـدس والٍ يعرف بمحمد بن اسماعيل الصنهاجي اضطهد بطريق القدس وكان ابى مقابلته فهجم عليه الوالي في اشياعه وأحرق أبواب كنيسة القيامة وسقطت قبتها ونهبوا كنيسة صهيون وأحرقوها ٠ قال ابن بطريق : وهدم اليهود وخربوا اكثر من المسلمين ثم قتل البطريق ولما مات كافور (٣٥٦)

ونصب مكانه ابو الفوارس احمد بن علي الاخشيد وكان طفلاً عمره احدى عشرة سنة على ان يخلفه ابن عم ابيه الحسن بن عبيد الله بن طغج وكان بالشام فوقع الخلاف بين الاخشيدية وصار كل واحد يتسمى بالامير وكثر التحاسد فكتب جماعة منهم الى المعز الفاطمي صاحب المغرب يستدعون منه انفاذ جيشه الى مصر ليتسلمها وضمنوا له المعونة وعلى هذا انتهت ايام الاخشيديين ·

* * *

الدولة الحمدانية } بعث الخليفة العباسي محمد بن رائق لينقذ الشام ومصر من الاخشيد محمد بن طغج ، فلم يضرب ابن رائق ابن طغج ضربة قاسية ، واكتفى بان ترك له مصر الى الرملة رملة فلسطين (٣٢٩) وقعد في القسم الاكبر من الشام — مقابل جزية سنوية قدرها مئة واربعون الف دينار — اميراً يحاول ان يقيم له فيه دولة ، عصا بالشام فقام يناجزه ناصر الدولة بن حمدان القتال وكان هذا استأثر بالموصل والجزيرة فقتل ابن رائق (٣٣٠) وكتب بالامر الى الخليفة المتقي بالله فحل ذلك من نفسه محلاً عظيماً ، ولقبه ناصر الدولة ولقب شقيقه علياً سيف الدولة وهذا هو صاحب الدولة التي اشتهر امرها في حلب وما اليها · وبنو حمدان بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية ·

سار سيف الدولة (٣٣٣) الى حلب فلقي فيها يأنس المؤنسي ففارقها يأنس ، واستأمن اليه في قطعة من الجيش فاستولى عليها سيف الدولة ، وسار الى دمشق واقام الدعوة للمستكفي ولاخيه ولنفسه ، فخلع المستكفي على سيف الدولة وعلى الإخشيد لان هذا اقام الخطبة له بمصر والبلاد التي تحت حكمه ايضاً · ولما بويع المطيع بالخلافة سار مع الإخشيد وابن حمدان بسيرة المستكفي على قدم التوازن السياسي ، فكتب الى الاخشيد بالتقليد ، فتكافأ الاخشيد وسيف الدولة ، وهدأت الفتن واستقامت الطرق ·

ولما بلغ الاخشيد ان سيف الدولة سار الى حمص يريد دمشق جرد عسكراً كبيراً وجعل عليه اربعة قواد فساروا الى دمشق وعبوا عساكرهم ، ثم ساروا الى حمص فالتقوا مع سيف الدولة بالرستن من ارض حمص فهزمهم سيف الدولة ، فعادوا

الى دمشق ثم خرجوا عنها يريدون الرملة ثم قصدوا الى مصر وسار سيف الدولة في اثرهم يريد دمشق ، وكتب الى اهل دمشق كتاباً قرئ على منبر جامعها وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : من سيف الدولة ابي الحسن الى جماعة الاشراف والعلماء والاعيان والمستورين بمدينة دمشق ٠

« اطال الله بقاءكم ، وادام عزكم وسعادتكم ، وكفايتكم ونعمتكم ، كتابنا اليكم من المعسكر المنصور بظاهر عين الجر عن سلامة ، وجميل كفاية ، لموليها خالص الدعاء والشكر ، وقد علمتم اسعدكم الله ، تشاغلي بجهاد اعدائي واعداء الله الكفرة ، وسبيهم وقتلي فيهم ، واخذي اموالهم ، وتخريبي ديارهم ، وقد بلغكم خبر القوانين (؟) في هذه السنة ، وما اولانا الله وخولناه ، واظفرنا به ، واستعملت فيهم السنة في قتال اهل الله فما اتبعت مدبراً ، ولا ذففت على جريح ، حتى سلم من قد رأيتم ، وقد تقدمنا الى وشاح بن تمام بصيانتكم وحفظكم ، وحوط اموالكم ، وفتح الدكاكين ، واقامة الاسواق ، والتصرف في المعاش ، الى حين موافاتنا ان شاء الله »٠

كتب الرجحان لجيش سيف الدولة على جيش الاخشيدية ، وسار كافور بعساكر مولاه الى مصر ، فاقام سيف الدولة بدمشق وجبى خراجها ، وجعل يطالب اهلها بودائع الاخشيد واسبابه ، وكان احداث دمشق قد نهبوها في يوم موت الاخشيد ، وظن ابن حمدان ان الامر تم له فجمع الى ملكه في الجزيرة ملك الشام ، وربما تطالَ بعد ذلك الى مصر ولم يعرف ما خبأته له الاقدار حتى زحزحته عن ملك دمشق ، واقتصرت دولته على حلب وماإليها ٠ وذلك انه اتفق ان كان يسير هو والشريف العقيقي بضواحي دمشق فقال سيف الدولة : ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد ٠ فقال له العقيقي : هي لاقوام كثيرة فقال سيف الدولة : لئن اخذتها القوانين السلطانية ليتبرؤا منها ٠

فاعلم العقيقي اهل دمشق بذلك ، فكاتبوا كافوراً يستدعونه من مصر ، فجاءهم ومعه انوجور بن الاخشيد فخرج سيف الدولة الى اللجون من بلاد نابلس ، واقام اياماً قريباً من عسكر الاخشيدية بقرية أكسال وكان في خمسين الفاً ، ونفرق عسكر سيف الدولة في الضياع لطلب العلوفة ، فعلم به الاخشيدية فرجعوا وركب سيف

الدولة فرآهم زاحفين في تعبية ، فعـاد الى عسكره فاخرجهم فنشبت الحرب فقتل من اصحابه خلق وأسر كذلك ، وانهزم سيف الدولة الى دمشق وسار من حيث لم يعلم اهل دمشق بالوقعة (٣٣٥) وجاء الى حمص وجمع جمعاً لم يجتمع له قط مثله من بني عقيل و بني نمير و بني كلب و بني كلاب ، وخرج من حمص ، وشخص عساكر الاخشيدية من دمشق ، فالتقوا بمرج عذراء على ساعتين من دمشق ، وكانت الوقعة اولاً لسيف الدولة ثم آخرها عليه ، فانهزم وملكوا سواده ، وتقطع اصحابه في ذلك البلد فهلكوا وتبعوه الى حلب فعبر الرقة .

لم يستطع سيف الدولة بعد وقعة أكسال ومرج عذراء ان ينال من الاخشيدية، وبقيت لهم دمشق وما وراءها حتى مصر لان اهل دمشق خافوا من مصادرات سيف الدولة ، يوم طالبهم بودائع الاخشيد واحب ان يملك غوطتهم ، فقابلوه له ظهر المجن ، ولم يغنه جيشه العظيم لان ابناء البلاد انصرفت قلوبهم عنه ، فاقتضى له ان يقاتل جيشين جيش الطامعين في استرداد البلاد وجيش البلاد نفسها وهو اعظم بأساً واشد تنكيلاً ، وظلت حلب لسيف الدولة لانه لم يأت على الاغلب فيها بادئ بدء ما اتاه من افعال الظلم . وحلب اقرب الى مهد عصبيته وهي الثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار بكر واصطلح سيف الدولة والاخشيد وصاهره وتقرر لسيف الدولة حلب وحمص وانطاكية .

وكانت علائق الاخشيديين كصلات الحمدانيين اسمية مع خلفاء بغداد واشتهر الاخشيديون وهم عجم بشحهم والحمدانيون العرب كانوا يغالون في الكرم وكان الاخشيديون من اهل السنة والحمدانيون يرون رأي الشيعة ولذلك كثر التشيع في شمالي الشام على عهدهم .

* * *

مغازي سيف الدولة

كان سيف الدولة يحمل بين جنبيه نفساً عظيمة ولطالما حارب الروم وغزاهم ومن الاحداث في ايامه احراق حصن فامية سنة ٣٣٨ نازله الدوقس في ثلاثين الفاً و حصره سبعة اشهر واشرف على اخذه فدفعه عنه صمصامة والي دمشق فقتل الدوقس وقتل من عسكره اربعة عشر

الفاً وأسر منهم خلق كثير وكسروا بعد ان ظهروا · ومنها اخذ سيف الدولة حصن برزويه من الاكراد بعد ان قاتلهم مدة · وفي السنة التالية خرج بسيل ملك الروم الى الشام وفتح شيزر بالامان لقلة رجالها · وفي سنه ٣٤٥ سار سيف الدولة الى بلاد الروم فغنم وسبى وفتح عدة حصون ورجع الى اذنة فأقام بها ثم ارتحل الى حلب · ومن غزواته غزوة سنة ٣٤٩ ، اوغل في بلاد الروم وفتح حصوناً ، فلما اراد الخروج من ارضهم اخذوا عليه الدرب الذي اراد الخروج منه ، فقطعوا الاشجار وسدوا بها الطرق ودهدهوا الصخور في المضايق على جيشه ، والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون · وكان مع سيف الدولة اربعمائة اسير من وجوه الروم فضرب اعناقهم ، وعقر جماله وكثيراً من دوابه · واحرق الثقل وقاتل قتال الموت ونجا في نفر يسير قيل في ثلاثمائة من غلمانه ، واستباح الدمستق اكثر الجيش واسر الامراء والقضاة ، ووصل سيف الدولة الى حلب ولم يكد · وكان جيشه ثلاثين الفاً · وارسل الدمستق الى سيف الدولة يطلب الهدنة فلم يجبه اليها مع ما حل به منه ، ثم جهز سيف الدولة جيشاً فدخلوا بلاد الروم من ناحية حران فغنموا وأسروا ، وغزا اهل طرسوس ايضاً في البر والبحر ، ثم سار سيف الدولة من حلب الى آمد (ديار بكر) فحارب الروم وخرب الضياع · قال ابن مسكويه في وقعة ٣٤٩ : وخرج اهل طرسوس من طريق آخر فسلموا ، والسبب في سلامتهم ومصاب سيف الدولة ، ان هذا الرجل كان معجباً ، يحب ان يستبد برأيه ، والا تحدث نفسان انه عمل برأي غيره ، وكان اشار عليه اهل طرسوس بان يخرج معهم ، لانهم علموا ان الروم قد ملكوا عليه الدرب الذي يريد الخروج منه وشحنوه بالرجال ، فلم يقبل منهم ولج ، فأصيب المسلمون بارواحهم ، وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه ·

واغار الروم مرة على اطراف الشام فسبوا واسروا ، فساق وراءهم سيف الدولة ولحقهم فقتل منهم مقتلة وافية ورد ما اخذوه · واستولى الروم سنة ٣٥١ على حلب دون قلعتها وعلى الحواضر ، وحصروا المدينة وثلموا السور ، وقاتل اهلها الروم اشد قتال فتأخر الروم الى جبل جوشن ، ثم وقع بين الحلبيين نهب فلم يبق على السور احد ، فهجم الروم على البلد وفتحوا ابوابه واطلقوا السيف وسبوا بضعة عشر الف صبي وصبية وغنموا

كثيراً واحرقوا ما بقي . وكان سيف الدولة غائباً وقاتل الدمستق عند عودته فقتل غالب اصحابه ، وظفر الدمستق بدار سيف الدولة في الدارين من ارض حلب فاخذ منهـا ثلاثمائة وخمسين بدرة من الدنانير [1] ما عدا السلاح والدواب . وكانت عدة عسكر الروم مائتي الف رجل منهم ثلاثون الفاً بالجواشن (الدروع) ، وثلاثون الفاً للهدم واصلاح الطرق من الثلج ، واربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد . وفي رواية ان جيش الروم كان ثمانين الف فارس ما عدا السواد وهو كثيرجداً ، وان سيف الدولة نادى في حلب من لحق بالامير فله دينار ، وانه انهزم الى ناحية بالس بعد ان قتل من جيشه من اهل حلب مدة ستة ايام جملة كثيرة من النـاس . قال الذهبي : وقتلوا الأسرى ثم عادوا الى القلعة فاذا طلائع قد اقبلت نحو قنسرين وكانت نجدة للروم فتوهم الدمستق انها نجدة لسيف الدولة فترحل خائفاً .

وفي سنة ٣٥٥ سار صاحب الروم الى الشام فعاث وافسد ، واقام به نحو خمسين يوماً فنزل على منبج واحرق الرَّبض وخرج اليه اهلها ، فأقرهم ولم يؤذهم ، ثم سار الى وادي بُطنان وسار سيف الدولة متأخراً الى قنسرين ، وقد ضيق رجاله والأعراب الخناق على الروم ، واخذت الروم اربع ضياع بما حوت ، فراسل سيف الدولة ملك الروم وبذل له مالاً يعطيه اياه في ثلاثة اقساط فقال : لاأجيبه الا ان يعطيني نصف الشام فان طريقي الى ناحية الموصل على الشام . فقال سيف الدولة : لا أُعطيه حجراً واحداً . ثم جالت الروم باعمال حلب ، وتأخر سيف الدولة الى ناحية شيزر، وأنكت العرب في الروم غير مرة وكسبوا كثيراً ونزل عظيم الروم على انطاكية يحاصرها ثمانية ايام ثم رحل عنها .

قل المنتقضون على سيف الدولة لبطشه وممن خالفه بنو كلاب (٣٤٣) فحاربهم وكان اصطنعهم حتى استطالوا على العرب وأوقع ببني عقيل وقشير وبني العجلان وبني كلاب حين عاثوا في عمله وخالفوا عليه . وهذه الغزوات تعد في باب المناوشات لا الحروب مثل غزوة سيف الدولة للمبرقع الذي دعا النـاس الى نفسه والتفت عليه القبائل وافتتح مدائن من أطراف الشام وأسر ابا وائل تغلب بن داود بن حمدان ،

(١) البدرة كيس فيه الف او عشرة آلاف درهم او سبعة آلاف دينار .

وهو خليفة سيف الدولة على حمص ، وألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل وجملة من المال ، فاسرى سيف الدولة من حلب حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق فأوقع به وقتله ووضع السيف في أصحابه فلم ينج الا من سبق فرسه وعاد سيف الدولة الى حلب ومعه ابو وائل وبين يديه رأس الخارجي على رمح . وممن خالفه اهل انطاكية سنة ٣٥٤ وعليهم رشيق النسيمي فسار الى جهة حلب وحاصر قلعتها ثلاثة اشهر وعشرة ايام وقاتل قرعويه غلام سيف الدولة وعامله قتالاً شديداً وكان هذا بميافارقين فأرسل عسكراً مع خادمه بشارة فقتل رشيق وهرب اصحابه الى انطاكية ولما عاد سيف الدولة اجتمع على حرب ابن الاهوازي والديلمي اللذين قاما مقام رشيق فقتل هذان الثائران وقتل من ولاتهما وقضاتهما وشيوخهما خلق .

وذهب قرعويه الى انطاكية فجرت بينه وبين الديلمي وقعة انهزم فيها قرعويه وعاد الى حلب وسار الديلمي في أثره الى حلب فلقيه اصحاب قرعويه ودفعوه الى انطاكية . قال ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٣٥٥ : ان اهل انطاكية خرجوا عن طاعة سيف الدولة لاشتغاله بنفسه فتفرغ لهم وقاتلهم قتالاً شديداً ثم انتصر واسر خلائق من اهلها ، فصادر اعيانهم وأخذ خطوطهم باموال عظيمة وقتل خلقاً منهم ، حتى قيل انه قتل نحو خمسة آلاف رجل ، وكتب الى ولده ابي المعالي كتاباً يبشره بذلك وقال فيه ما شاهدت عسكراً ، على كثرة مشاهدي للحرب ، استولى على جميع رؤسائه واتباعه مثل هؤلاء ولا غنم عسكر مثل ما غنم منهم .

وفيها سار ملك الروم بجيوشه الى بلاد الشام فعاث وأفسد ، وقيل ان اهل انطاكية راسلوه وبذلوا له الطاعة وان يحملوا اليه مالاً ، وكان الذي حركه واحنقه احراق بيعة القدس ، وكان البطريق كتب الى كافور صاحب مصر يشكو قصور يده عن استيفاء حقوق البيعة ، فجاءه من الناس ما لم يطق دفعه وقتل البطريق ، وأحرقت البيعة وأخذوا ينتهبا ، فراسل كافور ملك الروم بان يرد البيعة الى افضل ما كانت فقال : بل أنا أعيدها بالسيف . فلما خرج ملك الروم أصعد سيف الدولة الناس الى قلعة حلب ، وانجفل الناس وعظم الخطب ، وأخليت نصيبين ونزل صاحب الروم على منبج وأحرق الربض ، وخرج اليه اهلها فأقرهم ولم يؤذهم ، وانكت العرب

في الروم غير مرة وكسبوا ما لا يوصف وحاصر الروم انطاكية ثمانية ايام ليلاً ونهاراً وبذل الامان لاهلها فأبوا فقال : أنتم كاتبتموني ووعدتموني فردوا عليه رداً قبيحاً وحاربوه أشد حرب .

* * *

محاسن سيف الدولة ومقابحه

توفي سيف الدولة بن حمدان سنة ٣٥٦ بعد ان غزا الروم اربعين غزوة له وعليه ، فحفظ بغزواته بيضة العرب والاسلام ولولاه بعد ضعف العباسيين لنقدم الروم في بلاد الشام وربما استصفوها كلها . وكان جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله لبنة بقدر الكف ، واوصى ان يوضع خده عليه في لحده فنفذت وصيته في ذلك . ترجمه الازدي بقوله : « كان معجباً برأيه ، محباً في الفخر والبذخ ، مفرطاً في السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه ، والعجب بآرائه ، سعيداً مظفراً في حروبه ، جائرا على رعيته ، اشتد بكاء الناس عليه ومنه » .

نعم كان سيف الدولة جائراً على رعيته يخرب قرية ليجيز شاعراً مدحه بقصيدة . ولما تربع في دست الملك بحلب استكثر من القصور له ولآله وقواده ، وجعلها كحاضرة بني العباس كعبة العلم والادب فوافاه الشعراء والعلماء من اقطار البلاد العربية ، وكان كريماً مفضلاً خصوصاً على مداحه . ينفق نفقات طائلة على علماء بغداد ومهاداة وزرائها وارباب النفوذ فيها فكان حماته في دار الخلافة كثاراً استمال بهم الرأي العام البغدادي بل العربي ، فرضي الخلفاء ولم يخالفوه لانه ابقى لهم الخطبة وان ضرب السكة باسمه .

ولقد استحل سيف الدولة للقيام بهذه الابهة الضخمة في مملكته الصغيرة مصادرة رعيته فكان قاضيه ابو الحصين يقول : « كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك » ولذلك كثرت مصادرة كل غني من التجار وغيرهم فخربت البلاد الشمالية في ايامه . وذكر المؤرخون ان ابا الحصين الرقي قاضي حلب قتل في احدى المعارك فداسه سيف الدولة بحصانه وقال : « لا رضي الله عنك فانك كنت تفتح لي ابواب الظلم » على ان هذا لا ينجي سيف الدولة من المؤاخذة لانه كان يتيسر له صرفه عن

القضاء وليس ابو الحصين من ار باب العصبيات حتى يخافه · ومن كثرة مظالم سيف الدولة ان بني حبيب وهم أبناء عم بني حمدان كانوا ينزلون نصيبين « فأكب عليهم بنو حمدان بصنوف الجور حتى خرجوا بذراريهم في اثني عشر الف فارس الى الروم وتنصروا باجمعهم ثم عادوا الى بلاد الاسلام على بصيرة بمضاره ، وعلم اسباب فساده وقلوبهم تضطرم حقداً » على ما قال ابن حوقل وأخذوا يخربون القرى في الجزيرة والشام واطمعوا صاحب الروم بانطاكية وحلب ·

وكانت لسيف الدولة طرق غريبة في الرحمة من ذلك انه سار مرة بالبطارقة الذين في اسره الى الفداء وكان في أسر الروم ابن عمه ابو فراس وجماعة من اكابر الحلبيين والحمصيين فأخذ بالفداء ولما لم يبق معه من اسرى الروم احد اشترى الباقين كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتى نفد ما معه من المال فاشترى الباقين ورهن عليهم بدنته (درعه) الجوهر المعدومة المثل · ثم لما لم يبق احد من اسرى المسلمين كاتب نقفور ملك الروم على الصلح · قال ابن الوردي : وهذه من محاسن سيف الدولة ·

وذكر المؤرخون انه كان يقف على مائدة سيف الدولة اربعة وعشرون طبيباً ، لينصحوا له بتناول ما ينفع مزاجه ، وانه كان من اهل الادب وغيرهم من يتناول رزقين وثلاثة · وفي باب كرمه غرائب بسطت في كتب الادب · وكلها على ما فيها من المفاخر في خدمة اللغة والشعر تحمل في مطاويها مساوئ الظلم وإعنات الرعية · فسيف الدولة ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وحسناته اكثر ·

* * *

ابتداء الدولة الفاطمية

كان كافور آخر ملوك دولة الاخشيديين مملوكاً حبشياً ذا عقل ودراية وحسن ادارة استولى بالفعل على زمام الحكم في مصر والشام على عهد ابي القاسم انوجور اي محمود وابي الحسن علي ولدي محمد بن طغج الاخشيدي رأس الدولة الاخشيدية ثم تولاه مستقلا بنفسه وقام بالامر بعده مدة قصيرة ابو الفوارس احمد اي ان الدولة الاخشيدية امتدت اربعاً وثلاثين سنة من سنة ٣٢٣ الى ٣٥٧ ولما آذنت شمسها بالافول انتشرت الفوضى في البلاد فرأى عقلاء مصر انه لا ينجيها مما صارت اليه الا القاؤها في أحضان دولة قوية فتية تنقذ الامة من بلائها ، وكان للقائم بالدولة

الفاطمية او العُبَيدية التي نشأت في المغرب وامتد سلطانها هوى في هبوط مصر ففاوضوه في امرها وكان حاول غير مرة ان يستولي عليها فرده عنها جيش بني العباس .

وبلغ المعز اختلاف الاهواء وتفرقت الآراء فجهز العسكر اليها باشارة المصريين فهربت العساكر الاخشيدية من القائد جوهر الذي جاء مصر في مئة الف محارب والف وخمسمائة جمل تحمل الذهب والفضة واتفق ان ورد القرامطة الى دمشق ، واتوا عليها وعلى سائر اعمالها ، وساروا الى الرملة فلقيهم الحسن بن عبيدالله بن طغج ووقع بينهم حرب عظيمة بظاهر الرملة في ذي الحجة سنة ٣٥٧ فانهزم ابن عبيد الله من الشام ودخل الى مصر فاستولت القرامطة على الرملة واستباحوها فقاطعهم اهلها على مائة وخمسة وعشرين الف دينار شروا بها انفسهم منهم واخذوا من اعمالهم بشراً كثيراً . واذ رأى الروم ان مصر قد عبثت بها الفوضى ، وان الشام في ضعف وتنبت ، اغاروا على الشام (٣٥٨) فقتلوا وسبوا في حمص والثغور وقتلوا خلائق وسبوا نحو مائة الف انسان وهاب المسلمون هيبة شديدة ولم يشكوا في انهم يملكون الشام ومصر والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع عن المانع . فاقام جوهر الخطبة للمعز الفاطمي قال المسبحي : لما استقر المعز بمصر انفرد بها ولم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية وادعى الخلافة لنفسه بمصر وقال : نحن افضل من الخلفاء العباسية لاننا من ولد فاطمة بنت رسول الله . ولما استقرت قدم جوهر بمصر سير جمعاً كثيراً مع جعفر بن فلاح الى الشام فبلغ الرملة وبها الحسن بن عبيدالله بن طغج وجرت بينهما حرب أسر عقيبها ابن طغج واستولى جعفر على فلسطين وجبى اموالها ثم سار الى طبرية فوجد اهلها قد اقاموا الدعوة للمعز قبل وصوله فجهز منها من استمال من بني مرة وفزارة لحرب بني عقيل بحوران والبثنية واردفهم بعسكر من اصحابه فواقعوا بني عقيل وهزموهم الى ارض حمص وسار هو من طبرية الى دمشق فقاتله اهلها فظفر بهم وملكها بعد فتن وحروب ونهب بعضها واحرق الآخر . واقام الخطبة للمعز سنة ٣٥٩ وقطعت الخطبة العباسية واستقرت دمشق للمعز الفاطمي . واصبح الفاطميون بنو عبيد خلفاء مصر والشام والمغرب .

وكان رئيس الثورة بدمشق سيدها وصدرها في عصره ابو القاسم بن ابي يعلى الهاشمي العباسي . فأخذه جعفر بن فلاح وشده على جمل ، وفوق رأسه قلنسوة ، وفي

لحيته ريش ، وبيده قصبة وبعث به الى مصر . وضرب الفاطميون على دمشق دية عم الناس البلاء في جبايتها . وتطلب حمال السلاح فظفر بقوم منهم ، وضرب اعناقهم وصلب جثثهم ، وعلق رؤوسهم على الابواب .

وفي سنة ٣٦٠ انفذ جعفر غلامه فتوحاً على عسكر الى انطاكية وكان لها في ايدي الروم نحو من ثلاث سنين وسير الى اعمال دمشق وطبرية وفلسطين فجمع منها الرجال ، وبعث عسكراً بعد عسكر الى انطاكية ، وكان الوقت شتاء فنازلوها حتى انصرم الشتاء وهم ملحون في القتال ، فلم يظفر بطائل ، وانهزم عسكره آخر الامر وقتل منهم كثيرون . و بلغ جعفر بن فلاح مسير القرامطة الى الشام وقد أمدهم صاحب بغداد لقتال جيش الفاطميين فاستهان بهم وواقعهم . فانهزم منهم قرب دمشق وقتل في المعركة ، وملك القرامطة دمشق وامنوا اهلها ثم ساروا الى الرملة فملكوها واجتمع اليهم كثير من الاخشيدية . قتل القرامطة جعفر بن فلاح مخافة ان يفوتهم المال الذي كان تقرر بينهم وبين ابن طغج حمله اليهم وهو ثلاثمائة الف دينار في السنة وساروا يريدون الرملة وعليها سعادة بن حيان فالتجأ الى يافا ونزل عليه القرمطي وقد اجتمعت اليه عرب الشام فناصبها القتال حتى اكل اهل المدينة الميتة وهلك اكثرهم جوعاً ، وسير جوهر من مصر نجدة الى اصحابه المحصورين بيافا ومعهم ميرة في خمسة عشر مركباً فارسل القرامطة مراكبهم اليها فاخذوا مراكب جوهر ولم ينج منها غير مركبين غنمتها مراكب الروم .

اصطلح قرعويه (٣٦٠) مولى سيف الدولة بن حمدان متولي حلب وابا المعالي شريف بن سيف الدولة ، فخطب له قرعويه بحلب ، وخطبا جميعاً في معاملتيهما للامام المعز الفاطمي بحلب وحمص . بمعنى ان بني حمدان وهم شيعة اسرعوا في نزع ايديهم من ايدي العباسيين ، ووضعوا ايديهم في ايدي الفاطميين الشيعة ابناء مذهبهم ، بيد ان الفاطميين لم يجدوا نصيراً قوياً في الشام ، لان السواد الاعظم من اهل السنة والجماعة كانوا يخالفونهم في مذهبهم وقد بلغهم ما صارت اليه مصر من تغيير مذهب اهلها ومصطلحهم في أذانهم وصلواتهم ، فشق عليهم ذلك وعزموا ان يقلبوا للفاطميين ظهر المجن ومن ذلك ما وقع سنة ٣٦١ من التقاء سعد امير عرب الشام بحسان بن جراح

الطائي في عربانه واتفقا على ان ينزعا حكم مصر من الشام ، وكان جيش المعز حارب عرب الشام في حوران حرباً دامية ، فارسل المعز الى حسان ووعده بمائة الف دينار ان ترك اميرالشام وخذله بين الناس . ولمادارت الحرب بينهما انهزم حسان بالعرب فضعف جانب سعد وقوي عليه المعز وكسره . وقطعت خطبة المعز من دمشق ايام القرامطة وبقيت الى ان استردها سنة ٣٦٣ وارسل المعز قائده ظالم بن موهوب والياً على دمشق فعظم امره وكثرت جموعه ثم وقع بينه وبين اهل دمشق فتن دامت الى سنة ٣٦٤ .

وتفصيل ذلك ان المعز سير القائد ابا محمود ، يتبع القرامطة فنزل بظاهر دمشق ، وامتدت ايدي اصحابه بالعيث والفساد وقطع الطرق ، فاضطرب الناس وخافوا ، فوقعت فتنة عظيمة بين عسكره وبين العامة ، وجرى بين الطائفتين قتال شديد وظالم بن موهوب مع العامة فاحرق جانب من المدينة وهلك جماعة من الناس ، وعادت الفتنة بعد ان اصطلح المتقاتلون الى شدتها بينهما (٣٦٤) واتفقوا على اخراج ظالم من البلد ، ووليه جيش ابن الصمصامة وعاد المغاربة وعاثوا وافسدوا فثار العامة ، وقاتلوهم ثم زحف جيشه في العسكر الى البلد وقاتله اهله فظفر بهم وهزمهم ، واحرق من البلد ما كان سلم ، ودام القتال بينهم اياماً كثيرة فاضطرب الناس وخافوا وخربت المنازل وانقطعت المواد ، وانقطع الماء والميرة عن البلد ، وهلك الفقراء على الطرقات جوعاً وبرداً ، ووصل الخبر الى المعز فانكر ذلك واستبشعه واستعظمه ، فارسل الى القائد ريان الخادم والي طرابلس يأمره بالمسير الى دمشق لمشاهدة حالها وكشف امور اهلها .

واتفق ان افتكين غلام عضد الدولة انهزم في خلال هذه الايام من المدائن فنزل على حمص في طائفة من الترك والاعراب ، وكان الاحداث قد غلبوا على دمشق وليس للاعيان معهم حكم فخرج اشرافها وشيوخها يظهرون السرور بمقدم افتكين ويبايعونه على الطاعة لينقذهم من المصريين ، فنزل على دمشق واخذها من ريان الخادم ، واقام العدل في الناس وكف ايدي الاعراب الذين كانوا عاثوا في الارض فساداً واخذوا عامة المرج والغوطة ، ودخل البلد وخطب للطائع العباسي ، وابان في جميع مواقفه عن شجاعة وقوة نفس وحسن تدبير فاذعنت له العرب واقطع البلاد وكثر جمعه وتوفرت امواله وثبتت قدمه ، وكاتب المعز يداريه ويظهر له الانقياد .

دور الفاطميين

« من سنة ٣٦٤ — ٣٩٤ »

الدول الثلاث وغزوات الروم

تقلبت على الشام ثلاث دول في مُدَد متقاربة ، وهي الاخشيدية والحمدانيـة والعبيدية . اشتقت الدولتان الاوليان من أصل الدولة العباسية ، بمعنى ان الاخشيديين والحمدانيين كانوا كالطولونيين من عمال العباسيين ، قوي امرهم فاستبدوا بالشام . وانشأوا لهم ملكاً لم يتعاقب فيهم عدة بطون وأجيال . ولكن كانت دولة العبيديين على خلاف هذا ، كانت داولة علوية شيعية قامت سنة ٢٩٦ بالمغرب ، وأول من ولي منهم ابو محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طـالب رضي الله عنهم ، على أصح الروايات . دعا الدعاة اولاً بالمغرب الى محمد والد المهدي عبيد الله وكان بسلمية من بلاد الشام ، ولما توفي أوصى الى ابنه عبيد الله المهدي واطلعه على حال الدعاة . وشاع ذلك في أيام المكتفي فطُلب فهرب عبيد الله وابنه ابو القاسم محمد الذي ولي بعد المهدي وتلقب بالقائم وتوجها نحو المغرب ونزل تاهرت وعظم شأنه في القبائل واستجابت لدعوته ، وملك ومن بعده معظم شمالي أفريقية وجزائر البحر المتوسط مثل صقلية وساردنية ومالطة وغيرها . والخليفة المعز الذي فتح مصر والشام هو رابع خلفائهم .

نشأت الدولة العبيدية او الفاطمية او العلوية كالدولتين الأموية والعباسية ،

بالشام وقامت بالمغرب ونمت في مصر وماتت فيها . ولم تكن على نسبة تينك الدولتين بقوة سلطانها وتأثيراتها ، ولذا ظلت دولة أخرى في اقصى الشام تقاسمها السلطة وهي الدولة الحمدانية اتفقت معها سياسة اتفاقها معهما مذهباً . فقد كان من كافور آخر الاخشيديين ما كان من استيلائه على دمشق يوم صرح سيف الدولة بن حمدان بفكره لاخذ الغوطة من أصحابها .

وفي سنة وفاة كافور (٣٥٧) جرت بين فنك بن عبدالله مولى كافور الاخشيدي وكان جهزه مولاه لاخذ دمشق ثانية وبين أهل هذه المدينة مناوشة وقتال واحراق ونهب وبلغه خبر الروم واخذهم حمص فنادى في دمشق بالنفير الى ثنية العقاب بسبب الروم فخرج الناس الى دومة وحرستا وانتهز الفرصة في خلو دمشق ورحل عنها وتوجه باثقاله نحو عقبة دمر متوجهاً الى الساحل فنهب أهل دمشق بعض اثقاله وقتلوا من بقي من رجاله .

لما هلك كافور وهلك سيف الدولة وتولى الفاطميون أمر مصر وفتحوا الشام بقي ابو المعالي سعد الدولة (٣٥٦) ابن سيف الدولة في مملكة حلب ، ولم يكن كأبيه عقلاً وتدبيراً فعصا عليه جند حلب سنة ٣٥٧ ، فنازلها وبقي القتال عليها مدة واستولى الرعيلي على انطاكية وجاءت الروم فنزلوا عليها وأخذوها وهرب الرعيلي من باب البحر هو وخمسة آلاف انسان ناجين بانفسهم من الروم فأسر هؤلاء أهل انطاكية وقتلوا أناساً من اكابرها . وقال عظيم الروم لما ضيقوا عليه : ارحل واخرب الشام كله وأعود اليكم من الساحل ، ورحل في اليوم الثالث ونازل معرة مصرين ، فأخذها وغدر بهم وأسر منهم اربعة آلاف ومائتي نسمة ، ثم سار الى عرقة فافتتحها ، ثم سار الى طرابلس فأخذ ربضها ، وأقام في الشام اكثر من شهر ورجع فأرضاه أهل انطاكية بمال عظيم . وأحرق حمص وقد اخلاها اهلها وملك ثمانية عشر منبراً ، وعاد الى بلاده بالاسرى والاموال .

وقال الانطاكي : ان نقفور لما توجه الى الشام خافه ابو المعالي ، فخرج عن حلب الى بالس واستخلف فيها قرعويه الحاجب ، ونزل الملك على انطاكية وأقام يومين ورحل في اليوم الثالث ، ونزل على معرة مصرين وأمن أهلها من القتل ، وكانت

عدتهم الفاً ومائتي نفس وسيرهم الى بلد الروم ، وفتح معرة النعمان وحماة وحمص واخذ منها رأس القديس يوحنا المعمداني وسار الى طرابلس ونزل عليها يوم عيد الاضحى وهو العاشر من ذي الحجة سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، وأقام عليها تلك الليلة وأحرق ربضها وحاصر مدينة عرقة تسعة ايام، وكان لها حصن منيع ففتحه بالسيف وأخذ منها خلقاً كانوا التجأوا اليه من البلاد المجاورة له وأخذ منه مالاً كثيراً ، وكان في الحصن امير طرابلس وهو ابو الحسن احمد بن نحرير الارغلي ، لان أهل طرابلس كانوا قد طردوه لجوره وكان مأسوراً وكان معه مال جزيل ، فأسره وأخذ جميع ماله ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها ، وحصل في يده من السبي ما لا يحصى عدده وفتح حصن انطرطوس ومرقية وحصن جبلة ، وصالح أصحاب اللاذقية عليها وخرب من القرى ما لا يحصى ، وعبر بانطاكية وميز السبي الذي معه وأعتق عليها من الشيوخ والعجائز زهاء الف نفس ، وبنى حصن بغراس مقابل انطاكية في فم الدرب ورتب فيه رئيساً يقال له ميخائيل البرجي ، ورسم لسائر أصحاب الاطراف طاعته ورتب معه الف رجل ورجع الملك الى القسطنطينية اه .

وفي سنة ٣٥٩ ملك الروم انطاكية بالسيف وقتلوا أهلها وسبوا وقصدوا حلب فتحصن قرعويه بالقلعة وملكوا المدينة بعد حصارها ٢٧ يوماً ثم اصطلحوا على مال يحمله قرعويه كل سنة وقدره ثلاثة قناطير ذهب عن حق الارض وسبعة قناطير ذهب عن خراج بلاد حلب وقنسرين وحمص وحماة وجوسية وسلمية والمعرة وكفر طاب وفامية وشيزر وجبل السماق ومعرة مصرين والاثارب وغيرها ، وعن كل حالم دينار في السنة سوى ذوي العاهات ، وان يكون للملك الروم صاحب يقوم بحلب يستخرج اعشار الامتعة الواردة اليها من البلاد ، فرحلت الروم ومعهم الرهائن على ذلك ، وقد عقدوا هدنة مؤبدة وصارت البلاد سائبة لا مانع للروم عنها ، فطمع نقفور ملك الروم في ملك الشام جميعه ولم يعترف سعد الدولة بالمعاهدة التي جرت بن قرعويه وبين الروم ، وظل في معرة النعمان فأخرب الروم حمص حتى يضطروه الى الاذعان ، ولكن جاءته نجدات فعمرها . وفي سنة ٣٦٣ سار ابو محمود بن جعفر ابن فلاح الى الشام في عسكر يقال انه عشرون الف ودخل دمشق وتمكن بها

وغادر الروم ارض الشام سنة ٣٦٤ بعد ان فتحوا بعلبك واخربوها وأخذوا جماعة من اهلها وصالحتهم صيدا وافتتحوا بيروت عنوة وسبوها ونهبوها وجرى مثل ذلك على جبيل وقاطعوا أهل دمشق على ستين الف دينار يحملونها اليهم في كل عام ، وكتبوا عليهم بذلك كتاباً واخذوا فيه خطوط أشرافهم واخذوا جماعة منهم رهينة وأنفذوا اليهم صليباً بالامان فتلقوه بالاكرام . ثم انقطع حمل المال المفروض على الشام للروم ، فاغضوا عن ذلك لاشتغالهم بالحرب في آسيا الصغرى .

وفي سنة ٣٦٥ وصل بارقطاش مولى سيف الدولة الى شريف ابنه وهو بحماة من حصن برزويه وخدمه وعمر له حمص بعد خراب الروم ، ونقوى بكجور مولى قرعويه ونائبه ، وقبض على قرعويه بحلب وحبسه بالقلعة واستولى على حلب فكاتب أهلها ابا المعالي شريفاً لجاءهم ، وأنزل بكجور بالامان وولاه حمص واستقر ابو المعالي بحلب .

ومن الاحداث في هذا الزمن ان ابا الليث وشاح السلمي ولي امارة دمشق من قبل الحسن بن احمد القرمطي المعروف بالاعصم ، فوصل اليها لايام خلت من المحرم من سنة ٣٦٨ وكان الوالي اذ ذاك بها صالح بن عمير العقيلي البدوي فخرج صالح عنها ، فلما رجعت القرامطة الى الاحساء رجع صالح بن عمير الى دمشق وتعصب له احداثها فأخرجوا وشاحاً عنها قهراً وسلموها الى صالح (٣٦٨) .

ومنها ان بسيل الملك ردّ ولاية اللاذقية الى كرمروك لشنه الغارة على طرابلس وما يليها وقتله واسره من أهلها ومن المغاربة خلقاً كثيراً . وورد عسكر المغاربة الى عمل انطاكية مع امير لهم يعرف بالصنهاجي فاستظهر عليه كرمروك وقتل جماعة من أهله ، فسار نزال وابن شاكر من طرابلس الى اللاذقية (٣٧٠) وحاصر حصنها وسار الدمستق (الدومستيقس) الى حلب (٣٧١) ووقع الحرب على باب اليهود في اليوم الثاني من نزوله . وطالب سعد الدوله بمال الهدنة على ان يحمل للروم في كل سنة اربعمائة الف درهم فضة نقية صرف كل عشرين درهماً بدينار .

وخالف مفرج بن دغفل بن الجراح على العزيز بالله وجاهر بخلع الطاعة فسير الى الشام رشيقاً العزيزي (٣٧١) فطرده عنها وهزمه . وسار ابن الجراح بعد هزيمته

يريد الحجيج ليقطع عنهم الطريق عند رجوعهم ، فانفذ العزيز مفلح الوهباني في عسكر ليلقاهم و يدفع عنهم ، فاوقع به ابن الجراح بأيلة وقتله وجميع من معه ، وعاد الحجيج الى مصر فعاود ابن الجراح الشام فلقيه رشيق الحمداني دفعة ثانية وهزمه ودخل الى البرية والتجأ الى بكجور في حمص فأجاره ، وقصد انطاكية ملتمساً من بسيل الملك النجدة فاطلق له صلة ودفعه الى الشام فرجع الى الشام والتمس من العزيز الامان فأجابه اليه .

ولما تفرغ الروم للشام قصدوا اليه سنة ٣٧١ فاضطر سعد الدولة الى تمديد المدنة معهم معترفاً لهم بالسيادة ومتعهداً باداء الجزية ليتخلص من حكم الفاطميين (٣٧٣). ثم عاد فأبى اداءها ، فاستولوا على كليس واوقعوا بجماعة من الحمدانية وحاصروا افامية وقاتلوها اشد قتال وجاؤا الى حلب وسار قرعويه الى دير سمعان الحلبي فحاصره ثلاثة ايام وقاتله اشد قتال وفتحه بالسيف وقتل جماعة من رهبانه وكان ديراً آهلاً عامراً وسبى خلقاً التجأوا اليه من انطاكية ودخلوا بهم الى حلب وأشهروا بها وانفذ الدومستيقس سرية من عسكره الى كفر طاب فأوقعت بجماعة العرب والحمدانية واستولى المغاربة على حصن بلنياس ولم يقبل الروم بالصلح مع صاحب حلب سنة ٣٧٦ الا على شرط ان يدفع ما تأخر عليهم من الجزية لهم ، ورحل بسيل ملك الروم الى الشام فحاصر حلب وفتح حمص وشيزر واقام على طرابلس ، ودامت معاهدة صاحب حلب مع الروم الى حين وفاته سنة ٣٩٢ . وهكذا أصبحت الدولة الحمدانية بعد عزها على عهد سيف الدولة ، ذليلة خاضعة لسلطان غيرها في عهد خلفه .

لا تعجبن من هالك كيف هوى بل فاعجبن من سالم كيف نجا

* * *

تجاذب السلطة بين العباسيين والفاطميين هلك المعز الفاطمي وتولى ابنه العزيز (٣٦٥) فقصد افتكين المستولي على دمشق سواحل الشام وعمد الى صيدا فحصرها و بها ابن الشيخ ومعه رؤوس المغاربة ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي فقاتلهم ، وكانوا في كثرة فطمعوا فيه وخرجوا اليه فاستجرهم حتى ابعدوا ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو اربعة آلاف قتيل ، وطمع في اخذ عكا فتوجه اليها وقصد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا وعاد الى دمشق .

ثم ارسل العزيز القائد جوهراً في العساكر الى الشام ، فلما سمع افتكين بسيره جمع اهل دمشق وتعاهد معهم ، فبايعوه على الطاعة وبايعهم على الذب عنهم ، فوصل جوهر الى دمشق (٣٦٥) ورأى من قتال افتكين ومن معه ما استعظمه ، ودامت الحرب شهرين قتل فيها عدد كثير من الطائفتين ، فلما رأى اهل دمشق طول مقام المغاربة عليهم اشاروا على افتكين بمكاتبة الحسن بن احمد القرمطي ملك القرامطة واستنجاده ، فجاءهم القرمطي واجتمع اليه من رجال الشام والعرب نحو من خمسين الفاً ، فرحل جوهر من دمشق خوفاً من ان يبقى بين عدوين وكان مقامه عليها سبعة اشهر وتبعه افتكين والقرمطي والتقوا بيافا وحصروه في عسقلان فعاين الهلاك هو واصحابه من الجوع نحو سبعة عشر شهراً فبذل لافتكين مالاً ليمنّ عليه ويطلقه ، فرحل افتكين عنه وسار جوهر الى مصر ، واعلم العزيز بالحال فسار العزيز بنفسه الى الشام في سبعين الف مقاتل ، ووصل الرملة فقاتله افتكين والقرامطة بظاهرها قتالاً شديداً فنصر العزيز وقتل وأسر كثيراً (المحرم ٦٧) وقد قتل من المغاربة جيش الفاطمي نحو من عشرين الفاً .

وجعل العزيز لمن يحضر افتكين مائة الف دينار ، وطلب افتكين في هزيمته بيت صاحبه مفرج بن دغفل الطائي ، فأسره مفرج في بيته واعلم العزيز به فاعطاه الجعل ، واحضر افتكين (٣٦٨) فاطلقه العزيز واصحابه ، وانعم عليه وصحبه الى مصر وبقي عنده معظماً حتى مات بها . وبعث العزيز الى الاعصم زعيم القرامطة وهو منهزم فادركه بطبرية واعطاه عشرين الف دينار فسار الى الاحساء . ودلّ العزيز بكفه عن قتل افتكين على بعد نظره ، وانه اثر فيه ما اسداه من الجميل لقائده جوهر في نوبة عسقلان باطلاقه ، وسراحه وسراح من معه ، فقابل العزيز افتكين على جميله بمثله . خصوصاً وان افتكين لم يقصر منذ استولى على دمشق بملاطفة خليفة مصر العلوي ومجاملته ، وان كان من جهة ثانية نزع خطبته وارجع الخطبة العباسية في كثير من مدن الشام ، واكرم العزيز ملك القرامطة الذي ندبه الدمشقيون على لسان افتكين ان يعاونهم على الخلاص من الدولة المصرية لظلم عمالها ومخالفتها لهم في المذهب . وذلك ليستميل قلبه حتى لا يعود ثانية الى نصرة احد من اهل بلاده عليه .

***

سوء حالة دمشق واضطراب الاحكام المصرية | لما فارق افتكين دمشق الى فلسطين قدّم على اهلها رجلاً اسمه قسام الحارثي من الابطال المعروفين وقيل من ارباب الدعارة العيارين كان اصله من قرية تلفيتا في سنير ، يعتاش بنقل التراب على الحمير ، وتنقلت به الاحوال حتى صار له ثروة واتباع ، وغلب على دمشق وما اليها من الاصقاع ، بحيث لم يبق معه لنوابها من الفاطميين امر ولا نهي ، ودام ذلك سنين . وكان القائد ابو محمود بن ابراهيم المغربي قد عاد الى البلد والياً عليه للعزيز فلم يتم له مع قسام امر ، وامتدت ايدي اصحاب ابي محمود بالعيث والفساد وقطع الطرق فاضطرب الناس وخافوا ، وانتزح أهل القرى منها لشدة نهب المغاربة أموالهم وظلمهم لهم ، ووقعت فتنة عظيمة بين عسكر ابي محمود وبين العامة ، فألقى عسكره النار من ناحية باب الفراديس فأحرقوا تلك الناحية ، وكانت فيها أجمل قصور دمشق ، وحرق كثير من أحياء البلد ، وهلك فيه جماعة وما لا يعد من الاثاث والاموال ، ثم اصطلحوا مع القائد ابي محمود ثم انتقضوا ولم يزالوا كذلك الى سنة ٣٦٤ .

ولما خاف الفاطميون عاقبة قسام الحارثي ، اذا استلذ طعم الانتصار غير مرة ، سيروا لحربه الامير الافضل فحاصر دمشق وضاق باهلها الحال فخرج قسام متنكراً فأخذته الحرس فقال : انا رسول . فأحضروه الى الافضل فقال له : انا رسول قسام اليك لتحلف له وتعوضه عن دمشق بلداً يعيش به وقد بعثني اليك سراً ، فحلف الافضل ، فلما توثق منه قام وقبل يديه وقال : انا قسام . فأعجب الافضل مافعله وزاد في اكرامه ورده الى البلد وسلمه اليه ، وقام الافضل بكل ماضمنه وعوضه موضعاً عاش به فلما بلغ ذلك العزيز أحسن صلته . ذكر هذا القفطي وأورد الذهبي رواية أخرى في أمر قسام قال : انه تقدم لقتاله سليمان بن جعفر بن فلاح الى دمشق فنزل في ظاهرها ولم يمكنه دخولها فبعث اليه قسام بخطه انا مقيم على الطاعة ، وبلغ العزيز ذلك فبعث البريد الى سليمان يرده فترحل سليمان من دمشق وولى العزيز عليها ابا محمود المغربي ولم يكن له ايضاً مع قسام امر ولا حل ولا عقد . قال ابن تغري بردي : ولعل الذي ذكره الذهبي كان قبل توجه عسكر أفتكين والافضل ، فان الافضل

لما سار بالجيوش أخذ دمشق من قسام وعوضه بلداً آخر وهو المتواتر ·

وكان من سياسة قسام الحارثي ان كان يدعو للعزيز بالله العلوي على المنابر · وقبل ان يحارب به المصريون وصل اليه ابو تغلب بن حمدان صاحب الموصل وحط رحاله في حوران ، فمنعه قسام من دخول دمشق ، فاستوحش ابو تغلب وجرى بين اصحابه واصحاب ابي تغلب شيء من قتال ، فرحل ابو تغلب الى طبرية ، وورد من عند العزيز القائد الافضل في جيش فقاتله وجماعته حتى قتل في الرملة (٣٦٩) وخلت الديار ، واتت بنو طيء على الناس وشملهم البلاء منهم ·

* * *

خوارج على دولة الجنوب ودولة الشمال

كان مفرج بن الجراح امير بني طيء وسائر العرب في فلسطين قد كثرت جموعه وقويت شوكته ، وعاث في فلسطين وخربها ، وهلك من فيها فكان الرجل يدخل الى الرملة يطلب فيها شيئاً يأكله فلا يجده ومات الناس بالجوع وخربت الاعمال فخاف العزيز عاقبة امره بعد ان رأى ما اتعب دولته من امر الخوارج افتكين والاعصم وقسام وابن حمدان ، فجهز العساكر لحربه مع قائده بانكين التركي فسار الى الرملة ، واجتمع اليه العرب من قيس وغيرهم ، ولقي ابن الجراح وقد كمن لهم بانكين من ورائهم ، فانهزم ومضى الى انطاكية فاجاره صاحبها · وصادف خروج ملك الروم من القسطنطينية الى بلاد الشام فخاف ابن الجراح وكاتب بكجور عامل حمص لابي المعالي بن سيف الدولة ولجأ اليه فاجاره · وكان بكجور والي حمص يمد دمشق ايام هذه الفتن والغلاء ويحمل الاقوات من حمص اليها · وكانت دمشق في هذا العهد قد خربها العرب واهل العيث والفساد ، وانتقل اهلها الى حمص فعمرت · وربما كان هذا القرن اشأم القرون السالفة على الشام ودمشق خاصة وكان كل اذى ينزل بها وباهلها · قال ابن بطريق : سار بكجور الى ابي المعالي بن سيف الدولة من حلب وهو يومئذ بحمص فخلع عليه ابو المعالي وولاه حلب ، وعاد بكجور الى حلب وأقيمت له الدعوة فيها وفي سائر اعمالها ، ووافق بكجور لسائر غلمان الدولة على القبض على قرغويه ، وسار ابو المعالي الى حلب واخرجه من حمص وقبض على قرغويه وسار ابو المعالي من حلب وفتح المعرة وما يليها

في شوال سنة ٣٦٦ ، ونزل الى حلب ومعه بنو كلاب ووقع القتال بينه و بين بكجور ، واستظهر ابو المعالي عليه ودخل في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٧ واستقر الامر بينه وبين بكجور على ولاية حمص . ثم عصا بكجور على سعد الدولة واستدعى جيوش العزيز فسارت معه ونزل على حلب وتحاربوا يومين ، وسار الدومستق الى حلب ، وورد خبره على بكجور فرحل اليه ، فوقع القتال وجرى بينه و بين سعد الدولة مراسلة واستقر الحال بينهم على ان يحمل اليه سعد الدولة مال سنتين اربعين الف دينار ، وسار الدومستق وقصد حمص وسبي اهلها ، واحرق بها جماعة اعتصموا في المغاور وسار بكجور الى دمشق وتقلدها .

وكان بكجور يكاتب العزيز الفاطمي بما يقوم به من الخدم فاستنجز وعد العزيز اياه بولاية دمشق فولاه اياها سنة ٧٣ الا انه اساء السيرة في اهلها وقتل اناساً وصادر آخرين وجمع الاموال لنفسه ، فجهزت العساكر عليه من مصر مع منير الخادم وكتب الى نزال عامل طرابلس بمظاهرته . وجمع بكجور العرب وخرج للقائه فانهزم ثم خاف من وصول نزال فاستأمن اليه ، وتوجه الى الرقة فاستولى عليها ، ودخل منير دمشق واستقر في ولايتها واحسن السيرة في اهلها ، وارتفعت منزلته عند العزيز وجهزه لحصار سعد الدولة بحلب .

وكان بكجور بعد انصرافه من دمشق سأل سعد الدولة العودة الى ولايته حمص فمنعه لانه كان نزع يده من الدولة الحمدانية ووضعها في يد الدولة الفاطمية ، فلما اخفق عاد الى دولته الاولى فرفضته واجابت عليه ، فاستنجد بكجور الملك العزيز لحرب سعد الدولة فبعث الى نزّال عامل طرابلس بمظاهرته ، فسار اليه بالعساكر ، وخرج سعد الدولة من حلب للقائه وقد اضمر نزال الغدر ببكجور ، واستعد سعد الدولة للقائهم ، وقد استمد عامل انطاكية للروم فامده بجيش كثير ، وداخل العرب الذين مع بكجور في الانهزام عنه وكانوا وعدوه ذلك من انفسهم ، فلما تراءى الجمعان وشعر بكجور بخديعة العرب استمات وحمل على الصف بقصد سعد الدولة فقتل لؤلؤاً الكبير مولاه ، ثم حمل عليه سعد الدولة فهزمه ، فسار الى بعض العرب ثم حمل الى سعد الدولة فقتله ، وسار الى الرقة فملكها وقبض جميع امواله وكان شيئاً كثيراً لا يعبر عنه .

وزاد ابن مسكويه في تفاصيل هذه الحادثة ما يلي : كان لبكجور رفقاء بحاب يوادونه فكاتبوه واطمعوه في الامر ، واعلموه تشاغل سعد الدولة باللذات فاغتر باقوالهم وكتب الى صاحب مصر يبذل له فتح حلب، ويطلب منه الانجاد والمعونة ، فأجابه الى كل ملتمس ، وكتب الى نزّال الغوري والي طرابلس بالمسير اليه متى استدعاه من غير معاودة . وكان نزال هذا من قواد المغاربة وصناديدهم ، ومن صنائع عيسى وخواصه فتلكأ نزّال وكاتب سعد الدولة بسيل ملك الروم يعلمه عصيان بكجور عليه ، وسأله انجاده بالبرجي صاحبه بأنطاكية فسار اليه ، وبرز سعد الدولة في غلمانه وطوائف عسكره ، ولم يكن معه من العرب الا خمسمائة فارس الا انهم اولو بأس . وتقارب العسكران ووقع الطراد ، وكان الفارس من اصحاب سعد الدولة اذا عاد اليه وقد طعن او جرح خلع عليه واحسن اليه . وكان بكجور شحيحاً فاذا عاد اليه رجل من رجاله على هذه الحال امر بان يكتب اسمه لينظر مستأنفاً في امره . فقضى شح بكجور عليه حتى اسلمه الى خصمه فقتله .

وبعض خلائق الاقوام داء كداء البطن ليس له دواء
وبعض الداء ملتمس شفاه وداء النوك ليس له شفاء

وقد اعطى سعد الدولة سلامة الرشيقي عهداً بالابقاء على آل بكجور واموالهم على ان يسلمه حصن الرافقة ، وهو بلد متصل بالرقة ، فخرجوا منها ومعهم من الاموال والزينة ما كثر في عين سعد الدولة ، فانه كان يشاهدهم من وراء سرادقه ، وبين يديه ابن ابي الحصين القاضي . وقال له : ما ظننت ان حال بكجور انتهت الى ما اراده من هذه الاثقال والاموال . فقال ابن ابي الحصين : ان بكجور واولاده مماليكك وكل ما ملكه وملكوه فهو لك ، لاحرج عليك فيما تأخذه منهم ، ولا حنث في الايمان التي حلفت بها ، ومهما كان من وزر واثم فعلي ، فلما سمع هذا القول اصغى اليه ، وغدر بهم وقبض جميع ما كان معهم .

قال ابن مسكويه : فما كان اسوأ محضر هذا القاضي الذي حسن لسعد الدولة تسويل الشيطان ، وافتاه بنقض الايمان ، ثم لم يقنع بما زين له من غدره ، ولبّس عليه من امره ، حتى تكفل له بحمل وزره ، وهل احد حامل وزر غيره ، اما سمع قول الله

تعالى في اهل الضلالة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون » .

* * *

حملة الفاطميين على الحمدانيين واستنجاد هؤلاء بصاحب الروم

ومات سعد الدولة على الاثر فقام بعده ابنه ابو الفضائل ووصيه لؤلؤ فاخذ هذا العهد على الاجناد لابي الفضائل ، وتراجعت العساكر الى حلب ، فرأى العزيز ان الوقت قد حان لاستصفاء بلاد الشام بأسرها وانقاذها من هذا التذبذب بين الدولتين ، جنوبها للعزيز وشمالها للحمدانيين ولا يفتأ كل فريق يدس للآخر ، فسير جيشاً كثيفاً على حلب وعليه منجوتكين انفق عليه الف الف دينار ونيفاً فلما وصل الى دمشق تلقاه اهلها وقوادها وعساكر الشام كلها ، فأقام بها مدة ثم رحل الى حلب قال ابن ميسر : بل كانت بينه وبين اهل دمشق حروب آلت الى ظفره . وقد استعد واحتشد ونزلها في ثلاثين الف رجل ، وتحصن بها ابو الفضائل ولؤلؤ .

ووقع القتال بين منجوتكين والحمدانية على افامية فانهزم الحمدانية (٣٨٢) وقتل وأسر جماعة منهم ، ونزل منجوتكين على حلب ووقع الحرب في جميع جوانب المدينة ودخل الى اعمال الروم بسبب اعتقال البرجي لرسوله ، ونزل على حصن عم ضيعة البرجي في بلد ارتاح فقاتله وفتحه وسبي وقتل وسار الى انطاكية فرشقه الانطاكيون بالنشاب وعاد منجوتكين الى منازلة حلب وراجع القتال .

وعصى المسلمون في اللاذقية فسار البرجي اليهم وسباهم وحملهم الى بلد الروم ، وعاد منجوتكين من دمشق ونزل على افامية فسلمها اليه وفاء خادم سيف الدولة (٣٨٣) ورحل الى شيزر وقاتلها وتسلمها من سوسن غلام سعد الدولة وعاد الى منازلة حلب .

وكان ابو الفضائل كتب الى بسيل ملك الروم يستنجده وهو يقاتل البلغار فأرسل بسيل الى نائبه بانطاكية ميخائيل البرجي يأمره بانجاد ابي الفضائل ، فسار في خمسين الفاً حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصي فلما سمع منجوتكين الخبر سار الى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بابي الفضائل ، وعبر اليهم العاصي واوقع بالروم فهزمهم وولوا الادبار الى انطاكية وكثر القتل فيهم ، وجمع من رؤوس قتلاهم نحو عشرة آلاف رأس

وحملت الى مصر وقال الانطاكي : قتل من الروم في هذه الوقعة التي دعيت بوقعة المخاضة (٣٨٤) زهاء خمسة آلاف وتم منجوتكين الى انطاكية ونهب رساتيقها واحرقها وكان وقت إدراك الغلة فانفذ لؤلؤاً واحرق ما يقارب حلب منها اضراراً بالعسكر المصري . وعاد منجوتكين الى حلب لحصرها واقام عليهـا ثلاثة عشر شهراً فقلت الاقوات فيها وعاد صاحب حلب الى مراسلة ملك الروم والاعتضـاد به فلما قلت الاقوات آلى العزيز على نفسه ان يمد عسكره بالميرة من غلات مصر، فحمل مئة الف تليس[1] في البحر الى طرابلس ومنها على الظهور الى افامية . فكان يوقع للغلمان بجراياتهم وقضيم دوابهم الى افامية على خمسة وعشرين فرسخاً فيمضون ويقبضونها ويعودون بها . وبنى واصحابه الحمامات والخانات والاسواق .

وعاد منجوتكين الى منازلة حلب ومحاصرتها وفتح حصن اعزاز وملك سائر اعمال حلب وولى عليها وبنى حصناً مقابل حلب وانجد ملك الروم صاحب حلب وكان قد استنجده وأرسل اليه ملكوثا السرياني فقطع المسافة من بلاد البلغـار الى حلب وهي ثلاثمائة فرسخ في بضعة ايام . ولما أقبل الروم أحرق منجوتكين الخزائن والاسواق والابنية التي كان استحدثها ورحل في الحال منهزماً ووافى بسيل فنزل على باب حلب ، وخرج اليه ابو الفضائل ولؤلؤ ولقياه ، ثم عاد ورحل في اليوم الثـالث الى دمشق وفتح حمص ونهب ، ونزل على طرابلس فمنعت جانبها منه فأقام نيفاً وأربعين يوماً فلما أيس منها عاد الى بلاد الروم ، وعاد منجوتكين غازياً الى انطاكية ثم سار الى حلب ورحل عنها الى انطرطوس وقاتل الحصن اياماً وسار عامل الروم الى انطرطوس ليدفع عنهـا وأرسلت مصر اسطولاً مؤلفاً من اربعة وعشرين مركباً مشحوناً بالرجال فكسر الاسطول بريح عاتية ، وخرج رجال المراكب الى البر ، فانهزم منجوتكين وجميع عسكره وخرج المقيمون في انطرطوس واخذوا ما سلم من المراكب وأسروا من رجالهم خلقاً .

* * *

(١) التليس قفيزان بالمعدل والقفيز مكيال ثمانية مكاكيك والمكوك يختلف باختلاف مصطلح كل بلد .

الخوارج على الفاطميين واستنجاد امراء المسلمين بالروم { ظن بعد انصراف ملك الروم عن الشام ورجوع الحمدانيين الى حلب ان الدولة الفاطمية يطمئن بالها وما كان يجول في الفكر ان ينقلب عليها احد قوادها الذي كانت اصطفته ليدفع عن البلاد ما يتهددها من الشر وأعني به منجوتكين فقد عصا على خليفته وأراد ان يستنجد الروم فلم يلتفتوا اليه فندب الخليفة العساكر من مصر لقتاله وقدموا ابا تميم بن جعفر عليها وأمدوه من الاموال ما أسرفوا فيه ، وسار ابو تميم من مصر ورحل منجوتكين من الرملة بعد ان ملكها · والتقى الجيشان بعسقلان وتواقعا فأجلت الوقعة عن هزيمة منجوتكين واصحابه ، فأسر وحمل الي مصر ، وسار ابو تميم فنزل طبرية وأنفذ اخاه عليًا الى دمشق فاعتصم أهلها عليه ومنعوه الدخول ، وكاتب اخاه بعصيانهم ، واستأذنه في قتالهم ، فكتب ابو تميم الى متقدميهم من الاشراف والشيوخ ، وحذرهم عواقب فعل سفهائهم ، فخافوا وخرجوا الى عليّ مذعنين بالطاعة ومنكرين لما فعله أهل الجهالة ، فلم يعبأ بقولهم وزحف الي باب البلد فملكه ، وأحرق وقتل وعاد الى معسكره ·

ووافي ابو تميم في غدٍ فانكر على اخيه ما فعله ، وتلقاه وجوه الناس فشكوا اليه ما أظلهم ، فأحسن لقاءهم وأمّن جنانهم فسكنوا وعادوا الى معايشهم · وركب ابو تميم الى المسجد الجامع في يوم الجمعة بزيّ أهل الوقار ، واجتاز في البلد بسكينة ، وبين يديه القراء وقوم يفرقون الدراهم على أهل المسكنة ، وصلى الجمعة وعاد الى القصر الذي نزله بظاهر دمشق ، وقد استمال قلوب العامة بما فعله ، ثم نظر في الظلامات وأطلق من المحبوس جماعة من أهل الجنايات فازدادوا له حبًا ، واستقرت قدمه وأستقام امره ، وعدل من بعد الى النظر في أحوال الساحل فهذبها ، وولى اخاه طرابلس وصرف عنها جيش ابن الصمصامة ، وكان جيش هذا من شيوخ كتامة ·

ذكر كل هذا ابن مسكويه وزاد ان ابا تميم كان مع سياسته مستهترًا باللذات ، فلم يشعر الا بهجوم المشارقة والعامة على قصره فخرج من دمشق هاربًا ، ونهبوا خزائنه وأوقعوا بمن كان معه من كتامة ، وعادت الفتنة بدمشق واستولى الاحداث·

ثار اهل دمشق مع ما كان فيها من الاوليـاء المشارقة على ابن فلاح فخرج عن

البلد هارباً الى مصر وتغلب الاحداث على دمشق ورأسهم رجل منهم يعرف بالدهيقين فسارت جيوش الحاكم الى دمشق مع محمد بن الصمصامة للقاء الدمشقيين والدهيقين المتغلب على دمشق فسار الدهيقين الى مصر وطلب الامان . وقال ابن ميسر : في حوادث سنة ٣٨٧ انه كانت وقعة بين منجوتكين وبين ابن فلاح في الرملة قتل فيها نحو مئة الف من اصحاب منجوتكين وانهزم ابن الجراح . وفي سنة (٣٨٨) وقعت النار في افامية واحترق ما كان فيها من القوت فسار ابو الفضائل بن سعد الدولة صاحب حلب في عسكر الحلبيين وقاتلها مدة ثم رجع عنها لما سار اليها دوقس انطاكية وحاصرها هذا اشد حصار فاستنجد الملايطي المقيم بها بجيش ابن الصمصامة بدمشق فسار اليه في عساكر ضخمة وانتشبت الحرب بينهم واستظهر عليه الدوقس وقتل منهم مقتلة عظيمة واخذت البادية سواد عسكر المغاربة وبلغت الهزيمة الى بعلبك وقتل الدوقس فعادت الهزيمة على الروم فقتل منهم زهاء ستة آلاف واسر ابناء الدوقس وجماعة من رؤساء عسكره وحملوا الى مصر واقاموا بها عشر سنين ثم فودي بهم الى بلاد الروم . وسار جيش محمد بن صمصامة الى شيزر فخف ملك الروم بنفسه ففتحها وشحنها بالارمن وسار عنها الى حصن ابي قبيس فأخذه بالامان وسار الى حصن مصيات فملكه ايضاً واخربه وسار الى رفنية فاحرقها وسبى اهلها وتوجه يحرق ويسبي الى ان بلغ حمص فنزلها وتحصن منها نفر في كنيسة مار قسطنطين التي فيها تحرماً بها فلما علم الرؤوس من اهل عسكره احرقوها وكانت كنيسة معجزة وحمل نحاسها ورصاصها وسار الملك الى قرب بعلبك واستصرخ جيش من دمشق الى مصر بكتبه ووصف كثرة الجموع التي للروم فجردت اليه العساكر وكوتب كل وال بالشام بالمسير معه فسار جميعهم حتى اجتمع بدمشق من العساكر كما قال الانطاكي : لا اظن انه اجتمع فيها للاسلام مثله ورجع الملك عن طريق الساحل واحرق عرقة وهدم حصنها ثم نزل على طرابلس (٣٨٩) وحاربها براً وبحراً ثم رحل الى انطاكية . وافتتح حصن ابي قبيس بالامان .

وامتدت ولاية منجوتكين التركي إمرة الجيوش الشامية الى ما بعد سنة ٣٨٦ وكان هذا الامير ظالماً جباراً ساءت سيرته في ولايته دمشق وحمص وكثر ظلمه .

وولي إمرة دمشق بشارة الاخشيدي من قبل برجوان لخادم الحاكي (٣٨٨) وكان ولي طبرية قبل ان يلي دمشق مدة سنين .

وكان أهل صور قد عصوا (٣٨٧) وأمروا عليهم رجلاً ملاحًا يعرف بالعلاقة . ضرب السكة باسمه وكتب عليها « عز بعد فاقة لامير علاقة » فأرسلت عليه حكومة الفاطميين اسطولاً فاستجار علاقة بملك الروم فأنفذ اليه عدة مراكب مشحونة بالرجال والمقاتلة ، والتقت هذه المراكب بمراكب المسلمين فاقتتلوا فظفر المسلمون وملكوا مركبًا من مراكبهم ، وقتلوا من فيه وانهزمت بقية المراكب . وهكذا استنجد بالروم في هذه الحقبة اميران على بني جنسهما ودينهما ليستمتعا بالملك وهما ابو الفضائل في حلب وعلاقة بصور .

وكان المفرج بن دغفل بن الجراح قد نزل على الرملة وعاث في البلاد ، وانضاف الى حادثته وحادثة علاقة نزول الدوقس صاحب الروم في عسكر كثيف على حصن أفامية ، فاصطنع برجوان جيش بن محمد بن الصمصامة وقدمه ، وجهز معه عسكراً وسيره الى دمشق ، و بسط يده في الاموال ونفذ أمره في الاعمال ، وسار جيش بن الصمصامة ونزل على الرملة وعليها وحيد الهلالي واليًا فتلقاه طائعًا وصادف ابا تميم بها فقبض عليه قبضًا جميلاً وندب ابا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان في عسكر الى صور بعد ان كان أنفذ اليها مراكب في البحر مشحونة بالرجال فأحاطت العساكر بها براً وبحراً وضعف اهل صور عن القتال وأخذ علاقة فحمل الى مصر فسلخ وصلب بها وأقام ابن حمدان واليًا عليها .

وكل قرن ناجم في زمن ... فهو شبيه زمن فيه بدا
والناس كالنبت فمنهم رائق ... غض نضير عوده مر الجنى

وسار جيش لقصد مفرج بن دغفل بن الجراح فهرب من بين يديه وعاذ بالصفح فكف جيش عنه واستخلصه على ما قرره معه ، وعاد سائراً الى عساكر الروم النازل على حصن أفامية ، فلما وصل الى دمشق تلقاه أهلها في أشرافها ووجوه أحداثها مذعنين له بالانقياد ، راغبين في استصحابهم للجهاد ، فجزاهم خيراً فأقبل جيش على رؤساء الاحداث بدمشق وبذل لهم الجميل ، ونادى في البلد برفع المؤن ، و إباحة دم كل

مغربي يتعرض لفساد ، فاجتمعت الرعية وشكروه ، وسألوه دخول البلد والنزول بينهم فلم يفعل ، ثم سار ونزل بحمص واجتمعت عساكر الشام وتوجه الى حصن أفامية ، فوجد أهلها وقد اشتد بهم الحصار ، فنزل بازاء عسكر الروم وبينه وبينهم نهرالعاصي . ثم التقى الفريقان من بعد وتنازعا الحرب ، وكان المسلمون يومئذ في عشرة آلاف من الطوائف والف فارس من بني كلاب فحملت الروم على المسلمين فزحزحوهم عن مصافهم ، وانهزمت الميمنة والميسرة ، واستولى الروم على كراعهم وعطفت بنو كلاب على اكثر ذلك فنهبوه ، وثبت بشارة الإخشيدي في خمسمائة فارس ، ورأى من في حصن أفامية من المسلمين ما أصاب اخوانهم فايسوا من نفوسهم .

قالوا وكان الدوقس عظيم الروم في هذه الوقعة بعد ان تراجع المسلمون على رأسه راية وبين يديه ولداه وعشرة خيالة ، فقصده احمد بن الضحاك الكردي على فرس جواد فظنه عظيم الروم مستأمناً ، فلما قاربه طعنه الكردي فقتله فانهزمت الروم وتراجع المسلمون فركبوا أقفيتهم قتلاً واسراً وألجأوهم الى مضيق في الجبل وأسروا ولد الدوقس ، وحمل الى مصر من رؤوسهم عشرون الف رأس والف أسير .

وعاد جيش الى دمشق فاستقبله اهلها ، فخلع على وجوه الاحداث وحملهم على الخيل والبغال ، ووهب لهم الجواري والغلمان ، وعسكر بظاهر البلد وأخلوا له قرية بيت لهيا على باب دمشق ليكون مقامه بها ، وتوفر على استعمال العدل وتخفيف النقل ، فاستخص رؤساء الاحداث واستحجب جماعة منهم ، ثم أوقع بهم كلهم ، ودخل البلد وثلم السور من كل جانب ، ونزلت المغاربة دور دمشق ، وركب جيش فدخل دمشق وطافها ، واستغاث الناس به ولاذوا بعقوه(؟) ، فكف عنهم واستدعى الاشراف استدعاء حسن ظنهم فيه ، فلما حضروا أخرج رؤساء الاحداث وامر بضرب رقابهم بين أيديهم ، ثم صلب كل واحد في محلته . وجرد الى المرج والغوطة قائداً وامره بوضع السيف فيمن بها من الاحداث فقال انه قتل الف رجل منهم ، حتى اذا فرغ من ذلك كله قبض على الاشراف وحملهم الى مصر واستأصل اموالهم ونعمهم ، ووظف على البلد خمسمائة الف دينار . وكان عدد من قتلهم ثلاثة آلاف رجل ثم هلك فخلفه ولده . وجيش بن محمد بن صمصامة ابو الفتوح القائد المغربي هو ابن

اخت ابي محمود الكافي امير امراء جيوش المغرب ومصر والشام المتوفى سنة ٣٩١ تولى نيابة دمشق غير مرة وكان ظالماً سفاكاً للدماء ظلم الناس كثيراً . قالوا : وعم الناس في ولايته البلاء من القتل وأخذ المال حتى لم يبق بيت في دمشق ولا بظاهرها الا امتلأ من جوره خلا من كان ظالماً يعينه على ظلمه . وممن ولي دمشق للمصريين وساءت سيرته ختكين القائد ثم القائد طرملة بن بكار البربري وكان عبداً اسود لوالي القيروان ، فجار على اهلها كما جار ختكين وظلمهم واخذ اموالهم ، وفر الى مصر وحمل بعض ما كان معه الى الحاكم ، فتمكنت حاله عنده وولاه دمشق فأقام والياً عليها الى سنة ٣٩٤ ثم صرف عنها بخادم من خدم الحضرة .



تتمة دور الفاطميين

« من سنة ٣٩٤ — ٤٦٣ »

خوارج ومذاهب جديدة وفتن

ظهر في اعمال حلب سنة ٣٩٥ رجل اسمه احمد بن الحسين ويعرف بالاصفر فتزيا بزي الفقراء وتبعه خلق من العرب وسكان القرى وصحبه رجل من وجوه العرب يعرف بالجلي ، ونازل شيزر واسرى في جماعة من العرب وغيرهم ممن اجتمع اليه ولقي عسكر الروم وكبس والي أرتاح وسار نحو جسر الجديد يريد أنطاكية فلقيه في مهروبة على فرسخين من انطاكية بطريق يقال له بيغاس في عسكر كان معه فقتل الجلي وانهزم الاصفر الى سروج ، ونزل قرية كفر عزون وكانت حصينة ففتحها العامل الرومي واسر منها اثني عشر الف اسير واخذ غنائم كثيرة وكان قد اجتمع عرب بني نمير وبني كلاب مع وثاب بن جعفر صاحب سروج في زهاء ستة آلاف فارس على الرومي فلقيهم وهزمهم وتوسط لؤلؤ صاحب حلب ان يعتقل الاصفر بقلعة حلب فاخذ واعتقل وبقي فيها معتقلا الى ان دخلت حلب في حكم الفاطميين (٤٠٦) .

وأمر الحاكم (٤٠٤) باروح التركي الملقب علم الدولة على جيوشه ولقبه امير الامراء وولاه الشام وسيره اليها وحمل باروح معه زوجته وهي ابنة الوزير يعقوب ابن يوسف بن كاس وحملا معهما اموالهما في قافلة مع التجار ، فاعترضهم ظاهر غرة المفرج بن دغفل بن الجراح واولاده فأوقع بهم وحاز جميع ما كان معهم واخذ باروح اسيراً وقتله

وسار ابن الجراح الى الرملة ودخلها ، واباح للعرب نهبها وصادر الاموال وافتقر جماعة هناك . واقام الدعوة لابي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني امير مكة يومئذ ، واسماه امير المؤمنين ولقبه الراشد لدين الله ، وضرب له السكة واستحوذت العرب على جنوب الشام وملكوه من الفرما الى طبرية وحاصروا حصون السواحل مدة طويلة ولم يمكنهم اخذ شيء منها .

واستدعى ابن الجراح ابا الفتوح الحسني من مكة فسار الى الشام ووصل الى الرملة ودخلها راكباً فرساً ونزل في دار الامارة بها ، وانشأ كتاباً قرئ على الناس بان لا يقبل له احد الارض وان هذا شيء ينفرد به الله عز وجل ، وجلب معه اموالاً كثيرة من الحجاز فاكلها العرب وعجزوا عليه واشرف على ضعف امره . وقد كان الحاكم بذل فيه اموالاً جسيمة لحسان بن المفرج فاشار على ابي الفتوح بالرجوع الى طاعة الخليفة العلوي واوصلوه الى مأمنه فلما عاد الى مكة اقام الدعوة الى الحاكم على الرسم السالف بعد ان كان اقامها لنفسه ، وكتب الى الحاكم يعتذر فقبل عذره ووصله واحسن اليه . وحصل الشام في ايدي بني الجراح واقاموا متغلبين عليه الى المحرم سنة اربع وار بعمائة وعظمت مصادرتهم للناس مرة بعد أخرى وعسفهم اياهم فهرب من نصارى الشام خلق كثير توجهوا الى بلاد الروم وقصد اكثرهم اللاذقية وانطاكية وقطنوهما . استقل المفرج بن دغفل بن الجراح سنتين وخمسة اشهر في الشام ولم يرسل الحاكم عليه عسكراً وفي المحرم (٤٠٤) سير القائد علي بن فلاح الملقب قطب الدولة في جيش كبير جمع فيه معظم رجال مملكته ، وكوتبت الجيوش في دمشق والسواحل بلقائه ، وسارت العساكر من الجهتين نحوه فاتفق في الحال ان مات المفرج بن دغفل واتصل باولاده قصد العساكر اليهم فذهبوا مع العرب الى البرية وتخلوا عن الرملة وغيرها من البلاد التي غلبوا عليها .

ولى الحاكم عهده لابي القاسم عبد الرحمن بن الياس بن أحمد بن المهدي بالله وجعله الخليفة بعده (٤٠٤) ودعي له على المنابر ونقش اسمه على السكة ، وحصل بدمشق وفسح لاهلها في شرب القهوة وسماع الاغاني فاحبه اهل دمشق ومقته الجند لشحه ، واذاع بعض الدرزية دعوته في قوم من المسلمين في وادي التيم فتجاهر الذين استجابوا

لدعوته بمذهبهم فغزاهم امير الاكراد ابن تالشليل فقتل منهم وسبى واحرق واهلك خلقاً . واستشعر ولي العهد بعد ما جرى في امرهم انكار الحاكم ما فعل بهم ، وحذر ان يحنق عليه بسببهم ، فانفذ صاحباً له يعرف بابن الخرقاني الى حسان بن المفرج بن الجراح ليقرر له معه ان يكون من جهته فشغب عليه الجند وقتلوا الخرقاني بدمشق ونهبوا دار ولي العهد فاستغاث بالدمشقيين والغوطيين فاحاطوا بالقصر الذي ينزله بظاهر دمشق فانتشبت الحرب بينهم و بين الجند واندفع الدمشقيون عنه ونهب الجند القصر وكان عند تواصل الاخبار الى الحاكم بعصيان ولي العهد ندب صاعدبن عيسى ابن نسطورس للخروج الى الشام ، وأعطاه من العدد السلطانية والآلات الجليلة ما لم يعط لغيره ، وتقدمت مكاتبة الحاكم الى ولي العهد يأمره بالحضور الى مصر فبادر بالرحيل وسار العسكر معه الى الرملة ولما ايقن الحاكم امتثاله امره زالت الشبهة عنه من نفسه ، وكتب يرسم له بالرجوع الى دمشق وقلد تقليداً ثانياً .

وثار بدمشق بعد مسير ولي العهد عنها رجل من اهلها يعرف بمحمد بن ابي طالب الجزار واجتمع اليه جمع كثير من احداثها ومن رعاع اهل حوران امتعاضاً لولي العهد وحاربوا الجند ، وطرح الجند النار في المدينة فاحرقت منها قطعة كبيرة ، ولما عرف محمد بن ابي طالب الجزار عودة ولي العهد سار للقائه واجتمعوا في لد وسار محمد بن ابي طالب الى دمشق وقد اجتمع اليه خلق كثير ودخل دمشق بغتة ، وراجع الحرب واستظهر على الجند واخرجهم من المدينة ، وارسل اليه ولي العهد في تسكين الفتنة فلم يطعه وقتل قاضي دمشق وتسلط هو والاحداث عليها ، وقتل ايضاً جماعة من الناس ونهبهم ، وتوقاه اهل السلامة وخافوا منه ، وغلت الاسعار بقيام الفتنة فاجتمع على الناس بدمشق الجوع والحريق والنهب والقتل . وكان محمد ابن ابي طالب قد سد الباب الشرقي فوجد الدمشقيون فرصة وفتحوه وقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب الجابية وقتلوا جمعاً ممن كان على رأيه ، واستقام امر دمشق وصلح حال ولي العهد واطلق يده في مصادرة جماعة من الدمشقيين والمتهمين بقيام الفتنة فنكروا عليه وابغضوه واجتمع اهل البلد والجند على كراهيته — لخصت كل هذا من تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي .

* * *

تقسيم البلاد بين القبائل ودولة بني مرداس } كان لؤلوء غلام ابن حمدان وولده منصور بن لؤلوء قد استوليا على حلب بعد موت ابي الفضائل بن سعد الدولة بن حمدان ، وضيق منصور بن لؤلوء على ابني ابي الفضائل فقصدا الحاكم في مصر ، وهرب ابو الهيجاء بن سعد الدولة من حلب ايضاً في زي النساء والتجأ الى بسيل ملك الروم ومات لؤلوء في المحرم سنة ٣٩٩ وآلت الامارة لولده الصغير منصور بن لؤلوء ، وكرهه كثير من الحلبيين ورغبوا في ابي الهيجاء ، وكذلك امراء بني كلاب المدبرين بلد حلب ، وسار ابو الهيجاء الى ميافارقين فانفذ معه حموه ابن مروان صاحباً له في دون المائتي فارس وسار الى الجزيرة ولقيه جماعة امراء بني كلاب وضمنوا له ان يعاضدوه ، وخافه منصور بن لؤلوء فاستصلح بني كلاب وشرط لهم ان يعطيهم الاقطاعات الكثيرة ويجعلهم مساهمين له في الضياع والاعمال التي في ظاهر حلب ، واستنجد بالمغاربة جيش الفاطميين فأسرع اليه علي بن عبد الواحد بن حيدرة قاضي طرابلس في عسكر منيع ، وكان اليه النظر في طرابلس وسائر الحصون، فاتفقت موافاته حلب مع نزول ابي الهيجاء فانهزم هذا وذهب الى القسطنطينية ومات فيها عند صاحب الروم وعاد ابن حيدرة الى طرابلس واقام منصور بن لؤلوء يخطب لصاحب مصر ولقبه الحاكم مرتضى الدولة ثم فسد ما بينه وبين الحاكم وعاد الكلابيون يلتمسون من منصور بن لؤلوء ما شرط لهم فحضر منهم زهاء سبعمائة رجل فيهم جميع امراء بني كلاب وذوي الرئاسة والشجاعة فقبض عليهم جميعاً وامر ببذل السيف فيهم وحبس منهم جماعة وكان في جملة المحبوسين صالح بن مرداس فتوصل في الحبس الى ان صعد من السور وألقى نفسه من اعلى القلعة الى تلها ، فسار الى اهله وجمع الفي فارس واسر ابن لؤلوء وقيده بقيده الذي كان في رجله ولبته الحديد .

واحزم الناس من ان فرصة عرضت لم يجعل السبب الموصول مقتضبا

وانصف الناس في كل المواطن من سقى المعادين بالكاس الذي شربا

وليس يظلمهم من راح يضربهم بحد سيف به من قبلهم ضربا

وكان لابن لؤلوء اخ فنجا وحفظ المدينة ، وبذل ابن لؤلوء الى صالح بن مرداس مائتي الف دينار فأطلقه على شرط ان يطلق كل أسير عند ابن لؤلوء من بني كلاب .

وبنو كلاب بطن من عامر بن صعصعة ملكوا حلب ونواحيهـا ، واول من ملك منهم صالح بن مرداس هذا وكان لهم في ايام سيف الدولة بن حمدان شأن وغزاهم غير مرة وبعد ان اصطنعهم واصطفاهم من بين قبائل العرب .

انقرضت دولة بني حمدان سنة ٤٠٦ وآخرهم في حلب المنصور ، وقد دامت حكومتهم في حلب وحماة وحمص والمعرة وانطاكية زهاء سبعين سنة عزيزة مستقلة في اولها ، ذليلة خاضعة لسلطان غيرها في آخرها . وفي شوال (٤١١) سلم محمد بن خليد النهراني الى الروم الحصنَ المعروف بالخوابي في جبل نهران ومدينـة مرقية على ساحل البحر وكانت خراباً فأحسن اليه بسبيل الملك . وتسلم نواب الفاطميين الشـام حتى موت الحاكم بامر الله (٤١١ هـ ١٠٢١ م) وعندها اجتمع حسان امير بني طيء ، وصالح بن مرداس امير بني كلاب ، وسنان بن عليان امير بني كلب ، فتحالفوا واتفقوا على ان يكون من حلب الى عانة لصـالح بن مرداس ، ومن الرملة الى مصر لحسان ، ودمشق لسنان ، فقصد صالح حلب وبها رجل يقال له ابن ثعبان يتولى امرها للمصريين ، فسلم أهل البلد لصالح لاحسانه اليهم ولسوء سيرة المصريين معهم ، وسلمت القلعة اليه سنة ٤١٤ وملك من بعلبك الى عانة وأقام بحلب ست سنين .

افتتح حسان بن المفرج بن الجراح امير الطائيين مدينة الرملة (٤١٥) واتى عليها حريقًا ونهبًا واسراً . وحاصر سنان بن عليان مدينة دمشق (٤١٦) وجرت بينه وبين أهلها حرب شديدة وخرب داريا واعمالها . وبقيت حال الشـام على هذا الى سنة ٤١٩ وقد مات سنان بن عليان امير الكلبيين ، ودخل ابن اخيه رافع بن ابي الليل بن عليان الى الظاهر فاصطنعه وعقد له الامارة على الكلبيين وسير معه عسكراً وانضافت اليه العساكر المقيمة في الشام ، واجتذب اليه جماعة من العرب ، وقصدوا باجمعهم حرب حسان بن المفرج بن الجراح وورد اليه صالح بن مرداس وبنو كلاب لمعاونته ، واتفقا على لقائهم وتصافوا للحرب في بلد طبرية على نهر الأردن في موضع يعرف بالأقحوانة (٤٢٠) وقتل صالح ومع علم حسان والعرب بقتله انهزموا باسرهم الى الجبال وقتل منهم جماعة ولما عرف اصحاب صالح المقيمون في بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن

ابن عكار قتله تخلوا عن جميعها واستعادها اصحاب السلطان . واستولى نصر وثمال ابنا صالح على حلب واعمالها وعلى الرحبة و بالس ومنبج .

وكان بانطاكية عامل للروم فجمع جيشاً وسار قاصداً حلب بغير امر ملك الروم فتلطف معه ابنا صالح بعد ان كبست العرب معسكره وقتلت منه جماعة ، ثم سار ملك الروم بنفسه (٤٢١) الى غزو حلب واتصل بحسان بن الجراح ما عزم عليه ملك الروم من غزو الشام ، فانفذ اليه جماعة من أهله برسالة يقوي بها عزمه على ما همّ به و يبذل له الخدمة في غزاته والمسير بين يدي جيوشه بعشيرته واصحابه ، وانفذ ايضاً نصر وثمال ابنا صالح بن مرداس مع آل جراح ابن عمهما مُقلّد بن كامل بن مرداس يبذلان مثل ذلك عن نفوسهما وعشيرتهما واصحابهما وان يعطي جميعهم رهائنهم على مناصحتهم اياه وصحة وفائهم بما بذلوه ووفد جميعهم الى الملك فنزل هذا بجيشه على أُبَّل من بلد اعزاز فطاردهم العرب وانهزم اكثر المقاتلة وثبت بعضهم وقتل من الفريقين جماعة وأسرت العرب من الروم المنهزمين عدداً كبيراً وعادالباقون الى معسكرهم ، ثم اضطر الملك الى العودة الى بلاده وكان معه جماعة كثيرة من الارمن فوضعوا ايديهم في النهب وزادت الفتنة ، ثم كتب نصر بن صالح الى ملك الروم يستعطفه و يعتذر اليه و يلتمس منه ان يجريه على ما كان ابوه عليه وغيره ممن ملك حلب مع من تقدمه من اسلافه الملكين الماضيين بسيل وقسطنطين .

من لم تفده عبراً أيامه كان العمى اولى به من الهدى

قال ابن الاثير : لما خرج ملك الروم بنفسه من القسطنطينية الى الشام هذه المرة كان في ثلاثمائة الف مقاتل ، فلما بلغ قريب حلب نزل على يوم منها ولحقه عطش شديد فهلك كثير من جيشه عطشاً فعاد وجماعته ادراجهم . وقيل في عوده ان جمعاً من العرب ليس بالكثير عبر على عسكره وظن الروم انها كبسة فانهزموا لا يلوون على شيء .

وذكر ان المهذب المعري ان خروج أرمانوس ملك الروم الى حلب في سنة حدى وعشرين واربعمائة وكانوا ستمائة الف ومعه ملك البلغار وملك الروس والالمان والخزر والارمن والبلجيك والفرنج وغنم المسلمون منهم مالا يحصي وأسرت

جماعة من اولاد ملوكهم · وفي قول ابن المهذب نظر لان هذا الجيش العظيم وهذه الامم التي عدها يستحيل ان تسير مع ملك الروم الا اذا كان دعاهم باسم حماية النصرانية في الارض المقدسة ويستحيل ان تقترب منها ولا تفتحها وفي الشام امامها دول وامارات ·

وملك الروم (٤٢٢) قلعة أفامية وسبب ملكها ان الظاهر الفاطمي سير الى الشام الدزبري وزيره فملكه وقصد حسان بن المفرج الطائي فألح في طلبه فهرب منه ودخل بلد الروم ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير فسار الى أفامية فكبسها وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم ·

وفي سنة ٤٢٣ اجتمع في جبل السماق من بلد الروم جماعة من الدرزية وجاهروا بمذهبهم وأخربوا ما عندهم من المساجد ، وتحصن دعاتهم وكثير من عوامهم في مغاور شاهقة منيعة ، وقصدهم وانضوى اليهم خلق كثير من اهل نحلتهم ، وتوفر عددهم واستضاموا المسلمين المجاورين لهم من اهل بلدان حلب والذين هم بينهم ، ووعدوا أنفسهم وأطمعوا عوامهم بقوة أيديهم وكثرة استيلائهم على البلاد والاعمال القريبة والبعيدة · فرأى نقطبان انطاكية مبادرتهم قبل تفاقم أمرهم وتخطيهم الى الفساد والعيث ، ورسم لمن يجاورهم من طراخنته [1] قصدهم برجاله واصحابهم ، فتلطفوا في ان قبضوا على دعاتهم واماثلهم وقتلوهم ، وحاصروا باقيهم في تلك المغاور ، فنصبوا عليها القتال اثنين وعشرين يوماً الى ان التمسوا الامان وخرجوا منها هاربين وتتبع الروم المسلمين في أعمالهم وانذرهم واضمحلوا ودثروا · وهذه ثاني وقعة للدروز في الشام والوقعة الاولى في وادي التيم بعد قيام دعوتهم على عهد الحاكم بامر الله الفاطمي ·

وكان الحاكم هذا في جملة تحكماته الباردة على سكان مملكته في مصر والشام ان امر بهدم الكنائس فهدم كنيسة في دمشق وكنيسة القيامة بالقدس وغيرها من الكنائس العظمى فنفذ امره ونقض بعض الكنائس بيده وامر بان تعمر مساجد للمسلمين وامر بالنداء من أراد الاسلام فليسلم ومن اراد الانتقال الى بلاد الروم كان آمناً الى ان يخرج ومن أراد المقام على ان يلتزم ما شرط عليه فليقم وفي سنة ٤٠٠

(١) طرخان اسم للرئيس الشريف في قومه والذي لا يؤخذ منه الخراج ومن يكون تحت يده خمسة آلاف رجل وهو دون البطريق والجمع طراخنة ·

انشأ دار العلم بالقاهرة وأحضر فيها الفقهاء والمحدثين وبعد ثلاث سنين امر بقتل العلماء وأغلق دار العلم وبعد ان مضى لسبيله اشترط ملك الروم على الظاهر (٤٢٤) في الهدنة التي عقدها معه ان يعمر الملك كنيسة القيامة ببيت المقدس ويجددها من ماله ويصير بطريركاً على بيت المقدس وان تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التي في بلاد الظاهر .

بقي شبل الدولة مالكاً لحلب الى سنة ٤٢٩ فأرسل اليه أنوشتكين الدزبري قسيم الدولة العساكر المصرية وصاحب مصر يومئذ المستنصر بالله . فلقيهم عند حماة فقتل في المعركة ، وملك الدزبري حلب وصفت له بلاد الشام باجمعها ، وأباد المفسدين ومهد الامور ، حتى أمنت السبل في ايامه ، وعظم امره وكثر ماله ، وارسل يستدعي الجند الاتراك من البلاد فبلغ المصريين انه عازم على العصيان فتقدموا الى اهل دمشق بالخروج عن طاعته ففعلوا فقصد حماة فعصى عليه اهلها فكاتب محمد بن منقذ الكفرطابي لحضر اليه في نحو الفي رجل فاحتمى به وسار الى حلب (٤٣٣) وتوفي بعد شهر واحد . وكان انوشتكين نائب الشام للمستنصر ، شجاعاً مقداماً ، عظيم الهيبة ، حسن السياسة ، طرد العرب من الشام وأباد المفسدين ومهد احوال القطر وفسد بموته الشام وزال النظام وخرجت العرب في نواحي القطر ، فخرج ابو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرحبة وجاء حلب فملكها تسليماً من اهلها وسار (٤٤٠) ناصر الدولة الحسن بن حمدان امير دمشق وشجاع الدولة جعفر بن كلشيد والي حمص بجماعة من الجند وقبائل العربان من الكلابيين وغيرهم الى حلب لقتال متوليها ثمال بن صالح بن مرداس فخرج اهل حلب فهزمهم واختنق بالنار منهم جماعة فرجع بغير طائل ثم قلد قطز الصقلبي دمشق وقبض على ابن حمدان وصادره واعتقله بصور ثم بالرملة وقبض على راشد بن سنان امير بني كلاب وحمله الى صور فاعتقله بها وخرج امير الامراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته نحو الثلاثين الفاً بلغت النفقة عليه اربعمائة الف دينار يريد الشام ومحاربة بني مرداس فحاربه الحلبيون فانهزم المصريون واسر رفق ومات في حلب . قال ابن ميسر : وتقدم المستنصر الى جميع ولاة الشام بالانقياد لرفق فوافى بالرملة رسول ملك القسطنطينية واصلاً بالصلح

بين المستنصر و بني مرداس فقتل رفق وانحرفت الخدمة ، وجرت بالرملة ودمشق امور آلت الى حرب بين العسكر مدة ايام بباب توما من دمشق ·

وجهز ثمال الى معرة النعمان واليًا اساء التدبير فانحرف عنه الناس وآل امره الى الهرب ، فبادر جعفر امير حمص وتجوز الى المعرة بنفسه ولقيه مقلد بن كامل بن مرداس فاوقع به وقتله وشهر رأسه بحلب · وحصر ثمال امرأة الدزبري واصحابه بالقلعة احد عشر شهراً وملكها سنة ٤٣٤ فبقي بها الى سنة اربعين · وكان معز الدولة ثمال جمع للمصريين خمسة آلاف فارس وراجل فقاتلهم ثلاثة ايام ، فلما رأى المصريون صبر ثمال وكانوا ظنوا ان احداً لايقوم بين ايديهم رحلوا عن المدينة · والسبب في قتال المصريين لثمال ابن صالح انه كان قرر على نفسه ان يحمل كل سنة عشرين الف دينار عما في يده ويد عشيرته الى صاحب مصر فتأخر الحمل سنتين · ثم ان معز الدولة ارسل الهدايا الى المصريين واصلح امره معهم ونزل لهم عن حلب فانفذوا اليها ابا علي الحسن بن علي ابن ملهم ولقبوه مكين الدولة فتسلمها من ثمال سنة ٤٩ بعد حروب طويلة ·

وفي سنة ٤٤٦ نقض الروم الهدنة مع صاحب مصر وكانوا تعهدوا بان يطلقوا له اربعمائة الف اردب من الغلال بسبب الغلاء في مصر ولم يوفوا بالعهد فجهز المستنصر عسكراً قدم عليه مكين الدولة ابن ملهم لقصد اللاذقية ، فخرج في عساكر جمة وحاصرها واتبعهم بعسكر ثان وعسكر ثالث ونودي في سائر بلاد الشام بالغزو الى بلاد الروم ، وحاصر ابن ملهم قسطون بالقرب من فامية وضيق على اهله ، وجال في اعمال انطاكية ونهبها وسبى منها فبلغ ذلك مَلِكة القسطنطينية فسيرت ثمانين قطعة في البحر فاسرت ملكهم ومن معه من اعيان العرب ·

وفي سنة ٤٤٧ سير المستنصر فقبض على جميع ما في كنيسة القيامة بالقدس ، لان صاحب الروم اذن لرسول طغرلبك السلجوقي ان يصلي في جامع القسطنطينية فخطب للقائم العباسي ، فغضب الخليفة الفاطمي · قال ابن ميسر : وكان هذا من الاسباب الموجبة لفساد ما بين المصريين والروم وفي هذه السنة تجمع كثير من التركمان بحلب وغيرها فافسدوا في اعمال الشام ·

وحدثت فتنة بين بعض السودان واحداث حلب ، فسمع ابن ملهم ان بعض الاحداث في حلب قد كاتب محمود بن شبل الدولة ليسلموا اليه البلد ، فقبض على جماعة منهم فاجتمع اهل البلد ، وراسلوا محموداً وهو منهم على مسيرة يوم يستدعونه ، وحصروا ابن ملهم وحصروه معهم فسيرت مصر ناصر الدولة بن حمدان امير دمشق لقتال من بها لاجل قطع خطبة المستنصر فيها فلما قارب البلد خرج محمود عن حلب الى البرية ، واختفى الاحداث جميعهم ، ولم يمكن ناصر الدولة اصحابه من دخول حلب ونهبها ، وسار في طلب محمود فالتقيا بالفنيدق فانهزم اصحاب ابن حمدان وثبت هو فخرج وحمل الى محمود اسيراً فأخذه وسار الى حلب فملكها وملك القلعة في سنة ٤٥٢ فجهز المصريون معز الدولة ثمال بن صالح الى ابن اخيه فحصره في حلب فاستنجد محمود خاله منيع بن شبيب النميري صاحب حران فجاء اليه فلما بلغ ثمالاً مجيئه سار عن حلب الى البرية (٥٣) وعاد منيع الى حران فعاد ثمال الى حلب وخرج اليه محمود ابن اخيه فاقتتلوا وقاتل محمود قتالاً شديداً ثم انهزم محمود فمضى الى اخواله بني نمير بحران وتسلم ثمال حلب وخرج الى الروم فغزاهم . وذكر ابن ميسر : ان اليازوري وزير مصر سير اموال الدولة جميعها لفتح بغداد وكان ذلك سبباً لخروج الغز الى الشام وملكهم اياه وقال في حوادث سنة ٤٥١ ان حادثة قتل البساسيري وقطع خطبة المستنصر من بغداد واعادتها للقائم ، كانت آخر سعادة الدولة المصرية ، فان الشام خرجت من ايديهم بعدها بقليل ولم يبق لهم سوى ملك مصر .

ولما توفي ثمال (٤٥٤) اوصى بحلب لابن اخيه عطية بن صالح فملكها، ونزل به قوم من التركمان فقوي بهم ، فاشار اصحابه بقتلهم فامر اهل البلد بذلك فقتلوا منهم جماعة ونجا الباقون ، فقصدوا محموداً بحران واجتمعوا معه على حصار حلب فحصرها وملكها .
وفي سنة ٤٥٥ ندب امير الجيوش بدر الجمالي لولاية دمشق على حربها وندب معه على الخراج الشريف ابو الحسين الزيدي ، ولم يلبث امير الجيوش ان انصرف عن ولاية دمشق هرباً من اهلها فولى المستنصر عليها حصن الدولة حيدرة ثم ولاه الشام بامره (٤٥٨)

وفي سنة ٤٥٩ بعث المستنصر الى محمود بن الروقلية المتغلب على حلب يطالبه

بحمل المال وغزو الروم وصرف ابن خاقان ومن معه من الغز فلم يجبه وقال : انه لامال له وانه هادن الروم واعطى ولده رهينة على مال اقترضه منهم فندب المستنصر بدراً الجمالي امير الجيوش الى محاربته فدخل ابن عمار صاحب طرابلس بينهما واصلح الحال . وفي سنة ٤٦٠ كانت حرب بدمشق بين امير الجيوش و بين عسكريته وكانت الحرب في مصر بين الاتراك في الجيش مع الفاطميين .

وفي سنة ٤٦١ وقع الخلف بدمشق بين العسكرية و بين اهلها وطرحت النار في جانب منها فاحترقت ، واتصلت النار منه بالمسجد الجامع من غربيه فاحترق ولم يبق منه الا حيطانه الاربعة . واستولى في هذه السنة على دمشق معلى بن حيدرة الكتامي من غير ان يؤمر له بذلك عند خلو دمشق من متولٍ بعد ماهرب امير الجيوش بدر الارمني ، فأساء السيرة في اهلها وصادرهم و بسط العقوبة عليهم ، الى ان خربت اعمال البلد وانجلا كثير من اهلها ، ووقعت بينه وبين عسكر البلد وحشة خاف منهم على نفسه فهرب الى بانياس فصور فطرابلس فأخذ واعتقل ومات من الضرب .

وفي سنة ٤٦٣ استولى القفي مختص بن ابي الحسين على دمشق وطرد نواب امير الجيوش واستولى على صور ابن ابي عقيل وعلى طرابلس قاضيها ابو طالب ابن عمار وعلى الرملة والساحل ابن حمدان ولم يبق لامير الجيوش غير عكا وصور ، ونزل هذه السنة امير الجيوش في العسكر المصري على صور محاصراً لعين الدولة بن ابي عقيل القاضي الغالب عليه فاستنجد هذا الامير ترلو مقدم الاتراك بالشام فانجده بستة آلاف فارس فرحل عنها امير الجيوش ثم عاودها وحاصرها من البر والبحر سنة بدون طائل . وفتح الروم منبج واحرقوها وبقيت معهم سبع سنين .

***

آخرة الفاطميين

كان على حلب عند هلاك الحاكم عزيز الدولة فاتك الوحيدي ، وقد استفحل امره وعظم شأنه وحدث نفسه بالعصيان ، فلاطفته ست الملك عمة الظاهر لاعزاز دين الله وكفيلته ، وهي التي قامت بتدبير مملكة الفاطميين بعد مهلك الحاكم أحسن قيام وبذلت العطاء في الجند ، وساست الناس احسن سياسة اربع سنين ، اعادت الملك فيها الى غضارته وعمرت

الخزائن بالاموال واصطنعت الرجال — فلاطفته وبعثت اليـه بالخلع والخيل بمراكب الذهب وغيرها ، ولم تزل تعمل عليه حتى أفسدت غلاماً له يقال له بدر فقتله وحفظ الخزائن ووهبت له جميع ما خلفه وقلدته حلب . ولو لم يقيض الله للملك الفـاطميين مثل هذه السيدة بعد الاحوال التى تمت على عهد الحاكم لكان الانقراض الى دولتهم قريباً جداً . ثم جاء ابنــه الظاهر لاعزاز دين الله وكان حسن السيرة فرفع ايدي المتغلبين على الملك المتوثبين على سلطان الفواطم ، واستقام له الامر مدة . اما ايام الخليفة المستنصر بالله خامس خلفـائهم الذي بقي في الخلافة ستين سنة واربعة اشهر فقد كانت على هذا المنوال من التسرع في نصب العمال وصرفهم والشام تشكو وتئن ، والبؤس اكثر من السعادة ، والمتغلبة منذ الثلث الاول من القرن الرابع كل يوم في شأن ، تارة يقوم فيها مثل سيف الدولة الذي كان يلبس على علاته ، وتارة يقوم ابنه ومملوكه الذين يستنجدون بالروم على المسلمين و يرضون باعطاء الجزية لهم ويدلونهم على عورات جيرانهم ، بعد ان كان مؤسس دولتهم سيف الدولة يقـاتلهم ولا يتساهل معهم و يظهر لهم من الشمم حتى يوم هزيمته ما يبيض وجه العرب والمسلمين .

كان الفاطميون زمن المعز والعزيز على جانب من القوة فتح المعز مصر فدخلها من الغرب في مئة وقيل في مئة واربعين الف مقاتل والف وخمسمائة جمل يحمل الذهب فقط ، وقد استكثر من العساكر بمصر فكانوا مابين كنانة وروم وصقالبة و بربر ومغاربة لا يحصون في العد ، حتى قيل لم يطأ الارض بعد جيوش الاسكندر بن فيلبس الرومي الكبير اكثر من جيوش المعز الفاطمي وربما فاقت بعددها الجيوش التي جمعها ابو الجيش خمارويه بن احمد بن طولون صاحب مصر والشام في القرن الثالث .

فبمثل هذه الجيوش استقام الامر للفاطميين لاول عهدهم في مصر والشام ، فحكموا الى الفرات ومكة والمدينة والقدس والخليل وصارت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة ، والخلفاء من بني العباس يحكمون من الفرات الى بغداد واعمالها الى سائر بلاد المشرق و يخطب لكل خليفة منها في الجهات التي تحت حكمه باسمه فقط ، ولما ضعف امرهم اصبح يحكم دمشق حمال التراب ويحكم صوراً الملاح وفلان البدوي يستطيل على الحضري وثلاثة من اهل البداوة يتقاسمون ملك الشام والعباسيون في الشرق

والفاطميون في الجنوب لا يبدون ولا يعيدون وعندهم القواد والاجناد ، وللاحداث اي فتيان العامة في حلب ودمشق القول الفصل ، يرفعون ويضعون ، ويتحكمون ويعبثون بالناس واموالهم ، ويا بؤس بلاد يكون القول الفصل فيها لفوضى العامة .

كان حكام الشام يأتونها من الحجاز والعراق ، فأصبحوا يكتسحونها في هذه الاعصار من مصر وبلاد الشمال ، وكان العمال والقواد عرباً من بني أمية وبني هاشم ومن والاهم فصاروا مزيجاً من العجم والترك والتركمان ، وكلهم سواء في ارتكاب المظالم والمغارم الا قليلاً ، متى قوي سلطان الجار يهاجم جاره ، فتطل دماء الابرياء على غير طائل . ولم تستقر البلاد على حالة معينة بضع سنين فكانت العوامل الجنسية والمذهبية تتنازعها واهلها ، وبعد ان كانت الشام في القرن الاول وثلث القرن الثاني مصدر الحياة العربية ، ومنبعث القوة الحربية ، أمست في القرون التالية ألعوبة اهواء الدخلاء وطعمة الطامعين من أهل البوادي ومن جرت عليهم احكام الرقيق من العبيد والبرابرة ، وبعد ان كان للعصبيات فيها شأن واي شأن في القرنين الأولين أصبحت في القرون الثلاثة التالية ضعيفة ضئيلة ، لا يتعدى تأثيرها المصالح الخاصة ولا يفكر القائمون بها في غير السلب والاعتداء .

إن تسامح العباسيين بادخال أهل غير عصبيتهم فيهم أدى الى انتشار كلمتهم ، وتمزيق جامعتهم ، وما كل القواد والعمال كابراهيم المهدي وجعفر بن يحيى وطاهر بن الحسين وعبد الله بن طاهر ، ولا كل المتوثبين على الملك في عقلهم وسياستهم كاحمد ابن طولون وسيف الدولة بن حمدان . دثرت تلك الطبقة الممتلئة المختارة ، وخلف من بعدها خلفٌ من القواد والرجال ليسوا في الاكثر على شيء من حسن السياسة والادارة . اذا كان لهم جيش عظيم رهبهم الناس والا فالحكم للصعاليك والزواقيل ، وهم اول الطامعين في السلطان ، العاملين على نقض بنيان الاوطان ، والناس بين مظلوم وظالم ، ومتخوف ومخيف . والمنافسة بين الامراء على أشد حالاتها والشام مقسم الاجزاء بين كثيرين في سياسته الداخلية والخارجية ، مصر من الجنوب تشده ، وبغداد من الشرق تريد ان تسترده ، والطامعون فيه من الترك والتركمان والروم والقرامطة والعبيد والخدم والمماليك يسطون عليه فيدمرون عمرانه ، ويهلكون أهله

وسكانه ، والناس في الواقع لا يعرفون لهم سيداً معيناً لانهم متفرقة قلوبهم ، متباينة منازعهم . وصاحب حمص غير صاحب حلب ، وصاحب دمشق غير صاحب صور او الرملة ، مملكة هذا حالها تموت بحكم الطبيعة ، ولا تستريح من الغوائل بحال . والجسم يعيش بروح واحد وتعدد الارواح يستلزم تعدد الاجسام .

بعد ان قتل القرامطةُ الباطنيةُ أهلَ مدن برمتها من هذا القطر استنجد اهل اعظم مدينة فيه بهم ، فوافوا يجوسون خلال ديارهم لينقذوها من دولة الفاطميين المسلمين وبعد ان ثبت ان الروم هم اعداء الشام بلا مراء ، اصبح امراؤه يستغيثون بهم على ابناء ملتهم ليصفو لهم ملكهم الذي يريدون ان يعيشوا فيه قيد الأمر لعدوهم الخارجي ، ويستكثروا من القصور والجواري والمماليك والحاشية والغاشية ليكون كل صاحب مقاطعة في أبهته كخليفة الوقت وزيادة . يسلبون نعمة الرعية لينعموا بما سلبوا ، كمن يحاول نقض أساس بيته ، يجمل خارجه باطار جميل ، او ليذهب شرفته وجدرانه . وبينا كان العزيز الفاطمي يبث دعاته لنشر التشيع في الاقطار التي انضوت الى عمله و يقتل وآله علماء المالكية لتشددهم في التسنن كان جمهور المسلمين غاضبين في مصر والشام لانه وسد الامر بمصر لرجل من الاقباط اسمه نسطورس وقلد اموال الشام لاسرائيلي اسمه منشا يجمعان الاموال ، و يوليان ابناء نحلتهما الاعمال ، و يعدلان عن الكتاب والمتصرفين من المسلمين فعمد بعض الناس في القاهرة الى مجرة من حديد وألبسها ثياب النساء وزينها بازار وشعرية وجعل في يدها قصة على جزيدة ، وكتب فيها رقعة ليراها العزيز عند مروره وهي : « بالذي أعز جميع النصارى بنسطورس وأعز جميع اليهود بمنشا وأذل جميع المسلمين بك الامارحمتهم وازحت عنهم هذه المظالم » فتوسطت ست الملك ابنة العزيز لنسطورس بالعفو فحمل الى الخزانة ثلاثمائة الف دينار وأعاده الى ما كان ناظراً فيه وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه واعماله . اما منشا فقتل اذ لم يستشفع فيه احد . تناقض في التسامح غريب في بابه . واصول في الادارة لم يلاحظ فيها نزع العلة التي يشتكي منها بل كان ينظر فيها لمنفعة الخزانة اما الرعايا فأمرهم لله، وحسابهم عليه لا على سواه .

ولقد جاء في الفاطميين وزراء عقلاء مثل الوزير بن كلس المتوفى سنة ٣٨٠

الذي نصح للعزيز في مرض موته بقوله : « سالم يا امير المؤمنين الروم ما سالموك واقنع من الحمدانيـة بالدعوة والسكة ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة » وكان ذلك غاية الغاية في سياسة الملك لان الروم أمة قوية عزيزة لا تخنع لجيرانهـا خلفاء مصر ولا لخلفـاء بغداد وهي تراهم مختلفة كلمتهم جد الاختلاف متعبين في داخليتهم ، مشتغلين بالمنتقضين على سلطانهم ، فقد أجاب العزيز الروم سنة ٣٧٧ الى الصلح واشترط شروطاً شديدة التزموا فيها كلها . منهـا انهم يحلفون انه لا يبقى في مملكتهم اسير الا اطلقوه ، وان يخطب للعزيز في جامع قسطنطينية كل جمعة ، وهادنهم سبع سنين . اما الدولة الحمدانيـة فانه على ما يظهر لم يعجل انقراضها الا اعتصامها في آخر امرها بالروم ونفضها يديها من طاعة العباسيين وطاعة الفاطميين معاً ، فاستهان بها عدوها وصديقها ، ودب الفساد ودخلت الدسائس وكان في ذلك زوالها ، واما المفرج بن دغفل امير بني طيّ وسائر العرب بارض فلسطين فانه كان عدواً لدوداً للفاطميين قريباً من دار ملكهم يهددهم كل يوم وربما استطاع ان يستنجد بملوك الشرق على نقض عرى الملك الفاطمي . فانه بدوي والأعراب اي الباديه مادخلوا بلداً الااسرع اليه الخراب وقيام الملك يحتاج الى حسن تدبير وتقديرا اكثر من قوة البطش ولذلك لم تتم لامراء بني طيّ في الجنوب ولالبني مرداس الكلابيين في الشمال دولة تعاقبت عليها بطون كثيرة في الشام وكيف كان حال هذه الدول فان قاعدة الحكيم ابن خلدون في ان للدول اعماراً طبيعية كالاشخاص لا تنتقض في الدول التي يحكمها الافراد حكماً استبداديا ، وسعادة الدولة لا تدوم كالافراد اكثر من اربعة بطون : الاول يفتح ويجمع ، والثـاني ينظم ويرتب ، والثالث ينعم ويتمتع ، والرابع يفرق ويخرب تعالى الله .

دور السلجوقيين

« من سنة ٤٦٣—٤٩٠ »

اصل السلجوقيين والتركمان والفتح السلجوقي

كانت البلاد في معظم دور الفاطميين ككرة الصوالجة تتقاذفها القوات المختلفة . وقد قام الفاطميون على اثر انقراض الدولة الإخشيدية في مصر وورثوا تراثهم في قسم من الشام ، ثم انقرضت دولة الحمدانيين في الشمال وكانت في آخر امرها تفزع الى دولة الروم البيزنطية لتحميها بأس خلفاء المصريين من بني عُبَيْد . وقامت دولة بني مرداس ودولة بني الجراح ودولة بني سنان اي دول بني كلاب والطائيين و بني كلب الى غيرهم من الدول الجديرات بان يطلق على القائمين بها خوارج على الفاطميين ، وكلهم امراء عرب البادية اخضعوا المدن لسلطانهم مدة ، وكان قيامهم دليلاً على ضعف الدولة الفاطمية وسوء سياسة عمالها في هذه الديار .

انقضى عهد الفاطميين او كاد وكانت معظم ايامهم فتوحاً وفتناً ، ولم يخفق علمهم على الشام كله مدة طويلة بل كان اذا خضع الساحل خاصم الداخل ، واذا اطاع الجنوب نشز الشمال . وهكذا كان الشقاء في ايامهم اكثر من السعادة ، والاهواء مشتتة ، والآراء ممزقة ، ولئن كان اول خلفائهم ممن ملك الشام المعز ثم العزيز يحبان العدل والانصاف ولهما من الحزم قسط وافر الا ان الولاة الذين تولوا الشام على عهدهما ايضاً كانوا في الاكثر ظلاماً يسفكون الدماء و يستحلون اموال الرعية . فخرب القطر في

في ايامها وضعف اهله وغلت الاسعار ولا سيما على عهد العزيز وكانا يبادران حالاً الى ابدال العمال مخافة ان ينزعوا الى العصيان ·

اما في عهد الحاكم فان البلاد كانت الى الخلل المطلق ، لخلل في عقله وخرق في سياسته ، وكانت بعده تختلف باختلاف العامل الذي ترسله مصر · وبينا القطر متقلقل في ادارته وسياسته اقبلت من الشرق قوة عظيمة لا قبل له بدفعها · قوة الدولة السلجوقية التركمانية الجديدة جاءت لتقضي على الدولة الفاطمية العربية التي نزل بها الهرم او كاد ·

والسلجوقيون نسبة لسلجوق من صغار امراء الترك في ارجاء بخارى ينقسمون الى ثلاثة فروع فرع العجم وهذا الذي استولى على العراق والجزيرة ثم على الشام والحجاز واليمن وفرع الروم اي آسيا الصغرى وفرع كرمان · والتركمان قبائل كانت لاول امرها تنزل بين بحيرة آرال و بحر الخزر وهم من اول الاتراك الذين دانوا بالاسلام وخدموا الخوالف من بني العباس ، هاجروا من بلادهم الى فارس والعراق وآسيا الصغرى · وهم اصل الترك العثمانيين سكان الاناضول واعظم الشعوب التركية · والفرق طفيف بين لسانهم ولسان اويغور اي الجغتاي · وتنقسم الالسنه التركية الى خمسة اقسام وهي الجغتاي او ايغور والنوغاي اي التتري والقرغيز والياقوت واللسان العثماني · فاذا اطلق اسم الترك فالمقصود منه الجنس الجامع لهذه الشعوب الخمسة ، واذا قيل التركمان أريد به اعظم شعب في الترك ، وكلا الاطلاقين جائز · والتركمان على جانب عظيم من الشجاعة والفروسية اظهروا من الجلادة منذ وطئوا هذا القطر ما خلدوا به اعظم المفاخر ، واسسوا في الشام حكومة بل حكومات منها المحمود ومنها دون ذلك ·

لما سار السلطان آلب ارسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ثاني ملوك السلجوقيين بجيوشه الى الشام ، كانت مملكته تمتد الى الصين شرقاً ومن اقصى بلاد الاسلام شمالاً الى اقصى اليمن جنوباً ، وجاء الى حلب واقام الحصار عليها وعظم القتال بين عساكره وحامية حلب لصاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ثم استسلم هذا وخلع عليه السلطان الب ارسلان واعاده الى بلده فبعث اليه مالاً جزيلاً وفي تلك السنة (٤٦٣) قطعت خطبة المستنصر العلوي وخطب للقائم العباسي وبدأ ظل الدولة

الفاطمية يتقلص وكان الحامل لآلب ارسلان على فتح الشام ان ناصر الدولة بن حمدان الحاكم المتحكم في الدولة المصرية ارسل يسأله ان يسير له عسكراً من قبله ليقيم الدعوة العباسية وتكون مصر له فتجهز آلب ارسلان من خراسان في عساكر جمة وكان جيشه فيما قيل لا يقل عن اربعمائة الف .

وخلّف آلب ارسلان في بلاد الشام طائفة من عسكره فجمع اتسز بن اوق الخوارزمي من امراء السلجوقيين الاتراك الغز وسار الى فلسطين ففتح مدينة الرملة ، وسار منها الى بيت المقدس وحصره ، وفيه عسكر المصريين ففتحه ، وملك ما يجاوره من البلاد ما عدا عسقلان وقصد دمشق فحصرها وتابع نهب اعمالها حتى خربها وقطع الميرة عنها فضاق الامر بالناس فصبروا ولم يمكنوه من ملك البلد فعاد عنه وادام قصد اعماله وتخريبها كل سنة حتى قلت الاقوات عندهم فكان يأخذ الغلات عند ادراكها فيقوى بها وعسكره ويضعف اهل دمشق وجندها .

ولما ملك السلطان ملكشاه ابن آلب ارسلان (٤٦٥) سير اخاه تاج الدولة تتش الى الشام وقرر معه فتح ديار مصر والمغرب واستخلاصها من العلويين ، وامر مملوكيه بزان صاحب الرها وآق سنقر صاحب حلب ان يطيعاه على هذا الغرض . وكان ملكشاه الملقب بالسلطان العادل وابوه آلب ارسلان من قبل المثل السائر في آل سلجوق بعدلهما ، ولم يكن للخليفة العباسي معهما سلطان في الحقيقة على نحو ما كان العباسيون في الدهر السالف مع سلاطين بني بويه الاعاجم . عرفت الشام ذلك وكان مما يفتح القلوب لحكم السلجوقيين انهم من اهل السنة يخطبون باسم بني العباس . وجميع هذه المزايا كانت مفقودة في الدولة العلوية المصرية .

* * *

فتح دمشق

وفي سنة ٤٦٧ حاصر شكلي التركي من قواد السلاجقة ثغر عكا واخذه بالسيف وقتل واليها وسار عنها الى طبرية وسار اتسز الى دمشق فحصرها واميرها المعلى بن حيدرة من قبل الخليفة المستنصر فلم يقدر عليها فانصرف عنها وهرب اميرها المعلى ، وكان أساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم ، فكثر الدعاء عليه وثار به العسكر ، وأعانهم العامة فهرب منها ، فخربت

دمشق واعمالها وجلا عنها اهلها ، وهان عليهم مفارقة املاكهم وسلوهم عن اوطانهم ، بما عانوه من ظلمه : وخلت الاماكن من قاطنيها والغوطة من فلاحيها . ولما رحل المعلى عن دمشق اجتمعت المصامدة الفاطميون وولوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودي المعروف برزين الدولة ، وغلت بها الاسعار حتى اكل الناس بعضهم بعضاً ، ووقع الخلاف بين المصامدة واحداث البلد ، وعرف اتسز ذلك فعاد الى دمشق فحصرها ، فعدمت الاقوات وبيعت غرارة القمح اذا وجدت باكثر من عشرين ديناراً ، فسلموها اليه بالامان وخطب بها للخليفة العباسي ، وكان آخر ما خطب فيها للعلويين المصريين . وتغلب على اكثر الشام ومنع الاذان بحي على خير العمل ، ففرح اهلها فرحاً عظيماً وظلم اهلها وأساء السيرة فيهم .

قال ابن عساكر : ان اتسز التركماني لما دخل دمشق وكان حاصرها دفعات ، انزل جنوده دور الدمشقيين ، واعتقل من وجوههم جماعة وشمسهم ببرج راهط حتى افتدوا نفوسهم بمال ادوه له ، ورحل جماعة منهم عن البلد الى طرابلس الى ان أريحوا منه بعد . وقال ابن الاكفاني : نزل اتسز محاصراً لدمشق ثم انصرف عنها ثم عاد الى منازلتها ثم رحل عنها ثم رجع اليها فحاصرها ثم انه فتح البلد صلحاً ، ودخلها هو وعسكره سنة ٤٦٨ وسكن دار الامارة وخطب بها للمقتدي العباسي وكتب اليه يذكر له تسليمها اليه وغلو الاسعار بها وموت اهلها وان غرارة القمح بيعت بمائتي دينار مما لم يعهد مثله في سالف الاعصار ، وان اتسز نظر في امور دمشق بما يعود بصلاح اعمالها واطلق لفلاحي المرج والغوطة الغلات للزراعات فصلحت الاحوال ورخصت الاسعار . وفي تاريخ الدول المنقطعة : في ذي الحجة سنة ٤٦٧ خرجت دمشق من ايدي المصريين بدخول الاخشيد اليها وعلى ايام المستعلي بالله ضعفت دولة الفاطميين وانقطعت من اكثر مدن الشام دعوتهم وانقسمت بين الاتراك والافرنج اهـ .

ولما فتح اتسز دمشق وأقام الخطبة العباسية ولم يخطب بعدها في دمشق للعلويين وصفت له البلاد طمعت نفسه في ملك مصر فسار (٤٦٩) من دمشق فيمن استطاع من الاحداث والجند ورجع خائباً بعد ان قتل من جنده جملة كثيرة جداً ثم أقام بدمشق وجاءه التركمان من الروم ولم يستخدم غيرهم وعصى عليه الشام واعيدت خطبة

صاحب مصر في جميع الشام وقام بذلك المصامدة والسودان . وكان اتسز واصحابه تركوا أموالهم بالقدس فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم ونسائهم فنهبوها واستعبدوا الاحرار ، فخرج من دمشق فيمن انضوى اليه ، ودخل القدس فقتل ثلاثة آلاف انسان ، واحتمى قوم بالصخرة والجامع فقرر عليهم الاموال لانه لم يقتلهم واخذ مالاً كثيراً ، وسار الى الرملة فلم يرفيها من أهلها احداً ، فجاء الى غزة وقتل كل من فيها فلم يدع بها عيناً تطرف ، وجاء الى العريش فأقام فيه وبعث سرية فنهبت الريف وعادت ثم مضى الى يافا فحصرها وهدم سورها ثم عاد الى دمشق ولم يبق من اهلها عشر العشر من الجوع والفاقة بل لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف انسان بعد خمسمائة الف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء . وكان بها مائتان واربعون خبازاً فصار بها خبازان والاسواق خالية والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليه بعشرة دنانير فلا يشتريها احد والدكان الذي كان يساوي الف دينار مايشترى بدينار ، وأكلت الكلاب والسنانير والفيران وكان الناس يقفون في الازقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم و يشوونهم .

وعاد الفاطميون يحاولون فتح دمشق وعليهم ناصر الدولة الجيوشي فحاصروها مدة (٤٧١) وترحلوا ثم حاصروها مرة ثانية واستولوا على أعمالها وأعمال فلسطين فاضطر صاحبها اتسز الى مراسلة تاج الدولة يستصرخ به فلما عرف ناصر الدولة الخبر رحل عن دمشق وقصد الساحل . وكان ثغرا صور وطرابلس في أيدي قاضييهما قد تغلبا عليها ، ولا طاعة عندهما لامير الجيوش الفاطمي ويصانعان الاتراك بالهدايا والملاطفات . ووصل تاج الدولة الى عذراء في عسكره لانجاد دمشق فخرج اتسز اليه وخدمه ثم قبض عليه وقتله وملك تاج الدولة دمشق واستقام له الامر وأحسن السيرة في اهلها بالضد من فعل اتسز وملك اعمال فلسطين ثم قصد حلب وملك حصن بزاعة (٤٧٠) وقتل جميع من فيه وملك البيرة وأحرق ربض عزاز وغيرها من الحصون مع ما غلب عليه من الحصون المجاورة .

* * *

اول جمهورية عربية ومقتل آخر امير عربي

وفي سنة ٤٧٢ انقضت دولة بني مرداس بحلب وكان قصدها تتش بن آلب أرسلان فحاصرها اربعة اشهر ونصفاً ثم رحل عنها فنازلها شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل وتعهد لملكشاه السلجوقي ان يحمل اليه كل سنة ثلاثمائة الف دينار فكتب له تقليداً ، وعادت رياستها شورى في مشيختها وطاعتهم لمسلم بن قريش . ومعنى ان حلب أصبحت رياستها شورى في مشيختهـا ان الحلبيين لما نفضوا أيديهم من حام يحمي بلدهم ألفوا جمهورية من شيوخهم ادارت شؤونهم الداخلية زمناً ، وجعلوا ملكهم صاحب الموصل . وذكر المؤرخون ان الحلبيين أحسنوا في هذه الحكومة ولم يختلفوا وأمنت قواعد العدل واستقر الأمر في نصابه . وسبب ميل الحلبيين الى شرف الدولة مسلم بن قريش ان تتش بن آلب ارسلان حصر مدينتهم المرة بعد المرة واشتد عليها الحصار ، فكان شرف الدولة يواصلهم بالغلات وغيرها ولما دخلها حصر القلعة واستنزل منهـا سابقاً ووثاباً ابني محمود بن مرداس وانفذ الى السلطان يخبره بملك البلد وانفذ مع الرسول شهادة فيها خطوط المعدلين بحلب بضمانها وسأل ان يقرر عليه الضمان فأجابه السلطان الى ما طلب . وفي سنة ٤٧٣ ملك جلال الملك ابو الحسن بن عمار قاضي طرابلس وصاحبها حصن جبلة . وكان ابن عمار غلب على تلك البلاد سنين وعجز بدر الجمالي امير الجيوش عن مقاومته .

وفي سنة ٤٧٥ توجه تاج الدولة في عسكر دمشق ووصل شرف الدولة صاحب الموصل (٤٧٦) فقاتلهم شرف الدولة ، وخرج اليه عسكر تاج الدولة من دمشق وحمل على عسكره حملة صادقة فتضعضع عسكره ، وعاد عليهم بحملة أخرى وانهزمت العرب وثبت شرف الدولة ثم رحل عنها منهزماً فخرجت به الطريق الى وادي بني حصين قرب سلمية ، فأرسل وزيره الى خلف بن ملاعب المقيم بحمص ليجعله بين دمشق وتاج الدولة لما يعلمه من نكايته في الاتراك فقرر معه حفظ الشام ، وسار تاج الدولة الى طرابلس وفتح انطرطوس وبعض الحصون وجاء ملكشاه بن آلب ارسلان وملك حلب . ولما قصد تاج الدولة تتش بلاد انطاكية جمع شرف الدولة العرب وعقيل والاكراد فاجتمع معه خلق كثير ، فراسل الخليفة بمصر يطلب منه ارسال نجدة اليه ليحصر

دمشق فوعده بذلك . فلما سمع تاج الدولة الخبر عاد الى دمشق وحصر المدينـة وقاتله اهلها ، وفي بعض الايام خرج اليه عسكر دمشق وقاتلوه ، وحملوا على عسكره حملة صـادقة فانكشفوا وتضعضعوا ، وانهزمت العرب وثبت شرف الدولة وأشرف على الاسر وتراجع اليه أصحابه . فلما رأى شرف الدولة ذلك ورأى ان مصر لم يصل اليه منها عسكر أتاه من بلاده الخبر ان أهل حران عصوا عليه ، فرحل من دمشق الى بلاده وأظهر انه يريد بلاد فلسطين . رحل اولاً الى مرج الصفر فارتاع أهل دمشق وتاج الدولة واضطربوا ، ثم سار من مرج الصفر مشرّقًا في البرية ، وجد في مسيره فهلك من المواشي الكثير مع عسكره وانقطع خلق .

وكان مسلم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي صاحب الموصل الذي أحبه أهل حلب وأطاعوه من جملة عمال آلب أرسلان ، وكان سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب قونية واقصرا وملاطية ومن عمال السلجوقيين وانسبائهم أشار اليه ملك السلجوقيين الاكبر السلطان ملكشاه ان يستولي على انطاكيـة (٤٧٧) ففعل ، ولما استقر فيها بعث اليه مسلم بن قريش يطلب منه المال الذي كان يحمله صـاحب أنطاكية الرومي اليه فأبى وقال : انا لا أدفع الجزية لاني مسلم ، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية ، ونهب سليمان بن قتلمش بلد حلب ، ثم جمع شرف الدولة الجموع من العرب والتركمان ومعه أمير التركمان جبق في أصحابه وسار الى أنطاكية ليحصرها ، فسار اليه سليمان بن قتلمش فالتقيـا على نهر سبعين في موضع يقال له قُرزاحل واقتتلا ، فمال تركمان جبق الى سليمان فانهزمت العرب وتبعهم شرف الدولة منهزماً ، فقتل بعد ان صبر وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب ، وسار سليمان الى حلب فحصرها مستهل ربيع الاول سنة ٤٧٨ فلم يبلغ منها غرضاً فرحل عنها .

وفي هذه الوقعة التي قَتل فيها سليمان بن قتلمش التركي مسلمَ بن قريش العربي انتقل ملك الشام من ايدي العرب الى الترك ولم يحكم في الشام بعده الا امراء وملوك من التركمان والاتراك والشراكسة والاكراد . وكان الاتراك يأتون الشـام منذ أوائل القرن الثالث عمالاً للعباسيين ، فلم تكن مقاتلهم بادية للعيان لانهم كانوا يحكمون باسم الدولة التي يعملون لها ، وكان اكثرهم على جانب من حسن الادب

والادارة تربوا تربية عربية ، وها قد جاء دور يعمل الاتراك فيه أحراراً لحساب أنفسهم ، بعد ان ختم الحكم العربي بمقتل مسلم بن قريش العقيلي .

وعاد سليمان بن قتلمش في السنة التالية وقصد حلب فبلغه ان تاج الدولة تتش بن آلب أرسلان قد تأهب لقصده فرحل عنها ، والتقى عسكره وعسكر تاج الدولة في موضع يعرف بعين سَيْلَم على ثلاثة أميال من حلب فكسر جيش تاج الدولة عسكر سليمان وقتل هذا في الهزيمة وملك تاج الدولة عسكره وسواده ونزل على حلب فتسلمها . ثم وصل ملكشاه وانهزم أخوه تاج الدولة من حلب وملكها ملكشاه مع أنطاكية . اي ان سليمان بن قتلمش احد عمال السلطان ملكشاه السلجوقي ، قتل بامر مولاه مسلم بن قريش ليأخذ بلاده ، فقام تتش اخو ملكشاه فقتل سليمان ، ثم قام تتش يريد الاستئثار بالملك دون أخيه ، وقد فاته ان ملكشاه تهتز الدنيا من جيوشه ، واخوه في الشام لا يخرج عن كونه والياً من ولاته يحيط به الفاطميون من البحر ومن البر . والغالب ان تاج الدولة عرف هذا من نفسه فلم يسعه الا ان يخدم أخاه .

ولما نزل ملكشاه بحلب دخل ابن منقذ صاحب شيزر في طاعته ، وسلم اليه اللاذقية وكفرطاب وأفامية فأقره السلطان على شيزر وسلم حلب الى قسيم الدولة آق سنقر جد البيت الاتابكي اصحاب الموصل والشام ووالد عماد الدين زنكي وجد نورالدين محمود بن زنكي . ولما استقر آق سنقر في حلب واعمالها بسط العدل في أهلها وحمى السابلة وتتبع المفسدين وأبادهم . وكان ملكشاه في سنة ٤٧٩ ملك حران وقلعة جعبر على الفرات ثم ملك منبج وحلب اما دمشق فكانت بيد تاج الدولة تتش منذ سنة ٤٧١ أقطعه اياها أخوه السلطان ملكشاه مع مايفتحه من بلاد الخليفة العلوي . وكانت جيوش الفاطميين تغزو بعض المدن الساحلية وتستردها من التركمان احياناً ، وسلطة الفاطميين تتقلص اللهم الا من فلسطين ، فانهم بعد اتسز الخوارزمي اخذوا يستردونها وخرج (٤٧٨) امير الجيوش بدر الجمالي بجيوش مصر فحصر دمشق وبها تاج الدولة تتش وضيق عليه فلم يظفر بشيء فارتحل عائداً الى مصر .

***

تنازع السلجوقيين والفاطميين وانقسام السلجوقيين

لم ينقطع أمل الفاطميين من ملك الشام بعد ان قطعت خطبتهم من أهم مدنهـا مرات ثم عادت اليها ، بل بعثت سنة ٤٨٢ جيشاً قصد الساحل وفتح ثغر صور وكان تغلب عليها عين الدولة بن ابي عقيل وامتنع على الفاطميين ومات فوليها أولاده ودخلوا تحت راية تاج الدولة تتش، فلما حصرهم عسكر المصريين سلموها اليهم ثم فتح الجيش الفاطمي صيدا وعكا وجبيل ·

ونزل تاج الدولة (٤٨٣) على حمص ومعه آق سنقر و بزان وفيها خلف بن ملاعب الكناني ، فضايقوها الى ان ملكوها بالامان · وخرج ابن ملاعب وسافر الى مصر ثم عاد واعمل الحيلة حتى ملك حصن افامية (قلعة المضيق) واستخلصه منه قسيم الدولة آق سنقر في السنة التالية · وقيل ان القتال كان على بعلبك وان من حاربوا خلف ابن ملاعب قالوا له: انت خطبت للمستنصر العلوي فلما اخافوه طلب الامان·وفي سنة ٤٨٤ فتح تاج الدولة عرقة وقلعة افامية ثم سار الى طرابلس لحصرها وبها صاحبهـا جلال الملك بن عمار ابن اخي القاضي ابي طالب بن عمار قاضي طرابلس والمتغلب عليها وكان معه آق سنقر وبزان ونصب عليها المجانيق · فاحتج عليهم ابن عمار بان معه منشور السلطان ملكشاه باقراره على طرابلس فلم يقبل منه تتش ذلك وتوقف آق سنقر عن قتاله فقال له تتش : انت تبع لي فكيف تخالفني فقال : انا تبع لك الا في عصيان السلطان · فغضب تتش ورجع الى دمشق وذكر ابن الاثير : ان ابن عمار لما رأى جيشاً لايدفع الا بحيلة ارسل الى الامراء الذين مع تاج الدولة تتش واطمعهم ليصلحوا حاله ، فلم ير فيهم مطمعاً ، وكان مع قسيم الدولة آق سنقر وزير له اسمه زر بن كو فراسله ابن عمار فرأى عنـده ليناً ، فاتحفه واعطاه فسعى مع صاحبه قسيم الدولة في اصلاح حاله ليدفع عنه ، وحمل له ثلاثين الف دينار وتحفاً بمثلها وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد ·

وفي سنة ٤٨٦ خرج من مصر عسكر كثير الى صور لما عصى واليها منير الدولة وكان اهل صور انكروا عصيانه فحين اشتد القتال نادوا بشعار المستنصر بالله العلوي فهجم العسكر المصري على البلد واخذها · وفرض على اهلها ستين الف دينار وفي هذه

السنة تحرك تتش من دمشق لطلب السلطنة بعد موت اخيه ملكشاه الذي توفي في السنة الماضية ، واتفق معه آق سنقر صاحب حلب ، و باغي سيان صاحب انطاكية و بزان صاحب الرُّها وسار معه آق سنقر فافتتح نصيبين والموصل وديار بكر و سار الى أذْرَبيجان ، وكان بركيارق بن ملكشاه قد استولى على جانب كثير منها فلما رأى آق سنقر ذلك تخلف عن معاونة تتش وقال : نحن انما اطعنا تتش لعدم قيام احد من اولاد السلطان ملكشاه ، اما اذا كان بركيارق بن السلطان قد تملك فلا نكون مع غيره . وخلى آق سنقر تتش ولحق ببركيارق فضعف تتش لذلك وعاد من أذْرَبيجان الى الشام واخذ في جمع العساكر وكثرت جموعه (٤٨٧) وجمع آق سنقر العسكر بحلب وامده الامير بركيارق بالامير كربغا صاحب الموصل ، فاجتمع كربغا مع آق سنقر والتقوا مع تتش عند نهر سبعين قريباً من تل السلطان على ستة فراسخ من حلب واقتتلوا ، فخامر بعض عسكر آق سنقر مع تتش وانهزم الباقون ، وثبت آق سنقر فاخذ اسيراً واحضر الى تتش فقال تتش لآق سنقر : لو ظفرت بي ما كنت صنعت قال : كنت اقتلك قال تتش : فانا احكم عليك بما تحكم عليَّ به . فقتل آق سنقر وسائر اصحابه صبراً وسار تتش الى حلب فملكها .

ورحل تاج الدولة عن حلب بعد ان ملكها وحصونها الى الفرات ، واستولى على حران وسروج والرُّها وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير اليه في من بقي من الاجناد في الشام ، فسار الى حلب ومنها الى العراق فالري ، واستصحب معه جماعة من امراء العرب واتراك حلب القسيمية ، نسبة لقسيم الدولة آق سنقر ، فجرت وقعة بين السلطان بركيارق بن ملكشاه وبين عمه تاج الدولة تتش على عانة من عمل الجزيرة ، فانفلّ عسكر هذا وتفرق ونهب سواده ، وأُسر اكثر جنده وقتل منه خلق كثير . واغتال بعض أصحاب آق سنقر تاج الدولة تتش فقضى عليه . ولما بلغ الخبر فخر الملوك رضوان في دمشق ما تم على ابيه تاج الدولة اغذّ السير الى حلب ففتحت له ابوابها ، ووصل اليه اخوه شمس الملوك دُقاق من ديار بكر ، وراسله الامير ساوتكين الخادم المستناب في قلعة حلب والبلد وقرر له ملك دمشق سراً ، فخرج في الحال من حلب وجلس على سرير ابيه في دمشق ، واستقام له الامر واستمرت على السداد الاحوال . وفي سنة ٤٩٠ قدم على الافضل بمصر الرسل من عند فخر الملوك

رضوان بن تتش صاحب انطاكية يبذل له الطاعة في اقامة خطبة المستعلي بالشام فاجيب بالشكر والثناء وخطب للمستعلي ٠

تطاول تتش الى اخيه ملكشاه فصده عنه ابنه بركيارق وقتله ٠ وقتل تتش آق سنقر لانه لم يوافقه على رغائبه من نزع الملك السلجوقي من ابن ملكشاه وقد حنق تتش على آق سنقر منذ قال له يوم طرابلس وهو يريده على قتال صاحبها : نحن نطيعك الا في عصيان السلطان ٠ فقتل آق سنقر وجوزي تتش بان قام من صنائع قتيله من يأخذ بثاره فقتله ايضاً ٠ واستراح آل ملكشاه من تصدي تتش للملك وهو الذي لم يقنع بملك الشام وكان فيه الملك الاعظم بعد مقتل قسيم الدولة آق سنقر ٠ وتصرفت الاقدار بان تستلم زمام الامر في هذا القطر ذرية تاج الدولة تتش ، ريثما ينتقل منها الحكم الى مملوك آخر اسمه طغتكين ، وهو يسلمه الى حفيد آق سنقر نور الدين محمود بن زنكي ٠

* * *

الدولة الاتابكية وطغتكين وبنو أرتق } كان آق سنقر وبزان صاحبا حلب وانطاكية من مماليك السلطان ملكشاه ، وكان من امرهما في الغناء والوفاء ما كان في الشام حتى مضيا لسبيلهما ٠ ثم قام مملوك آخر طالت مدته اكثر منهما وكان له في الدولة بالشام اليد الطولى والكعب المعلى ونعني به ابا منصور ظهيرالدين اتابك طغتكين، من مماليك تاج الدولة تتش بن آلب ارسلان ملك الشام ، ومعنى اتابك مربي اولاد الملك او قائد الجيوش قال ابن القلانسي: حظي هذا الامير وهو في حداثة سنه عند السلطان تاج الدولة فقدمه على ابناء جنسه من خواصه وبطانته، وسكن الى شهامته وصرامته، وسداد طريقته، فجعله مقدم عسكره، واستنابه في في تدبير امر دمشق ، وحفظها ايام غيبته ، فاحسن السيرة فيها ، وانصف الرعية من اهلها ، و بسط المعدلة في كافة من بها ، فكثر الدعاء له والثناء عليه ، فعلت منزلته وامتثلت اوامره ، ولم يلبث ان شاع ذكره بنجابته ، واشفقت النفوس من هيبته ، فولاه ميافارقين وديار بكر وهي اول ولايته ، وسلم اليه ولده شمس الملوك دقاق واعتمد عليه في تربيته وكفالته ، فساس امرها بالهيبة والتدبير ، واصلح فاسدها وقوّم منآدها ٠

قال : وتنقلت به الاحوال الى ان توجه مع تاج الدولة الى الري وشهد الوقعة التي استشهد فيها تاج الدولة ، وحصل في قبضة الاعتقال مع من أسر من المقدمين ، وأقام مدة الى ان أفرج عنه هذه السنة (٤٨٨) فتلقاه شمس الدولة دُقاق (بدمشق) وعسكره وارباب دولته ، وبولغ في اكرامه واحترامه ، ورد اليه النظر في قيادة الجند، واعتمد عليه في تدبير المملكة ، وسياسة البيضة ، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك وامراء الدولة العمل على الامير ساوتكين والايقاع به ، وتم عليه الامر وقتل، وعقدت الوصلة بينه وبين ظهير الدين أتابك وبين الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك دقاق ودخل بها ، واستقامت له الحال بدمشق واحسن السيرة فيها ، واجمل في تدبير اهليها ، وسكنت نفس شمس الملوك اليه اه .

فانظر الى غرائب التوفيق في الارض كيف ينشأ مملوك ، ربما كانت يد النخاس مرت على رأسه ، يكفل ابن السلطان ويربيه ويتزوج بامه ويتصرف في ملكه ويدبر امره ، ثم يصبح بتجاربه وعقله ملكاً ترغب الملوك في التقرب منه ، ويخاف العدى بأسه وسطوته ، ويظهر في مظهر من طيب الاخلاق لا يضاهيه من تسلسل فيهم الحكم والملك ، وتنقلوا في السلطان كابراً عن كابر ، لكن هي التربية اذا احسنت اتى صاحبها بالعجائب ، والنفوس اذا صفت جبل الخلق على حبها ، والارادات متى سلمت استمات الناس دونها ، وبهذا كان الناس ولا يزالون يحكم كبارهم صغارهم ، ويصبح المملوك ملكاً مطاعاً والمسود الخامل سيداً نابهاً ، وكم من عصامي افلح ، ومن عظامي أخفق ، وكم كان العلم الكسبي ، اكثر غناء من العلم اللدني :

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خَلَقٌ وجيب قميصه مرقوع

ومن المماليك الذين حكموا في الشام فأصبحوا ملوكاً في هذا الدور ايضاً ، بنو أُرتُق نسبةً لجدهم أرتق بن اكسك وقيل اكسب التركماني من مماليك ملكشاه ابن آلب ارسلان تغلب أرتق على حلوان والجبل وكان منصوراً لم يشهد حرباً الا وكان الظفر له ثم امره مولاه ملكشاه سنة ٤٧٧ ان يذهب مع فخر الدولة بن جهير لضبط الموصل وبينا كان مسلم بن قريش محصوراً في آمد ، راسله أُرتق واخذ منه مالاً وافراً وفتح له طريقاً سار منه ، فانهى ابن جهير ذلك الى ملكشاه فخاف أُرتق وذهب الى دمشق

والتحق بصاحبها تاج الدولة تتش وعاونه على الاستيلاء على حلب ، وساعده في كثير من المواقف ، فاقطعه فلسطين اخذها من اصحاب اتسز أرتق الخوارزمي (٥٨٤) . فلما توفي صارت القدس وعملها لولديه ايلغازي وسقمان ابني أرتق حتى خرج عسكر خليفة مصر فاستولوا على القدس بالامان في سنة ٤٨٩ بعد ان بقيت في حكم الأرتقية ثلاث عشرة سنة واياماً . وسار سقمان واخوه ايلغازي من القدس فاجتاز سقمان بدمشق وكان صاحبها متغيباً عنها فقاتله اهلها ومن فيها من الاجناد ولما بلغه مسير صاحبها اليه سار عنها الى حلب ثم اقام في الرها وقد استولى، هو واخوه على آمد وماردين وحصن كيفا وأبليا بعدُ البلاء الحسن في الحروب .

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا

وفي سنة ٤٩٠ برز الملك رضوان صاحب حلب و باغي سيان صاحب انطاكية الى ناحية شيزر وعزما على معاودة دمشق لفتحها ، فوقع الخلف بين مقدمي العسكر فرجع الملك حلب ، وورد عليه كتاب المستعلي بالله الفاطمي يريده على الدخول في طاعته ، واقامة الدعوة لدولته ، وكذلك كتاب الافضل بتضمن مثل ذلك ، فاجابهما الى ما التمساه وامر ان يدعى للمستعلي على المنبر وللافضل بعده ، ثم يدعي له بعدهما ، ودامت الخطبة على ذلك اربع جمع . وكان الملك رضوان قد بنى الامر في ذلك على الاجتماع مع العسكر المصري والنزول على دمشق لاخذها من اخيه الملك دقاق . فانكر سقمان بن أرتق و ياغي سيان على الملك الدخول في الامر ، واستبدعاه من فعله واشارا عليه بابطاله واطراح العمل به ، فقبل ما أشير عليه واعاد الخطب الى ما كانت عليه اي للعباسيين . وجرى الاتفاق على ان يخطب في دمشق لرضوان قبل اخيه دقاق . وذلك بعد ان يخطب للخليفة ثم للسلطان وفي هذه السنة خرج العسكر المصري من مصر ونزل على ثغر صور بعصيان واليه المعروف بالكتيلة ولم يزل منازلها الى ان فتحها بالسيف قهراً وقتل فيها خلق كثير ونهب منها المال الجزيل واخذ الوالي فقتل .

الحروب الصليبية

«من سنة ٤٩٠ — ٥٠٠»

الحملة الصليبية الاولى

لم يخل الجو لملوك التركمان السلاجقة وأتباعهم في الشام زمنًا طويلاً بعد مقتل مسلم بن قريش ، فكانت المدة بين مقتله وورود الاخبار بخروج عسكر الصليبيين الى الارض المقدسة ثلاث عشرة سنة كما مضى مثل هذا العدد من السنين بين استيلاء اول تركي واستيلاء اول أفرنجي . وكانت البلاد خلال ذلك في هرج ومرج يتطاحن امراؤها فيمزق بعضهم بعضاً . والقطر نهب أيدي ملكشاه واخيه تتش بن آلب أرسلان ثم أولاده رضوان ودُقاق والمماليك آق‌سنقر و بزان وطغتكين واولاد أرتق ايلغازي وسقمان ، والسلاجقة هنا يميلون الى الخلافة العباسية ، واذا رأى بعضهم القوة لاصحاب الخلافة العلوية المصرية يغمضون الطرف عنهم ، والفاطميون لا يملكون غير بعض الساحل ، والبلاد أصبحت للتركمان يصعب على عرب الجزيرة انجادها لبعد المسافات ، وبغداد مهدالعرب مشتغلة بنفسها .

ربما كان في استيلاء التركمان على الشام خير لم تعرف حكمته الا بعد حين ، وهو قيام دولة فتية لها جيش جرار اشتهر بالشجاعة حتى قيل انآلب أرسلان لماجاء المرة الاولى الى شمالي الشام كان في اربعمائة الف مقاتل ، ومثل هذا الجيش لا تستطيع العراق والشام والجزيرة ان تجنده لدفع جيوش الفرنج الجرارة ، هذا على فرض ان قواها موحدة ، وروحها في الدفاع واحد ، فالشام اذاً اعتز بالتركمان . ثم ان

السلجوقيين كانت بايديهم الدروب او المنافذ الى آسيا الصغرى او طريق الافرنج من اوربا الى الشام على طريق البر، فتولي دولة التركمان القيادة العامة جمع بالطبيعة حولهم العرب من سكان هذه الديار وما اليها ، هذا اذا لم نقل ان حكم التركمان الشديد عجل في خروج الصليبيين الى هذه الديار · واليك البيان :

أثخن بنو سلجوق أصحاب آسيا الصغرى في جيش صاحب قسطنطينية بايعاز السلطان ملكشاه وضايق الامير بُرسق الروم ، حتى قرر على قسطنطينية في كل سنة حمل ثلاثمائة الف دينار للسلطان وثلاثين الف دينار له ، جزية يؤديها ، فخاف ملك القسطنطينية كثيراً على مملكته من هجوم المسلمين فكتب يستنهض ملوك اوربا ان يأتوا لمساعدته بل رضي بطريرك القسطنطينية بان يقدم خضوعه لبابا رومية ، اذا كانت ممالك اوربا تجهز جيشاً لتخليص المملكة اليونانية مما يتهددها من هجوم التركمان والمسلمين فكاتب ملوك اوربا بذلك ·

وقال صالح بن يحيى : ان سبب استيلاء الصليبيين على بلاد المسلمين انه لما قويت دولة بني سلجوق ضعفت حال الخلافة ببغداد ، فلما مات ملكشاه السلجوقي سنة خمس وثمانين واربعمائة وقع الخلف بين ولديه محمد و بركيارق ، ودام الحرب بينهما نحو اثنتي عشرة سنة فاضطربت ممالك الشرق لذلك ، ووافق هذا خلافة الآمر باحكام الله بمصر وكان صغيراً ولما كبر كان مستهتراً بالمملكة فخلا للصليبيين الجو · وفي التاريخ العام ان حجاج النصارى كانوا يرمون الى أخذ القبر المقدس من أيدي المسلمين ، وان كان هؤلاء يتركونهم وشأنهم يقومون بعبادتهم بسلام ، ولكن كان يتراءى للمسيحيين ان سيدهم المسيح يرضى عن عملهم اذا أنقذوا قبره من غير المؤمنين بدينه · وروى بعض المؤرخين ان الفاطميين هم الذين فاوضوا الصليبيين وأرادوهم على غزو الشام لينجوا من السلجوقيين الذين كانت قويت دولتهم · وهذا مما يستبعد وان كان العقل لا يستبعد شيئاً في السياسة ، ولكن ظهر ان الفاطميين حاولوا غير مرة رد الصليبيين عن الساحل وعن فلسطين ·

واتفق ان بعض زوار الاوربيين في الارض المقدسة شاهدوا شيئاً من العنف في بيت المقدس لم يكن لهم عهد به في أدوار الحكومات العربية القوية ، وانقلبت سماحة

العرب بجفاء من خلفوهم من التركمان ، فعاد الزوار الى بلادهم يقصون ما لقوا من الشدة في الشام ويعظمون الامر ، وكان التعصب الديني يومئذ على أشد حالاته في الغرب ، ومعظم حكوماته تدين بدين البابا وتخضع لسلطانه القاهر ، ولم يكن ظهر اذ ذاك المذهب الانجيلي ، وكان مذهب الروم الارثوذكس آخذاً بالضعف ليس له روابط الكنيسة البابوية ولا سلطتها على الارواح والاشباح . فأوعز البابا الى امم النصرانية في الغرب ليهبوا كلهم الى انقاذ القبر المقدس من أيدي المسلمين . وقد ذكر اهل الاخبار من الاوربيين في تعليل الحروب الصليبية ان المسيحيين والمسلمين كانوا حتى القرن الحادي عشر للميلاد على صلات سلمية الا قليلاً ، يحمل العرب الى مصر والقسطنطينية حاصلات مختلفة من بلاد الهند والشرق الاقصى ، فتستبضعها من المدن الايطالية باري وبيزة وجنوة ولا سيما امالفي والبندقية فيبيعونها في اوربا . وكان العرب يسمحون للزوار ان يأتوا زرافات الى فلسطين ، فيشخص اليها جماهير عظيمة من عامة نصارى بلاد الغرب يسجدون امام القبر المقدس . وتضاعفت الحماسة الدينية في ذاك الزمن وتداعى الحكم العربي القائم على التسامح في قارة آسيا ، وقام مقامه المحاربون من الترك المعروفين بتعصبهم و بسالتهم . فاستولى السلجوقيون على ارمينية والشام ونيقية ودانت لهم في سنة (٤٦٩ هـ ١٠٧٦ م) القدس فاختلت العلائق الاقتصادية بين آسيا واوربا ، وخافت المدن التجارية في البحر المتوسط ان يغلق الاتراك أمامها أسواق الشرق .

نعم نشأت الحملة الصليبية الاولى من الحماسة الدينية بصنع البابوية التي كانت اذ ذاك الحاكمة المتحكمة في كل شيء . ولقد تأثر البابا اوربانوس الثاني بشكاوي الزوار القادمين من فلسطين وقلق للارتقاء المخوف الذي بلغه المسلمون في الاندلس ولا سيما عقبى وقعة الزلاقة سنة (٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م) وقد أثبت العرب فيها كفاءتهم الحربية كما أثبتوا من قبل ومن بعد كفاءتهم المدنية ، واغتنم فرصة اجتماع المجمع الديني العظيم الذي التأم في مدينة كلرمون وحضره الوف من الفرسان ، ليحرض المؤمنين من المسيحيين على حمل الصليب ليفتحوا القبر المقدس . فوعد جمهور كبير من جميع طبقات الشعوب ان يرحلوا الى فلسطين . واتخذوا شعار الحملة الصليبية صليباً

من القماش الاحمر يحمل على الكتف الايمن · وكثر المشتركون بهذه الحملة في ايطاليا وانكلترا ولا سيما في فرنسا · ومنحهم البابا غفراناً عن جميع خطاياهم ، وشجب كل من يمس أموالهم مدة سفرهم · ولم ينتظر العامة ريثما تجمع الجيوش المتحدة التي أبطأ تنظيمها ، بل سافروا بدون سلاح غير آخذين بالحزم في التأهب للرحلة · وكان هذا شأن عصابات البائسين الذين جمعهم بطرس الراهب وغوتيه المعدم (سانزافور) ومن لم يهلك من هذه العصابات في الطريق أهلكه الترك ·

وفي اواخر سنة (٤٩٠هـ ١٠٩٦م) اجتمع في القسطنطينية اربعة جيوش متحالفة من اللورين والالمان بقيادة بودوين دي هينو ، وفرنسيس من الشمال بقيادة القومس فرماندوا ودوق نورمنديا ، و برفنسيون بقيادة قومس طولوز ، ونورماندبون من ايطاليا بزعامة بوهيموندد ي ترانت وتنكري [١] ، ولم يكن مع هذه الامم ملك من ملوكهم ، ولم يتفق رأي الغزاة على نصب ملك يرتضونه و يرجعون اليه · وكان الامير الكسيس كومنين (ملك الروم) يرجو استخدام الجيوش الصليبية لفتح آسيا الصغرى واسترجاعها من ايدي المسلمين ، فصانعوه ولكن ما لبث البيزنطيون واللاتين ان تباغضوا واحتقر بعضهم بعضاً · و بعد سنتين ونصف مضت في المصائب الهائلة والجدال العنيف استولى الصليبيون في طريقهم على نيقية لحساب الامبراطور وكسروا جيش سليمان في دوريليوم (اسكيشهر) واستولوا على الرها (١٠٩٧) وعلى انطاكية (١٠٩٨) وبلغوا القدس واستولوا عليها (٤٩٢ هـ ١٠٩٩م) · وربما هلك في هذه الحملة نصف مليون من الرجال حتى تهيأ للصليبيين ان ينشئوا اربع امارات : امارة القدس وامارة انطاكية وامارة الرها وامارة طرابلس · قسمت اقطاعاً على الفرسان الغربيين · اما المدن الكبرى في الساحل الشامي فقسمت مستعمرات اوربية انشأت فيها مارسيليا والمدن الايطالية احياء برمتها اهـ ·

وبذا رأينا انه دعا الى الحملات الصليبية تعصب اوربا الديني وحب الغارة والتجارة

---

(١) اخذنا بمصطلح مؤرخي العرب في اعلام الصليبيين فنقول بغدوين بدلاً من بودوين (Baudouin) وتنكري عوضاً عن تنكريد (Tancrède) وكدفري بدلاً من كودفروا (Godefroy) ·

والاسباب التي دعت اليها واهية لامحالة [١] قال احد كتاب روسيا : كان في الامكان اجتناب وقوع الحروب الصليبية ، وساعد على حدوثها الجهل والاوهام الدينية والسياسية ومصلحة البابوية . وكم من احزان وآلام وجرائم جديدة كان يمكن ان تتوفر على الانسانية لو لم يوقف شارل مارتل العرب سنة ١١٠ للهجرة فان المدنية الزاهرة التي كان يحملها اولئك الذين دعاهم الصليبيون في حال سخطهم وبغضهم بابناء اسماعيل (Sarrasins) عبدة الاصنام والكفار والوثنيين ، كانت هذه المدنية تؤثر في اوربا الغربية وتعمل عملها في المدنية الفرنجية والرومانية .

***

الصليبيون في شمالي الشام — هذا ما كان من جهة الغرب وسير الحملة الصليبية الاولى على هذا الجزء الصغير من الشرق ولو كانت كلمة القابضين اذ ذاك على زمام الامر في آسيا الصغرى وارض الشام متحدة ، وحكوماتهم قوية منظمة ، لتعذر كل التعذر على الصليبيين ان يزحفوا على انطاكية ، ثم يسير جيشهم حتى يأخذ الساحل ويبلغ البيت المقدس على كثرة عدده ، فقد قيل ان الحملة الاولى كانت مليون محارب ومحاربة لان بعض الصليبيين كانوا يصحبون معهم ازواجهم واولادهم . وفي رواية ميشو ان الحملة الاولى كانت ستمائة الف محارب على حين كان جيش الاسكندر الذي فتح به آسيا ثلاثين الفاً فقط . ومع هذا فان الشام في ذاك العهد بحالة من تجزء الحكم بحيث لا تستطيع ان تجهز نصف جيش الفرنج وهي تحتاج الى حاميات عظيمة في الثغور والحصون والمدن الكثيرة . وكان المسلمون اذ ذاك كالمسيحيين الاوربيين مشتتة اهواؤهم غير منظمة قواهم . ومع هذا فقد روى مؤرخونا ان الاخبار لما وصلت سنة ٤٩٠ هـ الى الشام بظهور عسكر الفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة ، شرع الملك داود بن سليمان بن قتلمش وكان اقرب اليهم داراً في الجمع والاحتشاد ، واستدعى التركمان فوافاه منهم مع عسكر اخيه العدد الكثير وعادوا اليه ، واستظهروا عليه ، وكسروا عسكره فقتلوا منهم واسروا ، ونهبوا وسبوا ، وانهزم التركمان واشترى

---

(١) تاريخ روسيا لمارك سمنوف المطبوع سنة ١٩٢٢ م بباريز .
(Marc Semenoff : Histoire de Russie.)

ملك الروم من السبي خلقاً كثيراً وحملهم الى القسطنطينية ٠

ولما اتصلت هذه الانباء بامراء الشام ، قر رأي اصحاب انطاكية وحلب ودمشق وغيرهم من صغار الامراء على الاستصراخ والاستنجاد ، وتحصين انطاكية واخراج النصارى منها ، ولم تلبث عساكر الفرنج ان نزلت على حصن بغراس (بَيْلان) واعادوا الكرة على اعمال انطاكية فعصى من كان في الحصون والمعاقل المجاورة لها وقتلوا من كان فيها وهرب من هرب منها وفعل اهل حصن ارتاح مثل ذلك واستدعوا المدد من الفرنج ٠ وكان نهض من عسكر الفرنج فريق يناهز الثلاثين الفاً فعاثوا في الاطراف ، ووصلوا الى حصن البارة وفتكوا باهله ، وكان عسكر دمشق وصل الى ناحية شيزر لانجاد ياغي سيان ، فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج الى الرُوج بين حلب والمعرة وتوجهوا الى انطاكية وجعلوا بينهم وبينها خندقاً لكثرة الغارات عليهم من عسكرها ٠

وكان الفرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم ووعدوه بان يسلموا اليه اول بلد يفتحونه ففتحوا نيقية فلم يسلموها اليه على الشروط المقررة ، وافتتحوا في طريقهم بعض الثغور والدروب وفتحوا الرها وما اليها وجاؤا انطاكية فحاصروها تسعة أشهر حتى واطأهم قوم من الزرادين ومنهم أرمن على تسليم انطاكية اليهم ، وذلك لاساءة صدرت من صاحبها ياغي سيان الى الارمن فصادرهم وارهقهم ، ووجدوا الفرصة في برج من ابراج البلد مما يلي الجبل فباعوه من الفرنج واطلعوهم الى البلد منه ٠ فانهزم ياغي سيان بعد ان ظهر من شجاعته وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص ولما حصل بالقرب من ارمناز قرب معرة مصرين سقط عن فرسه فمات ٠ وقد قتل في انطاكية وأسر وسبي من الرجال والنسوان والاطفال خلق كثير ٠

ولما سقطت انطاكية عادت عساكر الشام فتجمعت وحاصر المسلمون انطاكية حتى عدم القوت منها واكل الفرنج الميتة فزحفوا وهم على غاية من الضعف ، الى عساكر الاسلام وهم في الغاية من القوة والكثرة ، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم ٠ والسبب في هذه الهزيمة ان كربوغا صاحب الموصل كان في عسكره على حصار انطاكية مع

صاحب دمشق وصاحب حلب وصاحب حمص وغيرهم من الامراء فأساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والامراء وتكبر عليهم ، فخبثت نياتهم على كربوغا فهزمهم عدوهم وهو في ضعف وهم في قوة . قال صاحب التاريخ العام : وكان الجيش الاسلامي الذي دافع عن انطاكية وانجد صاحبها مؤلفاً من مائتي الف محارب ولو استطاع هذا الجيش ان يصل كله الى انطاكية لقضى على الصليبيين جملة ولم تلبث الحرب ان نشبت بين الصليبيين فاختلف البروفنسيون والنورمانديون ، حتى ان الفرسان هددوا المحاربين من الفرنج ان يخربوا المدينة التي كانوا يتنازعون ملكها . وظلت الحرب على انطاكية اربعة اشهر ففتحت بعد مذبحة هائلة قتل فيها من الفريقين الوف .

ولما انهزم المسلمون امام الفرنج على انطاكية سار هؤلاء بجملتهم الى المعرة وضموا اليهم الارمن الذين كانوا في طاعتهم وبعض نصارى البلاد فاستولوا عليها ووضعوا السيف في اهلها فقتلوا منها ما يزيد على مائة الف انسان في اكثر الروايات وسبوا مثلهم وأقاموا بالمعرة اربعين يوماً ثم زحفوا عنها بعد ان قتلوا اهلها وقطعوا أشجارها . قال ميشو : ان الفرنج قتلوا جميع من كان في المعرة من المسلمين الذين اعتصموا بالجوامع واختبأوا في السراديب ، فأصبحت خاوية على عروشها ، وفقد الفاتحون كل زاد وساءت حالهم ، ثم وقع الخلاف بينهم وصاروا في رواية يأكلون جثث الموتى ، وهدموا أسوارها وأبراجها وأحرقوا المساجد وكسروا المنابر وهدموا الدور ، ثم ساروا الى عرقة وحصروها اربعة اشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها ثم ساروا الى حمص فصالحهم أهلها وراسلهم صاحب شيزر فصالحهم عليها . اما طرابلس فتعاصت عليهم لما بدا من شمم صاحبها جلال الملك بن عمار واستنجاده بالملوك فصالحه صاحب أنطاكية وهاداه على ان يكون للفرنج ظاهر طرابلس ولا يقطع الميرة والمسافرين عنها وبهذا تيسر للفرنج ان يحفظوا خط رجعتهم في طريقهم براً الى القدس . وخرجوا على طريق النواقير الى عكا فلم يقدروا عليها .

* * *

فتح الصليبيين القدس والساحل

وبعد فتح الفرنج للمعرة وغدرهم باهلها ومن أحتمى فيها ، وقطعهم على أهل البلد القطائع التي لم يفوا بشيء مما قرروه

فيها ، ومطالبتهم الناس بما لا طاقة لهم به ، رحلوا الى بيت المقدس على طريق الساحل فأجفل الناس من أماكنهم ، وكانت حلب على قيد غلوة من خطر استيلاء الفرنج ، ولكنهم أعلنوا يوم وصولهم انهم لا يقصدون الا الاستيلاء على ما كان للروم من المدن ، ليصرفوا فكر حكام الشام عن نجدة اهل أنطاكية ، ولكن امراء البلاد لم يصغوا لهذه الدعوة ، ونزل الفرنج بعد ان اجتازوا معظم الثغور على الرملة فملكوها ، وانتقلوا الى بيت المقدس فضيقوا عليه ، فجاءهم الافضل في العسكر الدثر من مصر للايقاع بهم وانجاد البلد ، فشدوا في قتاله ولازموا حربه ، فانهزم الناس فملك الفرنج البلد « ولبث الفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس أسبوعاً وقتل من المسلمين في المسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الف نفس ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في ذلك الموضع الشريف ، وغنموا ما لا يقع عليه الاحصاء » . وجمع الفرنج اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم ، وهدموا المساجد وقبر الخليل وأحرقوا المصاحف .

قال ميشو : وقد ارتكب الصليبيون في فتح القدس انواع التعصب الاعمى الذي لم يسبق له نظير ، حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء انفسهم من أعالي البروج والبيوت ويجعلونهم طعاماً للنار ، ويخرجونهم من الاقبية وأعماق الارض ويجرونهم في الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين . ودام الذبح في المسلمين اسبوعاً حتى قتلوا منهم كما اتفق على ذلك مؤرخو الشرق والغرب سبعين الف نسمة ولم ينج الاسرائيليون من الذبح كالعرب فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجأ اليه أبناء اسرائيل وأهلكوهم كلهم بالنار . ذكر ابن خلكان ان الافضل كان تسلم القدس من سقمان بن أرتق وولى فيه من قبله فلم يكن لمن فيه طاقة بالفرنج فتسلموه منه ولو كان في يد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين . وكان الافضل راسل الامير سقمان وايلغازي ابني أرتق ليسلماه بيت المقدس بدون حرب فلم يجيباه فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانباً فلم يجدا بداً من الاذعان له فسلماه اليه ، وكان الامير اتسز بن اوق الخوارزمي التركي انتزع القدس من يد المصريين سنة نيف وستين واربعمائة قبل ملكه دمشق ثم لما كسر بمصر سنة ٤٦٩

قام على اصحابه فئة فأخرجوهم ثم أعاد الدعوة العباسية ولم يزل القدس بيده الى ان قتله تاج الدولة تتش بن أرسلان سنة ٤٧٢ ثم انتزعه تاج الدولة سنة ٧٤ ثم سلمه الى الامير ظهير الدين أرتق اواخر سنة ٧٨ فعمره وأسكن به ولده ولم يزالوا به الى سنة ٤٩١ حتى تسلمه المصريون . وجاء الافضل وقد فات الامر فانضاف اليه عساكر الساحل ، ونزل بظاهر عسقلان منتظراً وصول الاسطول في البحر ، فنهض عسكر الفرنج اليه وهجموا عليه في خلق عظيم ، فانهزم العسكر المصري الى ناحية عسقلان ودخل الفرنج اليها ، وتمكنت سيوفهم من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ونُهب العسكر الاسلامي ، وتوجه الافضل في خواصه الى مصر ، وضايقوا عسقلان فقتل من اهلها وغيرهم سوى اجنادها الفان وخمسمائة نفس .

ولما توغل الصليبيون في البلاد ، وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون اهله ، ويخربون عمرانه ، ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره ، هام الناس على وجوههم في البراري ومنهم من قصد الى داخلية الشام ومنهم من فرّ الى مصر على حالة رثة . وفي سنة ٤٩٢ ملك الفرنج ما حول بيت المقدس من صور وعكة والرملة ويافا ، اما بقية الساحل كطرابلس وبيروت واللاذقية فبقيت تقاوم الى حدود سنة ٥٠٠ معتصمة وراء أسوارها محصورة في بقعة ضيقة من اراضيها ، معتمدة على معاونة الفاطميين لها من البحر . وكان الفرنج اول ما ملكوا من هذه الارجاء الرُّها وما حولها من الحصون الفراتية قبل ملكهم انطاكية والمعرة . وظلت بيروت في أيدي المسلمين الى سنة ٥٠٣ حتى فتحها بغدوين بعد ان حاصرها حصاراً شديداً وقتل من أهلها عالماً كثيراً . ودام ملوك الفاطميين ينجدون الساحل والداخل بجنودهم ، ولولاهم لتيسر للفرنج اكتساح جميع البلاد بمجرد سير جيوشهم الجرارة ، وحالت اسوار المدن بينهم وبين ما كانوا يؤملون ، وصحت نيات القائمين بالامر فيها ولا سيا في المدن الداخلية على الدفاع ، فكانت هجمات العدو يبددها في الغالب دفاع اصحاب البلاد على ضعف قواهم وتشتت اهوائهم وموقف المدافع أسهل من موقف المهاجم .

ومن أهم الاحداث بعد دخول الفرنج الى انطاكية خروج صاحبها بيمند سنة ٤٩٣

الى حصن أفامية فوصل الخبر الى الدانشمند التركماني صاحب ملاطية وسيواس وعسكر قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش صاحب قونية واقصرا ، فقتل من عسكر الفرنج عدد عظيم ، وحصل بيمند في قبضة الاسر مع نفر من أصحابه ونفذت الرسل الى نوابه في أنطاكية يلتمسون تسليمها . قال صاحب الكامل : انه لم يفلت احد من الفرنج في هذه الوقعة وكانوا ثلاثمائة الف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين . وفي سنة ٤٩٤ جمع سقمان بن أرتق صاحب دياربكر خلقاً كثيراً من التركمان ، وزحف بهم الى فرنج الرها وسروج وتسلم سروج ثم هرب بعض التركمان، فضعفت نفسه وانهزم فتسلم الفرنج سروج وقتلوا أهلها وسبوهم الا من أفلت منهم هزيماً . ووصل كدفري صاحب بيت المقدس الى ثغر عكا ، وأغار عليها فأصابه سهم فقتله ، وكان قد عمر يافا وسلمها الى طنكري فلما قتل كدفري سار اخوه بغدوين القمص صاحب الرها الى بيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل فجمع صاحبا دمشق وحمص الجموع ولقياه بالقرب من ثغر بيروت ، فسارع نحوه صاحب حمص في عسكره فظفر به وقتل بعض أصحابه . وفيها افتتح الفرنج حيفا على ساحل البحر بالسيف وأرسوف بالأمان وأخرجوا اهلها منها وفتحوا قيسارية بالسيف وقتلوا اهلها ونهبوا مافيها واعانهم الجنويون عليها . وكان الجنويون والبيزيون يبعثون كل سنة مراكب الى ثغر الشام.

وارسل القاضي عبد الله بن صليحة المتغلب على ثغر جبلة الى صاحب دمشق ، يلتمس منه انفاذ من يراه من ثقاته ليسلم اليه جبلة ، فانتدب ولده تاج الملوك فتسلمها ، وأساء هو وأصحابه الى اهلها وظلموهم ، فشكوا حالهم الى ابن عمار صاحب طرابلس فأنهض اليهم عدة وافرة من عسكره ، فدخلت الثغر واجتمعت مع اهله على التركمان فقهروهم واخرجوهم منه وملكوه ، وحملوا تاج الملوك الى طرابلس فدمشق معززاً . وفي رواية ان الفرنج استولوا على جبلة هذه السنة . وفيها خرج من مصر عسكر كثيف مع سعد الدولة المعروف بالقواسي ووصل الى عسقلان لجهاد الفرنج ورحل عنها ، فنهض من الفرنج الف فارس وعشرة آلاف راجل والتقى الفريقان فكسرت ميمنة المسلمين واستشهد سعد الدولة وعاد المسلمون على الفرنج وتذامروا عليهم وتحاضوا على قتالهم ، وبذلوا النفوس في الكرة عليهم فهزموهم الى يافا وقتلوا منهم

وأسروا . وفيها نزل ابن صنجيل على طرابلس وكان جاءه اربعون مركباً مشحونة بالرجال والمال ، فعطب بالرياح اكثرها ، فكتب صاحبها الى دمشق يستصرخ فسار عسكرها مع صاحب حمص الى انطرطوس والتقوا بالفرنج فانهزم صاحب حمص وعاد الفرنج الى مغاداة طرابلس القتال فعاد ابن عمار الى الاستصراخ بصاحبي حمص ودمشق فدفعوا الفرنج عنه بعد ان قتل من اهل طرابلس سبعة آلاف رجل ونازل صنجيل طرابلس وحصرها واتاه اهل الجبل فأعانوه على حصارها وكذلك اهل السواد واكثرهم نصارى ثم هادنهم على مال حمله اهل طرابلس الى صنجيل ، فسار الى انطرطوس ففتحها وقتل من بها من المسلمين ، ثم رحل الى حصن الطوبان وهو يقارب رفنية ومقدمه يقال له ابن العريض فقاتلهم فنصر عليه اهل الحصن وأسر ابن العريض منه فارساً من اكابر فرسانه ، فبذل صنجيل في فدائه عشرة آلاف دينار والف اسير فلم يجبه ابن العريض الى ذلك . ثم سار صنجيل وحصر حصن الاكراد فجمع تاج الدولة صاحب حمص العسكر ليسير اليه فوثب به باطني واغتاله ، ولما بلغ صنجيل ذلك رحل عن حصن الاكراد الى حمص ونازلها وملك اعمالها . وفي هذه السنة أطلق الدانشمند صاحب سيواس بيمند الفرنجي صاحب انطاكية من الاسر وأخذ منه مائة الف دينار ، ولما خلص من الاسر عاد الى انطاكية فقويت نفوس أهلها به ، ولم يستقر حتى أرسل الى أهل العواصم وقنسرين وما جاورها يطالبهم بالاتاوة فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التي بناها الدانشمند (ابن الاثير) ان الدليل من ذلّ في سلطانه .

* * *

تخاذل امراء المسلمين وبلاء طغتكين وابن عمار

جهز ملك مصر في سنة ٤٩٦ عسكراً بقيادة ابنه شرف المعالي ، وسير الاسطول في البحر فاجتمع بالعسكر الذي خرج سنة ٤٩٥ وعليه سعد الدولة القواسمي بيازور بساحل الرملة ، والتقيا مع عسكر الفرنج فهزموهم ، وحاصر شرف المعالي قصراً كان الافشين قد بناه قريباً من الرملة وملكه قهراً ، وقتل من كان به من الفرنج فحضر في البحر عدة مراكب نجدة للفرنج وحاصروا عسقلان ، فرحل شرف المعالي من الرملة الى عسقلان ، فارتحل

الفرنج عنهـا ، وكتب الافضل الى شمس الملوك دُقاق صاحب دمشق يستنجده على الفرنج فاعتذر عن ذلك ٠

وفي سنة ٤٩٧ وصلت مراكب الفرنج في البحر من بلادهم الى ظاهر اللاذقيـة مشحونة بالتجار والاجناد والحجاج وغيرذلك ، فاستنجد بهم صنجيل المنازل لطرابلس في مضايقتها والمعونة على ملكها ، فاجتمعوا معه على منازلتها فقاتلوها أياماً ورحلوا عنها ونزلوا على ثغر جبيل فقاتلوه وضايقوه وملكوه بالامان ثم غدروا باهله وصادروهم ، واستنفدوا أموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب ٠ وفيها التقى عسكر الاميرين سقمان بن أرتق صاحب آمد وجكرمش صاحب الموصل بعسكر بيمند وطنكري في عسكريهما من ناحية أنطاكية فانتصر المسلمون ٠

ونزل بغدوين صاحب بيت المقدس على ثغر عكا ومعه الجنويون والمراكب في البحر والبر وهم الذين كانوا ملكوا ثغر جبيل في نيف وتسعين مركباً لحصروه من جهاته ، ولازموه بالقتال الى ان عجز واليه ورجاله عن حربهم ، وضعف أهله عن المقاتلة وملكوه بالسيف قهراً ٠ وكان والي عكا زهر الدولة الجيوشي من قبل المصريين ٠ ونزل الفرنج على حصن بسَرْفوت ورموه بالمنـاجيق ففتحوه بالامان وأطلقوا من كان فيه وكان من أمنع حصون جبل بني عليم من عمل حلب ٠ وظهر ابن عمار صـاحب طرابلس في عسكره وأهل البلد وقصد الحصن الذي بناه صنجيل عليهم ، وهجم على غرة ممن فيه فقتل من به ونهب ما فيـه وأحرق وأخرب ، وأخذ منه السلاح والمال والديبـاج والفضة ، هذا وملوك الاسلام اذ ذاك مشتغلون بقتال بعضهم بعضاً وقد تفرقت الآراء وتمزقت الاموال ٠ وقصد الفرنج حران فاتفق صـاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وماردين ومعهم العرب والتركمان واجتمعوا بالفرنج على الخابور على نهر البليخ فهزم الفرنج وأسر ملكهم القومص ٠

وفي سنة ٤٩٨ خرج صاحب حلب عازماً على قصد طرابلس لمعاونة صاحبها ابن عمار على الفرنج النازلين عليه ، وكان الارمن في حصن أرتاح قد سلموا اليه الحصن لما شملهم من جور الفرنج ونزل عليها فوقع المُصافّ بين المسلمين والفرنج عند شيزر ، فثبت راجل المسلمين وانهزمت الخيل ، ووقع القتل في الرجالة ولم يسلم منهم الا القليل

ووصل الفل الى حلب ، وحين عرف ذلك من كان في أرتاح من المسلمين هربوا بأسرهم منها فملكها الفرنج ، ثم قصدوا بلد حلب فاجفل اهله منهم واضطربت أحوال من بالشام ٠

وفي هذه السنة خرج من مصر عسكر كثيف يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل مع شرف المعالي ولد الافضل وكوتب صاحب دمشق بالاستدعاء للمعونة فنزل هذا على بُصرى ثم قصد ظاهر عسقلان فتجمع الفرنج وقصدوا عسقلان فالتقى الفريقان بين يافا وعسقلان واستظهر الفرنج على المسلمين وقتلوا والي عسقلان ، وانهزم عسكر مصر الى عسقلان ، وعسكر دمشق الى بصرى وكان صاحبها ايتكين الحلبي راسل بغدوين ملك الفرنج للاستنجاد به وتوجه ايتكين وارتاش بن تاج الدولة نحو بغدوين وأقاما عنده مدة يحرضانه وقومه على المسير الى دمشق ، و يبعثانه على الافساد في اعمالها فلم يجبهما ، فلما يئسا توجها الى ناحية الرحبة ٠

وانما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وتوجه صاحب دمشق الى بعلبك وقرر امورها وكف الاذى عن واليها كمشتكين الخادم التاجي ، وتوجه الى حمص وقصد رفنية ونزل عليها ووفد عليه خلق كثير من جبل بهراء في عمل حمص فهاجموا رفنية على حين غفلة من أهلها ، وغرة من متحفظيها ، وقتلوا من بها و باعمالها وأحرق ما امكن احراقه من الحصن المحدث عليها من الفرنج وغيره ، وملكت أبراج رفنية وهدم الحصن وقتل من كان فيه ٠

وفي سنة ٤٩٩ سار الفرنج الى افامية وحاصروها وملكوا البلد والقلعة وقتلوا القاضي المتغلب عليها ، وكان هذا كتب الى صاحب حلب لانقاذ البلاد من المستبد بها خلف بن ملاعب الكلابي الذي كان دأبه قطع الطريق على الناس و إخافة السبل فقتله والتجأ ابنه مصبح الى طنكري صاحب انطاكية وحرضه على العود الى أفامية وأطمعه في أخذها لقلة القوت بها فنهض اليها ونزل عليها وضايقها الى ان تسلمها بالامان. والغالب ان الاسماعيلية هم الذين ملكوا حصن افامية باسم الملك رضوان صاحب حلب، وكان بنى لهم بحلب دار دعوة وهو اول من عملها. وكان بأفامية رجل من دعاتهم يقال له ابو الفتح السرميني فقرر ذلك لمنع أهلها ، فنقبوا السور وهجموا على ملاعب

وقتلوه ونادوا بشعار الملك رضوان . وبقي الحصن في أيديهم حتى أخذه الفرنج منهم في سنة ٥٠٠ .

وفي سنة ٤٩٩ ملك صنجيل مدينة جبلة ، ثم سار وأقام على طرابلس فحصرها وبنى بالقرب منها حصناً ، وبنى تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل فخرج صاحب طرابلس فأحرق الربض وهلك صنجيل على أثر حرق بجسمه « ودام الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين وخلو من صاحبها ابن عمار صبر عظيم وقلت الاقوات بها وجلا الفقراء وافتقرت الاغنياء » . قال ابن الاثير : وكانت طرابلس من أعظم بلاد الاسلام واكثرها تجملاً وثروة فباع أهلها من الحلي والاواني الغريبة ما لا حد عليه حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدينار .

* * *

حرب طغتكين للصليبيين | خرج الفرنج الى سواد طبرية (٤٩٩) وشرعوا في عمارة حصن علعال بين السواد والبثنية او بين الغور وجبل الشراة وكان من الحصون الموصوفة بالمنعة ، فلما عرف صاحب دمشق هذا العزم منهم نهض فملك الحصن وقتلهم وأسرهم . قال ابن الاثير : وقد قال طغتكين للمقاتلة يومئذٍ : من أحسن قتال الفرنج وطلب مني امراً فعلته معه ، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير ، فبذل الرجالة نفوسهم وصعدوا الى الحصن وخربوه وحملوا حجارته الى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم ، وأمر بالقاء الحجارة في الوادي وأسروا من بالحصن فأمر بهم فقتلوا كلهم واستبقى الفرسان ، ثم سار الى حصن رفنية فحصره طغتكين وملكه وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج .

وفي السنة التالية (٥٠٠) زاد عيث الفرنج في اعمال السواد وحوران وجبل عوف (عجلون) ، فنهض صاحب دمشق بالعسكر وخيم في السواد . وهجم عز الملك والي صور على ربض حصن تبنين في جبل عامل من عمل الفرنج وقتل من كان فيه ، فنهض بغدوين من طبرية وسار صاحب دمشق الى حصن بالقرب من طبرية فيه جماعة من فرسان الفرنج فقاتله وملكه وقتل من كان فيه . وأقطع صاحب دمشق الامير الاصفهبد التركماني وادي موسى ومآب والشراة والجبال والبلقاء ، وكان

الفرنج قدنهضوا الى هذه الاعمال وقتلوامن فيها وسبوا ونهبوا ، فلما وصل اليها وجد اهلها على غاية الخوف من الفرنج ونهض هؤلاء لما عرفوا خبره من ناحية البرية وكبسوه على غرة ، فانهزم واستولى الفرنج على سواده ٠

وتتابعت المكاتبات من صاحبي دمشق وطرابلس الى محمد بن ملكشاه السلجوقي بعظيم ما ارتكبه الفرنج في البلاد ، وتملك الحصون من المعاقل بالشام والساحل ، والفتك بالمسلمين ومضايقة ثغر طرابلس ، والحض على تدارك الناس بالمعونة ، فوقع خلاف بين الامراء الذين انتدبهم صاحب حلب ودمشق وغيرهما في جهات الرحبة ، والتقوا مع عسكر قلج أرسلان في اراضي الموصل ونسوا الغرض الذي ندبوا اليه ٠ وقلج أرسلان التركماني هو الذي أعان ملك الروم في قسطنطينية على بيمند ملك الفرنج فاستظهر الروم والتركمان على الفرنج وكسروهم كسرة شنيعة اتت على اكثرهم بالقتل والاسر وغرق الباقي منهم عائدين الى بلادهم ٠

حروب الصليبيين

« ودولة طغتكين وبقايا السلجوقيين من سنة ٥٠٠ الى ٥٢٢ »

هدنة طغتكين للصليبيين وشدته عليهم

انسلخ القرن الخامس ، وأهم ما دهم البلاد فأوقع الاضطراب فيها ، انهيال جيوش الصليبيين عليها ، وتبلج القرن السادس والصليبيون في الشام منذ عشر سنين ، استصفوا الساحل وبعض الداخل ، والحرب بين امراء البلاد وبين الفرنج على أشد حالاتها ، وشعر امراء المسلمين بالخطر المداهم لكن القوى لم توحد ، وكيف يخضع صاحب آمد لصاحب دمشق او صاحب حلب لصاحب الموصل ، وكل منهم يدعي التفوق ويود لو ينال من جاره ليكون له الامر كله ، وكان طغتكين صاحب دمشق يحمل العبء الثقيل لانه أول أمير تتاخم بلاده ارض فلسطين ، وملوك الاطراف أبعد دياراً ، وكان همه قتال الاعداء من الجنوب والغرب ، وحفظ الموازنة مع صاحب حلب حتى لا يستخذي فتسقط دمشق بل الشام بأسره لا محالة .

وأهم الاحداث في العقد الاول من هذا القرن اقامة صاحب القدس على تل المعشوقة في صور (٥٠١) بناء ، ومصانعة واليها على سبعة آلاف دينار ، واشتداد الامر بابن عمار في طرابلس لحصار الفرنج ومضيه الى بغداد مستنجداً ، وقد استناب ابن عمه ابا المناقب فنادى بشعار الافضل صاحب مصر فقبض عليه وحمل الى حصن الخوابي . وطال مقام ابن عمار في دار السلام على غير طائل ، وانفذ الافضل من

مصر الى طرابلس في البحر الغلة والميرة وواليًا من قبله فتسلم البلد . وأسرى صاحب دمشق الى طبرية وفرق عسكره فرقتين ، نفذت احداهما الى فلسطين وأغار بالثانية على طبرية ، وأحاطت الخيل بصاحب طبرية وباصحابه فقتل أكثرهم . ونهض صاحب القدس الى صيدا برًا وبحرًا ونصب برج الخشب عليه ووصل الاسطول المصري فظهر على المراكب الجنوية وعسكر البر واتصل بهم نهوض العسكر الدمشقي لحماية صيدا فرحلوا عنها .

وتسلم الفرنج عرقة بالامان (٥٠٢) ، وكان أنجدها صاحب دمشق فعاقته الثلوج والامطار عن الوصول اليها ، فرجع الى حصن الأكمة مقاتلاً ثم رحل عنه شبه المنهزم الى حمص . ونزل الفرنج على طرابلس وشرعوا في قتالها ومضايقة أهلها زهاء اربعة أشهر فشمل اليأس أهلها لتأخر وصول الاسطول المصري في البحر ، فملكها الفرنج بالسيف « ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها وما كان منها في خزائن ارباها ما لا يحد عدده ولا يحصر ، ونزل باهلها اشد البلاء وتقرر بين الفرنج والجنويين على ان يكون للجنويين الثلث من البلد وما نهب منه ، والثلثان لريمند بن صنجيل وافردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به » . وذكر النويري ان السبب الذي دعا اهل طرابلس الى التسليم انهم بينا كانوا ينتظرون وصول النجدة بحرًا من مصر جاءهم رسول منها على مركب يطلب منهم لاسم الخليفة الفاطمي جارية جميلة كنت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لعمل عود وغيره من آلات الطرب . واذا اقبلت الدولة كما قال افلاطون: خدمت الشهوات العقول ، واذا ادبرت خدمت العقول الشهوات .

وبعد فتح طرابلس سار الفرنج الى جبلة وسار جاولي الى بالس فهرب من بها من اصحاب الملك رضوان صاحب حلب فحصرها خمسة ايام وملكها بعد ان نقب برجًا من ابراجها. وافتتح السرداني المتغلب على عرقة حصن بانياس ، ونزل على ثغر جبيل وفيه ابن عمار فخرج منه بالامان ، ووصل الاسطول المصري بعد اخذ طرابلس فأقام بالساحل مدة وفرقت الغلة في جهاتها ، وتمسك به اهل صور وصيدا وبيروت وشكوا ضعفهم عن مقاومة الفرنج . وفيها كان المصاف بين جاولي سقاو وبين طنكري صاحب

انطاكية وسبب ذلك على ما رواه ابن الاثير ان الملك رضوان كتب الى طنكري صاحب انطاكية يعرفه ما عليه جاولي من الغدر والمكر والخداع و يحذره منه و يعلمه انه على قصد حلب ، وانه ان ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام ، وطاب منه النصرة والاتفاق على منعه ، فأجابه طنكري الى منعه و برز من انطاكية فأرسل اليه رضوان ستمائة فارس الى ان قال : ولما وقعت الحرب لم يبق غير هزيمة صاحب انطاكية ثم انهزم جاولي وبقية عسكره وقتل من المسلمين خلق كثير ، ونهب صاحب انطاكية اموالهم واثقالهم وعظم البلاء عليهم من الفرنج وهرب القمص وجوسلين الى تل باشر ، والتجأ اليها خلق كثير من المسلمين ففعلا معهم الجميل وداويا الجرحى وكسوا العراة وسيراهم الى بلادهم .

وفيها كانت حرب شديدة بين طغتكين والفرنج على طبرية واشتد القتال فانهزم المسلمون ، ثم نادى طغتكين بالمسلمين وشجعهم ، فعاودوا الحرب وكسروا الفرنج واسروا ابن اخت ملك القدس وحمل الى طغتكين فعرض طغتكين عليه الاسلام فامتنع وبذل في فداء نفسه ثلاثين الف دينار واطلاق خمسمائة اسير فلم يقنع طغتكين منه بغير الاسلام فلما لم يجب قتله بيده . ثم اصطلح طغتكين وبغدوين ملك الفرنج على وضع الحرب اربع سنين . ولما انهزم طغتكين على طرابلس ووصل الى حمص بعسكره على اقبح حال ارسل اليه ملك القدس يقول له : لا تظنن انني انقض الهدنة للذي تم عليك من الهزيمة ، فالملوك ينالهم اكثر مما نالك ثم تعود امورهم الى الانتظام والاستقامة ، وكان طغتكين خائفاً ان يقصده بعد هذه الكسرة فينال من بلده كل ما اراد .

وهادن صاحب دمشق ملك بيت المقدس على ان يكون السواد وجبل عوف اثلاثاً للتركمان الثلث وللفرنج والفلاحين الثلثان . وجاء ابن عمار الى دمشق فأقطعه صاحبها الزبداني واعمالها (٥٠٣) وكان لابن عمار البلاء الحسن بل الاحسن في دفع عادية الصليبيين عن بلده ، لم يترك باباً من ابواب الخلاص ليصدهم عن طرابلس الا طرقه ، حتى دفعهم بعقله وحسن ادارته عن تملكها عشر سنين . وكان في طريق رجعتهم كالحسكة في الحلق وفي معاملة ملوك الاطراف نموذج الدهاء السياسي ، وهو

على صغر جرم مملكته يطاول ويحاول و ينازل و يصاول و يلين و يقسو « ان مع الكثرة تخاذلاً ، ومع القلة تماسكاً » .

ونهض الفرنج (٥٠٣) الى رفنية وترددت بينهم وبين امراء البلاد مراسلات افضت الى تقرير الموادعة على ان يكون للفرنج ثلث مغل البقاع و يسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن عكار وان لا يتعرض لحصن مصياف والخوابي وحصن الاكراد وحصن الطوبان وان يحمل اليهم مال عنها وعن حصن الطوبان من عمل حمص وأقاموا على ذلك مدة ثم عادوا الى الفساد في البلاد . وخرج صاحب انطاكية واستولى على طرطوس وقرر على شيزر عشرة آلاف دينار وتسلم حصن الاكراد وعاد الى انطاكية، ونزل بغدوين صاحب القدس وابن صنجيل صاحب طرابلس الى بيروت وسار اليهم جوسلين صاحب تل باشر لمعاونتهم واستنجادهم على الامير مودود بن التونتكين صاحب الموصل . وجاء الاسطول المصري في ١٩ مركباً وفيه الرجال والميرة فدخلوا ثغر بيروت فقويت نفوس اهلها ، فبعث بغدوين الى الجنوية في ثغر السويدية فجاؤا في اربعين مركباً ، وزحفوا براً و بحراً وفعلوا ما فعلوه في طرابلس من القتل والحرق والنهب وملكوا بيروت ، ثم نزل بغدوين على صيدا فسلمها اهلها واستمهلوه مدة عينوها فأجابهم واخذ منهم اتاوة . وراسل والي بعلبك كمشتكين الخادم الفرنج بالتماس المصافاة ، وبعثهم على شن الغارات على الاطراف فزحف صاحب دمشق عليه فجنح المقاتلة الى الدخول في الطاعة ، واستولى على البلد وعوض واليها عن بعلبك بحصن صرخد .

* * *

اجتماع كلمة امراء المسلمين وانجاد بغداد للشام

اجتمع صاحب ارمينية وميافارقين وصاحب الموصل وغيرهم على جهاد الفرنج ، وقصدوا الرها وضايقوها فاشرف من بها على الهلاك لقلة القوت ، فشرع اصحاب انطاكية وطرابلس والقدس بالذود عنها ، ونهض صاحب دمشق في عسكره وخيم على سلمية ، وظاهر الفرنج في رفنية فقاتلهم واليها شمس الخواص ، ورحل الفرنج الى قصد الرها فخف صاحب دمشق الى الرقة وقلعة جعبر وقطع الفرات ، وتلوّم هناك الى ان عرف خبر الفرنج

وانهم قد احجموا عن العبور لتفرق سرايا العساكر الاسلامية وطلائعهم في عامة المسالك الى الفرات . ولما ادرك المسلمون قرب الفرنج منهم اتفقت الآراء على الافراج لم يتمكنوا من لقائهم في الفضاء من شرقي الفرات ، ورحلوا عن الرُّها ونزلوا ارض حران مكراً وخديعة ، ففطن الفرنج لهذا التدبير فاجفلوا ناكصين على الاعقاب الى شاطئ الفرات ، فنهض المسلمون في اثرهم فغنموا سواد الفرنج واثقالهم ، واتوا على العدد الدثر من اتباعهم قتلاً ونغريقاً في الفرات . وفي هذه الايام تأكدت اسباب الأُلفة بين صاحب دمشق وملوك الشمال .

لما تفرقت العساكر الاسلامية اغار بغدوين على الرها ، وكانوا رتبوا فيها جماعة من الارمن لحفظها ، وبلغ ذلك صاحب حلب وما اصاب الفرنج من الهزيمة فاستعاد ما كان غلب الفرنج عليه واغار على انطاكية . ثم جاء الفرنج عقيب ذلك فافسدوا في اعمال حلب وقتلوا واسروا خلقاً كثيراً . وعاد طنكري على الاثارب وملكها بعد طول حصارها كما ملك زردنا بالسيف ، واستقرت الموادعة بعد ذلك بين صاحب حلب وطنكري على ان يحمل اليه الاول من مال حلب كل سنة عشرين الف دينار وان يفك الأسرى ، وتقررت الموادعة بين صاحب بيت المقدس وصاحب دمشق على ان يكون الثلث من غلات البقاع للفرنج والثلثان للمسلمين والفلاحين .

ووصل بعض ملوك الفرنج في البحر ومعه نيف وستون مركباً مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو في بلاد الاسلام ، فاجتمع مع صاحب بيت المقدس ونزلا على ثغر صيدا وضايقاه براً وبحراً ، فلما عاين من بصيدا هذا الامر ضعفت نفوسهم واشفقوا ان يصيبهم ما اصاب بيروت وقد قتل الفرنج يوم اخذوها واليها واعيانها ، فخرج اليهم قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا الامان ، فأمنهم فاستحلفوه على ذلك ، وخرجت الحامية وخلق من اهلها الى دمشق ، وقرر بغدوين على من اقام بها نيفاً وعشرين الف دينار فأفقرهم واستغرق اموالهم .

واغار بغدوين على عسقلان (٥٠٤) وكان صاحبها شمس الخلافة يراسله فاستقرت الحال بينهما على مال يحمله اليه ويرحل عنه ، وانتهى الخبر الى الافضل بمصر فانكر ذلك وجهز عسكراً كثيفاً الى عسقلان ، فلما قرب منها اظهر شمس الخلافة

الخلاف على الافضل فغالطه الافضل ، وخاف شمس الخلافة من اهل البلد فاستدعى جماعة من الارمن فاثبتهم في عسقلان ، ثم وثب به قوم من كنانة وقتلوه . وسار الى بغداد رجل من اشراف الهاشميين في حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء ، وانزلوا الخطيب في جامع السلطان عن المنبر وكسروه ، وصاحوا وبكوا لما لحق الاسلام من الفرنج ، ومنعوا الناس من الصلاة ، وعملوا في الجمعة التالية مثل ذلك في جامع الخليفة ، فاوعز السلطان الى الامراء المقدمين بالتأهب للمسير الى الجهاد .

ووصل رسول ملك الروم بمراسلات للبعث على قصد الفرنج والاجتماع على طردهم قبل اعضال خطبهم ، ويقول انه منعهم من العبور الى بلاد المسلمين وحاربهم واذا ضعفت عزائم قومه عن المقاومة ، اضطر الى مداراتهم واطلاق عبورهم الى البلاد الاسلامية ، وبالغ في الحث على حربهم ، وفيها نقض بغدوين الهدنة المستقرة بينه وبين صاحب دمشق ، فخرج هذا الى اللجاة ونهض الفرنج في اثره الى الصنمين ففرق صاحب دمشق العسكر من عدة جهات وبث في المعابر والمسالك خيلاً يمنعهم من حمل الميرة اليهم حتى الجأهم الى المسالمة ، على ان يكون لبغدوين النصف من ارتفاع جبل عوف والسواد والجبانية مضافاً الى ما في يده من هذه الاعمال التي تليها في ايدي العرب من آل جراح .

لما قرر ملك بغداد انهاض العسكر عقيب استغاثة الشاميين بالخليفة والسلطان تقدم من الامراء لانجادهم على قتال الصليبيين صاحب الموصل ، فافتتح تل مراد وعدة حصون هناك بالسيف والامان . ووصل اليه الامير احمديل الكردي في عسكر كثيف ، والامير قطب الدين سقمان من بلاد ارمينية وديار بكر وصاحب همذان فنزلوا على تل باشر ونقبوه فانفذ جوسلين صاحب تل باشر الى الامير احمديل يلاطفه ويهاديه ويبذل له الكون معه والميل اليه ، وكان اكثر العسكر مع احمديل وسأله الرحيل عن الحصن فاجابه الى ذلك على كراهية من باقي الامراء ، وعادوا عن تل باشر الى حلب وعاثوا في اعمالها وفعلوا اقبح من فعل الفرنج ، ووصل اليهم في حلب صاحب دمشق ومعه رجال حمص وحماة ورفنية وسائر المعاقل الشامية ، فلم ير منهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد ، واستجرهم الى المعرة فظهر له من سوء نية المتقدمين فيه

ما اوحشه منهم ، وجعل يحرضهم على قصد طرابلس فلم يفعلوا وتفرقوا أيدي سبا ، فلما علم الفرنج برحيل العساكر نزلوا افامية وفي رأسهم اصحاب القدس وطرابلس وانطاكية ، وقد صاروا بعد التباين والمنافرة والحلف يداً واحدة على المسلمين ، وكانت خيل هؤلاء مثل الفرنج الا ان راجلهم اكثر وناوشوا الفرنج على غير طائل .

* * *

غارات المسلمين وغارات الصليبيين — وملك فرنج انطاكية حصن الاتارب بالسيف وقتلوا منه الفي رجل واسروا الباقين ، ثم ملكوا زردنا ففعلوا كذلك وقصدوا منبج و بالس فوجدوهما خاليتين فعادوا . ووقع الخوف في قلوب اهل الشام من الفرنج ، فبذلت لهم اصحاب البلاد اموالاً وصالحوهم ، فصالحهم صاحب حلب على اثنين وثلاثين الف دينار ، واهل صور على سبعة آلاف دينار ، وصاحب شيزر على اربعة آلاف دينار وعلي الكردي صاحب حماة على الفي دينار . وذلك لان الفرنج امتنعوا من مهادنة ملوك الشام الا على قطيعة يأخذونها الى مدة يسيرة . ولو كان ملوك الشام اذ ذاك على شيء من الوحدة في الرأي « واذا نصر الرأي بطل الهوى » لما اقطعوا الفرنج القطائع ، ولما هادنوهم خصوصاً وقد خرق الفرنج مرات قانون المهادنات والموادعات وبعض المنكرين يعذرونهم على عملهم الفظيع في تلك العصور لانهم كانوا دون المسلمين في كل امر من امورهم العلمية والحربية والاجتماعية .

وفي هذا العقد (٥٠٥) جهز السلطان محمد عسكراً فيه صاحب الموصل وغيره من اصحاب الاطراف الى قتال الفرنج بالشام فساروا ونزلوا على الرها فلم يملكوها ، ووصلوا الى حلب فخافهم صاحبها ولم يفتح لهم ابوابها ثم ساروا الى المعرة وتفرقوا . وفيها انجد صاحب دمشق اهل صور ، وكان اغار عليهم بغدوين ، وسار وخيم ببانياس وبث سراياه ورجاله في اعمال الفرنج ، ونهض الى حصن الحبيس في السواد فملكه بالسيف واغار على صيدا واحرق عشرين مركباً من مراكب الفرنج ، وبعد ان عمل الفرنج كباشاً كبيرة لتعلق على السور رماها اهل صور بالنفط والزيت مرات ، واقاموا على محاصرة صور اربعة اشهر ونصف ثم قصدوا عكا وتفرقوا في اعمالهم .

نزل اهل صور (٥٠٦) عن بلدهم لصاحب دمشق لما اعيتهم الحيل في الدفاع

فتسلمها ، واقام الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر ولم يغير لهم رسماً ، مع ان سائر الشام كانت طاعتها للعباسيين ودعوتها لهم ، وذلك حباً بدوام الصلات مع صاحب مصر حتى لا يقطع مدده عن الساحل . وضبط صاحب القدس القافلة الدمشقية بينا كانت سائرة الى مصر بدلالة اناس من العرب البدو ، واشتمل الفرنج على ما فيها من الامتعة والبضائع ، وحصل لبغدوين منها خمسون الف دينار وثلاثمائة اسير ، ولم يبق بلد من بلاد الشام الا وأصيب بعض تجاره واهله باموالهم .

وتواترت غارات بغدوين على عمل البثنية من اعمال دمشق ، وجمع صاحب الموصل عسكره من الاتراك والاكراد وقطع الفرات الى الشام ، وكذلك صاحب سنجار وصاحب ديار بكر ، وكان الصليبيون يكاتبون صاحب دمشق على ان يتركوا له حصن تبنين وجبل عامل ويعوضوا عن ذلك بحصن الحبيس حبيس جلدك الذي في السواد ونصف السواد . والسواد نواح قرب البلقاء — ويتركوا التعرض لشيء من اعمال دمشق ، ولا يعرض هو لشيء من اعمال الفرنج ، فلم يجب الى ذلك ، ونهض من دمشق في جيشه للقاء صاحب الموصل والاجتماع به على الجهاد ، فاجتمعا بمرج سلمية واتفق رأيهما على قصد بغدوين ، وسارا وقد استصحب صاحب دمشق جميع العسكر ومن كان بحمص وحماة ورفنيه ونزلا بقدس فعين الجر بالبقاع فوادي التيم ثم نزلا على بانياس ، ونهضت فرقة من العسكر فقصدت ناحية تبنين فلم يظفروا منها بمراد ، ووصل اليها بغدوين ، وقد كان لما يئس من اجابة صاحب دمشق الى الموادعة واصل الغارات والفساد في الشام ، ثم نهض صاحب دمشق ونزل على الأقحوانة على شاطئ بحيرة طبرية ، فنشب الحرب بين المسلمين والفرنج غربي جسر الصنبرة مقابل عقبة أفيق ، فانتصر المسلمون بعد ثلاث كرات وغرق من الفرنج خلق كثير في البحيرة ، وقتل نحو الفي رجل من أعيانهم وأبطالهم ، وأقام المسلمون على الجبل وطلع الفرنج اليه وتحصنوا به وهو من غربي طبرية ، واستنفر ملك دمشق العرب الطائيين والكلابيين والخفاجيين فوصلوا بخلق كثير بالمزادات والروايا والابل لحمل الماء ، وصعدت الطلائع الى الجبل من شماله وعلم المسلمون ان الظفر قد لاحت دلائله ، والعدو قد ذل ، واغارت بعض سرايا المسلمين على اراضي القدس ويافا ونهبت

بيسان ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة. ثم تفرق المسلمون وعادوا الى بلادهم.

وأرسل ملك القدس الى والي صور (٥٠٧) يريده على المهادنة والموادعة لتحسم اسباب الاذية عن الجانبين فأجابه الى ذلك، وأمنت السابلة والتجار والسفار، واستقرت الحال بينهما على المهادنة لتعمر الاعمال بعد خرابها فأمنت المسالك وصلحت الاحوال، بعد ان ذاق الفرنج بأس ملوك الشام والجزيرة على الأقحوانة. وكان صاحب القدس من أعظم ملوك الفرنج بالشام جيشاً ومكانةً. وكان من جملة من حضر في هذه الوقعة عند طبرية الامير مودود بن التونتكش صاحب الموصل. وفي سنة ٥٠٨ قُتل آلب أرسلان بن رضوان صاحب قلعة حلب قتله غلمانه بقلعتها وأقاموا بعده أخاه سلطانشاه بن رضوان، وكان لما ملك حلب جرى على قاعدة ابيه في امر الاسماعيلية لانه كان قد بنى لهم بحلب دار دعوة فطلبوا منه ان يعطيهم القلعة فأجابهم الى ذلك فقبح عليه القاضي ابن الخشاب فعله فأخرجهم بعد ان قتل منهم ثلاثمائة نفس وأسر مائتين وطيف برؤوسهم في البلد وكان ذلك في سنة وفاته.

وامر السلطان محمد بن ملكشاه (٥٠٨) الامراء وأصحاب الاطراف بالمسير صحبة آق سنقر البرسقي لقتال الفرنج بالشام، وجرى بين البرسقي وايلغازي بن أرتق صاحب ماردين قتال انتصر فيه ايلغازي وهرب البرسقي، ثم خاف ايلغازي من السلطان فسار الى صاحب دمشق فاتفق معه وكاتبا الفرنج واعتضدا بهم. قال ابن الاثير: وكان طغتكين قد استوحش من السلطان لانه نسب اليه قتل مودود، فاتفقا على الامتناع والالتجاء الى الفرنج والاحتماء بهم فراسلا صاحب انطاكية وحالفاه، فحضر عندهما على بحيرة قدس في حمص وجددوا العهود وعاد الى انطاكية وعاد طغتكين الى دمشق.

وأرسل السلطان محمد ملكشاه (٥٠٩) عسكراً ضخماً لقتال صاحب دمشق وصاحب ماردين فعبروا الفرات من الرقة وقصدوا حلب فعصت عليهم ثم فتحوا حماة عنوة ونهبوها ثلاثة ايام ثم سلموها الى قيرخان بن قراجه صاحب حمص واجتمع بافامية طغتكين وايلغازي وملوك الفرنج صاحب انطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم وأقاموا

بافامية ينتظرون تفرق المسلمين ثم تفرق الفرنج وسار طغتكين الى دمشق وايلغازي الى ماردين ٠

وفتح المسلمون كفرطاب وقتلوا من بها من الفرنج وساروا الى المعرة ثم الى حلب فكبسهم صاحب انطاكية في الطريق فانهزموا وقتلت الفرنج في المسلمين فهرب من سلم منهم الى بلاده ٠ واستولى الفرنج على رفنية فاسترجعها منهم صاحب دمشق وقتل من بها من الفرنج ، وهادن الافضل امير الجيوش مدبر مملكة الآمر الفاطمي بغدوين صاحب القدس وكان قد أخذ قافلة عظيمة من المسلمين بالسبخة على ما مر فرأى الافضل مهادنته لعجزه عنه ٠ وجمع صاحب طرابلس (٥١٠) جموعه ونهض الى البقاع لاخرابه فخف اليه صاحب الموصل وصاحب دمشق في بعض عسكرهما ، وسارا الى البقاع والفرنج غارون في مخيمهم ، فأطلق السيف فيهم قتلاً وأسراً ففقد منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف وعاد صاحب الموصل الى بلده بعد استحكام المودة بينه وبين صاحب دمشق ، والموافقة على الاعتضاد في الجهاد ، متى حدث امر اوحزب خطب ٠

* * *

بقية الغارات

وفي العقد الثاني من القرن السادس هادن (٥١١) المتولي اعمال حلب الفرنج وودعهم وسلم اليهم حصن القبة ، وهجم الفرنج على ربض حماة وقتلوا من أهلها ، وخاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد الى نجم الدين ايلغازي فلما تسلمه لم يجد فيه مالاً ولا ذخيرة لان الخادم لؤلؤاً الذي كان مستولياً على صاحبها سلطانشاه بن رضوان كان فرق الجميع ٠ وسار طغتكين (٥١٢) عن دمشق لقتال الفرنج فنزل بين دير ايوب و كفر بصل باليرموك فخفيت عنه وفاة بغدوين ملك القدس حتى سمع الخبر بعد ثمانية عشر يوماً وبينهم نحو يومين فأتته رسل ملك الفرنج بطلب المهادنة فاقترح عليه طغتكين ترك المناصفة التي بينهم من جبل عوف والحيانية والصلت والغور فلم يجب الى ذلك واظهر القوة ، فسار طغتكين الى طبرية فنهبها وما حولها وسار منها نحو عسقلان وسلم بنو اخي القاضي

شرف الملك بن الصليعة حصن بَلاَطُنُس لروجار صاحب انطاكية فأقطعهم في اعمال اللاذقية عوضاً منه وسكنوا تحت يده ·

و برز (٥١٣) صاحب انطاكية فيمن حشده من طوائف الفرنج ورجالة الارمن في ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل سوى الاتباع الى مرمد وقيل دانيث البقل بين انطاكية وحلب وقيل تل عفرين ، فطار اليهم المسلمون بقيادة صاحبي حلب والموصل في عساكر التركمان والاكراد والعرب في عشرين الفاً ، فقتلوا الفرنج بحيث لم يفلت منهم غير من يخبر خبرهم ، وقتل ملكهم روجر وبقيت انطاكية شاغرة من حماتها ، ثم فتح المسلمون الاثارب وزردنا ·

وعاد ايلغازي الى حلب وقرر أمرها وأصلح حالها بعد ان أخربها الفرنج ونازلوها ، وكان في جملة الاسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم حملوا الى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة الف دينار فلم يقبل منهم · قال ابن الاثير في وقعة الفرنج في تل عفرين : وكانوا يظنون ان احداً لايسلك اليهم لضيق الطريق فأخلدوا الى المطاولة ، وكانت عادة لهم اذا رأوا قوة من المسلمين ·

وسار جوسلين صاحب تل باشر ليكبس بني ربيعة ، وأميرهم مرّ بن ربيعة ، فوقع بينهم قتال انتصر فيه امير بني ربيعة ، وأُسر من الفرنج عدة كثيرة · وجمع صاحب ماردين التركمان وغيرهم والتقى مع الفرنج عند دانيث البقل من بلد سرمين وجرى بينهم قتال شديد انتصر فيه صاحب ماردين وانهزم الفرنج · ووصل كندهري ملك الفرنج في المراكب ، وملك اكثر المعاقل ، ووقعت الهدنة بين صاحب حلب وبين الفرنج وتقررت المسالمة ، وقيل ان جوسلين أغار على العرب والتركمان النازلين بصفين قرب قرية جعبر على الفرات وغنم منهم وفي عوده خرب حصن بزاعة ·

وأغار كندهري على أذرعات وأطراف دمشق وكان صاحبها بالبثنية فبعث بولده بوري مع الجيش واقام هو موضعه ردءاً له فالتقوا فظهر الفرنج على بوري ، فعاد الى ابيه ودخلا دمشق ، ومضى طغتكين الى حلب مستصرخاً بنجم الدين ايلغازي وكان اول ما ملكها فأقام عنده وشرع بجمع العساكر ، واغتنمت الفرنج غيبته فقصدوا دمشق ، ووصلوا الى حوران فالتجأ اهله الى اللجاة ، فتأثرهم الفرنج الى وعرة اللجاة

فقتلوا واسروا ، ولما بلغ اهل انطاكية هذا جمعوا وحشدوا وقصدوا حلب في خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل نخرج ايلغازي وعمل كميناً ، فلما التقى الفريقان ظهر الكمين وضربوا البوقات والطبول فظنوه صاحب دمشق قادم من ورائهم، وكان نجم الدين ايلغازي اشاع ان طغتكين واصل من دمشق وما كان الا جريدة عنده فانهزم الفرنج وعمل فيهم السيف قتلاً واسراً .

وفي سنة ٥١٤ نهض الامير معن من البقاع بعشيرته ورهطه ونزل في جبل الشوف، وكان قفرا خالياً من السكان ، وجعل له مودة مع آل تنوخ امراء عرب جبل لبنان ، وكان اميرهم اذ ذاك الامير بحتر التنوخي فبنى له ولخاصته دوراً ليستعيض بها الامير معن عن المضارب واخذ يقصد بلاده اهل كل ديار استولت عليها الفرنج وبقي اميراً فيه نحو ثلاثين سنة وهو اصل الامراء آل معن واليه ينتسبون . وصار الجبل ينسب اليهم فيقال جبل بيت معن كما يقال جبل بني عوف وجبل بني هلال .

وكان بين نور الدين بلك بن أرتق (٥١٥) وبين جوسلين على الرها حرب انتصر فيها بلك وقتل من الفرنج ، وأسر جوسلين وأسر معه ابن خالته واسر جماعة من فرسانه المشهورين عند سروج وبذل جوسلين في نفسه اموالاً كثيرة فلم يقبلها بلك وسجنه واصحابه في قلعة خرتبرت وفي سنة ٥١٥ عصى سليمان بن ايلغازي بن أرتق على ابيه بحلب ، حسن له ذلك انسان من حماة من بني قرناص ، وكان قدمه ايلغازي على اهل حلب ، وبلغ ايلغازي ذلك فسار مجداً من ماردين وهجم حلب وقطع يدي ابن قرناص ورجليه وسمل عينيه ، وهرب ابنه الى طغتكين بدمشق واستناب ابن اخيه عبد الجبار وخرج صاحب حلب (٥١٦) في عسكره وقطع الفرات وصادف الفرنج فاتلف ما ظفر به في اعمالهم . وتوفي ايلغازي بن ارتق وكان بحلب ابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار فبقي فيها الى ان اخذها ابن عمه ، فسلم بدر الدولة قلعة الاثارب الى الفرنج ، فعظم ذلك على بلك بن بهرام وعلم عجزه عن حفظ بلاده فقوي طمعه في ملكها ، فسار اليها ونازلها وضايقها ومنع الميرة عنها واحرق زروعها ، فسلم اليه ابن عمه البلد والقلعة بالامان سنة ٥١٧ .

ووصل الاسطول المصري الى صور وحمل والي صور سيف الدين مسعود الى

مصر وكانت عاقبة خروجه منها خروجها بالامان من ايدي المسلمين الى الفرنج بعد سنتين . ونهض بغدوين (٥١٧) في عسكره الى ناحية حلب وصاحبها منازل حصن كركر فالتقيا بالقرب من منظرة فكسره واسره مع جماعة من وجوه عسكره واعتقله في جب قلعة خرتبرت مع جوسلين ومقدمي الفرنج الذين كان أسرهم قبل عامين واستنجد صاحبا دمشق وحلب بالخليفة الآمر في مصر فجهز اسطولاً ، وثلثاً من اربعين شينياً فيها عشرون اميراً وهدايا فسار العسكر الى يافا وأقام عليها ستة ايام ورحل عنها ، وقد تخاذل عنه ملوك الشرق ورجع الى مصر ، فوافاه الفرنج على يبنى ، فانكسر العسكر المصري من غير مصاف . وملك الامير بلك حصن البارة وأسر أسقفها . وهرب بغدوين وجوسلين وغيرهما من مقدمي الفرنج من أسر الامير بلك في خرتبرت وملكوا القلعة فاستعادها الامير من الفرنج الواثبين عليها . وهزم جيش الفرنج جيش المسلمين ، وفيهم جيش دمشق على قلعة عزاز وتفرق المسلمون بعد قتل من قتل وأسر من أسر .

وملك الفرنج مدينة صور (٥١٨) بالامان بعد حصار طويل وكانت للخلفاء العلو بين اصحاب مصر بعد ان ثبتوا نحو خمس وعشرين سنة على قتال الفرنج مع قلة النجد لهم من مصر قال ابن تغري بردي : ان سبب سقوط صور خروج سيف الدين مسعود منها ، وكان قد حمل الى مصر واقام الوالي الذي بها في البلد ، وهذه زيادة في النكاية للمسلمين من صاحب مصر فان سيف الدين المذكور كان قائماً بمصالح المسلمين ، وفعل ما فعل على الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة ، فاخذوه منها غصباً دخلوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج ، فكان حال المصريين في اول الامر انهم تقاعدوا عن نصرة المسلمين والآن بأخذهم سيف الدين من صور صاروا نجدة للفرنج . وكانت صور آخر ما ملكه الفرنج من بلاد الساحل .

وفي سنة ٥١٨ ملك آقسنقر البرسقي حلب وقلعتها وسبب ذلك ان الفرنج لما ملكوا مدينة صور ، طمعوا وقويت نفوسهم ، وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام ، واستكثروا من الجموع ثم وصل اليهم دبيس بن صدقة صاحب الحلة فأطمعهم طمعاً ثانياً لا سيما في حلب وقال لهم : ان اهلها شيعة وهم يميلون اليّ لاجل المذهب ، فمتى رأوني

سلموا البلد الي ، وبذل لهم على مساعدته بذلاً كثيرة ، وقال : انني اكون ههنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم ، فساروا معه اليها وحصروها وقاتلوا قتالاً شديداً ، ووطنوا انفوسهم على المقام الطويل ·

واخذ الفرنج في بناء بيوت لهم ظاهر حلب فعظم الامر على اهلها ، ولم ينجدهم صاحبها تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق لايثاره الدعة والرفاهة ، فكاتب اهل حلب آق سنقر البرسقي صاحب الموصل فسار اليها ، فاجفل الفرنج منهزمين ، ثم صلحت احوال حلب وعمرت اعمالها بعد ان حاصرت مدة ولقي اهلها شدة ، واكلوا الميتة ولم يكن عندهم امير وانما تولوا حفظ البلاد بانفسهم وابلوا بلاءً حسناً حسنت به العاقبة · واخذ البرسقي (٥١٩) كفرطاب من الفرنج وسار الى عزاز، فاجتمعت الفرنج لقتاله فاقتتلوا ، فانهزم البرسقي وقتل من المسلمين خلق كثير وانهزموا راجعين ادراجهم · وقصد صاحب بيت المقدس حوران للعيث فيها فخرج اليه صاحب دمشق في التركمان واحداث دمشق والغوطة والمرج واحداث الباطنية فانهزم المسلمون وتتبع الفرنج المنهزمين حتى وصلوا الى عقبة سحورا وقربوا من البلد من شرحوب مع بعد المدى · وقصدت الفرنج رفنية واستعادوها من المسلمين · واجتمع المسلمون والفرنج في مرج الصفر عند قرية شقحب من عمل دمشق واشتد القتال فانهزم صاحب دمشق والخيالة وتبعهم الفرنج ونهب بعض الجند مخيم الفرنج واثقالهم ورجع الفرنج من اثر المنهزمين ورأوا رجالتهم قتلى واموالهم منهوبة وظلوا منهزمين لا يلوي الاخ على اخيه ، وكان هذا من الغريب ان طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها ·

* * *

مزايا حكم طغتكين } كان الفرنج منذ وطئوا تراب الشام اوائل العقد الاخير من القرن الخامس الى اواخر العقد الثاني من القرن السادس يتساندون وقل ان يقع شغب بينهم ، وربما تقاتلوا ثم اجتمعوا على سلام ، وتواكلوا وتآنسوا لان موقفهم يدعوهم الى التضامن ولئن ألفوا اربع امارات متضامنة فهي امارة واحدة في الواقع ، والنجدات تأتيهم بحراً على مراكب اهل بيزة وجنوة مرة ومرتين في السنة، لتعذر قطع البحار في تلك الاعصار الا في فصل الصيف غالباً · فرجال الحملة الصليبية

الاولى هي التي كانت افتقرت البلاد ومادتها القليلة من الزوار والتجار من البحر . وملوك الشام يأتيهم المدد من مصر والعراق والجزيرة وديار بكر وديار مضر . ولو كتب لبلاد الشمال ان يكون في عاصمتها حلب رجل عاقل مثلما كتب لدمشق ان يكون فيها مثل ظهير الدين الاتابك طغتكين ، لتيسر انقاذ البلاد والاجهاز على اعدائها ، ولما استطاع الفرنج ان يجبوا اتاوة من حلب وحماة وحمص ولنجت كما نجت دمشق من ارضاء الفرنج بالمال على عهد طغتكين .

حكم طغتكين دمشق منذ سنة ٤٩٧ ، وحكمه كان في الحقيقة قبل عشر سنين من تاريخ حكومته بحسب التقاليد المعروفة ، حكمها بصورة شرعية بعد وفاة الملك دقاق بن تتش بن آب أرسلان سنة ٤٩٧ وكان خطب اولاً لابن دقاق وكان دقاق خلف طفلاً له سنة واحدة ، فقطع طغتكين خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل ، ثم قطع خطبة بكتاش وأعاد خطبة الطفل وهو آخر من خطب له بدمشق من بني سلجوق ، واستوحش بكتاش من طغتكين خوّفته والدته منه وقالت: انه زوج والدة دقاق وهي لا تتركه حتى يقتلك ويستقيم الملك لولدها ، فخاف وحسن له من كان يحسد طغتكين مفارقة دمشق وقصد بعلبك وجمع الرجال والاستنجاد بالفرنج ، وكان بكتاش في الثانية عشرة من عمره ومعه ايتكين الحلبي صاحب بصرى .

استمر طغتكين في ملك دمشق خمساً وعشرين سنة حتى مضى لسبيله سنة ٥٢٢ وكان على غاية العدل والبعد عن الظلم ، أعاد الى الرعية كثيراً من املاكهم التي اغتصبها منهم ولاة الجور ، وجرت عليها احكام المقاسمة ، وارجعها الى خراجها القديم ، واحيا الاراضي المعطلة ، وباع ما كان منها شاغراً للناس ليعمروه ، وصرف ما حصل من ثمنها في الاجناد المرتبين للجهاد فعمرت عدة ضياع وأجريت عيون ، وحسنت بايالة طغتكين دمشق واعمالها ، وعمرت البلاد بجميل سياسته وحسن تدبيره ، وكثرة احسانه ، وانبسطت الرعية في عمارة الاملاك في باطن دمشق وظاهرها ، ولذلك اشتد حزن اهل دمشق عليه ، ولم تبق منها محلة ولا سوق الا والمآتم قائمة فيه عليه . قال ابن عساكر : كان طغتكين شهماً مهيباً مؤثراً لعمارة ولايته ، شديداً

على اهل العيث والفساد . وقال آخر في وصفه : انه لا يشبه غيره من ملوك الطوائف ، وكان على شيء من التدين حتى انه لما عاون اهل صور على دفع الصليبيين سنة ٥٠٥ ولم يفوا له بما كانوا بذلوه له من تسليم البلد قال : انما فعلت مافعلت لله تعالى وللمسلمين لا لرغبة في مال ولا مملكة .

وكأن طغتكين كان مبشراً بظهور آل زنكي وآل ايوب في هذه الديار يردون حملة الغرب عن الشرق ، ويكفونها مؤونة التذبذب والتفرق ، ويجمعون كلمتها على الحق والمطالبة بالحق فتصبح مملكة برأسها ، تأتمر الاقطار المجاورة بامرها ، وتسير معها الى الغاية التي هي تنشدها من انقاذ البلاد . وكان في حذقه بسياسته كما قيل يستخدم الفضائل والرذائل في الناس كما تستخدم الطبيعة فضول الاغذية فتجعلها في اشياء تنتفع بها . ولقد اوقف طغتكين سير الصليبيين عن التوغل في احشاء البلاد ، وقصر حكمهم على الساحل وعلى انطاكية والقدس وطبرية ، ولولا قيامه ذاك القيام المحمود لفتح الصليبيون دمشق وحلب ، وكثيراً ما كانوا يغزون ربضها وضاحيتها ، واكتفى المسلمون والفرنج باضعاف قوى بعضهم بعضاً تارة ، وعقد المهادنات طوراً ، ولم تسفّ دمشق الى دفع الغرامات للصليبيين على عهد طغتكين معتبرة نفسها الأم والعاصمة اكثر من غيرها من حواضر الشام ، ولو أخذت دمشق لاستخذى الشام كله ولانقطع ما بين مصر وهذا القطر من الاتصال ، وصعب بعد ذلك اخراج الفرنج منه ، فبقاء الرابطة مع مصر من البر ومن البحر الى ان سقطت صور حصر الفرنج في بقعة معينة من بلاد الشام لا تتعدى الطريق الى بيت المقدس عن طريق الساحل .

ولو كان جميع امراء الشام على مثل سيرة طغتكين لخفت وطأة الفرنج كثيراً في هذه الثلاثين سنة ، وماذا يرجى من خير الامراء اذا كان صاحب بعلبك يطلعهم على عورات المسلمين ، وصاحب افامية يقطع السابلة وابنه يحث الفرنج على قصد بلد ابيه ، وقراجه صاحب حمص يشارك قطاع الطريق وكذلك ابنه خيرخان ، وبامثال هذه الطبقة لا تخلص الرعية ولا ينفذ سلطان البلاد الى ارواح اهلها ويتعذر على امثالهم سوق القوم الى طريق الخير وهم لا يزالون مختلفين لانهم يرون من عملهم ان يستعبدوا من صاروا اليهم وينعموا ولو باهلاكهم لا ان يحافظوا على ملك

و يدافعوا عن ذمار . ولذلك كان ظهير الدين بسياسته الحسنة مع ملوك الاطراف المرجع في الشام ، اطلق الخليفة العباسي يده فيه منذ سنة ٥٠٩ حرباً وخراجاً ، وجعل ارتفاعه على ايثاره واختياره ، لما بان من حسن بلائه وجميل سيرته في رعيته . على حين بدلت حلب عدة ملوك خلال دور ظهير الدين وكان بعضهم يتنازعون و يتفاشلون و يتقاتلون .

كانت اخبار المسلمين تصل الى بلاد الفرنج بسرعة ، والغالب ان هؤلاء برعوا في التقاط الاخبار اكثر من الذين نزلوا عليهم ، فكان الفرنج عندما يبلغهم حادث في المسلمين يغيرون خططهم الحربية و بالطبع كانوا يستخدمون لذلك أناساً من ابناء نحلتهم من الارمن وغيرهم ، وربما كان للمسلمين ايضاً شأن في ذلك طمعاً في مال او انتقاماً من سلطان ، ولعل الصليبيين وفقوا الى امساك بعض ما كان ملوك الطوائف يطيرونه من حمام الزاجل و يحلون البطائق الصادرة عن بعض الامراء والقواد فتنكشف لهم اسرار خصومهم . فقد ذكر المؤرخون ان صاحب انطاكية الصليبي ارسل الى عز الدين مسعود صاحب حلب يخبره بقتل والده قسيم الدولة آق سنقر البرسقي صاحب الموصل بيد الباطنية قبل ان يصل اليه الخبر ، وكان قد سمعه الفرنج قبل لشدة عنايتهم بمعرفة الاحوال الاسلامية .

* * *

مؤاخذة الفاطميين وتوقيف سير الفرنج

واقد آخذ المؤرخون الدولة الفاطمية على تهاونها في الغزو والجهاد حتى روى ابن تغري بردي : ان الآمر كان يتناهى في العظمة و يتقاعد عن الجهاد ، حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في ايامه ، ولئن كان وقع لابيه المستعلي ايضاً فأخذ القدس في ايامه ، فانه اهتم لقتال الفرنج وارسل بدراً الجمالي امير الجيوش بالعساكر فوصلوا بعد فوات المصلحة ، اما الآمر فانه لم ينهض لقتال الفرنج البتة ، وان كان ارسل مع الاسطول عسكراً فهو كلا شيء . قال : ولم ينهض احد من المصريين لقتال الفرنج لما دخلوا الشام فعلمت الفرنج ضعف من بمصر ، وظهر عدم اكتراث اهل مصر بالفرنج من كل وجه . الاول من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة ، والثاني لضعف العسكر

الذي ارسلوه مع اسطول مصر ، ولو كان لعسكر الاسطول قوة لدفع الفرنج عن البحر على حسب الحال ، والثالث عدم خروج الوزير الافضل بن امير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان فعل والده بدر الجمالي في اوائل الامر ، هذا مع قوتهم من العساكر والاموال والاسلحة .

ويغلب على الظن ان الفاطميين دهشوا لغزو الفرنج الشام ولم يريدوا ان يثيروا حفائظهم لئلا يحصروا وكدهم بفتح دار ملكهم ، وفتح مصر اسهل من الشام ، لانها سهول ليس فيها حصون طبيعية ، وافضل للبيت العلوي ان تبقى له البلاد المصرية ولو ذهب الشام بما فيه ، ولذلك كان الفاطميون ينجدون الشام في الاحايين لاول عهد دخول الفرنج اليه انجاداً ضعيفاً ، واكثر نجداتهم وحملاتهم لم تثمر الثمرة المطلوبة بل خففت جزءاً صغيراً من الشر الى مدة معينة ، وقوّى ذلك قلوب بعض اهل البلاد المحصورة ، ونفّس خناقهم ، واوهمهم ان وراءهم قوة الفاطميين عند مسيس الحاجة يستصرخون بها فتنجدهم . والحقيقة ان الفاطميين على قوتهم من العَدَد والعُدَد لم يستطيعوا ان يذبوا حقيقة عن عسقلان ولا عن صور وصيدا وبيروت وطرابلس دع البلاد الاخرى ، واذا عرفنا ان الدولة الفاطمية كانت في اواخر ايام ضعفها هان علينا ان لا نطلب منها ان تعمل عمل الشباب .

وقد انجدت الدول المجاورة الشام نجدات مهمة على بعد المدى وقلة المواصلات والصلات . وابلى جند التركمان والاكراد مع عرب الشام والموصل البلاء الحسن في هذا السبيل ، ولكن كانت القوى القادمة على البلاد عظيمة جداً لا قبل لهم بدفعها ، فكان موقف المسلمين على الاغلب موقف المدافع لا المهاجم ، وكان لامراء التركمان في هذا الدور غيرة شديدة في الجهاد ولم يكن داخلهم الفساد الذي يدخل على البيوت والدول ، ولو كانت الآراء متجهة الى مقصد واحد لاستطاع المسلمون ان يدفعوا الفرنج عن هذا القطر على كثرة جيوشهم الجرارة لاول نزولهم قبل ان يتأصلوا فيه ، ويطلعوا على مبلغ قوات امرائه ، ونقلوا بحكم المجاورة ما كان ينقصهم بالطبع من اصول الحرب وبعض الصنائع واعمال المدنية التي وجدوها في الشام يومئذ على حصة موفورة ، فاقتبسوها ونقلوها بعد الى اممهم غنيمة نافعة من بلاد الشرق .

وقد حرص الفرنج ان يستولوا على قرى حلب والبقاع وحوران والسواد والبلقاء في الاكثر لينتفعوا بغلاتها لان معظم القرى في فلسطين كانت ساحات حرب لا تقوم باطعام جيوشهم . وكان الفرسان في حصون الفرنج يملكون القرى ويجبون الاموال من اهلها الاصليين ، ويسلبون قوافل المسلمين ، قال في التاريخ العام : كانت الحرب في الشرق كما في الغرب تجارة رابحة ، يقوم فرسان الفرنج ويغزون بلاد المسلمين ، وينهبون القري ويخطفون السكان ويأخذونهم اسرى ويضطرونهم الى ان يفتدوا انفسهم .

وعلى الجملة فان امراء المسلمين في هذا الدور لم يتلكأوا في الحقيقة عن تخفيف بلاء المهاجمين عن الشام ، وقاتلوا فانهزموا وهزموا ، وطاولوا وراوغوا ، وهادنوا وعاهدوا ، وقاربوا وساددوا . ولكن الشام والجزيرة ، ومعها العراق ومصر على قلة ، لا تستطيعان دفع جيش مؤلف من اكثر امم اوربا ، ومتى كانت قوة قطر صغير ، توازي قوى قارة كبيرة ، ومن اين لامراء صغار لا تربطهم رابطة محكمة ، ان يقفوا في وجوه ملوك من ورائهم قوة البابارية ، وناهيك بها من قوة في ذاك العصر .

انتهى الجزء الاول من خطط الشام
ويليه الجزء الثاني واوله الدولة النورية

فهرس الجزء الاول

« من خطط الشام »

صفحة



بيان

